



عناصر الموضوع

المجلد الرابع عشر

مفهوم الخشية

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (خشي) على خوفٍ وذعرٍ، فالخشية الخوف. ورجلٌ خشيان. وخاشاني فلانٌ فخشيته، أي: كنت أشّد خشيةً منه[1].

«والخشية: الرجاء، وبه فسّر حديث ابن عمر: قال له ابن عباس: لقد أكثرت من الدعاء بالموت حتى خشيت أن يكون ذلك أسهل لك عند نزوله، أي: رجوت»[2].

وجاءت بمعنى علمت، في قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾ [الكهف:٨٠] أي: فعلمنا[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«الخشية هي تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل»[4].

وقيل هي: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون على علم بما يخشى منه.

«وأصل الخشية خوف من تعظيم، ولذلك خص بها العلماء في آية: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]»[5].

فالمعنيان: اللغوي والاصطلاحي متوافقان؛ إذ كلاهما يدوران حول الخوف إلا أن المعنى الاصطلاحي خص بالخوف من الله.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٢٨٤، تهذيب اللغة، الأزهري ٧/ ١٩٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٨٤، مختار الصحاح، الرازي ص٩١.

(٢) تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٢٨٣، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٣٧.

(٣) انظر: معاني القرآن، الفرّاء ٢/ ١٥٧، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٥/ ٢٤١.

(٤) التعريفات، الجرجاني ١/ ٩٨.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨٣، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٥٥.



الخشية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خشي) في القرآن الكريم (٤٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء:٢٥]
الفعل المضارع	٢٩	﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنبياء:٤٩]
فعل الأمر	٥	﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣]
المصدر	٨	﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء:٣١]

وجاءت الخشية في القرآن بمعناها اللغوي وهو: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٣٣-٢٣٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨٣، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ١/ ٥٠٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٤٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخوف:

الخوف لغةً:

الخاء والواو والفاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على الذّعر والفزع[١].

الخوف اصطلاحًا:

قال الرّاغب: «الخوف: توقّع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، ويضادّه الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدّنيويّة والأخرويّة»[٢].

ويقول الجرجانيّ: «الخوف توقّع حلول مكروه أو فوات محبوب»[٣]. وقيل: اضطراب القلب وحركته من تذكّر المخوف، وقيل: فزع القلب من مكروه يناله أو من محبوب يفوته»[٤].

الصلة بين الخشية والخوف:

الخشية أشد من الخوف؛ لأنّها مأخوذة من قولهم: شجرة خاشية: أي يابسة، وهو فوات بالكلّيّة، والخوف: النّقص، ولذلك خصت الخشية بالله، والخشية تكون من عظم المَخْشِيّ وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا[٥].

٢ الوجل:

الوجل لغة:

«الوجل خلاف الطّمأنينة، وجل الرجل يوجل وجلًا، إذا قلق ولم يطمئن»[٦].

الوجل اصطلاحًا:

«الوجل استشعار الخوف عن خاطر غير ظاهر وليس له أمارة»[٧]، كذلك نجدها في كتاب الله تعالى تستعمل في سياق أخص من الخوف، وهو حالة نفسية تعرض للنفس عند

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٣٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٣.
(٣) التعريفات، الجرجاني، ص ١٠١.
(٤) دليل الفالحين، البكري ٤/ ٢٨٣.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ١/ ٤٢٨.
(٦) المصدر السابق ص ٢٤٣.
(٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٤.

بداية شيء ما[1].

الصلة بين الخشية والوجل:

قال السعدي رحمه الله: «الخوف، والخشية، والخضوع، والإخبات، والوجل معانيها متقاربة، فالخوف يمنع العبد من محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك، وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله، وأما الخضوع، والإخبات، والوجل، فإنها تنشأ عن الخوف، والخشية، فيخضع العبد لله، ويخبت إلى ربه منيبًا إليه بقلبه، ويحدث له الوجل»[2].

٣ الشفقة:

الشفقة لغةً:

أشفقت من الأمر، إذا رقفت وحاذرت[3]، وهي« صرف الهمة إلى إزالة المكروه عن الناس»[4]. شفق: الشَّفق والشَّفقة: الاسم من الإشفاق. والشَّفق: الخيفة[5].

الشفقة اصطلاحًا:

الشفقة هي ضرب من الرقة وضعف القلب ينال الإنسان، وهي عناية مختلطة بخوف[6].

«الإشفاق رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة، فإنها ألطف الرحمة وأرقها»[7].

الصلة بين الخشية والشفقة:

«إن الشفقة ضرب من الرقة وضعف القلب ينال الإنسان ومن ثم يقال للأم إنها تشفق على ولدها، أي: ترق له، وليست هي من الخشية والخوف في شيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ [المؤمنون:٥٧].

ولو كانت الخشية هي الشفقة لما حسن أن يقول ذلك، كما لا يحسن أن يقول يخشون من خشية ربهم»[8].

---

(١) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٦٥.
(٢) تيسير اللطيف المنان ٢/ ٣٦٢.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ص٣١٧.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٢٧.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٧٩.
(٦) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٣١.
(٧) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١٤.
(٨) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٤١.

٤ الرهبة:

الرهبة لغة:

رهب: خاف رَهْبَةً ورُهْبًا. ورجلٌ رَهَبوتٌ، أي: مرهوبٌ، يقال: رَهَبُوتٌ خيرٌ من رحموتٍ. أي: لأن تُرْهَب خيرٌ من أن تُرْحَم[١].

الرهبة اصطلاحًا:

الرهبة: هي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي مخافة مع تحرز واضطراب، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه[٢].

الصلة بين الخشية والرهبة:

الرهبة خوف وانزعاج من مكروه، والخشية خوف وسكون في محل الأمل، مقرون بمعرفة[٣].

(١) مختار الصحاح، الرازي ١/ ١٣٠.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣٦٦، مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥٠٨.
(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥٠٨.

أنواع الخشية

تنقسم الخشية إلى أنواع، منها فطرية خارج التكليف يولد بها الإنسان، مثل: الخوف من الوحوش، ومن الموت، والمجهول، ومنها الخشية المحمودة التي تكون من الله، فتمنع صاحبها من الوقوع في المعاصي، أما الخشية المذمومة التي تكون من الناس، فتجعل صاحبها يقع في المحظورات، وتكون خشيته من الناس أشد من خشيته من الله، وهذا لا يفيده بشيء؛ لأن الله تعالى بيده الخير والنفع وليس البشر، مثل: الخشية من كساد التجارة، والخشية من الفقر، ومن الأعداء، ومن المخالفين، وهذه الخشية مذمومة تودي بصاحبها للتعرض لسخط الله، وعدم توفيقه له، ويكون في الدنيا والآخرة من الهالكين الخاسرين إن لم يتب.

الخشية الفطرية:

الخشية الفطرية تكون: كالخشية من الثعبان أن يلدغه، أو السقوط من مكان مرتفع، أو الخشية من شخص يحمل سكينًا، أو من الزلازل والبراكين، أو الخشية من غضب الوالد أو عقابه، فهذا شيء طبيعي سببي لا يأثم عليه الإنسان؛ لأنه خارج التكليف، فالخشية من الحيوانات الضارية المتوحشة مثل الذئب، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الخشية الفطرية في نفس يعقوب عليه السلام.

ومن الآيات التي تدل على الخشية الفطرية:

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف:١٣].

ذكر ابن كثير: «وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيتكم، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون»[(١)]. وهذا أمر طبيعي خوف الوالد على أبنائه، وكذلك الحاكم على شعبه.

«ولو خافهم لما أرسله معهم، وإنما خاف الذئب؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصحاري»[(٢)].

«اعتذر إليهم بأن ذهابهم به مما يحزنه؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة؛ وأنه يخشى عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم»[(٣)]. فهو كان يخاف عليه من إخوته بعدما قص عليه الرؤيا ولكنه لم يصرح لهم.

«إن نبي اللّه يعقوب كان ينطق بفطرة الأبوة المحبة، وهو خوفه من أن يأكله الذئب، وهم عنه غافلون»[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِي

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٧٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٤٠.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٩٨.
(٤) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٨٠٨.

﴿عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧﴾ [يوسف:٦٧].

«فإنه خاف من العين عليهم، والعين حق، أي: أنها سبب حق في الظاهر قد تؤدي إلى الضرر، ولكن بإذن الله وإرادته»[(١)].

وهذا لا ينافي كونه نبيًّا، فالحسد أمر مفروغ منه ولابد من الأخذ بأسباب السلامة.

«يا أولادي لا تدخلوا مصر من باب واحد ولكن ادخلوها من أبواب متفرقة حتى لا يحسدكم حاسد أو يكيد لكم كائد فيحل بكم مكروه»[(٢)].

أراد أن يأخذ بالأسباب، فطلب منهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، لحاجة في نفسه الله أعلم بها، لكن بعض المفسرين أخذها على محمل الخشية من الحسد والله أعلم.

«وقال السدي: أراد الطرق لا الأبواب، يعني: من طرق متفرقة، وإنما أمرهم بذلك؛ لأنه خاف عليهم العين؛ لأنهم كانوا قد أعطوا جمالًا وقوة وامتداد قامة وكانوا أولاد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم المدينة؛ لئلا يصابوا بالعين فإن العين حق، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم:٥].

ذكر ما يخشاه، وعرض ما يطلبه، إنه يخشى من بعده، يخشاهم ألا يقوموا على تراثه بما يرضاه، وتراثه هو دعوته التي يقوم عليها، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين، وأهله الذين يرعاهم، ومنهم مريم التي كان قيمًا عليها وهي تخدم المحراب الذي يتولاه، وهو يخشى الموالي من ورائه على هذا التراث كله، ويخشى ألا يسيروا فيه سيرته[(٤)].

رأى أن قومه كانوا مهملين لأمر الدين، فخاف أن يضيع الدين بموته، فطلب وليًّا يقوم به بعد موته[(٥)].

قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣﴾ [مريم:٢٣].

قالت مريم: يا ليتني مت قبل هذا الوقت، وتمنت الموت؛ لأنها خافت أن يظن بها السوء في دينها، أو لئلا يقع قوم بسببها في البهتان[(٦)]. وهذا أمر طبيعي خوف الإنسان على سمعته وسمعة أهله وشرفهم، وكان ما قالته وهي تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفًا من لائمتهم أو حذرًا من

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣/ ٣٥.
(٢) التفسير الواضح، محمد الحجازي ٢/ ١٩٢.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٤٠.
(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ١٦٢.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٨٠.
(٦) انظر: المصدر السابق ٣/ ٣٣٨.

وقوع الناس في المعصية بما تكلموا فيها أو جريًا على سنن الصالحين عند اشتداد الأمر عليهم[١].

وذكر بأنها تمنت الموت؛ خشية الاتهام الظالم، وهي البريئة الطاهرة التي اصطفاها رب العالمين[٢].

وقالت استحياء من الناس: يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، فاشتد بها الأمر هنالك، واحتضنت الجذع؛ لشدة الوجع، وولدت عيسى عليه السلام، فقالت عند ولادتها لما رأته من الآلام والتغرب وإنكار قومها وصعوبة الحال من غير ما وجه: يا ليتني مت قبل هذا. وتمنت مريم الموت من جهة الدين؛ إذ خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيغبنها ذلك، وهذا مباح[٣].

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].

فلما حملت أم موسى به، عليه السلام، لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفطن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكرًا ضاقت به ذرعًا، وخافت عليه خوفًا شديدًا، وأحبته حبًّا زائدًا، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه، وأُلهمت في سرها، وأُلقي في خلدها، ونفث في روعها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].

وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتًا، ومهدت فيه مهدًا، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر، فذهب مع الماء واحتمله، حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجواري فاحتملنه، فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها[٤].

وها هي ذي أمه حائرة به، خائفة عليه، تخشى أن يصل نبأه إلى الجلادين، وترجف أن تتناول عنقه السكين. ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة، عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه، عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينم عليه عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة.. ها هي ذي وحدها ضعيفة

(١) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ١٢.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٩/ ٤٦٢٧.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٥٢.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٢.

عاجزة مسكينة. هنا تتدخل يد القدرة، فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة، وتلقي في روعها كيف تعمل، وتوحي إليها بالتصرف ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة تتلقى الإيحاء المطمئن المبشر المثبت المريح، وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور بردًا وسلامًا[(١)].

ثانيًا: الخشية الممدوحة:

إن القلوب لا تحيا إلا بقربها من الله تعالى والخشية منه، حيث إن الخشية تكون سببًا لبعد الإنسان عن المعاصي، ونجاته من النار، والفوز بالنعيم والراحة في الدنيا والآخرة، ومن أنواع الخشية الممدوحة:

١ . الخشية من الله تعالى.

الخشية من الله أعلى مراتب الإيمان، حيث إن الإنسان يبلغ مرتبة الإحسان حين يعبد الله كأنه يراه، ويشعر بمراقبة الله له في كل لحظة، وكلما تمكنت الخشية من القلب كان الإنسان لله أعبد، وكان مراقبًا لله في السر والعلن، وفي الغيب والشهادة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء:٤٨-٤٩].

قال ابن رجب: «فأما خشية الله في الغيب والشهادة، فالمعني بهما: أن العبد يخشى الله سرًّا وعلانيةً، وظاهرًا وباطنًا، فإن أكثر الناس يرى أنه يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن في خشية الله في الغيب إذ غاب عن أعين الناس، وقد مدح الله من يخافه بالغيب»[(٢)].

٢ . خشية العذاب الدنيوي والأخروي.

الخشية من الله تعالى تجعل الإنسان دائم الذكر لله تعالى، مبتعدًا عن ارتكاب المعاصي و المحرمات، حريصًا على عمل الخير، مبادرًا في الأعمال الصالحة، مسرعًا في التوبة والرجوع إلى الله تعالى، خشيةً من العقاب وطلبًا للنجاة من النّار وطمعًا في الجنة، بينما الذين لا يخشون الله تعالى نجد قلوبهم متعلقة بحب الدنيا وزخارفها، لا يلقون بالًا للعبادات والأعمال الصالحة التي ترضي الله عنهم، ويعيشون وقلوبهم بعيدة عن الله، نسأل الله السلامة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد:٢١].

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، «خشية جلالٍ وهيبة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٧٩.

(٢) الجامع لتفسير ابن رجب ١/ ٧٠٢.

ورهبة فلا يعصونه فيما أمر به»[1].

٣. الخشية من الوقوع في الفاحشة.

يجوز للمسلم أن يعدد بشرط العدالة، كذلك أباح الله تعالى تعدد الزوجات إذا كانت الزوجة مريضة أو عقيمًا أو إذا خشي على نفسه الوقوع في الفاحشة.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء:٢٥].

قال أبو الليث السمرقندي: «وهو رخصة نكاح الأمة ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ يعني الإثم في دينه»[2].

«﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي: لمن خاف وقوعه في الإثم الذي تؤدي إليه غلبة الشهوة، وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر يعتري الإنسان، ولا ضرر أعظم من مواقعته المآثم بارتكاب أفحش القبائح، وقيل: أريد به الحد؛ لأنه إذا هويها يخشى أن يواقعها فيحد، والأول هو اللائق بحال المؤمن دون الثاني؛ لإبهامه أن المحذور عنده الحد لا ما يوجبه»[3].

٤. الخشية من التقصير في الاسترشاد إلى الحق.

كلما تمكنت الخشية من قلب الإنسان كلما كان أشد خشية من التقصير في جنب الله، فيكون دائمًا يقظًا محاسبًا لنفسه خوفًا من العذاب والعقاب.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس:١١].

«﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ما غاب من عذابه وناره، قاله قتادة. وقيل: أي: يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وانفراده بنفسه. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذنبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: الجنة»[4].

٥. الخشية من محبة الذرية المضرة.

أحيانًا يكون المال والولد فتنة شديدة للإنسان، فربما يرده عن دينه أو يرتكب جريمة، أو يظلم أحدًا، أو يسرق بسبب توفير الأموال لأبنائه.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٧.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٢٦٩.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٦٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١١.

[الكهف:٨٠].

﴿فَخَشِينَآ﴾ أي: خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه. وقيل: معناه: فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه على دينه.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ [الكهف:٨١]. الإبدال: رفع الشيء ووضع آخر مكانه ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي: صلاحًا وتقوى[1].

وقال البيضاوي: «أو يعديهما بعلته فيرتدا بإضلاله، أو بممالأته على طغيانه وكفره حبًّا له»[2].

٦. الخشية من التفرق والتشرذم.

في الاتحاد قوة وفي التفرق ضعف، لذا ينبغي على المسلمين أن يكونوا متحدين على كلمة الحق (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) خشية أن يتسلل الخور إلى صفوفهم، ويصبحوا أحزابًا وشيعًا، فيطمع بهم عدوهم ويصبحوا لقمة سائغة ويستبيح بيضتهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ۝٩٤﴾ [طه:٩٤].

«يعني خشيت إن فارقتهم واتبعتك أن يصيروا أحزابًا فيتقاتلون، فتقول: فرقت بني إسرائيل ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾، يعني: لم تحفظ وصيتي حين قلت لك: اخلفني في قومي، أصلح وأرفق بهم»[3].

ثالثًا: الخشية المذمومة:

١. الخشية من الناس.

قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٠].

«أي: لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين، وأفردوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه»[4].

وقال أبو حيان: «ونهى عن خشيتهم فيما يزخرفونه من الكلام الباطل، فإنهم لا يقدرون على نفع ولا ضر، وأمر بخشيته هو في ترك ما أمرهم به من التوجه إلى المسجد الحرام»[5].

قال تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

«أي: تخفي ما سيبديه الله وتخشى الناس من إبدائه. والخشية هنا كراهية ما يرجف به المنافقون، والكراهة من ضروب

(١) انظر: لباب التأويل ٣/ ١٧٤.
(٢) أنوار التنزيل ٣/ ٢٩٠.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢١١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٦٤.
(٥) البحر المحيط ٢/ ٤٣.

الخشية»[1].

٢. الخشية من الأعداء.

قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة:١٣].

«في الآية إيماء إلى أن المؤمن يجب أن يكون أشجع الناس وأعلاهم همة ولا يخشى إلا الله»[2].

وقال أبو بكر الجزائري: «أتتركون قتالهم خشية منهم وخوفًا إن كان هذا ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لأن ما لدى الله تعالى من العذاب ليس لدى المشركين فالله أحق أن يخشى»[3].

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣].

«إن الكافرين من المشركين وغيرهم قد يئسوا من أن يردوكم عن دينكم كما كان ذلك قبل فتح مكة ودخول ثقيف وهوازن في الإسلام، وظهوركم عليهم في كل معركة دارت بينكم وبينهم؛ إذًا فلا تخشوهم بعد الآن أن يتمكنوا من قهركم وردكم إلى الكفر واخشوني أنا بدلهم، وذلك بطاعتي وطاعة رسولي ولزوم حدودي والأخذ بسنتي في كوني حتى لا تعرضوا لنقمتي بسلب عطائي، فإن نصرتي لأهل طاعتي وإذلالي لأهل معصيتي»[4].

٣. الخشية من الفقر.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء:٣١].

«وذلك أن أهل الجاهلية، كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة أو يخافون عليهم من النهب والغارات، أو أن ينكحوهن لغير أكفاء لشدة الحاجة وذلك عار شديد عندهم، فنهاهم الله عن قتلهن، وقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، يعني: أن الأرزاق بيد الله؛ فكما أنه فتح أبواب الرزق على الرجال فكذلك يفتحه على النساء»[5]. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء:١٠٠].

«قيل: لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفقر»[6].

على الإنسان أن يتوكل على الله مع الأخذ بالأسباب فهو الرزاق لا تنفد خزائنه سبحانه.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٣٤.
(٢) تفسير المراغي ١٠/ ٦٨.
(٣) أيسر التفاسير ٢/ ٣٤٦.
(٤) أيسر التفاسير ١/ ٥٩١.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٢٩.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١٣٣.

٤ . الخشية من المخالفين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النساء:٧٧].

«وذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كانوا بمكة استأذنوا في قتل كفار مكة سرًّا، لما كانوا يلقون منهم من الأذى، فقال لهم النبيّ صلّى الله عليه وسلم: مهلًا كفوا أيديكم عن قتالهم وأقيموا الصلاة فإني لم أؤمر بقتالهم، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أمره الله تعالى بالقتال، فكره بعضهم فنزلت هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أتموها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني: أقروا بها وأعطوها إذا وجبت عليكم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فرض عليهم القتال بالمدينة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ أي: يخشون عذاب الكفار ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: كخشيتهم من عذاب الله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي: بل أشد خشية، ويقال: معناه أو أشد خشية، يعني: أكثر خوفًا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ أي: لم فرضت علينا القتال؟! ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا﴾ أي: يقولون: هلاّ أجلتنا ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وهو الموت، فبيّن الله تعالى لهم أن الدنيا فانية، فقال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي: منفعة الدنيا قليلة؛ لأنها لا تدوم»[1]. الخشية التي لا تكون من الله، أو لله، مذمومة ربما تنقص من إيمان صاحبها، وربما تؤدي إلى انضمامه لقائمة المتصفين بالنفاق والكفر والعياذ بالله.

٥ . الخشية من كساد التجارة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٢٤﴾ [التوبة:٢٤].

«﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ يعني: اكتسبتموها بمكة، ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ يعني: تخشون أن تبقى عليكم فلا تنفق»[2].

«وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ قولان: أحدهما: أنه فتح مكة، قاله مجاهد والأكثرون، ومعنى الآية: إن كان المقام في أهاليكم، وكانت الأموال التي اكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ لفراقكم بلدكم ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ

(١) تفسير السمرقندي ١ / ٣١٩.
(٢) المصدر السابق، ٢ / ٤٨.

﴿إِلَيْكُمْ﴾ من الهجرة، فأقيموا غير مثابين، حتى تفتح مكة، فيسقط فرض الهجرة. والثاني: أنه العقاب، قاله الحسن»[1].

٦. الخشية على الأولاد بعد موت العائل.

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء:٩].

«أمر للأوصياء بخشية الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم، أو للحاضرين المريض عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم، أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم فلا يتركوه يضرّ بهم بصرف المال عنهم، أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافًا مثلهم هل يجوزون حرمانهم، أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية ولو بما في حيزه»[2]. و«كما كنتم تخشون على ورثتكم وذريتكم بعدكم، فكذلك فاخشوا على ورثة غيركم وذريتهم»[3].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٤٥.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي،٢/ ٦٢.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ١٤.

أسباب الخشية

للخشية أسباب عدة، تختلف باختلاف نوع الخشية، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: أسباب الخشية الممدوحة:

١. تعظيم الله تعالى.

الخشية من الله تكون مرتبطة بتعظيم الله سبحانه وتعالى، فالخاشي لله تكون خشيته نابعة من تعظيمه لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء:٢٨].

«﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لا تخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا، وهو كالعلة لما قبله والتمهيد لما بعده، فإنهم لإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراقبون أحوالهم. ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ أن يشفع له مهابة منه، ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ عظمته ومهابته ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتعدون، وأصل الخشية خوف مع تعظيم ولذلك خص بها العلماء»[4].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد:٢١].

وذكر أبو حفص الحنبلي أن معنى قوله: «﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أنّ العبد، وإن قام بكلّ

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٥٠.

ما جاء عليه من تعظيم الله، والشفقة على خلق الله إلا أنه لا بد وأن تكون الخشية من الله عزّ وجلّ والخوف منه مستويان، ثم ذكر أن الخوف: هو مخافة الهيبة والجلال والتعظيم»[1].

«﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خشية جلالٍ وهيبة ورهبة فلا يعصونه فيما أمر به»[2].

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. «أي: من شأنه، وعظمته»[3].

٢. العلم.

لقد مدح الله العلماء وخصهم بخشيته، وذلك لأنهم عارفون بالله تعالى؛ بأسمائه وصفاته وقدرته.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة، قال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل.

وقال مسروق: كفى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار جهلًا، فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له.

قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم.

وقال الشعبي: العالم من خاف الله[4].

«وقال ابن عباس في تفسير الآية: كفى بالزهد علمًا. وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علمًا، وبالاعتذار جهلًا. وفي الحكم: خير علم ما كانت الخشية معه، وقال في التنوير: اعلم أن العلم حيثما تكرر في الكتاب والسنّة فإنما المراد به العلم النافع، الذي تقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، بيّن سبحانه أن الخشية تلازم العلم، وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية»[5].

٣. النجاة من العذاب في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: ٢١].

«ويخشون ربهم وعيده عمومًا. ويخافون سوء الحساب خصوصًا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا»[6].

وقال سيد قطب: «فهي خشية الله ومخافة العقاب الذي يسوء في يوم لقائه الرهيب. وهم أولو الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب»[7].

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب ١١/ ٢٩٤.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٧.
(٣) فتح القدير ٥/ ٢٤٦.
(٤) انظر: المصدر السابق ٤/ ٣٩٩.
(٥) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٥٣٧.
(٦) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٨٦.
(٧) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧٥.



وقال أبو بكر الجزائري: «أي: خافه فلم يعصه وهو لا يراه، كما لم يعصه عندما يخلو بنفسه ولا يراه غيره، فمثل هذا بشره بمغفرة منا لذنوبه، وأجر كريم على صالح عمله؛ وهو الجنة دار المتقين»[1].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ [عبس:٨-٩].

«جاءك مسرعًا يجري وراءك يناديك بأحب الأسماء إليك: يا رسول الله، والحال أنه يخشى الله تعالى ويخاف عقابه؛ فلذا هو يطلب ما يزكي به نفسه ليقيها العقاب والعذاب»[2].

٤ . الرغبة في المغفرة والثواب.

الهدف الأسمى الذي يسعى إليه المسلمون، هو نيل رضا الله سبحانه وتعالى والفوز بجنته، وذلك يتأتى بإذن الله لمن شاء فهو غفار الذنوب، والمكافئ بالثواب الجزيل.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس:١١].

معنى ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: خاف عقابه وهو غائب عنه، أو خافه في سريرته ولم يغتر برحمته؛ فإنه منتقم قهار

(١) أيسر التفاسير ٤/ ٣٦٧.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٥١٨.

كما أنه رحيم غفار[3].

فبشر من اتبعك وانتفع بك بمغفرة واسعة وجنة عرضها السماوات والأرض، وبأجر على ذلك كريم[4].

﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ خاف عقابه قبل حلوله ومعاينة أهواله، أو في سريرته ولا يغتر برحمته؛ فإنه كما هو رحمن، منتقم قهار. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[5].

ثانيًا: أسباب الخشية المذمومة:

١ . ضعف الإيمان.

ضعيف الإيمان يخلو قلبه من الخشية، فتجده لاهيًا في صلاته أو مضيعًا لها، قاسيًا في معاملته للآخرين، فالمؤمن الذي يخشى الله يكون حريصًا على كسب رضا الله، رحيم القلب، قلبه وجلًا من خشية الله، فهو يرى ذنبه كالجبل فيداوم على الذكر والاستغفار، بينما ضعيف الإيمان والمنافق دائم الطمأنينة، قاسي القلب، لا يوجل ولا يخشى الله، تكون خشيته من الناس وليس من الله، وذلك بسبب جهله وعدم معرفته بقدر الله وعظمته وجلاله سبحانه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم ٧/ ١٦١، تفسير المراغي ٢٢/ ١٤٥.
(٤) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي ٣/ ١٧٦.
(٥) أنوار التنزيل ٤/ ٢٤٦.

أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ [النساء:٧٧].

قال المراغي: الخطاب لجماعة المسلمين وفيهم المنافقون والضعفاء، أمرهم الله بحقن الدماء وكف الأيدي عن الاعتداء، وإقامة الصلاة والخشوع لله، وإيتاء الزكاة التي تمكن الإيمان في القلوب، وتشد أواصر التراحم بين الخلق، وقد كانوا من قبل ذوي إحن وأحقاد وتخاصم وتلاحم وحروب مستمرة.

فلما جاء الإسلام أحبوا أن يكتب عليهم القتال ليسيروا على ما تعودوه، ولكن حين كتب عليهم كرهه الضعفاء منهم وخافوا أن يقاتلهم الكفار وينزلوا بهم النكال والوبال، كما خافوا أن ينزل الله بهم بأسه وعقابه، بل رجحوا خوفهم من الناس على خوفهم من الله، وقالوا: ربنا لماذا كتبت علينا القتال في هذا الوقت؟

هلا أخرتنا حينًا من الدهر نموت حتف أنوفنا موتًا طبيعيًّا، فبيّن الله تعالى أن طلبهم للإنظار إنما هو خشية الموت والرغبة في متاع الدنيا ولذاتها، مع أن كل ما يتمتع به في الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى متاع الآخرة؛ لأنه محدود فان، ومتاع الآخرة كثير باق ولا يناله إلا من اتقى الله وابتعد عن الأسباب التي تدنس النفس بالشرك والأخلاق الذميمة، فحاسبوا أنفسكم واعلموا أنكم ستجزون بأعمالكم، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر[1].

٢ . محبة الذرية.

من الناس من يفني حياته في سبيل توفير الراحة والحياة الرغيدة لأولاده، فيجتهد في كنز الأموال ويصبح الشح والبخل صفة ملازمة له، وينسى أن يقدم لآخرته ببذل الصدقات ولو بأقل القليل، كذلك يخشى على نفسه الموت، فيتقاعس عن الجهاد في سبيل الله، وذلك نتيجة جهلهم أن أولادهم وأموالهم لا تغني عنهم من الله شيئًا، وأن الأعمار والأرزاق بيد الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المجادلة:١٧].

كان عبد الله بن أبي ابن سلول مهيأ لأن يملكوه على المدينة قبيل إسلام الأنصار، فكانوا يفخرون على المسلمين بوفرة الأموال وكثرة العشائر وذلك في السنة الأولى من الهجرة، ومن ذلك قول عبد الله بن أبي ابن سلول: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ

(١) انظر: تفسير المراغي ٥/ ٩٥.

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون:٨].

يريد بالأعز فريقه وبالأذل فريق المسلمين، فآذنهم الله بأن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم مما توعدهم الله به من المذلة في الدنيا والعذاب في الآخرة»[1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٤﴾ [التوبة:٢٣-٢٤].

نجد في الآيات تحذيرًا من العلائق التي قد تفضي إلى التقصير في القيام بواجبات الإسلام، ومن الأسباب التي تتعلق بها نفوس الناس فيحول تعلقهم بها بينهم وبين الوفاء ببعض حقوق الإسلام، فلذلك ذكر الأبناء هنا؛ لأن التعلق بهم أقوى من التعلق بالإخوان.

ثم تحذير من التهاون بواجبات الدين مع الكناية عن جعل ذلك التهاون مسببًا على تقديم محبة تلك العلائق على محبة الله، وفيه إيقاظ إلى ما يؤول إليه ذلك من مهواة في الدين.

وهذا من أبلغ التعبير، وجعل التفضيل في المحبة بين هذه الأصناف وبين محبة الله ورسوله والجهاد؛ لأن تفضيل محبة الله ورسوله والجهاد يوجب الانقطاع عن هذه الأصناف، فإيثار هذه الأشياء على محبة الله يفضي موالاة إلى الذين يستحبون الكفر، وإلى القعود عن الجهاد، ووصفهم الله تعالى حين تقاعسهم بالفاسقين[2].

٣. حب الدنيا.

إنّ حب الدنيا وتقديمها على الآخرة من أعظم البلايا التي تصيب الأمة في دينها ودنياها، والناظر إلى تاريخ الأمة يجد أنّه لا يمكن أن تستباح أراضيها وأعراضها وحرماتها إلا عندما تتخلى عن دينها، ولا تتخلى عن دينها إلا إذا رغبت في دنياها.

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٢١﴾ [القيامة:٢٠-٢١].

«كلا: معناه حقًّا، أي: حقًّا تحبون العاجلة وتذرون الآخرة، أي: أنهم يحبون الدنيا ويعملون لها، ويتركون الآخرة ويعرضون عنها»[3].

قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

«قوله عز وجل: بل تؤثرون الحياة الدنيا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٥١.

(٢) انظر: المصدر السابق، ١٠/ ١٥٠.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٧٣٠.

والآخرة خير وأبقى، يعني: أن الدنيا فانية والآخرة باقية، والباقي خير من الفاني، وأنتم تؤثرون الفاني على الباقي»[1].

٤ ـ النفاق.

قال الجرجانيّ: النّفاق: «إظهار الإيمان باللّسان وكتمان الكفر بالقلب»[2].

والنفاق كالكفر والشرك والفسق، على مراتب ومنه ما هو مخرج من الملة، وهو النفاق الاعتقادي، ومنه ما ليس مخرجًا من الملة، وهو النفاق العملي.

قال ابن رجب: ومن أعظم خصال النّفاق العمليّ، أن يعمل الإنسان عملًا ويظهر أنّه قصد به الخير، وإنّما عمله ليتوصّل به إلى غرض له سيء، فيتمّ له ذلك ويتوصّل بهذه الخديعة إلى غرضه، ويفرح بمكره وخداعه وحمد النّاس له على ما أظهره، ويتوصّل به إلى غرضه السيء الّذي أبطنه»[3].

ومن صفاتهم: مظاهرة الأعداء على المسلمين.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩].

قال الطبري: إن الله تعالى يطلب من نبيه أن يخبر المنافقين الذين يوالون الكفار ويناصرونهم على المسلمين بأنّ لهم عذابًا أليمًا، فهل هم يطلبون منهم العزة والمنعة، لكن العزة والمنعة لله جميعًا، فهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم، هم الأذلاء الأقلاء، فهلا اتخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتمسوا العزّة والمنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة، الذي يعزّ من يشاء ويذل من يشاء[4].

ومن صفاتهم: كراهية ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من حث على الجهاد، والفرح بالقعود مع الخوالف.

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة:٨١].

فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، وهم من المنافقين، فأذن لهم، وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم الله وثبطهم، أو الشيطان، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، سبب ذلك الشح بالأموال والأنفس، وعدم وجود باعث الإيمان وداعي الإخلاص ووجود الصارف عن ذلك، وهو ما هم فيه

(١) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٤١٨.
(٢) التعريفات ص٢٤٥.
(٣) جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٤٩.
(٤) جامع البيان ٩/ ٣١٩.

من النفاق، ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي: قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطًا لهم، وكسرًا لنشاطهم: وتواصيًا بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله، ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[1].

قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة:٥٢].

«قال المفسرون: نزلت في المنافقين، ثم لهم في ذلك قولان: أحدهما: أن اليهود والنصارى كانوا يميرون المنافقين ويقرضونهم فيوادونهم، فلما نزلت: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ قال المنافقون: كيف نقطع مودة قوم إن أصابتنا سنة وسعوا علينا، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وممن قال: نزلت في المنافقين، ولم يعين: مجاهد، وقتادة»[2].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٤١.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٥٥٨.

الموصوفون بالخشية في القرآن

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أصناف الذين يخشونه وأوصافهم، منهم: الملائكة والأنبياء والعلماء والصالحون، حتى الجمادات تخشى الله عز وجل، فكل شيء يسبح بحمد الله عز وجل، كما ذكر بعد ذلك الذين لا يخشون الله، وهم: المنافقون والمشركون والكفار.

أولًا: الملائكة:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ قال ابن عباس: يريد من الملائكة، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي: من خشيتهم منه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون لا يأمنون مكره[3]. والمراد بالولد: الملائكة، وكذلك المراد بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، والمعنى: بل عباد أكرمهم الله واصطفاهم، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي: من خشيتهم منه، فأضيف المصدر إلى المفعول، ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون[4].

(٣) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٣٥.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٨٨.

ثانيًا: الرسل والأنبياء:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾ [الأحزاب:٣٩].

لقد وصف الله عز وجل الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله[١]. «فقال: إنّ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كانوا أيضًا رسلًا مثلك، ثم ذكر حالهم بأنهم جرّبوا الخشية ووجدوها، فيخشون الله ولا يخشون أحدًا سواه»[٢]. «ونبينا صلى الله عليه وسلم من جملتهم ومن أشرفهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ للمخاوف، أو: محاسبًا، فينبغي ألا يخشى إلا منه تعالى»[٣].

ثالثًا: العلماء:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر:٢٨].

«قال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل.

وقال مسروق: كفى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار جهلًا، فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له.

قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم»[٤].

«قيل: عظموه وقدروا قدره وخشوه حق خشيته ومن ازداد به علما ازداد به خشية»[٥].

وقال ابن عباس: العلماء بالله الذين يخافونه.

وعن ابن مسعود قال: ليس العلم من كثرة الحديث، لكن العلم من الخشية.

وعن حذيفة: بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله[٦].

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة:٤٤].

«وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصًا الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم»[٧].

«قال ابن زيد: الربانيون: الولاة، والأحبار: العلماء. وقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٣٤.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٥/ ٥٥٧.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٤٣٨.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩٩.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٥٦.
(٦) انظر: فتح البيان، القنوجي ١١/ ٢٤٥.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٢.

﴿ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ هذا خطاب للربانيين والأحبار، أمرهم ألا يخشوا الناس في تنفيذ حكمه وإمضائه على ما في كتابه، وأن يخشوه في ذلك، قاله السدي وغيره»[1].

رابعًا: الصالحون:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد:٢١].

«إن أولي الألباب هم الذين يخافون ربّهم فيما يأتون، وفيما يتركون من أعمال، ويراقبون الله في السّر والعلن، يخلصون النّية والقصد لوجه الله، ويحذرون من شدّة العذاب، وسوء الحساب في الآخرة؛ لأن عاقبة ذلك وخيمة، وهي الزّج في نيران جهنم»[2]. والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنبياء:٤٨-٤٩].

«أما أوصاف المتقين فهي واحدة قديمًا وحديثًا، ذكر تعالى منها هنا وصفين: خشية الله تعالى في السر وفي العلن، والخوف من يوم القيامة وأهوالها، وما يجري فيها من الحساب والسؤال قبل التوبة»[3].

الصفة الأولى للمتقين: يخشون الله في حال الغيب والخلوة، حيث لا يطلع عليهم أحد، ويخافون عذاب ربهم، وخشية الله في السر كخشيته في العلن من أصول الإيمان وثوابته، والصفة الثانية للمتقين: الخوف الشديد من الساعة، أي: القيامة، والإشفاق على النفس من أهوالها، وسائر ما يحدث فيها من الحساب والسؤال، والإشفاق: أشد الخشية[4].

خامسًا: الجمادات:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٧٤﴾ [البقرة:٧٤].

القساوة عبارة عن الغلظ مع الصلابة، كما في الحجر، وأن الحجارة تتأثر وتنفعل؛ فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء، وتنفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردى من أعلى الجبل انقيادًا لما أراد الله تعالى به، وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل عن أمره تعالى، والتفجر التّفتح بسعة وكثرة، والخشية مجاز عن الانقياد[5].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ١٧٣٠.
(٢) التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي ٢/ ١١٦٢.
(٣) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٧/ ٧١.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٥٨٨.
(٥) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٨٨.

«وقيل: المراد به حقيقة الخشية على معنى أنه يخلق فيها الحياة والتمييز، وليس شرط خلق الحياة والتمييز في الجسم أن يكون على بنية مخصوصة عند أهل السنة»[1].

وقال الخازن: «﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله، وخشيتها عبارة عن انقيادها لأمر الله، وأنها لا تمتنع عما يريد منها، وقلوبكم يا معشر اليهود لا تلين ولا تخشع. فإن قلت: الحجر جماد لا يعقل ولا يفهم فكيف يخشى؟ قلت: إن الله تعالى قادر على إفهام الحجر والجمادات فتعقل وتخشى بإلهامه لها، ومذهب أهل السنة إن الله تعالى أودع في الجمادات والحيوانات، علمًا وحكمة لا يقف عليهما غيره فلها صلاة وتسبيح وخشية يدل عليه قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١].

فيجب على المرء الإيمان به، ويكل علمه إلى الله تعالى»[2].

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١].

«من شأن القرآن وعظمته أنه لو جعل في الجبل تمييز، وأنزل عليه القرآن، لخشع، أي: لخضع وتطأطأ وتصدع، أي: تشقق من خشية الله»[3].

«ولو كان المخاطب بالقرآن جبلًا، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثرًا ناشئًا من خشية لله خشية تؤثرها فيه معاني القرآن»[4].

«وللقرآن عظمته البالغة ومواعظه المؤثرة، فلو أنزلنا هذا القرآن على جبل من الجبال، لرأيته مع كونه بالغ الصلابة، في غاية الخشوع والخضوع والانقياد لأمر الله، يكاد يتشقّق من خوف الله وخشية عذابه»[5].

وقد جعل الله عز وجل القرآن مرشدًا عظيمًا وإمامًا هاديًا، يجب أن تخشع لهيبته القلوب، وتتصدع لدى سماع عظاته الأفئدة؛ لما فيه من وعد ووعيد، وبشارة وإنذار، وحِكَم وأحكام، فلو كان للجبل عقلٌ، وفهم القرآن وتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف بكم أيها البشر لا تلين قلوبكم، ولا تخشع وتتصدع من خشيته؟ وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبرتم كتابه[6].

---

(١) مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ١٠٢.
(٢) لباب التأويل، الخازن ١/ ٥٥.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ٤٦٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١١٦.
(٥) التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي ٣/ ٢٦٣١.
(٦) انظر: تفسير المراغي ٢٨/ ٥٧.

آثار الخشية

للخشية المحمودة آثار كثيرة، منها: الانتفاع بالدعوة، البعد عن الغفلة، حيث نجد المسلم الحق يستغل كل دقيقة في طاعة الله ويحرص على عدم إضاعة وقته دون الانتفاع به، تاليًا لكتاب الله تعالى، منتفعًا بآياته مطبقًا لها، يحل حلاله ويحرم حرامه، واصلًا لرحمه، مبادرًا للجهاد، باذلًا نفسه وماله في سبيل الله، ويقوم بالدعوة إلى الحق لا يخشى في الله لومة لائم، بينما الخشية المذمومة من آثارها: موالاة الأعداء، والإمساك عن الإنفاق، والفرار من الزحف، وقتل الذرية، والحكم بغير الحق.

آثار الخشية الممدوحة:

١ . الانتفاع بالدعوة.

قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه:١-٣].

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي: أنزلنا عظة لمن يخشى، وخص من يخشى بالتذكرة؛ لأنهم هم المنتفعون بها[١]. «وفيه وجهان: أحدهما: إلا إنذارًا لمن يخشى الله. والثاني: إلا زجرًا لمن يتقي الذنوب»[٢].

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى:٩-١٠].

«﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ يعني: يتعظ بالقرآن من يخشى الله تعالى ويسلم، ويقال: معناه سيتعظ ويؤمن ويعمل صالحًا من يخشى قلبه من عذاب الله تعالى»[٣]. و«يخشى الله، وقد يتذكر من يرجوه، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي»[٤].

٢ . خشية الله وحده في تبليغ الحق.

فهؤلاء يقولون الحق، ولا تمنعهم سطوة أحد عن تبليغ أمر الله، وكفى بالله ناصرًا ومعينًا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾ [الأحزاب:٣٩].

تحول خشيتهم من الله بينهم وبين المعصية، لا يخشون قالة الناس ولائمتهم فيما أحل الله لهم[٥]. وقد وصف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله.

كما «أثنى الله على الأنبياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: فرائض الله وسننه وأوامره ونواهيه إلى من أرسلوا إليهم ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ يعني: يخافونه ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يعني: لا يخافون قالة الناس ولائمتهم فيما أحل الله لهم

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٠٠.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٣٩٣.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٧١.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢٥٤.
(٥) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٧٤.

وفرض عليهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: حافظًا لأعمال خلقه ومحاسبهم»[1].

٣. المبادرة إلى الطاعات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

«يرغبون في الطاعات فيبادرونها»[2].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فيه معنيان: أحدهما: أنهم يبادرون إلى فعل الطاعات، والآخر: أنهم يتعجلون ثواب الخيرات[3].

إنّ المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه، يعملون ما عملوا من أعمال البر، قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم[4].

«وهم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم»[5].

٤. التأثر بالقرآن.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣﴾ [الزمر:٢٣].

«هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله»[6].

«والمستحب من التالي للقرآن أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغير ذلك، ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه»[7].

و« هذا نعت أولياء الله نعتهم الله تعالى، قال: تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى»[8].

والمعني أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منها جلودهم وإذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة، ثم تصبح ساكنة مطمئنة إلى ذكر رحمته[9].

---

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٤٩.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٧٣.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٣.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٧٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٨٠.
(٦) المصدر السابق، ٧/ ٩٥.
(٧) الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٨٩.
(٨) الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٢٢١.
(٩) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود

٥. المبادرة إلى الجهاد.

إذا وجدت أسباب القتال فلا خوف ولا خشية من العدو؛ لأن الخشية لا تكون إلا من الله وحده، ولكن ضعاف الإيمان يخشون الناس.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران:١٧٣].

يقول الحق جل جلاله: الذين قال لهم الناس وهم ركب عبد قيس حيث قالوا للمسلمين: إن الناس، يعني: أبا سفيان ومن معه، قد جمعوا لكم ليرجعوا ليستأصلوكم فاخشوهم، وارجعوا إلى دياركم؛ فزادهم ذلك إيمانًا ويقينًا وتثبيتًا في الدين، ولما قال لهم الركب ذلك ليخوفهم، قالوا: حسبنا الله، أي: كافينا الله وحده، فلا نخاف غيره، ونعم الوكيل، أي: نعم من يتوكل عليه العبد، وهي كلمة يدفع بها ما يخاف ويكره، فانقلبوا راجعين من حمراء الأسد، متلبسين بنعمة من الله وهي العافية والسلامة، وفضل، وهي: زيادة الإيمان وشدة الإيقان، لم يمسسهم سوء من جراحة وكيد عدو، واتبعوا رضوان الله، الذي هو مناط الفوز بخير الدارين، والله ذو فضل عظيم؛ فقد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي هو موجب الرضوان[١].

«لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من أحد إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا، على ما بهم من الجراح، استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى حمراء الأسد، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ وهموا باستئصالكم؛ تخويفًا لهم وترهيبًا، فلم يزدهم ذلك إلا إيمانًا بالله واتكالًا عليه، ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا كل ما أهمنا ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم»[٢].

قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ [التوبة:١٣].

حرضهم الله تعالى أبلغ تحريض، فقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أي: أيمنعكم من قتالهم أنكم تخشونهم؟ أي: تخافونهم فزعين من قتالهم. والله أحق أن تخافوه وتفزعوا من

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٤٣٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٦٩، ٧/ ٢٥١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٧.

غضبه، فإن المؤمن لا يخشى إلا الله، ولا يبتغي في أموره كلها إلا رضا الله والخوف من غضبه وعذابه[1].

٦. البعد عن الفواحش.

الخشية هي التي تحول بين الإنسان وبين معصية الله، ونجد صاحبها دائم الدعاء: اللهم ارزقنا من خشيتك ما يجنبنا معصيتك.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر:١٨].

«إنما تنذر يا رسولنا ويقبل إنذارك وينتفع به من يخشون ربهم ويخافون عذابه بالغيب وأقاموا الصلاة، أما غيرهم من أهل الكفر والعناد والجحود فإنهم لا يقبلون إنذارك ولا ينتفعون به لظلمة جهلهم وكفرهم وقساوة قلوبهم، ومع هذا فأنذر ولا عليك في ذلك شيء، فإن من تزكى بالإيمان والعمل الصالح مع ترك الشرك والمعاصي فإنما يتزكى لنفسه لا لك ولا لنا، ومن أبى فعليه إباؤه، وإلينا مصير الكل وسنجزي كلًّا بما كسب من خير وشر»[2].

«إنما يهتدي بك ويسمع لك الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم الذين يؤمنون بالغيب»[3].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

أي: يخافونه وهم لا يرونه، وكذا وهم في غيبة عن الناس فيطيعونه ولا يعصونه، هؤلاء لهم مغفرة لما فرط من ذنوبهم وأجر كبير عند ربهم، أي: الجنة»[4].

إن الذين يخشون ربهم فيخافون عذابه، ويعبدونه كأنهم يرونه، مع أنهم لا يرونه بأعينهم، وهذه الصفات تدل على قوة الإيمان، وعلى طهارة القلب، وصفاء النفس[5].

٧. الفوز في الدنيا والآخرة.

الفوز برضا الله سبحانه وتعالى ومحبته، والفوز بالجنة ثمرة من ثمار الخشية.

يقول تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق:٣١-٣٥].

هذا هو الثواب الذي وعدتم به على ألسنة الرسل، لكل من خشي وخاف عقاب ربه، مخلص مقبل على طاعة الله، وهذا

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٦/٣٢٤٦.
(٢) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/٣٤٨.
(٣) التفسير الواضح، الحجازي ٣/ ١٦٢.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٣٩٨.
(٥) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٥ / ١٧.

الثواب هو الجنة للمتقين التائبين من ذنوبهم ويلقون الله بقلوب منيبة إليه، خاضعة له[1].

قال أبو السعود: إشارة إلى أنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته تعالى، ووصف القلب بالإنابة لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى، ثم يقال لهم: ادخلوها ملتبسين بسلامة من العذاب وزوال النعم، أو بسلام من جهة الله تعالى وملائكته[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٧-٨].

«فإن الخشية التي هي من خصائص العلماء بشؤون الله عز وجل مناط لجميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية»[3].

فنجد أن رضا الله عن العبد يكون مقرونًا بهذه الخشية، التي تكون سببًا في التوفيق في الدنيا والآخرة والنصر على الأعداء، والنجاة من النار، والفوز برضا الله والجنة.

ثانيًا: آثار الخشية المذمومة:

١. موالاة الأعداء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة:٥١-٥٢].

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، لأنهم إذا اتخذوهم أولياء في النصر والمعونة صاروا أمثالهم، فهم إذا نصروا الكفار على المسلمين وأعانوهم فقد كفروا، ومضمون الآيات أن الله تعالى ينهى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله.

ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يواليهم. ومن ينصرهم أو يعينهم أو يستنصر بهم، فإنه في الحقيقة منهم، أي: من جملتهم، وليس من صف المؤمنين الصادقين.

وهذا تغليظ من الله وتشديد على المنافقين، الذين يتصادقون مع اليهود والنصارى المخالفين في الدين؛ لأن موالاتهم تستدعي الرضا بدينهم، وأن من يوالي هؤلاء في شؤون الدين وقضاياه ومقتضيات الدعوة ونشاطها، فينصرهم أو يستنصرهم بهم، فهو ظالم لنفسه بوضعه الولاية في غير موضعها، والله لا يهديه إلى

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٦ / ١٦٧.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ٨/ ١٣٣.
(٣) المصدر السابق، ٩/ ١٨٧.

خير أو حق بسبب موالاة الكفر.

وسبب موالاة هؤلاء المنافقين لأعداء الإسلام: أنهم يتأولون في مودتهم أنهم إلى خير أو حق بسبب موالاة الكفر، وذلك لأنهم يخشون انتصار الكافرين على المسلمين، فتكون لهم أيادٍ عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك. وهذا شأن المنافقين المستضعفين في كل زمان ومكان، يتخذون صداقات ومودات عند زعماء الكفر لتأييدهم ودعمهم أثناء الأزمات، وقد أثبت الواقع تخليهم عنهم وقت المحنة الشديدة وبيع صداقاتهم بثمن بخس[1].

ويقول الخازن في معنى الآية: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني: شك ونفاق يسارعون في مودة اليهود وموالاتهم ومناصحتهم؛ لأنهم كانوا أهل ثروة ويسار، فكانوا يغشونهم ويخالطونهم؛ لأجل ذلك يقول المنافقون: إنما نخالط اليهود؛ لأنا نخشى أن يدور علينا الدهر بمكروه، ويعنون بذلك المكروه الهزيمة في الحرب والقحط والجدب والحوادث المخوفة، فعسى الله أن يأتي بالنصر والفتح لرسوله صلى الله عليه وسلم فيصبح المنافقون على ما أسروا في أنفسهم من الكفر والنفاق، ومن مظاهرة اليهود نادمين[2].

(١) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٦/ ٢٢٦.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٣.

٢. الإمساك عن الإنفاق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١﴾ [الإسراء:٣١].

خطاب للموسرين، نهاهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، حاصله: أن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله، فإن الله سبحانه هو الرازق لعباده، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء، فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع، ونهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل[3].

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ۝١٠٠﴾ [الإسراء:١٠٠].

«قال الزجاج: أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحًّا وبخلًا، وهو ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾، أي: خشية أن ينفقوا فيفتقروا»[4].

٣. الفرار من الزحف.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٦٥.

(٤) انظر: المصدر السابق ٣/ ٣١٠.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء:٧٧].

«هذا السياق اشتمل على أمور تدل على أنها مختصة بالمنافقين؛ لأنه تعالى قال في وصفهم: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ ولا يكون هذا الوصف إلا لكافر أو منافق. وحكى تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ ولم يعهد هذا عن المؤمنين، بل المحفوظ مبادرتهم للجهاد»[١].

ترى المنافقين الذين اعتل إيمانهم ولم يصل إلى مرتبة اليقين؛ كعبد الله بن أبي وغيره من المنافقين يمتون إلى اليهود بالولاء والعهود، ويسارعون في هذه السبيل التي سلكوها، وكلما سنحت لهم الفرصة لتوثيق ولائهم وتأكيده ابتدروها ليزيد تمكنًا وثباتًا. يقولون بألستهم: نحن نخشى أن تقع بنا مصيبة من مصائب الدهر فنحتاج إلى نصرتهم لنا، فعلينا أن نتخذ لنا أيادي عندهم في السراء، نتفع بها إذا مستنا الضراء وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان، فكثير من وزراء بعض الدول الضعيفة يتخذ له يدًا عند دولة قوية يلجأ إليها إذا أصابته دائرة فتغلغل نفوذ هذه الدول في أحشاء هذه الدولة، وضعف استقلالها في بلادها بعملهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد[٢].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ بالمدينة أي: فرض ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ يعني: مشركي مكة ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

واختلفوا في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾، فقال قوم: نزلت في المنافقين؛ لأن قوله: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ أي: لم فرضت، لا يليق بالمؤمنين، وكذلك الخشية من غير الله[٣].

٤ . كتمان الحق.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة:١٤٦-١٥٠].

والمعنى: أن علماء اليهود والنصارى

---

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٢٢٨.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٦/ ١٣٧.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٣٤٥.

يعرفون أن القبلة التي صرفتك إليها هي قبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء قبلك؛ كما يعرفون أبناءهم لا يشكون في ذلك. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾، أي: من علماء أهل الكتاب ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾، يعني: صفة محمد صلّى الله عليه وسلّم، وقيل: أمر القبلة، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، يعني: أن كتمان الحق معصية[1].

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝٤٠ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ۝٤١ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢﴾ [البقرة: ٤٠-٤٢].

«قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ الآية: أي لا تلبسوا بأمر الدنيا أمر الآخرة. وأراد لا يحل لأهل الحق كتمان الحق عن أهله خاصة، عمن يرجون هدايته إلى الله عزّ وجلّ، فأما أهله فإنهم يزدادون بصيرة به، وأما من كان من غير خاصة أهله فإن قول الحق لهم هداية وإرشاد إلى الله تعالى»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي: فاخشون، يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم، يقول: لأنهم يجدون محمدًا صلى الله عليه وسلم مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

ومعنى قوله: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

عن ابن عباس: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم.

ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس، من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار، إن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروجوه عليهم[3].

٥. قتل الذرية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ۝٣١﴾ [الإسراء: ٣١].

« كان أهل الجاهلية يقتلون البنات خشية الفاقة فوعظهم الله في ذلك وأخبرهم أن رزقهم ورزق أولادهم على الله فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي: إثمًا كبيرًا»[4].

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ٩٠.
(٢) تفسير التستري ١/ ٣١.
(٣) مختصر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، الصابوني ١/ ٥٨.
(٤) الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٢٧٨.

ولا تقتلوا أولادكم خوف الفقر، فنحن نرزقهم لا أنتم، ونرزقكم أيضًا، إن قتلهم خوف الفقر أو العار كان إثمًا وذنبًا عظيمًا، وخطأ جسيمًا. وقدم الإخبار برزق الأولاد هنا؛ لأنه خاطب الموسرين منهم وذكر العناية برزقهم، وقدم الإخبار برزق الآباء في ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١].

لأنه خاطب الفقراء، ونهاهم عن قتلهم من فقر، فالأرزاق للآباء والأولاد بيد الله، وقتل الأولاد خوف الفقر من سوء الظن بالله، وإن كان خوفًا على البنات، فهو سعي في تخريب العالم، والآية دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده لأنه نهى عن قتل الأولاد[١].

٦. الحكم بغير الحق.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤].

قال مجاهد: من ترك الحكم بما أنزل الله ردًا لكتاب الله فهو كافر ظالم فاسق. وقال عكرمة: ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق. وهذا قول ابن عباس أيضًا، وقال ابن مسعود والحسن والنخعي: هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود وفي هذه الأمة؛ فكل من ارتشى وبدل الحكم فحكم بغير حكم الله فقد كفر وظلم وفسق، وإليه ذهب السدي؛ لأنه ظاهر الخطاب، وقيل: هذا فيمن علم نص حكم الله ثم رده عيانًا عمدًا وحكم بغيره[٢].

و«نهي للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل خشية سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد، ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه، وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس»[٣].

موضوعات ذات صلة:

التقوى، الحذر، الخوف، الرجاء

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٢٩، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٥/ ٦٨.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٨، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٣.

(٣) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٤٩.



عناصر الموضوع

مفهوم الخلق

المعنى اللغوي والاصطلاحي:

الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، كقولهم: فلان خليق بكذا، وأخلق به، أي: ما أخلقه، أي: هو ممن يقدّر فيه ذلك، وأما الأصل الثاني فملاسة الشيء، كقولهم: صخرة خلقاء، أي ملساء. ويقال: اخلولق السحاب، أي: استوى، ومن هذا الباب أخلق الشيء وخلق، إذا بلي. وأخلقته أنا: أبليته[(١)].

«والخلق في كلام العرب: ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه»[(٢)]، وعلى هذا فالخلق المقصود في هذا البحث على معنيين: أحدهما: الإنشاء على غير مثال أبدعه، والآخر: التقدير.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لم يوقف على معنى الخلق اصطلاحًا عند أيٍّ من المتقدمين، ولا حتى المتأخرين، ومن ثمّ فإنه تمّ وضع تعريف له بالاعتماد على أصله اللغوي، حيث يكون تعريفه اصطلاحًا: «كل ما أوجده الله سبحانه في العالمين، مما علمه البشر وما لم يعلموه، مع تقدير الله تعالى لكل هذه الموجودات»، وإنما ذكرت الشمولية في الإيجاد في قول الباحث: «كل ما أوجده الله سبحانه»؛ حتى يجمع التعريف ذكر كل المخلوقات، وذكرت جملة «العالمين، مما علمه البشر وما لم يعلموه»؛ لبيان أن هناك عالمين لا يعلمها البشر، والله تعالى خالقها، فهو ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[الزمر: ٦٢].

وذكرت جملة «مع تقدير الله تعالى لكل هذه الموجودات»، فهو الله تعالى الذي نقرّ بأنه خالق كل شيء، ومالكه، القادر على ما يشاء، المقدّر لجميع الأمور، المتصرف فيها، المدبّر لها، ليس له في ذلك كله شريك[(٣)].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢١٣.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٨٥.
(٣) انظر: تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله الجبرين، ص٤١.



الخلق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خلق) في القرآن الكريم (٢٥٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٥٧	﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩]
الفعل المضارع	٢٧	﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٤٧]
اسم فاعل	١٢	﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]
اسم مفعول	٢	﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج:٥]
مصدر	٥٢	﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]
صيغة المبالغة	٢	﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ [الحجر:٨٦]

وجاء الخلق في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: الدِّين: كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. يعني: لدين الله.

الثاني: الكذب: قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]. يعني: تخرصون كذبًا.

الثالث: التصوير: قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠]. يعني: وإذ تصوّر من الطين كهيئة الطير.

الرابع: الإيجاد: قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]. يعني: أوجدهما ولم يكونا شيئًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٤١- ٢٤٤.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص٩٢- ٩٣، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٠١-٢٠٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٢٨٤-٢٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ التصوير:

التصوير لغةً:

صورة كل مخلوق: هيئة خلقته[١].

وصوّر الشيء: جعل له صورة مجسمة، أو رسمه على الورق أو الحائط ونحوهما بالقلم أو بآلة التصوير[٢].

التصوير اصطلاحًا:

التصوير في حق الله عز وجل: جعل الشيء على هيئة معينة.

وفي حق المخلوقين: محاكاة صورة الشيء وتقريبها.

الصلة بين التصوير والخلق:

الخلق إيجاد من العدم، والتصوير جعل هيئة معينة لهذا المخلوق.

٢ الذرء:

الذّرء لغة:

ذرأ الله الخلق، أي: خلقهم[٣].

الذّرء اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الذّرء والخلق:

الذرء مختص بخلق الذرية[٤].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٢٠.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥٢٨.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص١١٢.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ١٥٦.



٣ الإنشاء:

الإنشاء لغةً:

الإنشاء يدلّ على ارتفاعٍ وسموٌّ[١]، يقال: أنشأ الله الخلق، أي: أحدث وأوجد من عدم[٢].

الإنشاء اصطلاحًا:

إيجاد الله تعالى لكل المخلوقات من عدم، مع ما يبيّن عظيم قدرة الله تعالى وأنه يعلي ويرفع من يشاء.

الصلة بين الإنشاء والخلق:

يشترك الإنشاء مع الخلق في أن في كل منهما إيجادًا من عدم.

٤ البعث:

البعث لغةً:

البعث: إحياء الله تعالى للموتى[٣].

البعث اصطلاحًا:

إحياء الله تعالى الأموات وإخراجهم من قبورهم وهم أحياء للحساب وللجزاء[٤].

الصلة بين البعث والخلق:

بينهما عموم وخصوص؛ فالبعث خلق خاص، يستعمل في إحياء الموتى.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٤٢٨.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٩٢٠.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٥/ ١٦٩.
(٤) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص٥٦٧.

الله تعالى خالق كل شيء

أولًا: إثبات صفة الخلق لله عز وجل:

إن وجود هذا الكون الكبير، وعظمته ودقته، وجماله الباهر، وما فيه من سماوات وأرض، وشمس وقمر، ونجوم وكواكب، وليل ونهار، وجبال وتلال، وبحار وأنهار، إلى غير ذلك من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى، سواءٌ كانت مرئيّةً لنا أو غير ذلك؛ لتدل على أن لهذا الكون المبهر خالقًا واحدًا ينزّه عن كل صفات النقص والعيب، وينزّه كذلك عن كل ما يشبه صفات المخلوقين. فهذا الخالق يتصف بكل صفات الكمال المطلق في ذاته العلية، وصفاته الجليلة، وفي أفعاله القديرة.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢١- ٢٢].

فالله سبحانه أمر العباد بعبادته جل وعلا، وأتبع هذا الأمر بما يدل على وجوده تعالى، -وهو الخالق الصانع- من خلق الناس المخاطبين، وخلق الذين كانوا من قبلهم، وخلق السماء، وخلق الأرض، وخلق الثمرات من الماء النازل من السماء إلى الأرض[1].

ويقول عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ففي هذه الآية يبيّن الله سبحانه صفات ربوبيته من خلق السماوات والأرض، واستوائه سبحانه على العرش، وتغشية الليل والنهار، وجعل الشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمره جل وعلا، وبعد أن ذكر تدبيره لهذا الكون، أتبعه بأن الخلق والأمر له وحده سبحانه، حيث قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾.

ومعلومٌ أن تقديم شبه الجملة من الجار والمجرور على المبتدأ يفيد الحصر والقصر، فقد أخبر الله تعالى أن الخلق والأمر له وحده، فيختصان به لا بأحدٍ غيره[2].

وقال الألوسي في تفسيره: «ففي ذلك إشارة إلى أنهما -الخلق والأمر- طبق الحكمة وفي غاية الكمال، ولا يقال ذلك في غيره تعالى، بل هو صفة خاصة به سبحانه»[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢/ ٣٢٣.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٢٤١.
(٣) روح المعاني، ٤/ ٣٧٨.

ثم ختم الله تعالى الآية ببيان أنه رب العالمين، الذي له صفات الكمال المطلق، والمنزّه عن جميع النقائص والعيوب.

وإثبات صفة الخلق والأمر لله تعالى وحده، يستلزم أن يكون خالقها متصفًا بالقدرة التامة، والعلم الشامل، والحكمة البالغة، والإرادة النافذة.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: تنزه وتقدّس عن كل نقص وعيب، ويدخل في هذا تنزّهه تعالى عن أيّ نقص في خلقه وأمره، وهذا مصداقٌ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

والمعنى: لا ترى تفاوتًا، أي: نقصًا أو عيبًا أو عدم تناسق في خلق الله تعالى السماوات وغيرها من مخلوقاته عزّ وجلّ.

والمقصود من هذا هو التعريض بالمشركين؛ لأنهم أضاعوا النظر في الكون، والاستدلال بما فيه على وحدانية الله تعالى بما تشاهده أعينهم من نظام دقيق ومحكم.

وإضافة الخلق إلى اسم (الرحمن) يدل على «أن هذا النظام مما اقتضته رحمته بالناس؛ لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام عيشهم؛ لأنه لو كان فيما خلق الله تفاوت، لكان ذلك التفاوت سببًا لاختلال النظام، فيتعرض الناس بذلك لأهوال ومشاق»[(١)].

وعند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: فأفردوا أيها الناس لربكم الذي نزّل الفرقان على عبده محمد نبيه صلى الله عليه وسلم الألوهية، وأخلصوا له العبادة دون كلّ ما تعبدونه من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجنّ والإنس، فإن كلّ ذلك خلقه وفي ملكه، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك. وقوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ يقول: فسوّى كل ما خلق، وهيّأه لما يصلح له، فلا خلل فيه ولا تفاوت»[(٢)].

والغاية من ذكر الله تعالى لبديع خلقه وصنعه في الكون هي بيان أحقية الله تعالى وحده بالعبادة، وإفراده سبحانه بالسمع والطاعة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

قال السعدي: «أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ١٨.
(٢) جامع البيان، ١٩/ ٢٣٦.

الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبّر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء، فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفّقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون»[1].

وعبّر باسم الجلالة (الله) في بداية الآية الذي له جميع صفات الكمال التي منها القدرة الشاملة على خلق المخلوقات، فأخبر عن ذلك بما يدل عليه؛ لأن الصنعة تدل على الصانع، فهو وحده الذي أوجد المخلوقات بشكل عام من عدم، وهذا بقدرة الله تعالى على وفق ما دبّر بعلمه سبحانه، فالناس يشاهدون عظمة هذه المخلوقات، ويشهدون أنه لا يقدر عليها إلا من هو تام العلم وكامل القدرة، ألا وهو الله عزّ وجلّ[2].

وأخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٢١﴾[النحل: ٢٠-٢١].

أن الأصنام التي يعبدها المشركون من دون الله تعالى لا تتصف بالخلق؛ بل هي مخلوقة وليست خالقة، فهي جمادات لا أرواح فيها، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يعبدها هؤلاء المشركون، وهم أفضل منها بالحياة![3].

فأين العقول والأبصار التي تعتبر وتتّعظ ببديع خلق الله تعالى وصنعه المتقن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤].

أي: إن هذه المخلوقات الوارد ذكرها في الآية هي لقوم «ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون بها، فيستدلون بهذه الأشياء على قدرة موجدها، وحكمة مبدعها، ووحدانية منشئها»[4].

ولما كانت صفة الخلق من أبرز صفات الله عز وجل، كان له اسمان مشتقان منها، وهما: الخالق والخلاق.

فأما الخالق:

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٨٧٢.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢٠/ ١٧٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٩٤.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ١٤٨.

قال الزجاج: «الخالق: أصل الخلق في الكلام: التقدير، يقال: خلقت الشيء خلقًا، إذا قدّرته. فالخلق في اسم الله تعالى هو ابتداء تقدير النشء، فالله تعالى خالقها ومنشئها ومتمّمها ومدّبرها»[1].

وقال د.سعيد القحطاني في معنى الخالق: «الذي خلق جميع الموجودات وبرأها، وسوّاها بحكمته، وصوّرها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم»[2].

إذًا فالخالق هو الذي أوجد جميع الأشياء بعد أن لم تكن موجودة، وقدّر أمورها في الأزل بعد أن كانت معدومة، ويكون أيضًا بمعنى أنه هو الذي ركّب الأشياء تركيبًا، ورتّبها بقدرته ترتيبًا.

وقد ورد اسم الله تعالى (الخالق) اثنتي عشرة مرة في القرآن الكريم، وهو على صيغة اسم الفاعل، وتدل مادته على معنيين رئيسين:

الأول: إيجاد الشيء من العدم، أو ابتداع مخلوق جديد ليس له سابق.

ولا شك أن هذا المعنى خاص بالله تعالى، ولا يشاركه فيه أحد، ومن هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[الأنعام: ١٠٢].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[غافر: ٦٢].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[فاطر: ٣].

الثاني: التهيئة والتقدير والتشكيل والتجميع والتركيب والتصنيع والتكوين.

ومن هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر: قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[الصافات: ١٢٥].

والخلق على هذا المعنى يدخل فيه البشر، أي: أن الإنسان صنع الشيء من المادة التي خلق الله تعالى أصلها، فما ينسب إلى الإنسان وعقله البشري من خلق أشياء مبهرة، فهذا يعني أنه صنعها وركّبها من أشياء موجودة مخلوقة من الله تعالى، ويبقى العقل البشري من مخلوقات الله تعالى.

إذًا فالله تعالى هو الذي خلق المادة التي هي أصل الأشياء، كما خلق عقل الإنسان، وما أودع فيه من ذكاء وموهبة، استخدمها ذلك العقل في مجال التكنولوجيا وغيرها، ويبقى الله تعالى هو الخالق وحده.

(١) تفسير أسماء الله الحسنى، ص٣٥، ٣٧.

(٢) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ص ١٧١.

فالإنجازات العلمية العديدة ما هي إلا مكتشفات صنعها وركّبها العقل البشري، أما أصل هذه الإنجازات فالله تعالى هو خالقها من العدم.

وإن معنى الخالق قائمٌ على المعنيين معًا.

وأما الخلاّق:

ورد ذكر هذا الاسم مرتين في القرآن الكريم، وهما: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦].

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وكلمة (الخلاّق) صيغة مبالغة على وزن (الفعّال).

قال ابن عاشور في تفسير آية سورة يس: «أي: هو يخلق خلائق كثيرة، وواسع العلم بأحوالهم ودقائق ترتيبها»[(١)].

والفرق بين الاسمين أن (الخالق): اسم فاعل، وهو الذي ينشئ الشيء من العدم بتقدير وعلم، ثم بتصنيع وخلق عن قدرة. فالخالق هو الذي قدّر بعلم، وصنع بقدرة، فخلق من عدم.

أما (الخلاّق): صيغة مبالغة من الخالق الموصوف بخلق غيره، وهو الذي يبدع في الخلق كمًّا وكيفًا بقدرته الشاملة المطلقة، ومن ثم فإن صفة الخلاّق أبلغ من صفة الخالق.

ومن المعلوم أن منهج السلف الصالح في أسماء الله تعالى الحسنى هو التسليم بها دون تكييف أو تأويل أو تعطيل أو تشبيه، فإن شرح هذين الاسمين قائم على معرفة معناه بما يتعبّد به، وبما يكون الإيمان من خلاله بما دلّت عليه هذه الصفات من المعاني العظيمة؛ فهو مختص بالذات العليّة[(٢)].

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

والمعنى: إن الله تعالى شرع في بيان أصل النوع الإنساني، وهو آدم عليه الصلاة والسلام، فقد خلقه الله تعالى، ثم جعل نسله نطفًا في أصلاب الآباء، ثم قذفت في أرحام الأمهات، فصارت في حرزٍ حصين من أول وقت الحمل إلى حين وقت الولادة، ثم تطور خلق النطفة فأصبحت علقة، وهي الدم الجامد المتعلق بجدار الرحم، ثم أصبح هذا الدم الجامد مضغة، أي: قطعة لحم صغيرة بمقدار ما يمضغ، ثم صارت هذه المضغة

(١) التحرير والتنوير، ٢٣/ ٧٩.

(٢) انظر: العقيدة الصحيحة وما يضادها، ابن باز ص٦.

عظامًا، ثم جعل الله تعالى اللحم كسوة لهذه العظام، ثم أنشأه الله تعالى وخلقه خلقًا آخر مباينًا ومختلفًا عن الخلق الأول، حيث نفخ فيه الروح، فصار كائنًا حيًّا بعد أن كان جمادًا لا روح فيه، وأصبح سميعًا بصيرًا ناطقًا، كما أودع فيه الله عزّ وجلّ من غرائب الخلق وعجائبه ما لا يعد ولا يحصى ظاهرًا وباطنًا[1].

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: تعالى شأنه في علمه الشامل، وقدرته الباهرة، وذكر اسم الجلالة (الله)؛ وذلك «لتربية المهابة، وإدخال الرّوعة، والإشعار بأنّ ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهيّة، وللإيذان بأنّ حقّ كلّ من سمع ما فصّل من آثار قدرته عزّ وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلّم به إجلالًا وإعظامًا لشؤونه تعالى»[2].

وكلمة ﴿أَحْسَنُ﴾: على وزن (أفعل) التفضيل، أي: أحسن الخالقين خلقًا، بمعنى المقدّرين تقديرًا، وحذف المميز لدلالة كلمة ﴿الْخَالِقِينَ﴾ عليه[3].

وإن هذا لا يعني أن هناك خالقين غيره، وأن الله تعالى هو الأفضل فهذا كفر، ولن يكون ذلك مراد القرآن، وإنما يعني إعطاء البرهنة الكاملة على عظيم قدرة الله تعالى، وأنه خلق فأحكم وأتقن.

ومعنى البركة في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يرجع إلى المعاني الآتية:

١. الامتداد والزيادة، فكل ما زاد على الشيء فقد علاه.

٢. البركات والخيرات، فكلها من الله تعالى.

٣. قيل: أصله من البروك، وهو الثبات، فكأنه قال: والبقاء والدوام والبركات كلها من الله تعالى، فهو المستحق للتعظيم والثناء[4].

ثانيًا: إقرار المشركين بالخلق لله تعالى:

سبقت الإشارة إلى أن الخلق صفة من الصفات الربوبية لله تعالى، وهو يدخل تحت القسم الأول من أقسام التوحيد، وهو توحيد الربوبية، ويقصد به: «توحيد العبد ربه سبحانه بأفعاله الصادرة منه، كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وإنزال المطر، وإنبات النبات، والنفع والضرر، وتدبير جميع الأمور إلى غير ذلك من أفعال الرب سبحانه»[5].

وقد كان المشركون في عصر النبوة يعتقدون أن هذه الأمور هي من خصائص الله تعالى، ويقرّون ويعترفون أن أصنامهم

(١) انظر: تفسير المراغي، ١٨/ ٨.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ١٢٦.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٣/ ٢٦٥.
(٥) الصواعق المرسلة الشهابية، سليمان بن سحمان ص٣٠٤.

التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، فكيف تمتلكه لمن يعبدها، فهي لا تنزل الغيث، ولا تأتي بالرزق، ولا تملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا، كما أنها لا تسمع ولا تبصر، فكانوا يعترفون أن الله تعالى هو وحده المتفرد بهذه الأمور، لكنهم جعلوا لله تعالى شركاء يعبدونهم من دونه عزّ وجلّ، فيزعمون أنهم ما يعبدونها إلا لتقرّبهم إلى الله زلفى، فتشفع لهم عند الله تعالى في الرزق والنصر وسائر الأمور الدنيوية، فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر: ٣].

والمعنى: إن هؤلاء المشركين لم يخلصوا العبادة لله تعالى وحده؛ بل كانت شائبةً بعبادة غيره من الأصنام والملائكة وعيسى عليه الصلاة والسلام معتقدين أنهم لا يعبدونها لشيء من الأشياء إلا لتقرّبهم إلى الله تعالى تقريبًا[1].

ولما كان حال المشركين في ناحية العبادة متخذين الأنداد والشركاء من دون الله تعالى، يدعونهم ويستغيثون بهم، ويطلبون منهم حاجاتهم الدنيوية، استخدم معهم القرآن الكريم أسلوب تقرير المخاطبين بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلّمون بها حتى يعترفوا بما يشركون، وهو صورة من صور المناظرات التي استخدمها القرآن في الرد على الخصوم ليلزم به أهل العناد[2].

ومن الأمثلة على ذلك: الاستدلال بالخلق على وجود الخالق كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾[الطور: ٣٥-٤٣].

وكذلك الاستدلال بالمبدأ على المعاد، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[ق: ١٥].

كما دلّ القرآن الكريم في مواطن عدة من سوره على إقرار المشركين بربوبية الله تعالى مع إشراكهم به في العبادة، ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر: ٣٨].

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي، ١٢/ ٧٩.

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص٣١٣.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، وقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

ويظهر من هذا أن جميع الخلق مفطورون على الإقرار والاعتراف بربوبية الله عزّ وجلّ، حتى المشركين أنفسهم، كما مرّ في الآيات السابقة وغيرها، ويصدّق هذا الكلام قوله تعالى على لسان أنبيائه ورسله حين قالوا لأقوامهم الذين بعثوا إليهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

حتى فرعون نفسه الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤].

كان مقرًّا ومعترفًا بربوبية الله تعالى في قرارة نفسه، لكنه تجاهل هذه الفطرة، وتظاهر بإنكار الله تعالى، ويدل على هذا قوله تعالى على لسان موسى عليه الصلاة والسلام حين قال له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[الإسراء: ١٠٢].

وقوله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

لكن مع هذا الإقرار العام من المشركين إلا أن توحيدهم كان ناقصًا، لا ينقلهم إلى دائرة الإيمان؛ بل حكم الله تعالى عليهم بأنهم كافرون مشركون، فقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فقد ذكر القرطبي أن الآية نزلت في تلبية مشركي العرب، فكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك[١]، وورد أنهم كانوا إذا قالوا هذه التلبية، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ويلكم قد قد)[٢].

قال ابن كثير[٣]: «أي حسب حسب، وقال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣].

وهذا هو الشّرك الأعظم أن يعبد المرء مع الله إلهًا آخر، كما في الصّحيحين عن ابن مسعودٍ قلت: يا رسول اللّه، أيّ الذّنب أعظم؟ قال: (أن تجعل للّه ندًّا وهو خلقك)[٤]».

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٢٧٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، ٢/ ٨٤٣، رقم ١١٨٥، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٤١٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (الذي جعل لكم الأرض فراشًا)، ٦/ ١٨، رقم ٤٤٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، ١/ ٩٠.

فتوحيد الربوبية وحده لا يكفي إلا ويكون معه توحيد الألوهية؛ حتى ينجو صاحبه من عذاب الله تعالى، بل هو حجة على صاحبه؛ إذ كيف يؤمن بتوحيد الربوبية ويشرك بتوحيد الألوهية! فتوحيد الألوهية من لوازم توحيد الربوبية، وهذا ما نعاه الله تعالى على المشركين إذ قال: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾[الأعراف: ١٩١].

فينبغي على المرء أن يخلص العبادة لله تعالى وحده. قال ابن القيم: «فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته، ولذلك كان توحيد الألوهية هو المنجي من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عبّاد الأصنام كانوا مقرّين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له لم ينفعهم توحيد ربوبيته»[1].

ثالثًا: تنزيه الله تعالى عن التعب والنصب في الخلق:

إن القدرة والخلق صفات كمال، وقد يعتريها النقص بالنسبة للمخلوقين، فعندما يصنع الإنسان شيئًا ما، فإنه يعتريه التعب والإعياء، فيكون هذا نقصًا في الكمال.

أما بالنسبة لله عزّ وجلّ، فإنه قد خلق هذا الكون العظيم، وما فيه من مخلوقات عظيمة بما فيها الإنسان الذي يعجز عن إحصائها وعدّها، وخلقه تعالى للكون كان في مدة وجيزة جدًّا، وهي ستة أيام، ومع ذلك لم يصب الله تعالى تعب ولا نصب ولا إعياء.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾[ق: ٣٨].

فالآية دليل على عظمة الله سبحانه الذي يقول للشيء: كن فيكون، حيث إن المعنى: ما تعبنا بالخلق الأول حتى نعجز عن الإعادة في الخلق الثاني، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾[ق: ١٥][2].

هذا وقد دلّل الله تعالى على قدرته على الإعادة بعد الموت بأنه خلق السماوات والأرض على عظمهما وسعتهما، وإتقان خلقهما وما فيهما دون أن يكترث بذلك، ولم يصب الله تعالى بخلقها إعياء ولا نصب، فكيف يعجز عن إعادة الناس بعد الموت وهو على كل شيء قدير؟![3].

فقال عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ

رقم ٨٦.

(١) عدة الصابرين، ص٤٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٨/ ١٥٢.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٧٣.

﴿قَدِيرٌ﴾[الأحقاف: ٣٣].

قال الشوكاني: «الرّؤية هنا هي القلبيّة الّتي بمعنى العلم، والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدّرٍ، أي: ألم يتفكّروا ولم يعلموا أنّ الّذي خلق هذه الأجرام العظام من السّماوات والأرض ابتداءًا ولم يعي بخلقهنّ أي: لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه»(١).

وإن في الآية ردًّا على اليهود الذين زعموا أن الله سبحانه تعب من الخلق، فاستراح في اليوم السابع وهو يوم السبت.

رابعًا: يخلق ما يشاء:

تكرر قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ في القرآن الكريم في ستة مواضع.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٤٧].

فعندما بشّر الله تعالى مريم عليها السلام بعيسى عليه الصلاة والسلام، تعجّبت واستغربت هذا الأمر؛ وذلك لأنها علمت أنها لن تتزوج أبدًا؛ لأنها كانت محرّرة لله تعالى، مخلصةً له في العبادة، والولد لا يأتي إلا بالزواج، فتمت الإجابة على سؤالها بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾

كما ردّ عليها في موضع آخر بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾[مريم: ٢١].

والتعبير في هذه الآية عن تكوين سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام بالفعل (يخلق)؛ لأن الخلق هو إيجادٌ من عدم، ولا يكون هذا إلا لله تعالى، أما في حق المخلوق فلا يقال: خلق، بل صنع واكتشف وركّب وغير ذلك مما يحمل المعنى نفسه.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

فهذه الآية فيها ذم من الله تعالى للنصارى الذين حادوا عن الطريق المستقيم، فيقسم الله تعالى أنهم كافرون، وكفرهم متمثل في تغطيتهم الحق في تركهم نفي الولد عن الله تعالى، وادعائهم أن المسيح هو الله فريةً وكذبًا عليه، فيأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء الجهلة: لو كان عيسى عليه الصلاة والسلام إلهًا كما تزعمون لاستطاع أن يردّ أمر الله تعالى إذا جاءه بإهلاكه، وإهلاك أمه التي هلكت، ولم يقدر على دفع ما نزل بها، فهذا حجة عليكم

(١) فتح القدير، ٥/ ٣٢.

في أن المسيح عليه الصلاة والسلام هو بشرٌ كسائر البشر، وأن الله تعالى هو الذي لا يردّ له أمر، ولا يغلب، ولا يقهر؛ بل هو الحي القيوم الذي يحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، كما أن الله تعالى له تصريف ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، يبقي من يشاء، ويهلك من يشاء، لا يمنعه من ذلك مانع، ولا يردّه عن ذلك رادّ؛ بل ينفّذ فيهم أمره، ويمضي فيهم قضاءه، وليس المسيح كما زعموا، فمن كان عاجزًا عن دفع ضر أو سوء أراده به غيره، فكيف يكون إلهًا؟!

بل الإله المعبود بحق هو الذي ملك كل شيء، وبيده تصريف كل ما في السماوات والأرض وما بينهما[1].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[القصص: ٦٨].

والمعنى: أن الله تعالى يخلق ويختار ما يشاء، فالله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وذكر المفسرون احتمال الآية للمعاني الآتية:

الأول: أن هذا متصل بذكر الشركاء الذين يعبدونهم من دون الله تعالى واختاروهم، والمعنى: الاختيار لله تعالى وحده، وليس لهم.

الثاني: المراد من الآية: أنه ليس لأحد من الخلق أن يختار؛ بل الاختيار هو لله تعالى وحده.

الثالث: إن هذه الآية نزلت جوابًا عن اليهود حين قالوا: لو الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنّا به[2].

والآية مكية، ولم يكن اليهود وجدالهم في الفترة المكية! فالقول الثالث مستبعد!

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[الروم: ٥٤].

يخاطب الله تعالى عباده، ويقول لهم: إن الإله الذي يستحق أن يعبد هو الله تعالى الذي ابتدأ خلقكم من ضعف، فكان الضعف أساس خلقكم، أو خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة، ثم انتقل بكم إلى حال الشباب وبلوغ الأشدّ، ثم جعل بعد القوة حال الضعف والشيخوخة.

وقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ أي: يخلق ما يشاء من ضعف وقوة وشباب وشيبة، فهو العليم بأحوالهم، والقدير على تدبيرهم، والاختلاف في هذه الأحوال دليلٌ بيّن وواضح على وجود

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٠/ ١٤٦.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢١١.

الخالق العليم القدير[1].

الموضع الخامس: قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[الزّمر: ٤].

هذه الآية مسوقةٌ لإحقاق حق، وإبطال باطل، فقد زعم النصارى أن عيسى عليه الصلاة والسلام هو الله تعالى، كما زعم المشركون أن الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، فبيّن الله تعالى استحالة اتّخاذ الولد في حقه تعالى، فلو أراد الله سبحانه أن يتخذ ولدًا لاتّخذ من جملة ما يخلق ما يشاء، ثم أكّد الله تعالى تنزّهه عن ذلك، فهو الله المتنزه عما زعموه وافتروا به عليه كذبًا وبهتانًا، وهو القهار لكل الكائنات المخلوقة، فكيف يتصوّر أن يتخذ من الأشياء الفانية ما يقوم مقامه؟![2].

الموضع السادس: قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

والمعنى: أن الملك الأعظم هو لله عزّ وجلّ وحده، فله ملك السماوات كلها على عظمها وارتفاعها وعلوّها، وله ملك الأرض جميعها على تباينها واتساعها وتكاثف طبقاتها، فهو تعالى يخلق ما يشاء، وإن كان على غير اختيار العباد، واستدل على مسألة الخلق بما يشاهد من أحوال الناس في تفضيلهم للأولاد الذكور على الإناث اللواتي كانوا يعدونهن من البلاء في الجاهلية، فبيّن الله تعالى أنه يهب لمن يشاء إناثًا فقط دون أن يكون بينهن ذكر، كما يهب لمن يشاء الذكور فقط دون أن يكون بينهم أنثى، أو لا يهب أيّ الصنفين لأحد فيجعله عقيمًا لا يولد له. وبهذه الأصناف الأربعة تمت الدلالة على أن الله تعالى هو القادر على كل شيء[3].

وبعد استعراض هذه المواضع الستة، يتبيّن أن الخلق من صفات الربوبية لله عزّ وجلّ، وهي صفة كمال، فالله سبحانه إذا أراد شيئًا كان ولا رادّ له، وما لم يشأ لم يكن ولا مكوّن له، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. ويلاحظ من ذلك أيضًا أن مفعول المشيئة محذوف في كل المواضع، ويقدر حسب السياق الذي ورد فيه.

خامسًا: يخلق ما لا يعلمون:

إن الله تعالى كما كانت له القدرة التامة على خلق ما يشاء، فكذلك له القدرة على خلق ما لا يعلمه الناس.

يقول الله تعالى في هذا: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ٣٥٤.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٢٤٢.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ٣٥٣.

﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

فبعد أن عدّد الله تعالى مجموعة من النعم التي أنعمها على عباده من خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وخلق الأنعام، وعدّد ما فيها من منافع ومصالح للناس، ففيها دفء من ناحية اتخاذ أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها من الثياب والفرش والبيوت، كما تنتفعون بها بالأكل، ولكم فيها جمال تتجمّلون به في وقت راحتها وسكونها، ووقت حركتها وسرحها، كما ذلّلها لكم بركوبها فتحملكم إلى البلد الذي تقصدونه، وتحمل أحمالكم الثقيلة إلى البلاد البعيدة، فسبحانه هو الذي سخّر لكم ما تحتاجونه، فله الحمد على ذلك، ثم خصّ الخيل والبغال والحمير بالذكر لاستخدامها في الركوب تارة، ولأجل الجمال والزينة تارة أخرى.

ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: «مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلًا جامعًا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون»[(١)].

ويقول في موضع آخر: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[يس: ٣٦].

ويذكر النخجواني في تفسيرها: «﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ وقدّر الأصناف المتوالدة المتزايدة برمتها ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الشجر والنبات بأجناسهما وأنواعهما وأصنافهما، ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ذكورهم وإناثهم أنواعًا وأصنافًا وأشخاصًا، وكذا من جميع ما يعلمون من أجناس الحيوانات وأنواعها وأصنافها، وممّا لا يعلمون أيضًا من المخلوقات التي لا اطلاع لهم عليها؛ إذ ما من مخلوق إلا وقد خلق شفعًا، إذ الفردية والوترية والصمدية لواجب الوجود، والقيومية المطلقة من أخص أوصاف الربوبية والألوهية لا شركة فيها للمصنوع المربوب أصلًا»[(٢)].

وهكذا فإن الله عزّ وجلّ يخلق ما يشاء مما نعلم ومما لا نعلم، فهناك مخلوقات عديدة لله تعالى يقصر العقل البشري عن علمها وتعدادها وحصرها، ومهما بلغ هذا العقل من التقدم والرقي إلا أنه يبقى عاجزًا عن علم جميع مخلوقات الله تعالى التي

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٣٦.
(٢) الفواتح الإلهية ٢/ ٢٠٢.

خلقها أول الخلق، والتي يخلقها إلى قيام الساعة.

سادسًا: الحكمة من اقتران الخلق بالحق:

ورد ذكر الحق مرتبطًا بخلق السماوات والأرض في اثنتي عشرة آية، وجميع السور الواردة فيها تلك الآيات مكية، كما وردت آية مكية تثبت أن خلق السماوات والأرض لم يكن باطلًا، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

فمعنى هذه الآية كما «قال ابن عبّاس: لا لثوابٍ ولا لعقابٍ. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني أهل مكة هم الذين ظنوا أنهما خلقا لغير شيءٍ، وأنّه لا بعث ولا حساب، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾»[1].

وهذا يدلل على أن خلق السماوات والأرض بالحق في مفهومها الواضح العام ناسبت العهد المكي؛ لتناسبه مع الملامح العامة له، ويمكن التمثيل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

فيكون معنى الآية: «وهو الذي خلق السماوات والأرض بقوله: (كن) المقترنة بالقدرة التي بها يقع إيجاد المخلوق بعد عدمه، فعبّر عن ذلك بالحقّ»[2]، حيث إن أعظم ملامح العهد المكي في آياته القرآنية هو إثبات البعث والخلود، وبالتالي فإن خلق السماوات والأرض يثبت عمليًّا لأصحاب العقول أن الذي خلقهما حال كونها بالحق الراسخ قادرٌ على إحياء الخلق بعد مماتهم، ومن ثم مجازاتهم، وقد ورد الخلق مقترنًا بالحق في معرض الحديث عن تنزيه الله تعالى عن الشريك، ومن ثم إنكار البعث، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣].

فمعنى هذه الآية أن الله تعالى خلق السماوات والأرض، وهما إلى زوال وفناء، ولكن خلقهما بالحق؛ للدلالة على قدرته عزّ وجلّ، وأنه من حقه على عباده أن يطيعوه، ومن الحق الذي له أنه يحيي الخلق بعد الموت، فهو الخالق تنزّه عما يشركون من الأصنام، التي لا تقدر على خلق أي شيء[3].

وقد وردت آيتان مكيتان تثبتان أن الله تعالى لم يخلق السماوات والأرض عن

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ٦٦.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٣٠٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٦٨.

لعب، ولا تعب من خلقهما، فالآية الأولى هي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾[الأنبياء: ١٦].

أي: لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما «إلا حجة عليكم أيها الناس، ولتعتبروا بذلك كله، فتعلموا أن الذي دبره وخلقه لا يشبهه شيء، وأنه لا تكون الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء غيره، ولم يخلق ذلك عبثًا ولعبًا»[١].

وأما الآية الثانية فهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

أي: ما مسّ الخالق وما أصابه إعياء؛ لأن الذي يستريح هو المريض المرهق، وتعالى الله عزّ وجلّ عن ذلك علوًّا كبيرًا[٢].

وهذه الآية دليل واضح على قدرته تعالى على كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وبالتالي ليس غريبًا أن يكون البعث الذي يجازى فيه الخلق جميعًا.

وليس معنى ما ذكر في الآيات المكية من مدلولات وحكم وأحكام أن الآيات المدنية خلت من ذلك، ولكن ذلك يعني أن ما تمتاز به الآيات المكية المذكورة، وما لم تذكر هو تلك السمات العقدية التي ذكرت، وقد وردت آيةٌ مدنيةٌ تثبت أن خلق السماوات والأرض لم يكن باطلًا، ولكن السياق يدلل هذا الرّسوخ الإيماني الذي تمتع به أولو الألباب أصحاب العقول النيّرة، جعلهم يقرّون بهذه الحقيقة الإيمانية، بأن الله رب كل شيء ما خلق السماوات والأرض باطلًا، فإن ذلك سيصير بإذن الله تعالى إلى الميعاد، وربّنا سبحانه هو المنزّه عن أي نقص، ثم يدعو هؤلاء المتفكرون في خلقهما بأن ينجوا من عذاب النار، مع كامل الخضوع والتذلل والانكسار والتفويض لأمر الله تعالى[٣]، والآية هي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران: ١٩١].

(١) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٤١٩.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٣٣٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ١/ ٣٤١.

بداية الخلق

تتناول هذه السطور نماذج من بدايات الخلق، مثل: خلق السموات والأرض، وخلق سيدنا آدم عليه السلام، وأن الله تعالى خلق مخلوقات قبل السماوات الأرض، وقبل سيدنا آدم عليه السلام، منه ما علمه البشر، ومنه ما لم يعلموه.

أولًا: خلق السماوات والأرض:

لقد تحدثت آيات كثيرة من القرآن الكريم عن خلق السماوات والأرض مع مجموعة من المخلوقات الأخرى التي أنعم الله تعالى بها على عباده.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[الروم: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[الشورى: ٢٩].

في حين حدّدت بعض الآيات المدة الزمنية لخلق السماوات والأرض وما بينهما، فكانت في ستة أيام.

ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[السجدة: ٤].

وعن ابتداء الخلق يروي أبو هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال: (خلق الله تعالى التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل)[١].

وإن هذا لا يعني أن هناك تعارضًا بين آية خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهذا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه الصلاة والسلام، ٤/ ٢٤٩، رقم ٢٧٨٩.

الحديث الذي يبين أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في سبعة أيام؛ فتكون الإجابة من عدة جوانب، منها:

إن العدد لا مفهوم له، ومن ثمّ فإنه قد لا ينحصر الأمر عند ستة أيام.

إن الخلق الأساس قد يكون في ستة أيام، أما التفاصيل فتقتضي أوقاتًا أكثر، والله أكبر وأعز وأعلم؛ لأن الله تعالى خالق كل شيء ومقدّره، وهو الذي خلق الأسباب، وله القدرة المطلقة على تحويلها كيفما يشاء.

وعن مسألة أيهما أسبق في الخلق: السماء أم الأرض؟ ناقش هذه المسألة موضعان من كتاب الله تعالى، وهما: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣].

فهذه الآيات تبيّن أن السماء أسبق في الخلق من الأرض، والمعنى: أن الله تعالى يذكر دليلًا واضحًا بيّنًا لمنكري البعث، ومستبعدي إعادة إحياء الله تعالى للأجسام الميتة، فيقول الله تعالى: أأنتم أيها البشر أشد خلقًا أم السماء ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر، فقد بناها الله سبحانه، ورفع جرمها وصورتها، وسوّاها بإحكام دقيق، وإتقان يذهل أولي الألباب، كما أظلم ليلها، فعمّت الظلمة أرجاء السماء، وأظلم كذلك وجه الأرض، كما أخرج في السماء النور العظيم عندما خلق فيها الشمس، فانتشر الناس في النهار ينتفعون بمصالحهم، وأمور دينهم ودنياهم، ثم بعد ذلك خلق الأرض، وأودع فيها منافعها من الماء والمرعى، وتثبيت الجبال لها، فالذي خلق السماوات العظام وما فيها، وخلق الأرض الكثيفة وما فيها، لابد أن يبعث الخلق المكلّفين بعبادته، فيجازيهم على أعمالهم[1].

أما قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩-١٢].

ففيه يذكر أن الأرض أسبق في الخلق من السماء، والظاهر أن هناك إشكالًا في المعنى يتعارض مع آيات النازعات، ولكن معنى آيات فصّلت: أن الله عزّ وجلّ أمر

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٠٩.

نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بتوبيخ المشركين الذين يكفرون بالله تعالى، وهو خالق السماوات والأرض، وكما سبقت الإشارة فإن المشركين يعترفون أن الله تعالى هو الخالق، ولكنهم يشركون في العبادة معه غيره من الأصنام والأوثان.

فبيّن الله تعالى في هذه الآيات أنه خلق الأرض في يومين، ثم جعل الجبال في الأرض رواسي لتثبيتها، وبارك الله تعالى فيها بما خلق من المنافع وإنبات الشجر، وخلق البحار والأنهار والدواب، كما قدّر فيها أرزاق أهلها وما يصلح لعيشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في بلدة أخرى، فكل هذه الأمور خلقها الله تعالى في تتمة أربعة أيام أخرى.

ثم خلق الله تعالى السماء، وسوّاها، ثم أمر السماء والأرض أن تأتيا بما خلق فيهما من المنافع والمصالح للخلق.

وعلى هذا المعنى، فإن الله تعالى قال ذلك لهما بعد خلقهما، وهو قول الجمهور، فقالتا: أتينا طائعين، فانقادا وأجابا لأمر الله تعالى، فقضى السماوات وجعلهن سبعًا، وأكمل بناؤهن، ثم أوحى الله تعالى في كل سماء أمرها، وزيّن السماء الدنيا بنجوم تضيئها، وحفظها الله تعالى من الشياطين الذين يسترقون السمع[1].

والناظر في هذين الموضعين يرى أن آيات السورتين توهم في ظاهرهما الإشكال والتعارض، ولكن حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما أزال هذا التعارض حين أتى إليه رجل، وقال له: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، وعدّ له أربع مسائل، كان من ضمنها مسألة أيهما أسبق: خلق السماء أم الأرض؟ وساق له الآيات التي ذكرناها، فأجابه ابن عباس قائلًا: «وخلق الأرض في يومين ثمّ خلق السّماء، ثمّ استوى إلى السّماء فسوّاهنّ في يومين آخرين، ثمّ دحا الأرض، ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فجعلت الأرض وما فيها من شيءٍ في أربعة أيّامٍ، وخلقت السّماوات في يومين»[2].

وخلاصة القول: إن خلق الأرض نفسها كان في يومين، وكان متقدمًا على خلق السماء، ثم كان خلق السماء وما فيها من أنوار وأجرام في يومين آخرين، ثم كان دحو الأرض المخلوقة وخلق ما فيها من

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٣٤٢-٣٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا، كتاب التفسير، باب قوله: (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة)، ٦/ ١٢٧.

ضروريات الخلق ومنافعهم في يومين آخرين. وهكذا تكون السماوات خلقت وما فيها في يومين، وخلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام، والله تعالى أعلم، وقد سبقت الإشارة إلى عظيم قدرة الله تعالى في تحويل الأسباب.

ثانيًا: خلق آدم عليه الصلاة والسلام:

بعد أن خلق الله تعالى السماوات والأرض وما فيهما، خلق آدم عليه الصلاة والسلام يوم الجمعة الذي هو خير أيام الله تعالى كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها)**[1].

وكان الله تعالى قد خلقه من تراب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩].

أي: خلقه من تراب دون أب ولا أم؛ بل بكلمة ﴿كُن﴾ فكان آدم عليه الصلاة والسلام[2].

وورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب)**[3].

وشرّف الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام حين خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، فقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾[ص: ٧٥].

والمعنى: ما منعك يا إبليس عن السجود لآدم الذي تولّيت خلقه بنفسي من غير واسطة أب أو أم؟[4]، فخلقه الله تعالى في صورة بديعة وشكل حسن، حيث قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾[السجدة:٧].

ثم علّمه الله تعالى جميع مسميات الأسماء، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة:٣١].

ففضّله على جميع خلقه، حتى الملائكة، فأمرها الله تعالى بالسجود له عليه الصلاة والسلام سجود تكريم، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، ٢/ ٥٨٥، رقم ٨٥٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ٢٦٣.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، ٤/ ٣٥٨، رقم ٤٦٥٩، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٦٢، رقم ١٧٥٩.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٣/ ٢٣١.

﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤].

وبعد ذلك خلق الله تعالى له زوجه حواء، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾[النساء: ١].

فالله تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنّساء؛ فإنّ المرأة خلقت من ضلعٍ، وإنّ أعوج شيءٍ في الضّلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنّساء)[(١)].

ثم أمره الله تعالى هو وزوجه أن يسكنا في الجنة، ويأكلا منها ما شاءا، ولكن الله تعالى نهاهما عن أن يقربا شجرة عيّنها لهم، فإنهما إن قرباها وأكلا منها فسوف يكونان من الظالمين لأنفسهم، لكن الشيطان استزلّهما، وأوقعهما في الخطيئة، فأكلا من الشجرة التي نهيا عنها، فخرجا من الجنة التي كانا ينعمان فيها، حينئذ أمرهما الله تعالى بالهبوط من الجنة إلى الأرض، فهي موضع الاستقرار لهم، فلما شعر آدم عليه الصلاة والسلام بالذنب، علّمه الله تعالى كلمات يقولها، فيتوب الله تعالى عليه ويغفر له ذنبه[(٢)].

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحادثة، فقال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾[البقرة: ٣٥-٣٧].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣١، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٧٩.

معالم الخلق

نتناول هنا بعضًا من المعالم المتعلقة بالخلق، والتي يشير إليها القرآن الكريم عند حديثه عن الخلق، ومن تلك المعالم.

أولًا: الزوجية:

إن قاعدة الزوجية تمثّل قاعدة مهمة من قواعد الخلق في هذه الأرض، وهناك العديد من الآيات القرآنية التي جاءت تدلل على هذه القاعدة، وهي في الوقت نفسه دليل على صدق النبي عليه الصلاة والسلام، وأن القرآن من لدن حكيم خبير.

فالمعرفة التي كانت موجودة في زمن النبي عليه الصلاة والسلام لا تمكّن من الكشف عن قاعدة الزوجية في الأحياء، فضلًا عن ميادين الوجود المختلفة، أما اليوم وفي ظل هذا التقدم العلمي المشهود، والاكتشافات الكونية المتسارعة في المجالات المختلفة، استطاع العلماء الكشف عن أشكال التزاوج والارتباط في كافة ميادين الحياة، ابتداءً بالذرة وانتهاءً بالمجرة؛ مما يؤكّد صدق الوحي والنبوة.

ومن الآيات التي تقرّر هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

ففي هذه الآية حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض، وهي قاعدة الزوجية في الخلق، وهي ظاهرة في الأحياء، ولكن كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ تشمل غير الأحياء أيضًا، فالتعبير يقرّر أن الأشياء كالأحياء، مخلوقة على أساس الزوجية[(١)].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾: قيل: مصطحبين ومتلازمين، إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأشياء كالليل والنهار، والشقوة والسعادة، والهدى والضلالة، والأرض والسماء، والسواد والبياض، والصحة والمرض، والكفر والإيمان ونحو هذا.

وقيل: هي إشارة إلى الأنثى والذكر من كل كائن حي، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾[النجم: ٤٥][(٢)].

ورجّح الطبري القول الأول؛ لأنه دليل على قدرته تعالى على خلق الشيء وخلافه[(٣)].

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أيها المشركون أن الخالق الذي يستوجب العبادة واحد لا شريك له، هو القادر على خلق الشيء

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٣٨٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ١٨١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٢٤، الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٣٠٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٤٣٩.

وخلافه، وابتداع زوجين من كل شيء، بخلاف ما لا يقدر على ذلك.

وهو دليل على المغايرة بين المخلوق والخالق، فهو المتفرد في ذاته وصفاته وأفعاله، حيث يدرك الناس تفرّد الخالق من خلال ما يشاهدون من ظواهر تزاوج الأشياء وتركيبها، وارتباطاتها، وتوازناتها على نحو يستحيل معه العبث، والارتجال، والمصادفة[1].

وخلق الكون يقوم على مبدأ الزوجية، وقد جاءت الآيات مدلّلة على ذلك، ومن مخلوقات الكون التي يتمثل فيها مبدأ الزوجية النباتات.

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[الرعد: ٣].

يقول سيد قطب: «إن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى، حتى النباتات التي كان مظنونًا أن ليس لها من جنسها ذكور، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة، أو متفرقة في العود، وهي حقيقة تتضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد تملي ظواهره»[2].

و«قيل: إنه تعالى أول ما خلق العالم وخلق فيه الأشجار خلق من كل نوع من الأنواع اثنين فقط، فلو قال: خلق زوجين، لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص، أما لما قال: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ علمنا أن الله تعالى أول ما خلق من كل زوجين اثنين، لا أقل ولا أزيد، والحاصل أن الناس فيهم الآن كثرة إلا أنهم لما ابتدءوا من زوجين اثنين بالشخص هما آدم وحواء، فكذلك القول في جميع الأشجار والزرع»[3].

ثانيًا: الأطوار:

يعدّ خلق الإنسان من آيات الله العظيمة، خاصة إذا علمنا أن كل طور من الأطوار التي مرّ فيها خلق الإنسان هو آيةٌ ودليلٌ على صدق الوحي والنبوة، فالقرآن الكريم أخبر عن هذه الأطوار قبل أن تتوصل إليها الاكتشافات العلمية الحديثة.

وإذا أردنا الحديث عن المراحل والأطوار لخلق الإنسان لابد لنا من تقسيمه إلى قسمين:

الأول: مراحل خلق الإنسان الأول (آدم عليه الصلاة والسلام).

والثاني: مراحل خلق نسله (خلق الإنسان في بطن أمه)، وذلك كما يأتي:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/٤٣٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٢٤.

(٢) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٠٤٦.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٩/ ٧.

١ . مراحل خلق الإنسان الأول (آدم عليه الصلاة والسلام).

١ . الطين.

وهو ذلك المركّب من تراب وماء الذي يتكوّن منه جسد الإنسان، فبداية خلق الإنسان من التراب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩].

ومن الماء الذي يدخل في خلق كل شيء حي، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنبياء: ٣٠].

فإذا اختلط التراب مع الماء أصبح طينًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾[السجدة: ٧].

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾[المؤمنون: ١٢].

«والمراد به جنس الإنسان وأصله من خلاصة سلّت من طين، أو أول أفراده وهو آدم عليه الصلاة والسلام، وهذا دليل كاف على قدرة الله تعالى ووحدانيته، واتصافه بكل صفات الكمال»[1].

وقد وصف الله تعالى هذا الطين باللازب، ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾[الصافات: ١١]. أي: اللاصق، وقيل: اللازق، والفرق بينهما أن اللاصق: هو الذي قد لصق بعضه ببعض، واللازق: هو الذي يلتزق بما أصابه، وقيل: اللازب اللزج[2].

ويذكر سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم أن قبضة التراب التي خلق منها آدم كانت من جميع الأرض؛ لذلك خرجت ذريّته متفرّعة متنوّعة مختلفة، منها الأسود والأبيض، والطويل والقصير، والصالح والطالح، قال عليه الصلاة والسلام: (**إنّ الله تعالى خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسّهل والحزن والخبيث والطيّب**)[3].

٢ . الحمأ المسنون.

وهي المرحلة الثانية بعد الطين، فإذا ترك الطين أصبح حمأ مسنونًا، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ﴾[الحجر: ٢٦].

والحمأ: الطين الذي تغيّر واسودّ لونه من طول مجاورة الماء، ومسنون: اختلف أهل التفسير في معناه، فقيل: مصوّر من سنة الوجه، أو منصوب لييبس ويتصوّر، كأنه أفرغ الحمأ فصوّر منها تمثال إنسان أجوف،

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ١٨/ ١٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٦٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة البقرة، ٥/ ٥٤، رقم ٢٩٥٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٣٦٢، رقم ١٧٥٩.

أو متتن من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به، فإن ما يسيل بينهما يكون متتنًا[1].

٣. الصلصال.

فبعد أن أصبح الطين حمأ مسنونًا يجف بعدها، ويصبح صلصالًا كالفخار، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾[الرحمن: ١٤].

فالصلصال: الطين اليابس، والفخار: الخزف الذي طبخ بالنار، والمعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه في يبسه الخزف[2].

٤. نفخ الروح.

في المراحل الثلاث الأولى لا روح في آدم عليه السلام، فإن الله تعالى خلق آدم عليه السلام من طين وصوّره، ثم صار صلصالًا؛ أي: يبس الطين بعد تصويره، ثم نفخ الله الروح في جسد آدم عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝٧٢﴾[ص: ٧١- ٧٢].

وإضافة الروح إلى نفسه تعالى دليل على أنه جوهر شريف علوي قدسي[3].

[انظر: آدم: خلق آدم]

٢. مراحل نسل آدم عليه الصلاة والسلام (خلق الإنسان في بطن أمّه).

بيّنت لنا الآيات الكريمة المراحل والأطوار التي يمر فيها خلق الإنسان وهو في بطن أمه، فكما أن القرآن الكريم تحدّث عن مراحل خلق الإنسان الأوّل، كذلك تدرّج في الحديث عن خلق سلالة هذا الإنسان، ومن الآيات التي تشير إلى هذه المراحل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[الحج: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٢- ١٤].

فهذه الآيات وغيرها توضّح الأطوار التي يمرّ فيها خلق الإنسان، فبعد أن خلق

---

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٢١٠، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٥٤.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ١٦١، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٠٣.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٤١٠.

آدم عليه الصلاة والسلام وخلقت حواء من ضلعه، تبيّن الآيات مراحل خلق نسله، وأول هذه المراحل:

١. **النطفة الأمشاج.**

وهي اختلاط ماء الرجل -الذي يحمل ملايين الحيوانات المنوية- مع ماء المرأة فتكون النطفة.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[النحل: ٤].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[الإنسان: ٢].

أمشاج: أي ماء الرجل، وماء المرأة يختلطان في الرحم فيكون منهما الولد[١]، وهي أول مرحلة من مراحل خلق الإنسان، ثم تأتي المرحلة الثانية وهي:

٢. **العلقة.**

وهي الدم المتجمد[٢]، وسميت بذلك لكونها تعلق في جدار الرحم، فبعد أن يلقح الحيوان المنوي البويضة في رحم المرأة في مدة أربعين يومًا، تتحوّل النطفة إلى دم متجمد، يلتصق بجدار الرحم مدة أربعين يومًا أيضًا، حتى تتحول إلى الطور الثالث وهو:

٣. **المضغة.**

وهي القطعة الصغيرة من اللّحم بقدر ما يمضغ، وهذا الطور يمر بمرحلتين: المضغة غير المخلّقة، والمضغة المخلّقة، فالمضغة في أول أمرها تكون غير مخلّقة، أي: غير ظاهر فيها شكل الخلقة، ثم تكون مخلّقة، والمراد: تامة الخلقة بتشكيل الوجه ثم الأطراف[٣]، ثم يأتي الطور الرابع وهو:

٤. **العظام.**

وفي هذا الطور تتحول قطعة اللحم إلى هيكل عظمي، ثم يأتي الطور الخامس وهو:

٥. **كساء العظام باللحم.**

حيث يغطّى العظم بما يستره ويشدّه ويقوّيه، وهو اللحم؛ لأن اللحم يستر العظم، فجعل كالكسوة له.

يقول سيد قطب في معرض حديثه عن هذا الطور: «وهنا يقف الإنسان مدهوشًا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيرًا بعد تقدّم علم الأجنة التشريحي؛ ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم، وقد ثبت أن خلايا العظام هي التي تتكوّن أولًا في الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام، وتمام

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٨٥، لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٣٧٦.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٥١٥، البحر المديد، ابن عجيبة، ٣/ ٥١٢، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٤١٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ١٩٨، التفسير المنير، الزحيلي، ١٧/ ١٥٦.

الهيكل العظمي للجنين»[1]، ثم يأتي الطور السادس وهو:

٦. **الخلق الآخر.**

وهو جنين الإنسان ذو الخصائص المتميزة، التي تميّزه عن غيره من المخلوقات، فيكون مستعدًّا للارتقاء والتمييز والتكليف[2]، فتبارك الله أحسن الخالقين.

أما عن المدة الزمنية لكل طور من الأطوار فقد جاء تحديدها في السنة النبوية، كما في حديث ابن مسعود، وهي أربعون يومًا لكل مرحلة، حتى يكسو الله العظام لحمًا وينشأ خلق آخر، فيستمر هذا الخلق في بطن أمه بقية زمن الحمل، حتى يخرج طفلًا، قال صلّى الله عليه وسلّم: **(إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يومًا نطفة، ثمّ يكون علقةً مثل ذلك، ثمّ يكون مضغةً مثل ذلك، ثمّ يبعث اللّه ملكًا فيؤمر بأربع كلماتٍ، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثمّ ينفخ فيه الرّوح، فإنّ الرّجل منكم ليعمل حتّى ما يكون بينه وبين الجنّة إلّا ذراعٌ، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النّار، ويعمل حتّى ما يكون بينه وبين النّار إلّا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة)**[3].

وهكذا خلق الله تعالى الإنسان في عدة أطوار؛ حيث أنشأه بالتدرج طورًا بعد طور حتى صار في أحسن تقويم، وهو -جلّ شأنه- قادر على أن يقول له: كن فيكون، ولكنه سبحانه اختار لنفسه سنة التدرج في الإنشاء، وهذه هي سنة الله في خلقه؛ لذلك وجب علينا أن نأخذ هذا التدرج بعين الاعتبار في تربية الإنسان وتنشئته.

[انظر: الإنسان: خلق الإنسان]

ثالثًا: الأجل:

خلق الله تعالى الإنسان وكتب أجله في الدنيا، فالأجال بيد الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الزمر: ٤٢].

أي: أن الله يقبض النفس البشرية عند انتهاء آجالها، ويمسك الأنفس التي قضى عليها بالموت الحقيقي، ولا يردها إلى الدنيا، ويرد الأنفس النائمة إلى وقت الموت الحقيقي[4].

والأجل: المدة المحدّدة والمضروبة

---

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٥٩.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٨.
(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٢/ ٢٢٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٢٦٠.

للشيء[1]، وقد أخبر الله تعالى أنه قضى لعباده أجلين، أجلًا لمدة حياة كل فرد منهم، ينتهي بموت ذلك الفرد، وأجلًا لإعادة الأموات بعد موتهم، وانقضاء عمر الدنيا.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢][2].

واختلف أهل التفسير في معنى الأجلين، فقيل: عن مجاهد وابن عباس: الأول مدة الدنيا، والثاني عمر الإنسان إلى حين موته.

وقيل: الأول قبض الأرواح في النوم، والثاني: قبض الروح عند الموت.

وقيل: الأول ما يعرف من أوقات الأهلة والبروج وما يشبه ذلك، والثاني: أجل الموت.

وقيل: الأول لمن مضى، والثاني لمن بقي ولمن يأتي[3].

والآية حمّالة لكل المعاني، والله أعلم بمراده.

وقد جاءت كلمة الأجل في العديد من الآيات القرآنية وتحمل المعاني السابقة، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[النحل: ٦١].

أي: ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمى ليتوالدوا، وفي تفسير هذا الأجل قولان: القول الأول: وهو قول عطاء عن ابن عباس: أنه يريد أجل القيامة، والقول الثاني: أن المراد منتهى العمر، ووجه القول الأول أن معظم العذاب يوافيهم يوم القيامة، ووجه القول الثاني أن المشركين يؤاخذون بالعقوبة إذا انقضت أعمارهم وخرجوا من الدنيا[4].

وقد يأتي الأجل ويحمل معنى وقت نزول العذاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[يونس: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

«أي: وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من الله»[5].

كما أن الآجال محسومة لا يزاد فيها ولا ينقص منها، ولن يموت حي حتى يكمل ما له من عمر، وذلك لما روي عن الصادق المصدوق أنه قال: (إنّ أحدكم يجمع خلقه

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٧/ ١٣١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٤٠، فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١١٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١١/ ٢٥٦، البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ٩٦.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٢٩.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٣١.

في بطن أمّه أربعين يومًا، ثمّ يكون علقةً مثل ذلك، ثمّ يكون مضغةً مثل ذلك، ثمّ يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلماتٍ، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقيٌّ أو سعيدٌ»[1].

[انظر: الأجل: أجل الإنسان]

رابعًا: التفاضل:

شرّف الله تعالى بني آدم وكرّمهم، وفضّلهم، ورفع درجاتهم على غيرهم من سائر مخلوقاته.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولقد جعل الله تعالى الإنسان خليفته في الأرض، وكان من لوازم كون الإنسان خليفة أن يعمر الأرض في تكافل بين الناس وترابط، ولا يكون ذلك وهم في درجة واحدة.

يقول المولى تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[الأنعام: ١٦٥].

كأن من الخلافة أن لا نكون متماثلين متطابقين، بل أراد سبحانه أن نكون مختلفين في المواهب؛ لأن الناس لو كانوا صورة مكررة في المواهب، لفسدت الحياة، فلابد أن تختلف مواهبنا؛ لأن مطلوبات الحياة متعددة، إذًا فلابدّ من أن تتحقق إرادة الله في قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾، أي: أنه تعالى خالف بين عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الرزق، والعقل، والقوة، والعلم، وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز، فالله تعالى منزّه عن صفات النقص، وإنما لأجل الابتلاء، فيكون الجزاء أو العقاب منه سبحانه[2].

يقول الإمام الشعراوي عند تفسيره لهذه الآية: «إن كل واحد فيكم مرفوع في جهة مواهبه، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المخلوقون، ولا ينشأ التكاتف تفضلًا، وإنما ينشأ لحاجة، فلابد أن تكون إدارة المصالح في الكون اضطرارًا، وهذه هي هندسة المكون الأعلى سبحانه»[3].

وقد بيّن الله تعالى الهدف والغاية من هذا التفاضل بين الخلق في العديد من الآيات.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/ ١٩٢، لباب التأويل، الخازن، ٢/ ١٧٩، الوسيط، طنطاوي، ٥/ ٢٣١.

(٣) تفسير الشعراوي، ٧/ ٤٠٢٧.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزّخرف: ٣٢].

فالتفاوت في الرزق جعل هذا مسخّرًا لهذا، والعكس، فعلنا ذلك؛ ليستخدم بعضهم بعضًا في حوائجهم، ويعاون بعضهم بعضًا في مصالحهم، وبذلك تنتظم الحياة، وينهض العمران. ويعم الخير بين الناس، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدّر الله تعالى[١].

وبيّن سبحانه أن التفاضل بين البشر كما هو في الدنيا فهو في الآخرة أيضًا، قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

ففي هذه الآية إشارة إلى هذه الدرجات المتفاوتة بين الناس، فيما أمدّهم به الله سبحانه وتعالى في هذه الدنيا، إذ فيهم من وسّع الله له في الرزق، فملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وفيهم من لا يملك شيئًا من ذلك، وبين هؤلاء وأولئك درجات، هذا كلّه في الدنيا، وهم في الآخرة كذلك، درجات متفاوتة، فريق في الجنة، وفريق في السعير، وأهل الجنة درجات، وأصحاب النار دركات، وشتّان ما بين الدنيا والآخرة، وما بين النار والجنة، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فهي دار البقاء والخلود[٢].

خامسًا: التنوع في مادة الخلق:

خلق الله تعالى الكون في أبدع صورة، وخلق فيه المخلوقات في صورة تظهر كمال القدرة وتنفي الألوهية عن غيره، فتنوّعت مخلوقاته في مادة الخلق، أما الجن فإن أصل خلقها من نار كما تقرر ذلك الآيات.

قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

قال ابن عباس في قوله: ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ الحارة التي تقتل، وقال ابن مسعود: ﴿السَّمُومِ﴾ التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم[٣].

وقال أيضًا: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥].

والمارج: اللهب الصافي الذي لا دخان فيه، وقيل: هو المختلط بسواد النار[٤].

أما الملائكة فقد بيّن لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أنها مخلوقة من نور، فعن

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٢٦، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٣١٨٧، الوسيط، طنطاوي، ١٣/ ٧٧.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ١٩٠، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، ٨/ ٤٦٩.

(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ١/ ١٢٨.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٤٤٥.

عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[1].

أما باقي الأحياء على وجه الأرض فقد خلقت من ماء، فالماء هو العنصر الذي خلق الله منه كل شيء سوى الملائكة والجن مما هو حي؛ لأن الملائكة خلقوا من النور، والجانّ خلق من النار كما بيّنا.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ويدخل في قوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ جسم الإنسان، بل يمكن لنا أن نقول: وقد خلقه الله تعالى من الماء.

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

فعند الحديث عن مراحل خلق الإنسان تبيّن أن الإنسان مخلوق من تراب.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وأضيف إليه الماء فأصبح طينًا، قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

وقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن خلق آدم عليه الصلاة والسلام في أكثر من موضع، تمّ تناولها فيما سبق.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، ٤/ ٢٢٩٤، رقم ٢٩٩٦.

مقاصد الخلق

إنّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق الخلق سدىً ولا عبثًا؛ وإنّما خلق سبحانه الخلق لغاية عظيمة، وحكمة جليلة، خلق سبحانه الخلق بالحقّ.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾ [الدخان: ٣٨- ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣)﴾ [الأحقاف: ٣].

فالخلق كلّه قد خلقه الله تعالى بالحقّ، ولا يخلو خلقٌ خلقه الله من حكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وإنّ من أجلّ تلك الحكم التّنبيه على أنّ لها خالقًا قادرًا حكيمًا[1].

إنّ الله سبحانه وتعالى حكيم في فعله وخلقه، عليم بمصالح عباده، لا يصدر عنه إلا الحقّ، فهو العليم الحكيم، وهو اللطيف الخبير، وما خلق الخلق باطلًا، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

قال السعدي رحمه الله: «يخبر تعالى أنّه ما خلق السماوات والأرض عبثًا، ولا لعبًا من غير فائدةٍ؛ بل خلقها بالحقّ وللحقّ؛ ليستدل بها العباد على أنّه الخالق العظيم، المدبّر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كلّه، والحمد كلّه، والعزة كلّها، الصادق في قيله، الصادقة رسله فيما تخبر عنه، وأنّ القادر على خلق السماوات والأرض -مع سعتهما وعظمهما- قادر على إعادة الأجساد بعد موتها؛ ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته»[2].

فهذه بعض الحكم من خلق السماوات والأرض؛ أمّا خلق الإنس والجن فقد بيّن الله سبحانه الغاية من خلقهم، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

وقد أنكر سبحانه على من ظنّوا أنّهم خلقوا عبثًا مهملين، لا حساب عليهم، ولا ثواب ولا عقاب فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون: ١١٥- ١١٦].

وقد بيّن الله تعالى في آيات كثيرة من كتابه العزيز الغاية من خلق الكون، وعرّف

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١/ ٢٧٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٥٢٠.

عباده مقاصد إيجادهم، وعلة خلقهم، وفيما يأتي بيان لمقاصد خلق الثقلين من الجن والإنس خاصة، أمّا مقاصد خلق المخلوقات الأخرى فنكتفي بما أشرنا إليه.

أولًا: العبادة:

إنّ الله تعالى ما خلق الجنّ والإنس إلا لعبادته، وقد بيّن سبحانه ذلك لعباده أعظم بيان، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فعبادة الله هي الغاية العظمى لخلق الجنّ والإنس؛ فما خلقوا إلا ليستجيبوا لربّهم، وليذعنوا له سبحانه بالطاعة والعبادة؛ وذلك من خلال طاعة رسله، والتزام أمره، واجتناب نهيه، والخضوع لشرعه تعالى[(١)].

فهذا هو المقصد الأعظم من خلق الجنّ والإنس، وهذه هي الغاية الكبرى، وما عدا ذلك من المقاصد والغايات لخلق الثقلين إنّما هو مندرج تحت هذه الغاية الكبرى، وعلى العباد -إن أرادوا الفوز برضوان الله تعالى- أن يحقّقوا تلك الغاية من خلقهم؛ فعليهم أن يعرفوا ربّهم، ويعلموا دينه وشرعه، ويطيعوا رسله، ويسلّموا لأمره، ويجتنبوا معصيته، فإن فعلوا ذلك فقد استجابوا لما أمرهم به ربّهم تعالى، وأصابوا الحكمة من خلقهم في ملكه سبحانه وتعالى.

وقد ذكر المفسرون عدّة أقوال في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فقال بعضهم: المعنى ما خلقتهم إلا ليعبدني السعداء منهم ويعصيني الأشقياء؛ فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق -والتي هي عبادة الله تعالى- حاصلة بفعل السعداء منهم دون الأشقياء، وقال بعضهم: معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليقرّوا لي بالعبودية طوعًا أو كرهًا؛ لأنّ المؤمن يطيع باختياره، والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبرًا عليه، وقال بعضهم: معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا لآمرهم بعبادتي؛ فيعبدني من وفّقته منهم لعبادتي دون غيره[(٢)].

وقد رجّح الإمام الطبري رحمه الله القول الثاني، والذي ذهب إلى أنّ المراد من الآية: أنّ الله تعالى ما خلق الجنّ والإنس إلا ليذعنوا له سبحانه بالعبوديّة طوعًا أو كرهًا[(٣)].

ورجّح القول الأخير جماعة من المفسرين، منهم الإمام الشنقيطي رحمه الله إذ قال: «التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: إلا

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٥٥.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٨/ ٤٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٤٤٤.

لآمرهم بعبادتي، وأبتليهم، أي: أختبرهم بالتكاليف، ثمّ أجازيهم على أعمالهم؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وإنّما قلنا: إنّ هذا هو التحقيق في معنى الآية؛ لأنّه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله؛ فقد صرّح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملًا، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم، فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات بأنّ حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملًا، يفسّر قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وخير ما يفسّر به القرآن القرآن»[1].

وما رجّحه الشنقيطي هو الراجح -والله أعلم-؛ فالله تعالى خلق الجنّ والإنس وأراد منهم أن يعبدوه، وهذه إرادة شرعيّة، أي أنّه سبحانه أمرهم بعبادته؛ فيطيعه من وفّقوا للطاعة، ويعصيه من لم يوفّقوا لها، وليست إرادة الله تعالى في الآية إرادة كونيّة؛ إذ لو كانت كذلك للزم أن يكون العباد جميعهم عابدين لله تعالى؛ لأنّ الإرادة الكونية لا تخالف ولا تعارض.

[انظر: العبادة: مكانة العبادة]

ثانيًا: الاستخلاف:

أراد الله تعالى أن يجعل في الأرض خليفة، خلقًا من خلقه يخلف بعضهم بعضًا، قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل[2]، يقومون بتنفيذ أمر الله تعالى على أرضه، وإمضاء أحكامه[3]، واختار الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام وذريّته لتلك المهمة العظيمة، وقد أخبر سبحانه ملائكته بذلك الأمر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فالمراد بالخليفة في الآية الكريمة: إمّا آدم بتنفيذ أوامره سبحانه، وإمّا أن يكون المراد آدم عليه الصلاة والسلام وذريته، وقال بعض المفسرين: سمّى الله آدم عليه الصلاة والسلام خليفة؛ لأنّه صار خلفًا من الجنّ الذين كانوا يسكنون الأرض قبله[4].

ولا شكّ أنّ مقصد استخلاف الإنسان في الأرض تابع لمقصد العبادة لله تعالى؛ إذ إنّ الله تعالى أراد من عباده أن يعبدوه، وجعلهم خلفاء في الأرض ليقوموا عليها بالعبادة المطلوبة منهم، والعبد بعمارته لأرض الله تعالى من خلال تنفيذ شرعه سبحانه، وفعل ما أمر، واجتناب ما نهى

(١) أضواء البيان، ٧/ ٤٤٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٣٧.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٦٣.

(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١/ ٢١.



عنه وزجر، يكون بذلك قد حقّق العبودية المطلوبة منه لله تعالى؛ إذ إنّ العبادة اسم جامع لكلّ ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة.

ثالثًا: الابتلاء:

لقد ذكر الله تعالى في غير آية من كتابه العزيز أنّ المقصد والحكمة من خلق السماوات والأرض، والموت والحياة، هي ابتلاء العباد واختبارهم أيهم أحسن عملًا، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وفي مطلع سورة الملك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ① ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: يختبركم، والاختبار من الله تعالى هو إظهار ما يعلم سبحانه من خلقه[١]، فهو سبحانه بأمره ونهيه للعباد أراد أن يظهر ما قد علم منهم من طاعة وعصيان، فهو سبحانه يفعل بهم ما يفعل المبتلي[٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: كل الصفات التي تجعل العمل أحسن في ميزان الحق فهي واردة هنا، بلا تخصيص بصفة دون غيرها، ولم يقل: أكثر عملًا، بل أحسن عملًا، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله عز وجل، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حبط وبطل[٣].

وهذا المقصد من الخلق تابع للمقصد الأكبر، وهو العبادة؛ إذ إنّ أمر الله تعالى عباده بعبادته وطاعته والاستسلام لأمره ونهيه بمنزلة الاختبار والامتحان لهم؛ فمن استجاب لربّه فقد فاز وأفلح، ومن عصى وأدبر فقد خاب وخسر.

رابعًا: الاختلاف:

إنّ من مقاصد خلق الله تعالى للعباد أنّه سبحانه و تعالى أرادهم أن يكونوا مختلفين؛ ولو أراد سبحانه أن يجعلهم مجتمعين على أمّة واحدة لفعل؛ ولكنّه سبحانه أرادهم مختلفين.

وقد أخبر سبحانه وتعالى عن ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً

(١) تفسير السمرقندي، ٢/ ١٣٩.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٠/ ٤٤١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤١٨.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وقد اقتضت حكمته أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، متّبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحقّ، فيما قاله، والضلال في قول غيره، وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: اقتضت حكمته أنّه خلقهم مختلفين؛ منهم المؤمن ومنهم الكافر؛ ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقّت عليهم الضلالة؛ ليتبيّن للعباد عدل الله سبحانه وحكمته، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء[1].

وعلى هذا يمكن الجمع بين الآيتين: الآية الأولى، قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والآية الأخرى، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود: ١١٨-١١٩].

بأنّ الإرادة -التي أرادها الله تعالى من عباده- في الآية الأولى إرادة شرعيّة، حيث أمر الله تعالى عباده بعبادته وطاعته، والآية الأخرى تدل على الإرادة الكونيّة القدريّة[2]؛ فالله سبحانه قدّر من الأزل، وكتب عنده في اللوح المحفوظ أنّ الناس سيختلفون، وهذا ما أراده الله تعالى، أراد سبحانه أن يكون له أهل إيمان وطاعة، يجزيهم الجنّة والنعيم، وأراد أن يكون من عباده أهل كفر وضلال، يملأ بهم جهنّم، والله تعالى يفعل ما يريد، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾[الرعد: ٤١].

وهذا المقصد لخلق العباد تابع للمقصد الأكبر وهو العبادة؛ فإنّ الله تعالى خلق العباد وأراد منهم أن يعبدوه، وهو سبحانه يعلم أنّ منهم من يستجيب ويطيع، ومنهم من يأبى ويعصي، ويعلم سبحانه أنّهم سيختلفون، وسيفترقون إلى فريقين؛ فريق السعداء الذين أطاعوا ربّهم، وفريق الأشقياء الذين عصوا أمر ربّهم، وكلّ ذلك أراده الله تعالى.

[انظر: الاختلاف: الاختلاف سنة الله في الخلق]

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ١١٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٩٢.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/ ٤٤٨.

دلالة الخلق

لا شكّ في أنّ الخلق يدلّ على وجود الخالق، ولا ريب أنّ عظم الخلق يدلّ على عظم الخالق سبحانه وتعالى، وإنّ العبد كلّما تفكّر فيما حوله من مخلوقاتٍ لله تعالى؛ من سماءٍ، وأرضٍ، وجبالٍ، وأشجارٍ، وأنهارٍ، وأصناف الدّواب والطيور، يزداد إيمانًا بعظمة الخالق سبحانه، بديع السماوات والأرض، الذي فطر هذا الكون ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

ولا شكّ أنّ في هذا الخلق العظيم -الذي تعجز عن مجرد تصوّر عظمته واتساعه عقول البشر- لا شكّ أنّ فيه دلالات عظيمة، وبراهين جليلة، لا يغفل عنها إلا من أعمى الله بصره، وأصمّ أذنه، وعطّل عقله، وختم على قلبه.

ولقد مدح الله تعالى عباده الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، ويستدلون بما حولهم من خلق عظيم، وآيات باهرة على عظيم قدرة ربّهم تعالى، وعلى صدق رسله، وصدق وعده، وتحقق وعيده، قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

فخلق الله تعالى فيه دلالات عظيمة، وبراهين بيّنة جليلة، أراد الله تعالى من عباده أن يقفوا عليها، ويسترشدوا بها، وفيما يلي وقفة مع أهم دلالات الخلق.

أولًا: دلالة الخلق على استحقاق الخالق للعبودية:

إنّ الفطر السليمة، والعقول البصيرة تدرك أنّ من خلق وأوجد، واعتنى بخلقه لهو جدير وحده بأن يطاع ويعبد، فكيف يعبد سواه؟! ومن يستحق العبادة إلا إياه؟! وهل يستوي من خلق بمن هو مخلوق لا يملك حتى نفسه؟! ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

وهل يستوي من أبدع هذا الكون وجعل فيه تلك الآيات الباهرة، والنعم المستفيضة بمن لا يقدر على نفع نفسه، قال الله تعالى مخبرًا عن نفسه العلية، ممتنًا على عباده، هاديًا لهم ومرشدًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا

﴿تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٤-١٧].

وما أكثر الآيات في كتاب الله تعالى التي يوجّه الله تعالى فيها عباده إلى التأمل والتفكر في ملكوت السماوات والأرض؛ ليعلموا من ذلك عظمة الخالق المبدع، وليعلموا أنّه لا يجوز أن يعبد غيره، ولا ينبغي أن يدعى سواه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

ففي هذه الآيات وأمثالها في كتاب الله تعالى استدلّ الله تعالى لعباده على وجوب عبادته وحده دون سواه بأنّه سبحانه وحده هو الخالق المدبّر؛ فما دام أنّه سبحانه الخالق، وهو سبحانه الذي خلق العباد من العدم، وأنعم عليهم بالخلق والإيجاد، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فهو سبحانه المستحق وحده للعبادة[(١)].

إنّ مما تقرّه العقول وتسلّم له الألباب أنّ المخلوق ضعيف محتاج إلى خالقه، وهو مربوب لربّه الذي أوجده وربّاه، ولا يمكن له أن يستغني عنه بأي حال، وإذا كان الأمر كذلك فهل يجوز أن يعبد ذلك المخلوق الضعيف من دون خالقه؟! قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ففي هذه الآية ردّ الله تعالى على أولئك الضالين المشركين بكلمة واحدة؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾، والضمير في هذه الكلمة إما عائد على أولئك المشركين، فيكون المعنى: أنّ هؤلاء المشركين جعلوا من لم يخلقهم شريكًا لخالقهم في العبادة وهذه غاية الجهالة؛ إذ المستحق للعبادة هو الخالق لا غيره، وإمّا أن يكون الضمير عائدًا على المعبودين من دون الله تعالى، فيكون المعنى: أن المشركين اتخذوا شركاء في العبادة، وهؤلاء الشركاء هم أصلًا مخلوقون لله تعالى، فكيف يناسب أن يعبدوا من دونه سبحانه؟![(٢)].

وقد أنكر الله -تعالى في آيات كثيرة من كتابه العزيز- على من عبدوا مخلوقات مثلهم، لا تخلق شيئًا؛ وإنّما هي مخلوقة أصلًا.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

قال الشنقيطي رحمه الله: «أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى أنه هو المستحق لأن يعبد وحده؛ لأنه هو الخالق ولا يستحق

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/٣٠٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٤.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ١٩٧.

من الخلق أن يعبدوه إلا من خلقهم وأبرزهم من العدم إلى الوجود»[1].

وقال سبحانه في آيات أخرى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وبيّن سبحانه حال تلك المعبودات من دونه فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل: ٢٠- ٢١].

وما أعظم ذلك البيان الرّبّاني الذي فيه إيقاظ للقلوب الغافلة، وتنبيه للعقول الضالة، التي ظنت -ولو لحظة واحدة- أنّه يجوز أن يعبد غير الله تعالى من مخلوقات ضعيفة فانية، ضعيفة عاجزة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ۝١٩٣ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٩٤ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝١٩٥﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٥].

إنّ هذه المخلوقات في غاية العجز والضعف، لا تملك لنفسها -فضلًا عن غيرها- نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يقدم من كان عنده عقل على عبادة من كان هذا حاله؟!

إنّ الله تعالى هو خالق كلّ شيء، ولا خالق غيره، وكل ما سواه سبحانه مخلوق له، فوجب أن يكون وحده المعبود، ووجب ألا يصرف شيء من العبادة لغيره، ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ثانيًا: دلالة الخلق على قدرة الخالق على البعث:

إنّ من الدلالات العظيمة التي يدلّ عليها خلق الله تعالى الدلالة على قدرته سبحانه وتعالى على البعث، وإعادة الموتى للحياة من جديد؛ لأجل أن يحاسبوا على أعمالهم، وقد كان كفّار العرب ومن جاء بعدهم من الكفار ينكرون تلك الحقيقة العظيمة، فجاء القرآن الكريم بأعظم الأدلة وأصدقها لإثبات هذه الحقيقة العظمى.

وقد استدلّ القرآن الكريم على حقيقة البعث بعدة أدلة، من أهمها دليل الخلق، وهو دليل بديهي، يوجبه العقل، ويستلزمه المنطق، ولا يمكن أن يطرأ عليه شكٌّ أو

(١) أضواء البيان، ٢/ ٢٣٩.

ريب.

ويتلخص دليل الخلق على البعث في أنّ الله تعالى الذي خلق الخلق أوّل مرة قادر على إعادة الخلق مرة أخرى؛ فالذي أوجدهم أولًا يوجدهم ثانيًا، بل العقل يقتضي أن تكون الإعادة أهون من الإيجاد الأول.

وقد ورد في كتاب الله تعالى آيات كثيرة تثبت حقيقة البعث بدلالة الخلق، فالذي خلق هذا الكون العظيم، وفطر السماوات والأرض، قادر سبحانه على بعث العباد بعد موتهم.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ومن استدلال القرآن الكريم على حقيقة البعث بدلالة الخلق أنّ الله تعالى دعا أولئك المتشككين في حقيقة بعثهم إلى تذكر أصل خلقتهم، كيف كانوا في الأصل ترابًا، ثمّ تناسلوا من نطفة، ثم علقة، ثمّ مضغة، إلى أن صاروا بشرًا مكتملين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥].

يدعوهم ربّهم إلى النظر إلى مبدأ خلقهم؛ ليزول ريبهم؛ ويذهب شكّهم في قضية البعث والحساب[١].

إنّ العقل يستلزم أن يكون الإيجاد الأول أعظم برهان على الإيجاد الثاني، وهذا ما أخبر به القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال سبحانه ردًّا على من سألوا: من يعيدنا بعد الموت والفناء؟ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١].

إنّ دليل الخلق أول مرّة على الخلق مرّة أخرى دليل قوي عظيم، لا يرفضه إلا من فقد عقله، ونسي أصله، فبحسب الإنسان أن يذكر نشأته الأولى؛ ليعلم أن الله تعالى قادر على البعث والإحياء؛ لذا بيّن الله تعالى أنّ من أنكروا البعث قد نسوا أصلهم، ونسوا نشأتهم الأولى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

فكان الرّدّ من الله تعالى على ذلك الجاحد بتذكيره بخلقه الأول: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

قال الشنقيطي رحمه الله: «ولأجل قوة دلالة هذا البرهان المذكور على البعث

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ٩٣.

بيّن جل وعلا أنّ من أنكر البعث فهو ناسٍ للإيجاد الأول، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ [يس: ٧٨]؛ إذ لو تذكر الإيجاد الأول على الحقيقة لما أمكنه إنكار الإيجاد الثاني»[1]، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٦-٦٧].

[انظر: البعث: منهج القرآن في تقرير مبدأ البعث]

التفكر في المخلوقات

وردت العديد من الآيات التي تدعو إلى التفكر والتأمل في خلق الله تعالى، والتي تدلل على وحدانية الله تعالى، وقدرته، ومن هذه الآيات:

أولًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقد اشتملت هذه الآية على ثماني آيات كونية عظيمة دالة على عظمة الخالق تعالى وقدرته، وفيها دعوة للتفكر والتأمل في خلق الله تعالى.

أول هذه الآيات الدالة على عظم خالقها، هي السماوات، فالسماء على ارتفاعها طبقات مفصولة ومرفوعة بغير عمد، واتساعها، وكواكبها السيارة، وبروجها، ودوران فلكها، لهي من أكبر الآيات الدالة على قدرة المولى تعالى، وثانيها الأرض في مدها، وبسطها، وكثافتها، وانخفاضها، وجبالها، وبحارها، وقفارها، ووهادها، وعمرانها، وما فيها من المنافع العظيمة من معادن عظيمة بداخلها، والتي تشهد على

(١) أضواء البيان، ٤/ ٢٦٥.

وحدانية خالقها[1].

ثم جاءت الآية الثالثة والمتمثلة في اختلاف الليل والنهار وتتابعهما دون تأخر، كما قال الله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠].

تارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾[فاطر: ١٣].

فكل ذلك دليل على الخالق المبدع[2].

قال الخازن: «والآية في الليل والنهار أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة يكون في النهار، وطلب النوم والراحة يكون في الليل، فاختلاف الليل والنهار إنما هو لتحصيل مصالح العباد»[3].

أما الآية الرابعة فمتمثّلة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤].

أي: تسخير البحر لحمل السفن التي تنقل الناس من جانب لآخر، ونقل تجارتهم[4]، «والآية في الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء، وهي موقّرة بالأثقال والرجال، فلا ترسب، وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة، وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء، وهيجان البحر فلا ينجي منه إلّا الله تعالى»[5].

ثم الآية الخامسة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:١٦٤].

ففي هذه الآية دليل على قدرة الله تعالى، وفيها عبرة لأولي الألباب والعقول، ومدعاة للتفكر والتأمل في خلقه تبارك وتعالى، وذلك أنه قال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

فمن شأن الماء الذي يسقي الأرض أن ينبع منها، لكنه جعل الماء نازلًا عليها من ضدها وهو السماء. وفي الآية عبرة علمية، أوضحها أهل العلم، «وذلك أنّ جعل الماء نازلًا من السماء يشير إلى أن بخار الماء يصير ماء في الكرة الهوائية عند ما يلامس الطبقة الزمهريرية، وهذه الطبقة تصير زمهريرًا عند ما تقل حرارة أشعة الشمس، ولعل في بعض الأجرام العلوية وخاصة القمر أهوية باردة يحصل بها الزمهرير في ارتفاع الجو، فيكون لها أثر في تكوين البرودة في أعلى الجو، فأسند إليها بإنزال الماء مجازًا عقليًا»[6].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٧٤، البحر المديد، ابن عجيبة، ١/ ١٩١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٧٤.
(٣) لباب التأويل، ١/ ١٠٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٧٤.
(٥) لباب التأويل، ١/ ١٠٠.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٨٣.

وكما جاء في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[يس: ٣٣].

ثم تأتي الآية السادسة في قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة:١٦٤].

أي: جعل فيها من جميع الحيوانات، على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك[١]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[هود: ٦].

«قال ابن عباس: يريد كل ما دب على وجه الأرض من جميع الخلق من الناس وغيرهم، والآية في ذلك أن جنس الإنسان يرجع إلى أصل واحد وهو آدم، ثم ما فيهم من الاختلاف في الصور والأشكال والألوان والألسنة والطبائع والأخلاق والأوصاف إلى غير ذلك، ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان»[٢]، وعبّر عنه بالبث لتصوير ذلك الخلق العجيب المتكاثر[٣].

والآية السابعة في قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة:١٦٤].

أي: هبوبها من جهات مختلفة، وهي الجهات الأربع، وتنوعها مع ذلك، فتارة تأتي للعذاب، وتارة للرحمة، مع تفريق للعلماء بينهما[٤]، وما بينها من صفات مختلفة كلها دليل على قدرة الله تعالى.

وآخر هذه الآيات متمثّلة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

«والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأدوية العظيمة يبقى معلّقًا بين السماء والأرض»[٥].

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[الغاشية: ١٧].

هذه آية أخرى تحثّ على التفكر في مخلوقات الله تعالى، وجاء الحث في هذه الآية على التفكر في إحدى مخلوقاته التي كانت معهودة عند العرب، فقال الله تعالى: أفلا ينظر أهل مكة والناس عامة نظر اعتبار وتفكر إلى الإبل، وهي الجمال، جمع بعير، ولا مفرد لها من لفظها[٦]، كيف جاء خلقها دقة في الإبداع، ودليل على كمال قدرته تبارك وتعالى.

وقد يتساءل البعض: لماذا جاء ذكر الإبل دون غيرها من الحيوانات التي كانت

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٧٤.

(٢) لباب التأويل، الخازن، ١/ ١٠٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٨٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٧٤، البحر المديد، ابن عجيبة، ١/ ١٩١.

(٥) لباب التأويل، الخازن، ١/ ١٠٠.

(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٣٠/ ٢١٤.

موجودة عند العرب؟ نقول: إن الإبل أكثر الحيوانات ذات قيمة عند العرب، ولما لها من خصائص تميّزها عن باقي الحيوانات.

وقد جاء ذكر هذه الخصائص في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ٥-٧].

«والأنعام: الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقال: نعم وأنعام للإبل»[(١)]، وإن شيئًا من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال فكان اجتماع هذه الخصال في هذا المخلوق من العجائب[(٢)].

قال الإمام الرازي: «إنه في كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا يوجد فيه إلا تلك الخصلة؛ لأنها إن جعلت حلوبة سقت فأروت الكثير، وإن جعلت أكولة أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جعلت ركوبة أمكن أن يقطع بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعه بحيوان آخر، وذلك لما ركّب فيها من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش، والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزئ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٦٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣١/ ١٤٤.

حيوان آخر، وإن جعلت حمولة استغلّت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقل بها سواها، ومنها أن هذا الحيوان كان أعظم الحيوانات وقعًا في قلب العرب؛ ولذلك فإنهم جعلوا دية قتل الإنسان إبلًا، وكان الواحد من ملوكهم إذا أراد المبالغة في إعطاء الشاعر الذي جاءه من المكان البعيد أعطاه مائة بعير؛ لأن امتلاء العين منه أشد من امتلاء العين من غيره»[(٣)].

فكيف يصح للمشركين إنكار البعث والمعاد واستبعاد وقوع ذلك، وهم يشاهدون الإبل التي هي غالب مواشيهم وأكبر المخلوقات في بيئتهم، كيف خلقها اللّه على هذا النحو البديع، من عظم الجثة، ومزيد القوة، وبديع الأوصاف، فهي خلق عجيب، وتركيب غريب، ومع ذلك نراها تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للولد الصغير، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها، وتصبر على الجوع والعطش، وترعى كل ما يتيسر لها من شوك وشجر وغير ذلك، مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم، فتبارك الله أحسن الخالقين[(٤)].

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[يس:

(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٥/ ٣٢٩، محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٤٢٦، التفسير المنير الزحيلي، ٣٠/ ٢١٤.

.[٧٨

تتحدث هذه الآية والتي قبلها عن بعض أهل الكفر الذين جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم وأنكروا قدرة الله تعالى على البعث والجزاء، فكان الرد من الله تعالى عليهم، ودفع شبهتهم.

قال أهل التفسير: إن هذه الآية نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقيل: هو أبي بن خلف الجمحي، وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم حائل فقال: يا محمد، أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رمّ؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم، ويبعثك الله ويدخلك النار) فنزلت هذه الآية[١].

فالله تعالى يرد على منكري البعث، الذين يستبعدون عودة العظام إلى الحياة بعد أن تصبح بالية، فهذا الإنسان الجاهل المجادل بالباطل، ضرب مثلًا هو في غاية الغرابة، حيث أنكر قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وعلى بعثهم يوم القيامة، فقال: - دون أن يفطن إلى أصل خلقته- من يحيي العظام وهي بالية أشد البلى؟

ونسي أصل خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم المراحل التي يمر فيها خلق الإنسان، واختاروا العظم للذكر؛ لأنه أبعد عن الحياة؛ لعدم الإحساس فيه، ووصفوه بما يقوي جانب الاستبعاد من البلى والتفتت[٢].

لهذا لقّن الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم الجواب الذي يخرس ألسنة المنكرين للبعث، فقال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت، وأين تفرّقت وتمزّقت[٣].

فحريٌّ بهذا المجادل أن ينظر في خلقه قبل التنكر والاستبعاد، فلو فكر وتدبر مليًّا في ذلك لما أنكر قدرة الله تعالى على إعادة الخلق، وعلى كل إنسان أن يمعن تفكيره في خلق الله تعالى الدال على قدرته، وتفرده بالألوهية.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١].

في هذه الآية حثٌّ من المولى تعالى للإنسان على التفكر والتدبر في خلقه، ففيها دلالة واضحة على أن الإنسان معجز في خلقه، وفيه دليل على توحيد الله، وصدق ما جاءت به الرسل، فالله تعالى يخاطبنا قائلًا: أفلا تنظرون نظرة متأمل معتبر ناظر بعين البصيرة، فتستدلون بذلك على الخالق

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٧٥، لباب التأويل، الخازن، ٤/ ١٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٠٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٦٤، التفسير الوسيط، الطنطاوي، ١٢/ ٥٦.

الرازق، المتفرد بالألوهية، فليست نفوسكم مخلوقة بالصدفة ولا بالطبيعة، وإنما خالقها الله القادر على كل شيء، وعلى البعث وإعادة الحياة، ففي النفس من بداية خلقها، وتنقلها من مرحلة إلى أخرى، وما في تراكيب أعضائها، واختلاف الألوان والألسنة والصور، من الأدلة المقنعة على قدرته تعالى ووحدانيته(١).

قال ابن عجيبة: «﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ آيات وعجائب القدرة؛ إذ ليس شيء في العالم إلا وفي الأنفس له نظير، مع ما فيه من الهيئات النابعة والمصادر البهية، والترتيبات العجيبة، خلقه نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم فصلها إلى العظم والعصب والعروق، فالعظام عمود الجسد، ضمّ بعضها إلى بعض بمفاصل وأقفال ربطت بها، ولم تكن عظمًا واحدًا؛ لأنه إذ ذاك يكون كالخشبة، لا يقوم ولا يجلس، ولا يركع ولا يسجد لخالقه، ثم خلق تعالى المخ في العظام في غاية الرطوبة ليرطب يبس العظام، ويتقوّى به، ثم خلق سبحانه اللحم وعبأه على العظام، وسدّ به خلل الجسد، واعتدلت هيئته، ثم خلق سبحانه العروق في جميع الجسد جداول، يجري الغذاء منها إلى أركان الجسد، لكل موضع من الجسد عدد معلوم، ثم أجرى الدم في العروق سيالًا خاثرًا، ولو كان يابسًا، أو أكثف مما هو فيه، لم يجر في العروق، ثم كسى سبحانه اللحم بالجلد كالوعاء له، ولولا ذلك لكان قشرًا أحمر، وفي ذلك هلاكه، ثم كساه الشعر وقايةً وزينةً، وليّن أصوله، ولم تكن يابسة مثل رؤوس الإبر، وإلا لم يهنه عيش، وجعل الحواجب والأشفار وقاية للعين، ولولا ذلك لأهلكهما الغبار والسقط، وجعلها سبحانه طوع يده، يتمكن من رفعها عند قصد النظر، ومن إرخائها على جميع العين عند إرادة إمساك النظر عما يضر دينًا ودنيا، وجعل شعرها صفًّا واحدًا لينظر من خلالها، ثم خلق سبحانه شفتين تنطبقان على الفم تصونان الحلق والفم من الرياح والغبار، ولما فيهما من كمال الزينة، ثم خلق الله سبحانه الأسنان ليتمكن من قطع مأكوله وطحنه، ولم تكن له في أول خلقته؛ لئلا يؤذي أمه، وجعلها ثلاثة أصناف: قسم يصلح للكسر؛ كالأنياب، وقسم يصلح للقطع؛ كالرباعية، وقسم يصلح للطحن؛ كالأضراس، إلى غير ذلك مما في الإنسان من عجائب الصنع وبدائع التركيب»(٢).

ثم ختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي: تنظرون نظر من يعتبر، قال قتادة: «من تفكر في خلق

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٤٠، محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٤٠، التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٢٧/ ١٩.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ٥/ ٤٧١.

نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة»[1].

موضوعات ذات صلة:

آدم، الأرض، الإنسان، البصر، التفكر، الجبال، الحكمة، الحيوان، السماء، السير

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤١٩.



عناصر الموضوع

مفهوم الخمر

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (خمر) تدل على التغطية والمخالطة في ستر[(١)].

والخَمْرُ: مَا أسكر من عصير العنب أو غيره؛ لأنها خامرت العقل[(٢)].

سمِّيت الخَمْرُ خَمْرًا؛ لأَنَّها تُرِكَتْ فاختمرت، واختِمارها: تغيُّر ريحِها. ويقال: سُمِّيَتْ بذلك لمخامرتها العقل[(٣)].

والتَّخْمِير: التّغطِيَةُ[(٤)].

وهذه المعاني الثلاث: التخمر والمخالطة والستر، كلها موجودة في الخمر:

١. فهي تحجب العقل وتستره.

٢. وهي تترك حتى تتخمر ويتغير طعمها وريحها.

٣. وهي تخالط العقل.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الخمر اصطلاحًا: كل شراب مسكر، من أي أصل، سواء كان من الثمار كالعنب والرطب والتين، أو الحبوب كالحنطة والشعير، أو الطلول كالعسل أو الحيوان كألبان الخيل[(٥)].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢١٥.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٥/ ١٨٥.
(٣) الصحاح، الجوهري ٢/ ٦٤٩.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ٧/ ١٦٢.
(٥) السياسة الشرعية ص٥٠.



الخمر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خمر) في القرآن الكريم (٧) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٦	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة:٩٠]
جمع خمار	١	﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١]

ولم تخرج (الخمر) في الاستعمال القرآني عن معناها اللغوي وهو: كل شراب مسكر.

والخمر سميت بذلك؛ لأنها تستر العقل[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٤٥.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٧١، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٥٣٣-٥٣٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكأس:

الكأس لغة:

الزجاجة ما دام فيها شراب، ولا تسمى الكأس كأسًا إلا وفيها الشراب، وقيل: الكأس: الشراب بعينه، وقيل: هو اسم للخمر نفسها[(١)].

الكأس اصطلاحًا:

لا يختلف معنى الكأس اصطلاحًا عن معناه اللغوي.

الصلة بين الكأس والخمر:

الكأس هو القدح الذي يشرب به الخمر إذا كان فيه الخمر، ويطلق على الشراب بعينه. وقد جاء في القرآن الكريم إطلاق الكأس على الخمر في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الصافات:٤٥] بمعنى الخمر[(٢)].

٢ الشراب:

الشراب لغة:

يقال: شربت الماء أشربه شربًا، والشّرب الاسم، والشّراب: ما يشرب[(٣)].

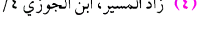
الشراب اصطلاحًا:

الشراب كل مائع يشرب؛ سواء كان ماءًا أو غير الماء.

الصلة بين الشراب والخمر:

أما الشراب فهو عام في كل ما يشرب، وقد جاء في القرآن الكريم إطلاقه على الخمر في قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١] أي: خمر الجنة[(٤)].

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ١٨٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٤٠.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٦٧.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٨٠.



٣ السكر:

السّكر لغة:

أصل مادة (سكر) تدل على حيرة، من ذلك السُّكر من الشراب[١].

والسَّكْران: خلاف الصاحي، والجمع سَكْرى وَسَكارى[٢].

السّكر اصطلاحًا:

وأما السكر: فهو «حالة تعترض بين المرء وعقله. وأكثر ما يستعمل ذلك في شراب المسكر، وقد يعتري من الغضب والعشق»[٣].

الصلة بين السّكر والخمر:

كل ما يؤدي إلى السكر فهو خمر، وقد جاء في صحيح مسلم: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (كلّ مسكرٍ خمرٌ، وكلّ مسكرٍ حرامٌ).

والحديث يفيد أن كل ما أسكر يسمى خمرًا، وأن كل مسكرمحرم، سواء أطلق عليه اسم الخمر، أم أطلق عليه اسم آخر؛ لأن علة التحريم هي الإسكار، فحيثما وجد وجدت الحرمة.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٨٩.
(٢) الصحاح، الجوهري ٢/ ٦٨٧.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤١٦.

حقيقة الخمر

أولًا: كل مسكر خمر:

اختلف في حقيقة الخمر «فقيل هي من عصير العنب خاصة، وهو مذهب أبي حنيفة -رحمه الله تعالى- والكوفيين، مراعاة لفقه اللغة: أو عام، أي: ما أسكر من عصير كل شيء؛ لأن المدار على السكر وغيبوة العقل، وهو الذي اختاره الجماهير»[١].

وقد تقدم اشتقاقها، ولكن الخلاف في كونها اسمًا لكل مسكر أو للنّيّ المتخذ من العنب والتمر، قال الفيروزآبادي: «والخمر سمّيت لكونها خامرة لمقرّ العقل، وهو عند بعض الناس اسم لكلّ مسكر، وعند بعضهم اسم للمتخذ من العنب والتمر، لما روي عنه صلّى الله عليه وسلم: (الخمر من هاتين الشّجرتين: النّخلة والعنبة)، ومنهم من جعلها اسمًا لغير المطبوخ، ثم كميّة الطّبخ التي تسقط عنه اسم الخمر مختلف فيها»[٢].

وينبني على هذا الخلاف اللغوي مسألة فقهية وهي حكم ما أسكر كثيره ولم يسكر قليله: فإن كان ما يسكر يسمى خمرًا لزم كون القليل منه محرمًا ولو لم يسكر لانطباق اسم الخمر عليه، وإن لم يسم خمرًا لم يحرم قليله؛ لعدم تحقق العلة التي يقاس بسببها على الخمر فيه، قال الجصاص: «وقد اختلف فيما يتناوله اسم الخمر من الأشربة: فقال الجمهور الأعظم من الفقهاء: اسم الخمر في الحقيقة يتناول النّيّ المشتد من ماء العنب، وزعم فريق من أهل المدينة ومالك والشافعي أن كل ما أسكر كثيره من الأشربة فهو خمر» ثم شرع يحتج لقول الحنفية وينتصر له[٣].

وقد خرج القرطبي من هذا الخلاف اللغوي باستدلال ذكي فقال: «والخمر: ماء العنب الذي غلى أو طبخ، وما خامر العقل من غيره فهو في حكمه؛ لأن إجماع العلماء أن القمار كله حرام. وإنما ذكر الميسر من بينه فجعل كله قياسًا على الميسر، والميسر إنما كان قمارًا في الجزر خاصة، فكذلك كل ما كان كالخمر فهو بمنزلتها»[٤]. ومفهوم قوله أن إجماع الناس على تحريم جميع أنواع القمار مع دلالة الميسر على نوع خاص منها فقط، يستلزم إجماعهم على تحريم كل المسكرات وأن حكم جميعها واحد ولو دل اسم الخمر على نوع خاص منها فقط. قال: «والجمهور من الأمة على أن ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فمحرم قليله وكثيره، والحد في ذلك واجب. وقال أبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وابن

(١) تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٢٠٨.
(٢) المفردات، الراغب ص٢٩٩.
(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٢.

شبرمة وجماعة من فقهاء الكوفة: ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فهو حلال، وإذا سكر منه أحد دون أن يتعمد الوصول إلى حد السكر فلا حد عليه، وهذا ضعيف يرده النظر والخبر»[(١)].

والخبر الذي ذكره القرطبي جملة أحاديث منها ما روى البخاري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أن عائشة، قالت: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البتع، فقال: (كل شراب أسكر فهو حرام)[(٢)].

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب، لم يشربها في الآخرة)[(٣)].

وفي صحيح البخاري أيضًا عن أنس قال: (حرمت علينا الخمر حين حرمت، وما نجد -يعني: بالمدينة- خمر الأعناب إلا قليلًا، وعامة خمرنا البسر والتمر)[(٤)].

وعن ابن عمر قال: سمعت عمر رضي الله عنه على منبر النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (أما بعد، أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر، وهي من خمسة من: العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل)[(٥)].

قال ابن حجر: «هذا الحديث أورده أصحاب المسانيد والأبواب في الأحاديث المرفوعة؛ لأن له عندهم حكم الرفع؛ لأنه خبر صحابي شهد التنزيل أخبر عن سبب نزولها، وقد خطب به عمر على المنبر بحضرة كبار الصحابة وغيرهم فلم ينقل عن أحد منهم إنكاره، وأراد عمر بنزول تحريم الخمر آية المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ إلى آخرها، فأراد عمر التنبيه على أن المراد بالخمر في هذه الآية ليس خاصًّا بالمتخذ من العنب بل يتناول المتخذ من غيرها، ويوافقه حديث أنس الماضي فإنه يدل على أن الصحابة فهموا من تحريم الخمر تحريم كل مسكر، سواء كان من العنب أم من غيرها، وقد جاء هذا الذي قاله عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم صريحًا. فأخرج أصحاب السنن الأربعة[(٦)]

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب الخمر من العنب، ٧/ ١٠٥، رقم ٥٥٨٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، ٣/ ١٥٨٧، رقم ٢٠٠٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب الخمر من العنب، ٧/ ١٠٥، رقم ٥٥٨٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، ٦/ ٥٣، رقم ٤٦١٩.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب الخمر مما هو، ٣/ ٣٢٦، رقم ٣٦٧٧، والنسائي في سننه، كتاب الأشربة، باب ذكر الأخبار التي اعتل بها من أباح السكر،

وصححه ابن حبان من وجهين عن الشعبي أن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الخمر من العصير والزبيب والتمر والحنطة والشعير والذرة وإني أنهاكم عن كل مسكر). ولأبي داود من وجه آخر عن الشعبي عن النعمان بلفظ: (إن من العنب خمرًا وإن من التمر خمرًا وإن من العسل خمرًا وإن من البر خمرًا وإن من الشعير خمرًا)... ولأحمد من حديث أنس بسند صحيح عنه قال: (الخمر من العنب والتمر والعسل)، ولأحمد من حديث أنس بسند صحيح عنه قال: (الخمر من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير والذرة)»[1].

وللبخاري أيضًا عن أنس قال: (كنت قائمًا على الحي أسقيهم، عمومتي وأنا أصغرهم، الفضيخ، فقيل: حرمت الخمر، فقالوا: أكفئها، فكفأتها) قلت لأنس: ما شرابهم؟ قال: (رطب وبسر) فقال أبو بكر بن أنس: وكانت خمرهم، فلم ينكر أنس وحدثني بعض أصحابي: أنه سمع أنس بن مالك يقول: (كانت خمرهم يومئذ)[2].

ومن وجه آخر عنه قال: (كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، فنزل تحريم الخمر، فأمر مناديًا فنادى، فقال أبو طلحة: اخرج فانظر ما هذا الصوت، قال: فخرجت فقلت: هذا مناد ينادي: (ألا إن الخمر قد حرمت)، فقال لي: اذهب فأهرقها، قال: فجرت في سكك المدينة، قال: وكانت خمرهم يومئذ الفضيخ، فقال بعض القوم: قتل قوم وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾[المائدة:٩٣])[3].

قال القرطبي: «هذا الحديث في نزول الآية فيه دليل واضح على أن نبيذ التمر إذا أسكر خمر، وهو نص ولا يجوز الاعتراض عليه؛ لأن الصحابة رحمهم الله هم أهل اللسان، وقد عقلوا أن شرابهم ذلك خمر؛ إذ لم يكن لهم شراب ذلك الوقت بالمدينة غيره.

ومن الدليل الواضح على ذلك ما رواه النسائي: أخبرنا القاسم بن زكريا، أخبرنا عبيد الله عن شيبان عن الأعمش عن محارب بن دثار عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(الزبيب والتمر هو الخمر). وثبت بالنقل الصحيح أن عمر بن الخطاب

٨/ ٣٢٠، رقم ٥٦٨٢.

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب نزل تحريم الخمر وهي من البسر والتمر، ٧/ ١٠٥، رقم ٥٥٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا، ٦/ ٥٤، رقم ٤٦٢٠.

رضي الله عنه -وحسبك به عالمًا باللسان والشرع- خطب على منبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (**يا أيها الناس، ألا إنه قد نزل تحريم الخمر يوم نزل، وهي من خمسة: من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل**). وهذا أبين ما يكون في معنى الخمر، يخطب به عمر بالمدينة على المنبر بمحضر جماعة الصحابة، وهم أهل اللسان ولم يفهموا من الخمر إلا ما ذكرناه. وإذا ثبت هذا بطل مذهب أبي حنيفة والكوفيين القائلين بأن الخمر لا تكون إلا من العنب، وما كان من غيره لا يسمى خمرًا ولا يتناوله اسم الخمر، وإنما يسمى نبيذًا»[(١)].

وقال ابن العربي: «والصحيح ما روى الأئمة أن أنسًا قال: (**حرمت الخمر يوم حرمت وما بالمدينة خمر الأعناب إلا قليل، وعامة خمرها البسر والتمر**). خرجه البخاري، واتفق الأئمة على رواية الصحابة إذ حرمت الخمر لم يكن عندهم يومئذ خمر عنب؛ وإنما كانوا يشربون خمر النبيذ، فكسروا دنانهم، وبادروا الامتثال لاعتقادهم أن ذلك كله خمر. وصح عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر: (**إن تحريم الخمر نزل، وهي من خمسة: العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير**). والخمر ما خامر العقل»[(٢)].

قال: «وتعلق أبو حنيفة بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة ذكرناها في شرح الحديث، ومسائل الخلاف فلا يلتفت إليها»[(٣)].

وقد رويت أحاديث صريحة في تحريم قليل ما يسكر كثيره: فعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ما أسكر كثيره، فقليله حرام**)[(٤)].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**كل مسكر حرام، وما أسكر منه الفرق فملء الكف منه حرام**)[(٥)]، وفي رواية للترمذي: (**الحسوة منه حرام**)[(٦)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٩٤.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، ٣/ ٣٢٧، رقم ٣٦٨١، والترمذي في سننه، أبواب الأشربة، باب ما جاء ما أسكر كثيره فقليله حرامٌ، ٤/ ٢٩٢، رقم ١٨٦٥.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٧٠، رقم ٥٥٣٠.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة باب النهي عن المسكر، ٣/ ٣٢٩، رقم ٣٦٨٧.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، ٤/ ٢٩٣، رقم ١٨٦٦.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٨/ ٤٤، رقم ٢٣٧٦.

ثانيًا: نجاسة الخمر:

نصت آية سورة المائدة على أن الخمر رجس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ﴾.

و«الرجس هو الذي يلزم اجتنابه إما لنجاسته وإما لقبح ما يفعل به عبادة أو تعظيم، لأنه يقال: رجس نجس، فيراد بالرجس: النجس ويتبع أحدهما الآخر كقولهم: حسن بسن وعطشان نطشان وما جرى مجرى ذلك»[1].

والرجس: هو «النجس، وقد روي في صحيح حديث الاستنجاء (أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بحجرين وروثة، فأخذ الحجرين وألقى الروثة، وقال: إنها ركس)[2]، أي: نجس. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الرجس النجس، الخبيث المخبث)»[3].

وأخذ من إطلاق الرجس عليها الحكم بنجاستها عند جمهور الفقهاء، قال الخازن: «الخمر وما يلحق بها نجسة العين، ويدل على نجاستها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾[المائدة:٩٠].

والرجس في اللغة: النجس والشيء المستقذر، وقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ فأمر باجتنابها فكانت نجسة العين»[4].

والقول بنجاستها هو الذي عليه عامة الفقهاء إجراء لظاهر الآية «ولا خلاف في ذلك بين الناس إلا ما يؤثر عن ربيعة أنه قال: إنها محرمة، وهي طاهرة، كالحرير عند مالك محرم، مع أنه طاهر. ويعضد ذلك من طريق المعنى أن تمام تحريمها وكمال الردع عنها الحكم بنجاستها حتى يتقذرها العبد، فيكف عنها، قربانًا بالنجاسة وشربًا بالتحريم، فالحكم بنجاستها يوجب التحريم»[5].

وقد ذهبت طائفة من الفقهاء إلى طهارة عينها مع كونها محرمة مستدلين على ذلك بإراقتها في طرقات المدينة كما نص على ذلك القرطبي، قال: «فهم الجمهور من تحريم الخمر، واستخباث الشرع لها، وإطلاق الرجس عليها، والأمر باجتنابها، الحكم بنجاستها. وخالفهم في ذلك ربيعة والليث بن سعد والمزني صاحب الشافعي، وبعض المتأخرين من البغداديين والقرويين فرأوا أنها طاهرة، وأن المحرم إنما هو شربها. وقد استدل سعيد بن الحداد القروي على طهارتها بسفكها في طرق المدينة،

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ١٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب لا يستنجى بروث، ١/ ٤٣، رقم ١٥٦.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ١٦٤.
(٤) لباب التأويل، الخازن ١/ ١٥٠.
(٥) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ١٦٥.

قال: ولو كانت نجسة لما فعل ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، ولنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه كما نهى عن التخلي في الطرق»[1].

وأجاب القرطبي عن ذلك بأن الطرقات كانت واسعة وأنه كان يمكن التحرز منها، قال: «والجواب: أن الصحابة فعلت ذلك؛ لأنه لم يكن لهم سروب ولا آبار يريقونها فيها، إذ الغالب من أحوالهم أنهم لم يكن لهم كنف في بيوتهم. وقالت عائشة رضي الله عنها إنهم كانوا يتقذرون من اتخاذ الكنف في البيوت، ونقلها إلى خارج المدينة فيه كلفة ومشقة، ويلزم منه تأخير ما وجب على الفور. وأيضًا فإنه يمكن التحرز منها، فإن طرق المدينة كانت واسعة، ولم تكن الخمر من الكثرة بحيث تصير نهرًا يعم الطريق كلها، بل إنما جرت في مواضع يسيرة يمكن التحرز عنها، هذا مع ما يحصل في ذلك من فائدة شهرة إراقتها في طرق المدينة، ليشيع العمل على مقتضى تحريمها من إتلافها، وأنه لا ينتفع بها، وتتابع الناس وتوافقوا على ذلك. والله أعلم»[2].

ثالثًا: حكمة اقتران الخمر بأعمال الجاهلية:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

فقرنت الآية بين الخمر والميسر وبين الأنصاب والأزلام وجعلت جميعها رجسًا من عمل الشيطان.

وقد ذكرت الأنصاب والأزلام في مطلع السورة نفسها في قوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌ﴾ [المائدة: ٣].

والنصب جمع نصب: وهو «حجر كان ينصب فيعبد، ويقال: هو النصب، وهو حجر ينصب بين يدي الصنم تصب عليه دماء الذبائح للأصنام»[3].

وقيل: جمعٌ «واحده نصاب كحمار وحمر. وقيل: هو اسم مفرد والجمع أنصاب، وكانت ثلاثمائة وستين حجرًا»[4].

وهذه الأنصاب غير الأصنام؛ لأنها حجارة غير مصورة، «قال ابن جريج: النصب ليست بأصنام، الصنم يصوّر وينقش، وهذه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٨٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٥٧.

حجارة تنصب، ثلاثمائة وستون حجرًا، منهم من يقول: ثلاثمائة منها لخزاعة، فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرّحوا اللحم وجعلوه على الحجارة. فقال المسلمون: يا رسول الله، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحقّ أن نعظمه! فكأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكره ذلك، فأنزل الله: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ [الحج:٣٧]»[١].

ويرى القرطبي أن النهي متوجه إلى تعظيمها لا إلى الذبح عليها، قال: «المعنى: والنية فيها تعظيم النصب لا أن الذبح عليها غير جائز»[٢].

ويرى ابن كثير أن صورة الذبح عليها نفسها تجعل الذبيحة محرمة، قال: «فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله. وينبغي أن يحمل هذا على هذا؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله»[٣].

وليس هذا موضع بسط هذه المسألة، ولكن المقصود معرفة أن هذه الأنصاب قد ارتبطت بعمل من أعمال الشرك كان في الجاهلية، ثم قرنها القرآن الكريم بالخمر والميسر.

وأما الاستقسام بالأزلام المنصوص عليه في قوله سبحانه: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ فمعناه أن «تطلبوا علم ما قسم لكم من الخير والشر بالأزلام، قال المفسرون: كان أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفرًا، أو غزوًا، أو تجارةً، أو غير ذلك طلب من الأزلام، وهي قداح كانت في الكعبة عند سدنة البيت مكتوب على بعضها: أمرني ربي، وعلى بعضها: نهاني ربي، فإن خرج السهم الآمر مضى لحاجته، وإن خرج السهم الناهي لم يمض، وواحد الأزلام: زلم وزلم»[٤].

والمتأمل للآية التي استقر بعد نزولها الحكم على تحريم الخمر يلاحظ أنها لم تكتف بالأمر باجتنابها الدال على تحريمها، ولكنها عددت مفاسدها فقرنتها بأمور من الجاهلية قريبة من الشرك، ونصت على أنها من عمل الشيطان، وقررت أن في اجتنابها الفلاح، وذكرت أنها توقع العداوة والبغضاء، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

وعليه ففي اقترانها بأعمال الجاهلية التي هي من مظاهر الشرك تخويف للمؤمن من الشرك ومن مظاهر الجاهلية، فتحريم الخمر والميسر هو المقصود الأساس في الآية، وذكر الأنصاب والأزلام التي تقدم النص عليها معها تأكيد لهذه الحرمة «والمقصود

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ٥٠٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٥٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٣.

(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٥٢.

نهيهم عن الخمر والميسر وإظهار أن هذه الأربعة متقاربة في القبح والمفسدة، فلما كان المقصود من هذه الآية النهي عن الخمر والميسر وإنما ضم الأنصاب والأزلام إلى الخمر والميسر تأكيدًا لقبح الخمر والميسر، لا جرم أفردهما في آخر الآية بالذكر»[1].

وفي ذلك زيادة تأكيد لهذه الحرمة، قال ابن عاشور: «ذكر الأنصاب والأزلام مع الخمر والميسر مقصود منه تأكيد التحريم للخمر والميسر»[2].

ويرى البقاعي أن الآية قد جمعت بين أسباب الضرر في الدين والدنيا، قال: «ونبههم على ما يريد العدو بهم من الشر بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ وهي كل ما أسكر سواء فيه قليله وكثيره، وأضاف إليها ما واخاها في الضرر دينًا ودنيا وفي كونه سببًا للخصام وكثرة اللغط المقتضي للحلف والإقسام تأكيدًا لتحريم الخمر بالتنبيه على أن الكل من أفعال الجاهلية، فلا فرق بين شاربها والذابح على النصب والمعتمد على الأزلام»[3].

كما يرى أن في ترتيبها في الآية ترق من المفسدة الأدنى إلى المفسدة الأعلى، قال: «وحكمة ترتيبها هكذا أنه لما كانت الخمر غاية في الحمل على إتلاف المال، قرن بها ما يليها في ذلك وهو القمار، ولما كان الميسر مفسدة المال، قرن به مفسدة الدين وهي الأنصاب، ولما كان تعظيم الأنصاب شركًا جليًّا إن عبدت، وخفيًّا إن ذبح عليها دون عبادة، قرن بها نوعًا من الشرك الخفي وهو الاستقسام بالأزلام: ثم أمر باجتناب الكل إشارة وعبارة على أتم وجه»[4].

وقد يلحظ وجه آخر: وهو أن واقع الناس يشهد باقتران الخمر بالميسر كما تقدم، وقد كانت الأزلام أدوات للميسر: «قال مجاهد في قوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال: هي سهام العرب، وكعاب فارس والروم، كانوا يتقامرون بها»[5].

وهذه الأزلام كانت موضوعة في الكعبة حيث الأصنام والأنصاب. غير أن ابن كثير استشكل قول مجاهد، ثم افترض له تأويلًا، فقال: «وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار، فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة، وفي القمار أخرى، والله أعلم. فإن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين هذه وبين القمار وهو الميسر، فقال في آخر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ

(1) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٤.
(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٣.
(3) نظم الدرر، البقاعي ٦/ ٢٩١
(4) المصدر السابق.
(5) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٤.

بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: تعاطيه فسق وغي وضلال وجهالة وشرك»[1].



(١) المصدر السابق.

التدرج في تشريع حكم الخمر

مع أن حكم الخمر قد استقر على التحريم إلا أن الحكم لم يشرع في فترة مبكرة، ولا نزل الحكم مرة واحدة، « قال بعض المفسرين: إن الله تعالى لم يدع شيئًا من الكرامة والبر إلا أعطاه هذه الأمة، ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة، ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة، فكذلك تحريم الخمر.

وهذه الآية -آية البقرة- أول ما نزل في أمر الخمر، ثم بعده: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾[النساء:٤٣]، ثم قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ ثم قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾»[2].

ويسند ذلك ما روى البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: **(إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا)**[3].

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل

وإذا تأملنا جملة الآيات التي نصت على حكم الخمر أو أشارت إليه في القرآن الكريم وجدناها خمس آيات:

- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].
- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء:٤٣].
- وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩٠-٩١][1].
- وقوله عز وجل: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل:٦٧].

هذا ترتيبها في المصحف، أما ترتيبها في النزول: فإن كانت آية النحل: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ متضمنة لحكم الخمر فهي أول الآيات نزولًا، وإلا فآية البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾، ثم آية النساء ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء:٤٣]، ثم آيتا المائدة: نزلتا معًا، أو نزلت الثانية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، ثم الأولى ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

هل آية النحل أول آية نزلت في حكم الخمر؟

روى ابن جرير بسنده «عن إبراهيم والشعبيّ وأبي رزين، قالوا: هي منسوخة في هذه الآية ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧]»[2]، وهو رأي طائفة من المفسرين منهم ابن العربي[3].

القرآن، باب تأليف القرآن ٦/ ١٨٥، رقم ٤٩٩٣.

(١) قد نص القرطبي في النص السابق على أنهما نزلتا منفصلتين، وأن الثانية منهما نزلت قبل الأولى.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٤٣.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٣٥. ونص الخازن على أنها أول آية نزلت فقال: «وجملة القول في تحريم الخمر أن الله عز وجل أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة: ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا فكان المسلمون يشربونها في أول الإسلام، وهي لهم حلال» لباب التأويل، الخازن ١/ ١٤٨،

وعلى هذا القول فهي أول آية نزلت في حكم الخمر.

وترى طائفة أخرى أن الآية غير منسوخة؛ لأن السكر في الآية غير الخمر؛ ولأن ما تضمنته الآية خبر والخبر لا يدخله النسخ.

قال ابن عطية: «والسكر أيضًا في كلام العرب ما يطعم، ورجح الطبري هذا القول، ولا مدخل للخمر فيه ولا نسخ من الآية شيء. وقال بعض الفرقة التي رأت السكر الخمر: إن هذه الآية منسوخة بتحريم الخمر، وفي هذه المقالة درك، لأن النسخ إنما يكون في حكم مستقر مشروع»[1].

وقال الخازن: «القول بالنسخ فيه نظر؛ لأن قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧] خبر، والأخبار لا يدخلها النسخ، ومن زعم أنها منسوخة رأى أن هذه الآية نزلت بمكة في وقت إباحة الخمر ثم إن الله تبارك وتعالى حرمها بالمدينة فحكم على هذه الآية بأنها منسوخة»[2].

ورد ذلك ابن العربي فقال: إن الخبر إن كان عن شيء له وجود في الحقيقة أو عن الثواب ونحوه فهو الذي لا يدخله النسخ، أما الخبر عن الحكم فليس كذلك، قال: «فإن قيل: كيف يحرم ما أحل الله ههنا، وينسخ هذا الحكم، وهو خبر، والأخبار لا يدخلها النسخ.

قلنا: هذا كلام من لم يتحقق الشريعة، وقد بينا حقيقته قبل، وأوضحنا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقي فذلك الذي لا يدخله نسخ، أو كان عن الفضل المعطى ثوابًا فهو أيضًا لا يدخله نسخ؛ فأما إن كان خبرًا عن حكم الشرع فالأحكام تتبدل وتنسخ جاءت بخبر أو بأمر، ولا يرجع ذلك إلى تكذيب في الخبر أو الشرع الذي كان مخبرًا عنه قد زال بغيره.

وإذا فهمتم هذا خرجتم عن الصنف الغبي الذي أخبر الله عن الكفار فيه بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾ [النحل:١٠١].

يعني أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء، ويكلف ما يشاء، ويرفع من ذلك بعدله ما يشاء، ويثبت ما يشاء، وعنده أم الكتاب»[3].

ولئن اختلف في كون آية النحل أول آية نزلت فإنه لم يختلف في أن آية البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة:٢١٩]، سبقت آية النساء ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]، وبعدهما آيتا المائدة، ومرد ذلك إلى الروايات الكثيرة في أسباب نزولها.

لكنه أنكر نسخها بعد كما سيأتي.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٠٥.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٨٥.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٣٥.

فمن ذلك ما روى أبو داود عن أبي إسحاق، عن عمرو، عن عمر بن الخطاب، قال: (لما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شفاء، فنزلت الآية التي في البقرة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٩]، قال: فدعي عمر فقرئت عليه، قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شفاء، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]. فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقيمت الصلاة ينادي: (ألا لا يقربن الصلاة سكران)، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شفاء، فنزلت هذه الآية ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، قال عمر: انتهينا)[1].

وروى أحمد عن أبي هريرة، قال: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢١٩] إلى آخر الآية، فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، وكانوا يشربون الخمر. حتى إذا كان يوم من الأيام، صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه في المغرب، خلط في قراءته، فأنزل الله فيها آية أغلظ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]، وكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق. ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠]، فقالوا: انتهينا ربنا، فقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله، وماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجسًا، من عمل الشيطان، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ إلى آخر الآية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم)[2].

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، ٣/ ٣٢٥، رقم ٣٦٧٠ .
قال علي بن المديني: هذا إسناد صالح. انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٧٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٢٦٨.
قال المحقق: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف أبي معشر، وهو نجيح بن عبد الرحمن السندي، ولجهالة أبي وهب مولى أبي هريرة، فقد روى عنه اثنان: أبو معشر وهو ضعيف، وجميل بن بشر أورده ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢/ ٥١٩ وجهله، وأبو وهب ذكره ابن سعد في الطبقات ٥٦، وقال: كان قليل الحديث.

ففي هذين الأثرين ترتيب نزول الآيات الثلاث وأن ذلك وقع إجابة عن أسئلة من الصحابة رضوان الله عليهم، ووقع في روايات أخرى أنها نزلت إثر حوادث:

فمن ذلك ما روى أبو داود عن علي بن أبي طالب: (أن رجلًا من الأنصار دعاه وعبد الرحمن بن عوف فسقاهما قبل أن تحرم الخمر، فأمهم علي في المغرب فقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فخلط فيها، فنزلت ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[النساء:٤٣])[1].

وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: (وأتيت على نفر من الأنصار والمهاجرين، فقالوا: تعال نطعمك ونسقك خمرًا، وذلك قبل أن تحرم الخمر، قال: فأتيتهم في حش -والحش البستان- فإذا رأس جزور مشوي عندهم، وزق من خمر. قال: فأكلت وشربت معهم، قال: فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم. فقلت: المهاجرون خير من الأنصار. قال: فأخذ رجل أحد لحيي الرأس فضربني به فجرح أنفي فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته فأنزل الله عز وجل في -يعني نفسه- شأن الخمر: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة:٩٠])[2].

وقال الواحدي: «وكانت تحدث أشياء لرسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب شرب الخمر قبل تحريمها، منها قصة علي بن أبي طالب مع حمزة رضي الله عنهما»[3].

ثم ساق ما روى البخاري في صحيحه عن علي قال: (كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ، فلما أردت أن أبتني بفاطمة عليها السلام، بنت النبي صلى الله عليه وسلم، واعدت رجلًا صواغًا في بني قينقاع أن يرتحل معي، فنأتي بإذخر، فأردت أن أبيعه من الصواغين، فنستعين به في وليمة عرسي، فبينا أنا أجمع لشارفي من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاي مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، حتى جمعت ما جمعت، فإذا أنا بشارفي قد أجبت أسنمتها، وبقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، فلم أملك عيني حين رأيت المنظر، قلت: من فعل هذا؟ قالوا فعله حمزة بن عبد المطلب، وهو في هذا البيت، في شرب من الأنصار، عنده قينة وأصحابه، فقالت في غنائها: ألا يا حمز

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، ٣/ ٣٢٥، رقم ٣٦٧١.
وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ٢/ ٤١٦، رقم ٣٦٧١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص، ٤/ ١٨٧٧، رقم ١٧٤٨.

(٣) أسباب النزول، الواحدي ص١٠٨.

للشرف النواء.

فوثب حمزة إلى السيف، فأجب أسنمتهما وبقر خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، قال علي: فانطلقت حتى أدخل على النبي صلى الله عليه وسلم، وعنده زيد بن حارثة، وعرف النبي صلى الله عليه وسلم الذي لقيت، فقال: (ما لك)؟ قلت: يا رسول الله، ما رأيت كاليوم، عدا حمزة على ناقتي، فأجب أسنمتهما، وبقر خواصرهما، وها هو ذا في بيت معه شرب، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بردائه فارتدى، ثم انطلق يمشي، واتبعته أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن عليه، فأذن له، فطفق النبي صلى الله عليه وسلم يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل، محمرة عيناه، فنظر حمزة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم صعد النظر فنظر إلى ركبته، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟! فعرف النبي صلى الله عليه وسلم أنه ثمل فنكص رسول الله صلى الله عليه وسلم على عقبيه القهقري فخرج وخرجنا معه)[1]. وليس في هذه الرواية تصريح بسبب النزول.

ودل عموم الروايات السابقة على أن آيتا المائدة نزلتا معًا، ونص القرطبي على أن الثانية منهما نزلت قبل الأولى فقال: «وهذه الآية -آية البقرة- أول ما نزل في أمر الخمر، ثم بعده: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء:٤٣]، ثم قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، ثم قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠]»[2].

غير أنه لم يذكر على ذلك رواية أو يستدل عليه بدليل إلا أنه قال عند تفسيره لآية المائدة: «روي أن قبيلتين من الأنصار شربوا الخمر وانتشوا، فعبث بعضهم ببعض، فلما صحوا رأى بعضهم في وجه بعض آثار ما فعلوا، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، فجعل بعضهم يقول: لو كان أخي بي رحيما ما فعل بي هذا، فحدثت بينهم الضغائن، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة:٩١] الآية»[3].

وفيها أيضًا أن حرمة الخمر لم تستقر إلا بعد نزول آية المائدة، وأنه حرم بصفة متدرجة ولم تنزل آية التحريم إلا في المدينة، وأن من الصحابة من توفي وهو يشرب الخمر لما تنسخ إباحتها.

وقد ذكر الجصاص كلامًا لا يجرى على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، ٥/ ٨٢، رقم ٤٠٠٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٢.

(٣) المصدر السابق ٦/ ٢٩٢.

ظاهره فقال: «قال الله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]: هذه الآية قد اقتضت تحريم الخمر ولو لم يرد غيرها في تحريمها لكانت كافية مغنية وذلك لقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ والإثم كله محرم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ﴾[الأعراف:٣٣].

فأخبر أن الإثم محرم، ولم يقتصر على إخباره بأن فيها إثمًا حتى وصفه بأنه كبير تأكيدًا لحظرها. وقوله: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ لا دلالة فيه على إباحتها؛ لأن المراد منافع الدنيا وأن في سائر المحرمات منافع لمرتكبيها في دنياهم إلا أن تلك المنافع لا تفي بضررها من العقاب المستحق بارتكابها، فذكره لمنافعها غير دال على إباحتها لا سيما وقد أكد حظرها مع ذكر منافعها بقوله في سياق الآية: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ يعني أن ما يستحق بهما من العقاب أعظم من النفع العاجل الذي ينبغي منهما.

ومما نزل في شأن الخمر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣].

وليس في هذه الآية دلالة على تحريم ما لم يسكر منها، وفيها الدلالة على تحريم ما يسكر منها؛ لأنه إذا كانت الصلاة فرضًا نحن مأمورون بفعلها في أوقاتها، فكل ما أدى إلى المنع منها فهو محظور، فإذا كانت الصلاة ممنوعة في حال السكر وكان شربها مؤديًا إلى ترك الصلاة كان محظورًا؛ لأن فعل ما يمنع من الفرض محظور.

ومما نزل في شأن الخمر مما لا مساغ للتأويل فيه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩٠-٩١].

فتضمنت هذه الآيات ذكر تحريمها من وجوه: أحدها قوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وذلك لا يصح إطلاقه إلا فيما كان محظورًا محرمًا، ثم أكده بقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ وذلك أمر يقتضي لزوم اجتنابه، ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ ومعناه فانتهوا»[1].

وهذا الذي ذكره لو قصد منه أن الآيات التي نزلت أولًا أشارت إلى أن مآل الخمر التحريم، وأن الأمر سيستقر على تحريمها فصحيح، وأما لو قصد أن آية البقرة ثم آية النساء نصتا على التحريم فغير صحيح؛ لأن الصحابة رضوان الله عليهم لم يفهموا ذلك، ولم ينكر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم.

قال القرطبي: «هذه الأحاديث تدل على

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٢.

أن شرب الخمر كان إذ ذاك مباحًا معمولًا به معروفًا عندهم بحيث لا ينكر ولا يغير، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أقر عليه، وهذا ما لا خلاف فيه، يدل عليه آية النساء ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣] على ما تقدم. وهل كان يباح لهم شرب القدر الذي يسكر؟

حديث حمزة ظاهر فيه حين بقر خواصر ناقتي علي رضي الله عنهما وجب أسنمتهما، فأخبر علي بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء إلى حمزة فصدر عن حمزة للنبي صلى الله عليه وسلم من القول الجافي المخالف لما يجب عليه من احترام النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره وتعزيره، ما يدل على أن حمزة كان قد ذهب عقله بما يسكر، ولذلك قال الراوي: فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ثمل، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر على حمزة ولا عنفه، لا في حال سكره ولا بعد ذلك، بل رجع لما قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟! على عقبيه القهقرى وخرج عنه»[1].

مقاصد تحريم الخمر

حرم الله الخمر ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها... وفرض على من شربها عقوبة شديدة في الحياة الدنيا، وتوعده بعذاب أليم يوم القيامة.

وقد شاع على ألسنة الناس أن المقصد من تحريم الخمر هو حفظ العقل، وذلك أن الإنسان إذا شرب الخمر ذهب عقله، فحرمت حفظًا للعقل من جهة العدم بدفع ما يضر به ويؤدي إلى إذهابه وتعطيله.

غير أننا بعد قليل من التأمل نجزم بأن الخمر قد حرمت مراعاة للمقاصد الشرعية الخمسة: الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

فأما الدين: فقد أشار إلى حفظه بتحريمها قوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة:٩١]: فصد الخمر عن الصلاة فساد للدين.

قال الرازي: «أما أن شرب الخمر يمنع عن ذكر الله فظاهر؛ لأن شرب الخمور يورث الطرب واللذة الجسمانية، والنفس إذا استغرقت في اللذات الجسمانية غفلت عن ذكر الله تعالى، وأما أن الميسر مانع عن ذكر الله وعن الصلاة فكذلك؛ لأنه إن كان غالبًا صار استغراقه في لذة الغلبة مانعًا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٨٧.

من أن يخطر بباله شيء سواه، ولا شك أن هذه الحالة مما تصد عن ذكر الله وعن الصلاة»[1].

ومن فساد الدين ما ينشأ من الفرقة والعداوة بين المؤمنين بسبب الخمر والذي نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[المائدة:٩١].

وأما حفظ النفس: فمعلوم أن الخمر سبب لسفك الدماء واستسهال العدوان على الناس وإزهاق أرواحهم وإتلاف جوارحهم وأبدانهم، وواقع الناس على اختلاف زمانهم وبلدانهم يشهد أن عموم الجنايات والجرائم لا تقع إلا تحت تأثير الخمور والمسكرات، وكل ذلك من الإثم الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة:٢١٩].

وقد يكون كذلك أثرًا للعداوة والبغضاء الحاصلة من الخمر والميسر، قال الرازي: «أما الخمر فاعلم أن الظاهر فيمن يشرب الخمر أنه يشربها مع جماعة ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم، فكان غرضه من ذلك الاجتماع تأكيد الألفة والمحبة إلا أن ذلك في الأغلب ينقلب إلى الضد؛ لأن الخمر يزيل العقل، وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب من غير مدافعة العقل، وعند استيلائهما تحصل المنازعة بين أولئك الأصحاب، وتلك المنازعة ربما أدت إلى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش، وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء، فالشيطان يسول أن الاجتماع على الشرب يوجب تأكيد الألفة والمحبة، وبالآخرة انقلب الأمر وحصلت نهاية العداوة والبغضاء.

وأما الميسر ففيه بإزاء التوسعة على المحتاجين الإجحاف بأرباب الأموال؛ لأن من صار مغلوبًا في القمار مرة دعاه ذلك إلى اللجاج فيه عن رجاء أنه ربما صار غالبًا فيه، وقد يتفق أن لا يحصل له ذلك إلى أن لا يبقى له شيء من المال، وإلى أن يقامر على لحيته وأهله وولده، ولا شك أنه بعد ذلك يبقى فقيرًا مسكينًا ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا غالبين له، فظهر من هذا الوجه أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، ولا شك أن شدة العداوة والبغضاء تفضي إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن، وكل ذلك مضاد لمصالح العالم»[2].

وأما حفظ العقل: فواضح معلوم.

وأما حفظ النسل: وإن لم يبد جليًّا فإننا بعد التأمل نجد أن كثيرًا من المفاسد الاجتماعية من الزنا والطلاق والتفريط في

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٤.

(٢) المصدر السابق.

حقوق الأهل والذرية والأقارب مرده إلى الخمر وآثارها، وهو أيضًا من الإثم الكبير الذي نصت عليه الآية.

وأما حفظ المال: فإن شارب الخمر يفسد ماله في ما يضره ولا ينفعه، بل في ما فيه هلاك نفسه وبدنه فضلًا عن ذهاب ماله وعقله. ورغم أن الخمر تجلب لمن يعصرها ويبيعها ويحملها مالًا ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إلا أن الشرع أبطل هذه المصلحة لأن ما يقابلها من المفاسد أعظم منها بكثير: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾[البقرة:٢١٩].

ولذلك أصبحت هذه المصلحة في حكم المعدومة، وذلك أن مصالح الدنيا ومفاسدها ليست مصالح ومفاسد خالصة، بل ما من مصلحة إلا تشوبها مفسدة: فإن كانت المصلحة غالبة روعيت وكانت المفسدة في حكم المعدومة كما في القصاص، وإن كانت المفسدة غالبة روعيت وكانت المصلحة في حكم المعدومة كما في الخمر، وإن تساوتا فدرأ المفاسد أولى من جلب المصالح كما تقرر ذلك عند علماء الأصول والمقاصد.

ويشهد لما سبق ما روى البيهقي عن عثمان بن عفان، رضي الله عنه قال: (**اجتنبوا الخمر، فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت: إنا ندعوك لشهادة، فدخل معها فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب الخمر، فسقته كأسًا، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه**)[(١)].

فقد جمعت الخمر جميع المفاسد ولذلك كانت أم الخبائث: من عاقرها استسهل كل فاحشة ووقع في كل إثم.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الأشربة والحد فيها، باب ما جاء في تحريم الخمر، ٨/ ٥٠٠، رقم ١٧٣٣٩.
قال ابن كثير: رواه البيهقي وهذا إسناد صحيح. وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه ذم المسكر عن محمد بن عبد الله ابن بزيع، عن الفضيل بن سليمان النميري، عن عمر بن سعيد، عن الزهري، به مرفوعًا، والموقوف أصح، والله أعلم.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٨٩.

أحكام تتعلق بالخمر

لما جمعت الخمر المفاسد كلها، فقد حرم الإسلام شربها ووضع لشاربها عقوبة رادعة، وحرم كل وسيلة إليها.

أولًا: بيع الخمر:

للنصوص الصريحة الواردة في تحريم بيع الخمر، اتفق العلماء على تحريم بيعها وشرائها بل وما اتصل بذلك من عصرها ونقلها وسقايتها ونحوها.

قال الخازن: «أجمعت الأمة على تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وتحريم ثمنها»[(١)].

ومن النصوص الواردة في ذلك ما روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنه: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول عام الفتح وهو بمكة: **(إن الله ورسوله حرم بيع الخمر، والميتة والخنزير والأصنام)، فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: (لا، هو حرام)، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: (قاتل الله اليهود إن الله لما حرم شحومها جملوه، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه)**[(٢)].

فقوله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله ورسوله حرم بيع الخمر، والميتة والخنزير والأصنام) صريح في تحريم بيع الخمر وشرائها.**

وعند مسلم عن ابن عباس: **(أن رجلًا أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم راوية خمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل علمت أن الله قد حرمها؟) قال: لا، فسار إنسانًا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بم ساررته؟)، فقال: أمرته ببيعها، فقال: (إن الذي حرم شربها حرم بيعها)، قال: ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها)**[(٣)].

والحديث أيضًا نص على تحريم بيعها وشرائها، ولحقت الهدية بالبيع والشراء ولولا ذلك لقبلها النبي صلى الله عليه وسلم: ففيه دليل أيضًا على تحريم إهدائها وأخذها.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: **(لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقترأهن على الناس، ثم نهى عن التجارة في**

---

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ١٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب بيع الميتة والأصنام، ٣/ ٨٤، رقم ٢٢٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير، ٣/ ١٢٠٧، ١٥٨١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر، ٣/ ١٢٠٦، رقم ١٥٧٩.



الخمر)[1].

وقد وردت النصوص بتحريم حملها وسقيها وأكل ثمنها وسوى ذلك مما اتصل بها: أخرج أبو داود عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه)[2].

ورواه ابن ماجه بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعنت الخمر على عشرة أوجه: بعينها، وعاصرها، ومعتصرها، وبائعها، ومبتاعها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها، وشاربها، وساقيها)[3].

وقد تضمن الحديث تحريم كل فعل ساهم في نشر الخمر وقربها ممن يشربها ولو لم يباشر فاعله شربها، حتى لعن آكل ثمنها سدًا لكل ذريعة وحيلة تفضي إلى الانتفاع بها.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر، ٣/ ١٢٠٦، رقم ١٥٨٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب العنب يعصر للخمر، ٣/ ٣٢٦، رقم ٣٦٧٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٧٠، رقم ١٨٠٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأشربة، باب لعنت الخمر على عشرة أوجه، ٢/ ١١٢١، رقم ٣٣٨٠.

ثانيًا: شرب الخمر:

وأما تحريم شرب الخمر فشيء يعلمه عموم المسلمين، وقد دلت عليه نصوص كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

ففي قوله سبحانه: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ نص على الحرمة كما فهم ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: انتهينا. «وقد اجتمعت أنواع من التأكيد «على الحكم» في الآية منها التصدير بإنما، وقران الخمر والميسر بالأصنام إذا فسرنا الأنصاب بها، وفي الحديث (مدمن الخمر كعابد وثن)[4]، والإخبار عنها بقوله: ﴿رِجۡسٞ﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

ووصفه بأنه من عمل الشيطان والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت، والأمر بالاجتناب، وترجية الفلاح -وهو الفوز- باجتنابه فالخيبة في ارتكابه، وبدئ بالخمر؛ لأن سبب النزول إنما وقع بها من الفساد؛

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأشربة، باب مدمن الخمر، ٢/ ١١٢٠، رقم ٣٣٧٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٢٠، رقم ٥٨٦١.

ولأنها جماع الإثم»[١].

وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الذي حرم شربها حرم بيعها)، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه).

وورد الوعيد الشديد لمدمن الخمر:

فمن ذلك ما روى أبو داود عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كل مخمر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكرًا بخست صلاته أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخبال)، قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: (صديد أهل النار، ومن سقاه صغيرًا لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخبال)[٢].

وفي حديث أسماء بنت يزيد عند الإمام أحمد الخوف عليه أن يموت كافرًا، ولفظه: عن أسماء بنت يزيد، أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من شرب الخمر، لم يرض الله عنه أربعين ليلة، فإن مات، مات كافرًا، وإن تاب، تاب الله عليه، وإن عاد، كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخبال) قالت: قلت: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: (صديد أهل النار)[٣].

وفي المستدرك عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر وقاطع الرحم ومصدق بالسحر، ومن مات مدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة)، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: (نهر يخرج من فروج الموسات يؤذي أهل النار ريح فروجهم)[٤].

ولكون هذه النصوص وغيرها صحيحة صريحة، فقد انعقد الإجماع على تحريم شرب الخمر وصار معلومًا من الدين بالضرورة، قال في البحر: «وقد أجمع المسلمون على تحريم القليل والكثير من خمر العنب التي لم تمسها نار ولا خالطها شيء، والأكثر من الأمة على أن ما أسكر كثيره فقليله حرام، والخلاف فيما لا يسكر

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٥٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، ٣/ ٣٢٧، رقم ٣٦٨٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٣٥، رقم ٤٥٤٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥/ ٥٧٨، رقم ٢٧٦٠٣.
قال المحقق: حديث صحيح لغيره دون قوله: «فإن مات مات كافرًا»، وهذا إسناد ضعيف لضعف شهر بن حوشب، وابن خثيم، وهو عبد الله بن عثمان، مختلف فيه.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الأشربة، ٤/ ١٦٣، رقم ٧٢٣٤.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.



قليله ويسكر كثيره من غير خمر العنب مذكور في كتب الفقه»[1].

ثالثًا: حد الخمر:

اتفق الفقهاء على أن من شرب الخمر متعمدًا مختارًا -سكر أم لم يسكر- وجب عليه الحد.

قال ابن رشد: «فأما الموجب فاتفقوا على أنه شرب الخمر دون إكراه قليلها وكثيرها. واختلفوا في المسكرات من غيرها، فقال أهل الحجاز: حكمها حكم الخمر في تحريمها وإيجاب الحد على من شربها قليلًا كان أو كثيرًا، أسكر أو لم يسكر. وقال أهل العراق: المحرم منها هو السكر، وهو الذي يوجب الحد»[2].

وروى مالك عن السائب بن يزيد: **(أن عمر بن الخطاب، خرج عليهم فقال: إني وجدت من فلان ريح شراب. فزعم أنه شراب الطلاء[3] وأنا سائل عما شرب. فإن كان يسكر جلدته فجلده عمر الحد تامًّا)**[4].

قال ابن عبد البر: «وفي هذا الحديث من الفقه وجوب الحد على من شرب مسكرًا أسكر أو لم يسكر، خمرًا كان من خمر العنب أو نبيذًا، لأنه ليس في الحديث ذكر الخمر ولا أنه كان سكران، وإنما فيه من قول عمر: أن الشراب الذي شرب منه إن كان يسكر جلده الحد، وهذا يدل على أنه كان شرابًا لا يعلم أنه الخمر المحرم قليلها وكثيرها ولو كان ذلك ما سأل عنه.

وقد أجمعوا على أن قليل الخمر من العنب فيه من الحد مثل ما في كثيرها ولا يراعى السكر فيها وإنما اختلفوا في ما سواها من الأنبذة المسكرة»[5].

ومع الحد يحكم بفسق الشارب أيضًا، قال في بداية المجتهد: «وأما الواجب فهو الحد والتفسيق إلا أن تكون التوبة، والتفسيق في شارب الخمر باتفاق وإن لم يبلغ حد السكر، وفيمن بلغ حد السكر فيما سوى الخمر. واختلف الذين رأوا تحريم قليل الأنبذة في وجوب الحد، وأكثر هؤلاء على وجوبه»[6].

ومبنى هذه المسألة على تعيين الخمر ما هي؟ هل هي ما كان من العنب خاصة ويقاس عليها بعلة الإسكار كل مسكر، فلا يكون للقليل غير المسكر حكم الكثير،

---

(1) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٥٧.
(2) بداية المجتهد، ابن رشد ٤/ ٢٢٧.
(3) الطلاء: هو أن يطبخ العصير حتى يصير مثل طلاء الإبل.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٦٣.
(4) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الأشربة، باب الحد في الخمر، ٢/ ٨٤٢.
قال ابن عبد البر: هذا الإسناد أصح ما يروى من أخبار الآحاد.
انظر: الاستذكار ٨/ ٣.
(5) الاستذكار، ابن عبد البر ٨/ ٣.
(6) بداية المجتهد، ابن رشد ٤/ ٢٢٧.

أم هي حقيقة في كل مسكر، فيكون حينئذ للقليل حكم الكثير كما تقدم.

وقد ثبت حد الخمر بالسنة، وكان الخلفاء الراشدون الأربعة يفعلونه بحضور الصحابة وجمهور الناس فلم ينكر عليهم أحد، بل تشاوروا حتى في تغليظه حين استهتر الناس به، وكان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وصدر من خلافة عمر أربعين جلدة فجعلوها بعد مشاورة ثمانين قياسًا على حد القذف: روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم **(ضرب في الخمر بالجريد والنعال، وجلد أبو بكر أربعين)**[1].

وعن السائب بن يزيد، قال: **(كنا نؤتى بالشارب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإمرة أبي بكر وصدرًا من خلافة عمر، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرديتنا، حتى كان آخر إمرة عمر، فجلد أربعين، حتى إذا عتوا وفسقوا جلد ثمانين)**[2].

ففي هذين الخبرين أن الحد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر أربعين، وشاور عمر الصحابة رضوان الله عليهم فأشاروا عليه بأن يزيدها، كما روى مسلم عن أنس بن مالك: **(أن نبي الله صلى الله عليه وسلم جلد في الخمر بالجريد، والنعال)، ثم جلد أبو بكر أربعين، فلما كان عمر، ودنا الناس من الريف والقرى، قال: (ما ترون في جلد الخمر؟) فقال عبد الرحمن بن عوف: أرى أن تجعلها كأخف الحدود، قال: (فجلد عمر ثمانين)»**[3].

وهذا الذي فعله عمر أمضاه علي بحضرة عثمان وابنه الحسن وابن أخيه عبد الله بن جعفر رضي الله عنهم ثم قال: **(جلد النبي صلى الله عليه وسلم أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكل سنة، وهذا أحب إلي)**[4].

ولذلك قال الجمهور بأن الحد في الخمر ثمانون جلدة، قال ابن رشد: «اختلفوا في مقدار الحد الواجب، فقال الجمهور: الحد في ذلك ثمانون، وقال الشافعي، وأبو ثور، وداود: الحد في ذلك أربعون.

فعمدة الجمهور تشاور عمر والصحابة لما كثر في زمانه شرب الخمر، وإشارة علي عليه بأن يجعل الحد ثمانين قياسًا على حد الفرية؛ فإنه كما قيل عنه رضي الله عنه: «إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب ما جاء في ضرب شارب الخمر، ٨/ ١٥٧، رقم ح٦٧٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال، ٨/ ١٥٨، رقم ٦٧٧٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الخمر، ٣/ ١٣٣١، رقم ١٧٠٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الخمر، ٣/ ١٣٣١، رقم ١٧٠٧.

افترى».

وعمدة الفريق الثاني أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحد في ذلك حدًّا، وإنما كان يضرب فيها بين يديه بالنعال ضربًا غير محدود[1].

وأن أبا بكر رضي الله عنه شاور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم «كم بلغ ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لشراب الخمر؟ فقدروه بأربعين»[2].

وروي عن أبي سعيد الخدري (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب في الخمر بنعلين أربعين)، فجعل عمر مكان كل نعل سوطًا[3].

وروي من طريق آخر عن أبي سعيد الخدري ما هو أثبت من هذا، وهو (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب في الخمر أربعين)[4].

وروي هذا عن علي عن النبي عليه الصلاة والسلام من طريق أثبت[5]، وبه قال

(١) أخرجه الدارقطني في سننه، كتاب الحدود والديات، ٤/ ١٩٧، رقم ٣٣٢٥، عن عبد الرحمن بن أزهر: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بشارب خمر وهو بحنين فحثى في وجهه التراب، ثم أمر أصحابه فضربوه بنعالهم وبما كان في أيديهم، فقال لهم: «ارفعوه» فرفعوه، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلك السنة. ثم جلد أبو بكر في الخمر أربعين، ثم جلد عمر أربعين صدرًا من إمارته، ثم جلد ثمانين في آخر ولايته، ثم جلد عثمان الحدين جميعًا ثمانين وأربعين، ثم أثبت معاوية الجلد ثمانين».

(٢) أخرجه الدارقطني أيضًا في سننه، كتاب الحدود والديات، ٤/ ١٩٥، رقم ٣٣٢٠، عن عبد الرحمن بن أزهر، قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وهو يتخلل الناس يسأل عن منزل خالد بن الوليد، فأتي بسكران، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن عنده، فضربوه بما في أيديهم، قال: «وحثى رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب». قال: ثم أتي أبو بكر بسكران، قال: فتوخى الذي كان من ضربهم يومئذ فضرب أربعين سنن».

وقال أيضا: «قال الزهري: ثم أخبرني حميد بن عبد الرحمن، عن ابن وبرة الكلبي، قال: أرسلني خالد بن الوليد إلى عمر، فأتيته ومعه عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وعلي، وطلحة، والزبير، وهم معه متكئون في المسجد، فقلت: إن خالد بن الوليد أرسلني إليك وهو يقرأ عليك السلام، ويقول: إن الناس قد انهمكوا في الخمر، وتحاقوا العقوبة فيه، فقال عمر: هم هؤلاء عندك فسلهم، فقال علي: «نراه إذا سكر هذي، وإن هذي افترى، وعلى المفتري ثمانين»، فقال عمر: أبلغ صاحبك ما قال، قال: فجلد خالد ثمانين جلدة، وجلد عمر ثمانين، قال: وكان عمر إذا أتي بالرجل الضعيف الذي كانت به الذلة ضربه أربعين، قال: وجلد عثمان أيضًا ثمانين وأربعين». كتاب الحدود والديات، ٤/ ١٩٦، رقم ٣٣٢١.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الحدود، باب في حد الخمر كم هو وكم يضرب شاربه، ٥/ ٥٠٤، رقم ٢٨٤١٣.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الحدود، باب في حد الخمر كم هو وكم يضرب شاربه، ٥/ ٥٠٣، رقم ٢٨٤١١.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الخمر، ٣/ ١٣٣١، رقم ١٧٠٧.

الشافعي»[1].

ويرى القرطبي أنه لا زيادة على الثمانين لاتفاق الصحابة رضوان الله عليهم عليها، إلا أن يقع الاستهتار بحدود الله فيجوز عند ذلك التشديد والزيادة في العقوبة، قال:«نص الله تعالى على عدد الجلد في الزنى والقذف، وثبت التوقيف في الخمر على ثمانين من فعل عمر في جميع الصحابة... فلا يجوز أن يتعدى الحد في ذلك كله. قال ابن العربي[2]: وهذا ما لم يتتابع الناس في الشر، ولا احلولت لهم المعاصي، حتى يتخذوها ضراوة، ويعطف الناس عليهم بالهوادة، فلا يتناهوا عن منكر فعلوه؛ فحينئذ تتعين الشدة، ويزيد الحد؛ لأجل زيادة الذنب.

وقد أتي عمر بسكران في رمضان، فضربه مائة: ثمانين حد الخمر، وعشرين لهتك حرمة الشهر؛ فهكذا يجب أن تتركب العقوبات على تغليظ الجنايات، وهتك الحرمات.

وقد لعب رجل بصبي، فضربه الوالي ثلاثمائة سوط، فلم يغير ذلك مالك حين بلغه، فكيف لو رأى زماننا هذا بهتك الحرمات والاستهتار بالمعاصي، والتظاهر بالمناكر، وبيع الحدود، واستيفاء العبيد لها في منصب القضاة؛ لمات كمدًا، ولم يجالس أحدًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قلت: ولهذا المعنى -والله أعلم- زيد في حد الخمر حتى انتهى إلى ثمانين»[3].

(١) بداية المجتهد، ابن رشد ٤/ ٢٢٧.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٣٣٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٦٥.

خمر الجنة

نص القرآن الكريم على أن في الجنة أنهارًا جارية من ماء ولبن وخمر وعسل: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد:١٥].

«أي: مثل الجنة التي أعدها الله لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أي: نعتها وصفتها الجميلة. ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي: غير متغير، لا بوخم ولا بريح منتنة، ولا بمرارة، ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحًا، وألذها شربًا. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ بحموضة ولا غيرها، ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: يلتذ به شاربه لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه ويصدع الرأس، ويغول العقل. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ من شمعه، وسائر أوساخه. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من نخيل، وعنب، وتفاح، ورمان، وأترج، وتين، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم. ثم قال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يزول بها عنهم المرهوب، فأي هؤلاء خير أم من هو خالد في النار التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها، ﴿وَسُقُوا﴾ فيها ﴿مَاءً حَمِيمًا﴾ أي: حارًّا جدًّا، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ فسبحان من فاوت بين الدارين والجزاءين، والعاملين والعملين»[1].

وكون خمر الجنة جارية في أنهار يدل على كثرتها ووفرتها، واطمئنان الـمنعّم بها إلى عدم زوالها وانقطاعها، كما قيل في الفاكهة: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة:٣٢-٣٣].

وقد وصفت هذه الخمر مع كثرتها ووفرتها بأنها «لذة للشاربين»، وتكرر هذا الوصف مع أوصاف أخرى في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات:٤٥-٤٧].

ومعنى «لَذَّةٍ»: لذيذة، يقال: شراب لذاذ: إذا كان طيّبًا. أو ذات لذّة[2]. ومن تمام لذتها أنها تمزج بالكافور وتختم بالمسك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان:٥-٦]:

«أي: تمزج الخمر بالكافور وقيل: المعنى أنه كافور في طيب رائحته كما تمدح طعامًا فتقول: هذا مسك»[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨٦.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٤٠.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٤٣٧.

﴿ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطففين:٢٢-٢٨].

و«الرحيق: الخمر الصافية، والمختوم فسره الله بأن ختامه مسك»[١].

وقوله سبحانه ﴿مَّخْتُومٍ﴾: «يحتمل أن يختم على كؤوسه التي يشرب بها تهممًا وتنظيفًا، والأظهر أنه مختوم شرابه بالرائحة المسكية حسبما فسر قوله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، واختلف المتأولون في قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ فقال علقمة وابن مسعود معناه: خلطه ومزاجه، وقال ابن عباس والحسن وابن جبير معناه: خاتمته أن يجد الرائحة عند خاتمته الشرب رائحة المسك، وقال أبو علي: المراد لذاذة المقطع وذكاء الرائحة مع طيب الطعم، وكذلك قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، وقوله تعالى: ﴿زَنجَبِيلًا﴾ أي: يحذي اللسان، وقد قال ابن مقبل:

مما يفتق في الحانوت ناطقها
بالفلفل الجوز والرمان مختوم

قال مجاهد معناه: طينه الذي يختم به مسك بدل الطين الذي في الدنيا، وهذا إنما يكون في الكؤوس؛ لأن خمر الآخرة ليست في دنان إنما هي في أنهار»[٢].

وفي بعض التفسيرات أن ﴿كَافُورًا﴾ اسم عين تمزج بها الكأس من الخمر لمن سمتهم الآية «﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾: وصفهم بالعبودية، وفيه معنى التشريف والاختصاص، كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]. ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يفجرونها حيث شاؤوا من منازلهم تفجيرًا سهلًا لا يصعب عليهم، وفي الأثر أن في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة عينًا تفجر إلى قصور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين»[٣]، روي أن «معهم قضبان ذهب يفجرون بها تتبع قضبانهم»[٤].

وعلى كونها تجري في أنهار، فإن «عباد الله» المنسوبين إليه تشريفًا يفجرونها حيث شاؤوا تفجيرًا، ويطاف عليهم بها في آنية كما نصت على ذلك الآية السابقة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾: أي «يدار عليهم وهم في مجالسهم. والكأس (بهمزة بعد الكاف): إناء الخمر، مؤنث، وهي إناء بلا عروة ولا أنبوب واسعة الفم، أي: محل الصب منها، تكون من فضة ومن ذهب ومن خزف ومن زجاج، وتسمى قدحًا وهو مذكر. وجمع كأس: كاسات وكؤوس وأكؤس. وكانت

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٦٢.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٥٣.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٤٣٧.
(٤) الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٣٦٩.

خاصة بسقي الخمر حتى كانت الكأس من أسماء الخمر تسمية باسم المحل، وقد قيل: لا يسمى ذلك الإناء كأسًا إلا إذا كانت فيه الخمر وإلا فهو قدح.

والمعني بها في الآية الخمر؛ لأنه أفرد الكأس مع أن المطوف عليهم كثيرون، ولأنها وصفت بأنها من معين»[1].

وهي مع الطواف عليهم بها جارية في الأنهار، ظاهرة تراها العيون[2]، فلذلك قيل فيها: كأس «﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: من شراب معين أو نهر معين: أي ظاهر للعيون، أو خارج من العيون: وهو صفة للماء، من عان الماء: إذا نبع. وصف به خمر الجنة؛ لأنها تجري كالماء، أو للإشعار بأن ما يكون لهم بمنزلة الشراب جامع لما يطلب من أنواع الأشربة لكمال اللذة»[3].

وقد أبهم الطائف عليهم في الآية، ووقع بيانه في سورة الواقعة في قوله سبحانه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة:١٧-٢١].

و«الولدان المخلدون»: هم الذين لا يتغيّرون، وهم على سنٍّ واحد، وقيل: هم المقرطون أو المسورون[4].

وقوله عز وجل أيضًا: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان:١٩]: «شبههم باللؤلؤ في الحسن والبياض، وبالمنثور منه في كثرتهم وانتشارهم في القصور»[5].

فمع لذة ما يطاف عليهم به، فإن شربه لا يعقبه صداع ولا وجع: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾، والطائفون عليهم حسان الصور: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، والمطوف عليهم به جميل المنظر: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، تشتهيه النفس وتلذه العين: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة:٢٠-٢١].

وهذه الخمر على لذتها، ليس فيها مساوئ خمر الدنيا من الإسكار والصداع ووجع البطن وما يعقبه من قيء ونحوها، قال ابن كثير: «فنزه الله خمر الآخرة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن -وهو الغول- وذهابها بالعقل جملة، فقال تعالى هاهنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي: لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١١٢.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٨.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٠.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٢٠.
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٤٣٩.

في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله عز وجل: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ أي طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك.

وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعني: لا تؤثر فيهم غولًا -وهو وجع البطن. قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد- كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه؛ لكثرة مائيتها. وقيل: المراد بالغول هاهنا: صداع الرأس. وروي هكذا عن ابن عباس. وقال قتادة: هو صداع الرأس، ووجع البطن. وعنه، وعن السدي: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زالت الكأس تغتالنا

وتذهب بالأول الأول

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: إنه وجع البطن.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني، والسدي، وغيرهم.

وقد قال بعض أهل التفسير إن في قول الله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١].

تعريضًا بنجاسة خمر الدنيا؛ «لأن خمر الجنة طاهرةٌ، وليست بنجسةٍ كخمر الدنيا»[1]، وقد جعل فيه الشنقيطي شاهدًا لقول جمهور الفقهاء بأن الخمر نجسة العين فقال: «قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ﴾ [المائدة:٩٠] الآية.

يفهم من هذه الآية الكريمة أن الخمر نجسة العين؛ لأن الله تعالى قال إنها: رجس، والرجس في كلام العرب كل مستقذر تعافه النفس. وقيل: إن أصله من الركس، وهو العذرة والنتن.

قال بعض العلماء: ويدل لهذا مفهوم المخالفة في قوله تعالى في شراب أهل الجنة: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾؛ لأن وصفه لشراب أهل الجنة بأنه طهور يفهم منه أن خمر الدنيا ليست كذلك، ومما يؤيد هذا أن كل الأوصاف التي مدح بها تعالى خمر الآخرة منفية عن خمر الدنيا، كقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾، وكقوله: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾، بخلاف خمر الدنيا ففيها غول يغتال العقول وأهلها يصدعون، أي: يصيبهم الصداع الذي هو وجع الرأس بسببها»[2].

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٨٠.
(٢) أضواء البيان، لشنقيطي ١/ ٤٢٦.

و«المعنى ليس فيها قط نوع من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من صداع أو خمار أو عربدة ولا هم يسكرون أيضا»[1].

صفة مجالسها في الجنة

جرت عادة الناس في الحياة الدنيا أنهم يعدون للخمر مجالس، يطوف عليهم فيها الخدم، ويتخيرون فيها المكان، ويدعون إليها الأصحاب والأقران، وقد يتجملون لها ويلبسون أحسن الثياب، ويجتمعون لها في مجالس لهو وسمر.

وقد نص القرآن الكريم على أن لأهل الجنة فيها مجالس خير من هذه المجالس، في جنة مفتحة الأبواب، قال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ [ص:٤٩-٥٢].

«وتفتيح الأبواب كناية عن التمكين من الانتفاع بنعيمها؛ لأن تفتيح الأبواب يستلزم الإذن بالدخول وهو يستلزم التخلية بين الداخل وبين الانتفاع بما وراء الأبواب»[2].

ونصت الآية على أنهم يجلسون فيها مجلس المطمئن المرتاح المنعم والذي دلت عليه هيئة الاتكاء: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾، وهم مع ذلك سالمون من كل ما ينغص عليهم مهما كان قليلًا مما يؤذي أبدانهم أو أسماعهم كخشونة في اللباس أو الأفرشة، أو برد أو حر، أو لغو أو إثم، قال تعالى:

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٣٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢٨٢.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان:١٢-١٤].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦] أي: لا يسمعون باطلًا ولا كذبًا[1].

والحرير: الرقيق الناعم من الثياب -كما هو معلوم-، والأرائك: «السرر، أو ما يتكأ عليه من سرير أو فراش ونحوه. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: لا يرون فيها شمسًا شديدة الحرارة بحيث تؤذيهم أو تضرهم، ولا يرون فيها كذلك ﴿زَمْهَرِيرًا﴾ أي: بردًا مفرطًا، يقال: زمهر اليوم، إذا اشتد برده.

والمقصود من الآية الكريمة أنهم لا يرون في الجنة إلا جوًّا معتدلًا، لا هو بالحار ولا هو بالبارد.

وقوله سبحانه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ معطوف على قوله قبل ذلك: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾. و﴿ظِلَـٰلُهَا﴾ فاعل ﴿وَدَانِيَةً﴾ والضمير في ﴿ظِلَـٰلُهَا﴾ يعود إلى الجنة.

أي: أن الأبرار جالسون في الجنة جلسة الناعم البال، المنشرح الصدر. وظلال أشجار الجنة قريبة منهم، ومحيطة بهم، زيادة في إكرامهم»[2].

وهم على سرر منسوجة من الذهب والجوهر، أو مصفوفة، متقابلون لا ينظر بعضهم في قفا بعض[3]: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة:١٥-١٦].

«وسرر: جمع سرير وهو ككرسي واسع يمكن الاضطجاع عليه، وكان الجلوس على السرير من شعار الملوك وأضرابهم، وذلك جلوس أهل النعيم؛ لأن الجالس على السرير لا يجد مللًا؛ لأنه يغير جلسته كيف تيسر له.

و﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾: كل واحد قبالة الآخر. وهذا أتم للأنس؛ لأن فيه أنس الاجتماع وأنس نظر بعضهم إلى بعض فإن رؤية الحبيب والصديق تؤنس النفس.

والظاهر: أن معنى كونهم متقابلين تقابل أفراد كل جماعة مع أصحابهم، وأنهم جماعات على حسب تراتيبهم في طبقات الجنة، وأن أهل كل طبقة يقسمون جماعات على حسب قرابتهم في الجنة كما قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس:٥٦].

وكثرة كل جماعة لا تنافي تقابلهم على السرر والأرائك وتحادثهم؛ لأن شؤون

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٠٦.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٢٢١.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٣٥.

ذلك العالم غير جارية على المتعارف في الدنيا»[1].

تعلو النضارة وجوههم، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١﴾ [الإنسان:١١].

«أي: آمنهم مما خافوا منه، ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ﴾ أي: في وجوههم، ﴿وَسُرُورٗا﴾ أي: في قلوبهم. قاله الحسن البصري، وقتادة، وأبو العالية، والربيع بن أنس. وهذه كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ۝٣٩﴾ [عبس:٣٨-٣٩]. وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه»[2].

وقال سبحانه أيضًا: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤﴾ [المطففين:٢٤]: «يعني أنك إذا رأيتهم تعرف أنهم من أهل النعمة لما ترى على وجوههم من النّور والحسن والبياض، قيل: النضرة في الوجه والسرور في القلب»[3].

وتزينت أبدانهم ومعاصمهم بالحرير والحلي: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ۝٢١﴾ [الإنسان:٢١]: «أي: قد جللتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران، اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من الديباج والإستبرق: ما رق منه. ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإناثهم»[4].

وهم في غمرة ذلك يطلبون ما شاؤوا من فاكهة وشراب، مع ما يقابلون به من الإكرام والحفاوة، كما قال عز وجل: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٩ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝٥١ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ۝٥٢﴾ [ص:٤٩-٥٢].

وقال أيضًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤١ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ۝٤٢ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤﴾ [الصافات:٤١-٤٤].

«والرزق: الطعام، قال تعالى: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا﴾ [آل عمران:٣٧].

وقال: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ [يوسف:٣٧].

والمعلوم: الذي لا يتخلف عن ميعاده ولا ينتظره أهله.

و﴿فَوَٰكِهُ﴾ عطف بيان من رزق. والمعنى: أن طعامهم كله من الأطعمة التي يتفكه بها لا مما يؤكل لأجل الشبع. والفواكه: الثمار والبقول اللذيذة.

و﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ عطف على ﴿لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾، أي: يعاملون بالحفاوة والبهجة، فإنه وسط في أثناء وصف ما أعد لهم من النعيم الجسماني أن لهم نعيم الكرامة وهو

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١١١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٨٩.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٤٠٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٠٢.

أهم؛ لأن به انتعاش النفس مع ما في ذلك من خلوص النعمة ممن يكدرها؛ ذلك لأن الإحسان قد يكون غير مقترن بمدح وتعظيم ولا بأذى وهو الغالب، وقد يكون مقترنًا بأذى وذلك يكدر من صفوه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].

فإذا كان الإحسان مع عبارات الكرامة وحسن التلقي فذلك الثواب»[1].

وقربت ثمار الجنة منهم لتنالها أيديهم في سهولة ويسر: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾ [الإنسان:١٤].

ويطوف عليهم الولدان المخلدون في أجمل صورة وأحسن منظر: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩﴾ [الإنسان:١٩].

قال ابن عطية: «و﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ قال جمهور الناس: معناه باقون من الخلود، وجعلهم ولدانًا؛ لأنهم في هيئة الولدان في السن لا يتغيرون عن تلك الحال، وقال أبو عبيدة وغيره مخلّدون معناه مقرطون، والخلدات حلي يعلق في الآذان... وشبههم بـ «اللؤلؤ المنثور» في بياضهم وانتشارهم في المساكن يجيئون ويذهبون وفي جمالهم، ومنه سميت المرأة درة وجوهرة»[2].

وفي أيديهم الصحاف والأكواب والأباريق والقوارير مقدرة تقديرًا، قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١﴾ [الواقعة:١٧-٢١].

أكواب جمع كوب، وهي الآنية التي لا عرى لها ولا خراطيم، والأباريق التي لها عرى وخراطيم واحدها إبريق، سمي بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه.

وقال جل وعلا: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ [الزخرف:٧١].

«والصحاف: جمع صحفة، وهي: إناء مستدير واسع الفم ينتهي أسفله بما يقارب التكوير. والصحفة: إناء لوضع الطعام أو الفاكهة، مثل: صحاف الفغفوري الصيني تسع شبع خمسة، وهي دون القصعة التي تسع شبع عشرة. وقد ورد أن عمر بن الخطاب اتخذ صحافًا على عدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فلا يؤتى إليه بفاكهة أو طرفة إلا أرسل إليهن منها في تلك الصحاف»[3].

وقال جل وعلا: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١١١.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤١٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٥٤.

﴿٦١﴾ [الإنسان:١٥-١٦].

فهي أكواب «مادتها من فضة، وهي على صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير»[(١)].

وفي التقدير: «قولان: أحدهما: قدّروها في أنفسهم، فجاءت على ما قدّروا، قاله الحسن. وقال الزجاج: جعل الإناء على قدر ما يحتاجون إليه ويريدونه على تقديرهم. والثاني: قدّروها على مقدارٍ لا يزيد ولا ينقص، قاله مجاهد. وقال غيره: قدروا الكأس على قدر ريّهم، لا يزيد عن ريّهم فيثقل الكفّ، ولا ينقص منه فيطلب الزيادة، وهذا ألذّ الشراب. فعلى هذا القول يكون الضمير في «قدّروا» للسقاة والخدم، وعلى الأول للشاربين»[(٢)].

فمن أبصرهم رآهم في نعمة وملك عظيم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان:٢٠].

«كرر ذكر الرؤية مبالغة، و﴿ثَمَّ﴾ ظرف والعامل فيه رأيت أو معناه، وقال الفراء التقدير: ﴿رَأَيْتَ﴾ ما ثمّ وحذفت ما، وقرأ حميد الأعرج «ثم» بضم الثاء، و«النعيم»: ما هم فيه من حسن عيش، و«الملك الكبير»: قال سفيان: هو استئذان الملائكة وتسليمهم عليهم وتعظيمهم لهم، فهم في ذلك كالملوك، وقال أكثر المفسرين: «الملك الكبير» اتساع مواضعهم، فروي عن عبد الله بن عمر أنه قال: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف غلام كلهم مختلف شغله من شغل أصحابه، وأدنى أهل الجنة منزلة من ينظر من ملكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه»[(٣)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٠١.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٧٩.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤١٣.

الإعجاز التشريعي في تحريم الخمر

شرب الخمر بلاء ابتلي به البشر قديمًا وحديثًا، وشاع بينهم شيوع النار في الهشيم. ولم يكن العرب الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم ليشذوا عن هذه القاعدة، بل إن الأحاديث التي رويت في إراقتهم لقرب الخمر في طرقات المدينة بعد نزول تحريمها تشهد أنهم كانوا يشربون منها الشيء الكثير، وما وقع لهم من حوادث قبل نزول التحريم يدل على أنه كان لها مكان كبير في مجالسهم واجتماعاتهم ونواديهم. قال في التحرير والتنوير: «وشيوع شرب الخمر في الجاهلية معلوم لمن علم أدبهم وتاريخهم فقد كانت الخمر قوام أود حياتهم، وقصارى لذاتهم ومسرة زمانهم وملهى أوقاتهم، قال طرفة:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربـــة
كميت متى ما تعل بالماء تزبـــد

وعن أنس بن مالك: (**حرمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر**).

فلا جرم أن جاء الإسلام في تحريمها بطريقة التدريج فأقر حقبة إباحة شربها. واتفق أهل الأثر على أن تحريم الخمر وقع في المدينة بعد غزوة الأحزاب بأيام، أي: في آخر سنة أربع أو سنة خمس على الخلاف في عام غزوة الأحزاب»[(١)].

ولقد استطاع التشريع القرآني أن يستأصل هذا المرض الخبيث فيهم بخطة حكيمة، وتدرج متأن رشيد سبق بيانه، و «في تحريم الخمر بهذا الترتيب حكمة بليغة، وذلك أن القوم ألفوا شرب الخمر، وأصبحت جزءًا من حياتهم، فلو حرّمت عليهم دفعة واحدة؛ لشق ذلك على نفوسهم وربما لم يستجيبوا لذلك النهي، كما تقول السيدة عائشة رضي اللّه عنها: (**أول ما نزل من القرآن سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول ما نزل: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمرة أبدًا**).

وذلك من الخطة الحكيمة التي انتهجها الإسلام في معالجة الأمراض الاجتماعية، فقد سلك بالناس طريق (التدريج في تشريع الأحكام) فبدأ بالتنفير منه بطريق غير مباشر كما في الآية الأولى، ثم بالتنفير المباشر عن طريق المقارنة بين شيئين: شيء فيه نفع ضئيل، وشيء فيه ضرر وخطر جسيم، كما في الآية الثانية، ثم بالتحريم الجزئي في أوقات الصلاة كما في الآية الثالثة، ثم بالتحريم الكلي في جميع الأوقات كما في

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٣٨.

الآية الرابعة، فللّه ما أدق هذا التشريع»[1].

وتبدو هذه ميزة انفردت بها الشريعة الخاتمة من دون سائر الشرائع الأرضية، ويرى ابن عاشور أنها انفردت بها أيضًا عن سائر الشرائع السماوية السابقة، قال: «وشرب الخمر عمل متأصل في البشر قديمًا لم تحرمه شريعة من الشرائع لا القدر المسكر بله ما دونه، وأما ما يذكره علماء الإسلام إن الإسكار حرام في الشرائع كلها فكلام لا شاهد لهم عليه بل الشواهد على ضده متوافرة، وإنما جرأهم على هذا القول ما قعدوه في أصول الفقه من أن الكليات التشريعية وهي حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والمال والعرض هي مما اتفقت عليه الشرائع، وهذا القول وإن كنا نساعد عليه فإن معناه عندي أن الشرائع كلها نظرت إلى حفظ هاته الأمور في تشريعاتها، وأما أن تكون مراعاة باطراد في غير شريعة الإسلام فلا أحسب ذلك يتم، على أن مراعاتها درجات، ولا حاجة إلى البحث في هذا»[2].

ثم يستدل على رأيه هذا بما يتلى في كتب أهل الكتاب فيقول: «بيد أن كتب أهل الكتاب ليس فيها تحريم الخمر ولا التنزيه عن شربها، وفي التوراة التي بيد اليهود أن نوحًا شرب الخمر حتى سكر، وأن لوطًا شرب الخمر حتى سكر سكرًا أفضى بزعمهم إلى أمر شنيع، والأخير من الأكاذيب؛ لأن النبوءة تستلزم العصمة، والشرائع وإن اختلفت في إباحة أشياء فهنالك ما يستحيل على الأنبياء مما يؤدي إلى نقصهم في أنظار العقلاء، والذي يجب اعتقاده: أن شرب الخمر لا يأتيه الأنبياء؛ لأنه لا يشربها شاربوها إلا للطرب واللهو والسكر، وكل ذلك مما يتنزه عنه الأنبياء؛ ولأنها يشربونها لقصد التقوي لقلة هذا القصد من شربها. وفي سفر اللاويين من التوراة «وكلم الله هارون قائلًا: خمرًا ومسكرًا لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع لكي لا تموتوا. فرضا دهريا في أجيالكم وللتمييز بين المقدس والمحلل وبين النجس والطاهر»[3].

ومن عظمة هذا الدين أنه لم يستأصل الخمر بقانون يجرمها، قد يقوم على تطبيقه من يشربها، ولكنه زرع محبة الناهي عنها وخوفه والحياء منه ورجاء رحمته وحذر عقابه في قلوب الناس قبل أن ينهاهم عنها، كما روى البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: **(إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل**

(١) روائع البيان، الصابوني ١/ ٢٧٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٣٨.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٣٩.

أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا)[1].

فأم المؤمنين رضي الله عنها «أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا «قالت: ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندعها»، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف»[2].

ومن عظمة هذا الدين أيضًا أنه فرق بين الفواحش، فسارع إلى استئصال ما كان يمجه الطبع منها، وأخر ما لم يكن كذلك إلى حين كما في حديث عبادة الذي رواه البخاري من طريق الزهري، قال: أخبرني أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله، أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهد بدرًا وهو أحد النقباء ليلة العقبة: **(أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال -وحوله عصابة من أصحابه-: (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه) فبايعناه على ذلك)**[3]، ولفظه عند مسلم: **(كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس، فقال: (تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئًا من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب شيئًا من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه)**[4].

فهذه الفواحش: الزنا، والسرقة، وقتل الولد، أو قتل النفس التي حرم الله، والبهتان، لم تؤخر ولكن وقع النهي عنها مع الشرك في صدر الإسلام، خلافًا للخمر، وذلك أن البيئة الجاهلية على ما فيها، كانت تمج هذه الفواحش، فكان التعجيل بمنعها واستئصالها موافقًا لما غرس في طباع الناس، بل مجاريًا لمنطق العقلاء وأهل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ٦/ ١٨٥، رقم ٤٩٩٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٩/ ٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، ١/ ١٢، رقم ١٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، ٣/ ١٣٣٣، رقم ١٧٠٩.

الشرف والأنفة. يشهد لذلك ما روى ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة:١٢].

أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع النساء، «فقال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ فقالت هند: يا رسول الله وهل تزني الحرة؟ قال: لا والله ما تزني الحرة»[1].

أما الخمر، فإن الناس ما زالوا يشربونها إلى ما بعد الهجرة بسنين، لكونها كانت مغروسة فيهم متأصلة في عاداتهم وطباعهم، ولكن التشريع الإلهي كان إذ ذاك يقطع المدد عن شجرة الهوى في النفوس فإذا هي تذبل يومًا بعد يوم، حتى إذا جاء الأمر الإلهي انكشفت معجزة الإسلام العظيمة وتربيته الحكيمة، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: **(ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا الذي تسمونه الفضيخ، فإني لقائم أسقي أبا طلحة، وفلانًا وفلانًا، إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حرمت الخمر، قالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل)**[2].

فأين هذا من تشريعات أمم رصدت لمنع الخمر المليارات، وانتدبت لذلك جيوشًا، وأنزلت أحكامًا قاسية، ثم اضطرت في الأخير للترخيص لها والتخلية بين الناس وبينها على ما تعلم من آثارها من حوادث مميتة، وأضرار صحية بالغة الكلفة، بل وكونها حارس كل عدوان أو جريمة؟ أين هذا من كلمة واحدة «حرمت الخمر، فقالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل».

ومن دلائل الإعجاز التشريعي في تحريم الخمر ما تكشفت حكمته مظاهر ويظهر كل يوم من أضرارها على الناس جماعة وأفرادًا.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٤٢.
قال ابن كثير في تفسيره ٨/ ٩٩: «وهذا أثر غريب، وفي بعضه نكارة، والله أعلم».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (إنما الخمر والميسر والأنصاب...)، ٦/ ٥٣، رقم ٤٦١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، وبيان أنها تكون من عصير العنب، ومن التمر والبسر والزبيب، وغيرها مما يسكر، ٣/ ١٥٧١، رقم ١٩٨٠.

أثر الخمر على الفرد والمجتمع

نص القرآن الكريم على بعض آثار الخمر في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝﴾ [المائدة: ٩١].

فهي تنشر العداوة والبغضاء وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة. قال في روائع البيان: «لم يذكر في القرآن الكريم تعليل الأحكام إلاّ بالإيجاز، أمّا هنا فقد ذكر بالإطناب والتفصيل، وذكرت فيه الأسباب لتحريم الخمر والميسر بالإسهاب، منها: إلقاء العداوة والبغضاء بين المؤمنين، والصدّ عن ذكر الله، وشغل المؤمنين عن الصلاة، كما وصفت الخمر والميسر بأنها رجس، وأنها من عمل الشيطان إلخ، وكل ذلك ليشير إلى الضرر العظيم، والخطر الجسيم، من جراء اقتراف هاتين الرذيلتين (جريمة القمار) و(جريمة تناول المسكرات) استمع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]»[١].

«فللخمر مضار كثيرة: شخصية وصحية، واجتماعية بزرع العداوة والبغضاء، ودينية بالصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ومالية بتبديد الأموال في الضار غير النافع. وكذا للقمار أضرار نفسية عصبية بإحداث توتر في الأعصاب وقلق واضطراب، واجتماعية ودينية ومالية كالخمر تمامًا»[٢].

وقد جمعت الآية أصول ما في الخمر من أضرار فردية واجتماعية:

فكونها رجس: يقتضي نجاستها العينية المفضية إلى شتى أنواع الأمراض وفساد الأبدان، ونجاستها المعنوية المفضية إلى الانحراف الأخلاقي ومقارفة كل أنواع المنكرات والفواحش، «فالخمر إذا أذهبت العقل، هانت كرامة الإنسان على غيره، وفقد القدرة على إدراك الخير والبعد عن الشر، هذا فضلًا عن أضرار الخمر الصحية في كل أعضاء جهاز الهضم والأعصاب، بل قد يمتد الضرر إلى الأولاد، فينشأ الواحد منهم معتوهًا ضعيف المدارك، وكثيرًا ما أدت الخمر إلى الطلاق وتدمير الأسرة»[٣].

وكونها توقع العداوة والبغضاء: يعني أنها سبب الانهيار الاجتماعي والأسري بما تكسر من روابط الأخوة والجوار ونحوها في المجتمع، وما تفضي إليه من تضييع الحقوق، «أي: إن الشيطان لا يريد لكم من تعاطي الخمر والميسر إلا الإيقاع في

(١) روائع البيان، الصابوني ١/ ٥٦٢.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٧/ ٣٩.

(٣) المصدر السابق.

العداوة بأن يعادي بعضكم بعضًا بسبب الشراب، والبغضاء بأن يزرع الكراهية والحقد والنفرة من بعضكم، فيتحقق هدفه من التفريق والتشتيت بعد التأليف بالإيمان والجمع بأخوة الإسلام»[1].

وكونها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة: يجعلها صادة عن كل مكرمة من المكارم، «ويريد أيضًا صرفكم بالسكر المذهب للعقل والاشتغال بالقمار عن ذكر الله الذي تطمئن به القلوب وتسعد به النفوس في الدنيا والآخرة، وعن الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، والتي تزكو بها النفوس، وتتطهر القلوب»[2].

وقد تهوي بصاحبها إلى ما دون درجة البهيمة. قال في روائع البيان: «أثمن وأغلى شيء في الإنسان عقله، فإذا فقد الإنسان العقل أصبح كالحيوان؛ ولهذا حرم الله الخمر وسميت بـ(أم الخبائث)؛ لأنها سبب في كل قبيح.

قال القرطبي: «وإن الشارب يصير ضحكة للعقلاء، فيلعب ببوله وعذرته وربما يمسح وجهه، حتى رؤي بعضهم يمسح وجهه ببوله، ويقول: اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، ورؤي بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول له: أكرمك الله كما أكرمتني»[3].

وما في الخمر من أضرار نفسية وبدنية وخلقية وما يترتب عليها من آثار سيئة في الفرد والجماعة شيء يجمع عليه جميع العقلاء والعلماء سواء علماء الدين، أو الطب، أو الأخلاق، أو الاجتماع، أو الاقتصاد، ولو أننا أخذنا رأيهم في تعاطي المسكرات لكان جواب جميعهم واحدًا: منع تعاطيها منعًا باتًّا؛ لأنها مضرة ضررًا فادحًا.

فعلماء الدين يقولون: إنها محرمة، وما حرمت إلا لأنها أم الخبائث.

وعلماء الطب يقولون: إنها من أعظم الأخطار التي تهدد نوع البشر[4]، لا بما

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٧٤.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٧.
(٤) من آثار الخمر الإصابة بالتهاب القصبات الرئوية والرئة وبطانة الأنف، ويؤثر على الدماغ والخلايا العصبية ويثبط التنفس وقد يؤدي إلى الموت، ويؤثر على الأجنة في بطون الحوامل، ويؤدي إلى التهاب وتشقق اللسان وتأثر الذوق، والإصابة بسرطان اللسان، وسيلان لعابي مقرف، ويسبب قرحة المعدة وسرطان المريء والمعدة، وعسر الامتصاص، وغازات كريهة، ويؤثر على الكبد ويؤدي إلى تشحمه وتشمعه وهو أحد أكبر أسباب الوفيات، وويصيب باعتلال العضلة القلبية، وارتفاع الضغط، والقصور الجنسي، ويؤدي إلى ضعف الجهاز المناعي، وتعد الخمر وآثارها القاتل الأول في بعض الدول كفرنسا وألمانيا. انظر: موسوعة

تورثه مباشرة من الأضرار السامة فحسب، بل بعواقبها الوخيمة أيضًا، إذ أنها تمهد السبيل لخطر لا يقل ضررًا عنها. والخمر توهن البدن وتجعله أقل مقاومة وجلدًا في كثير من الأمراض مطلقًا، وهي تؤثر في جميع أجهزة البدن، وخاصة في الكبد، وهي شديدة الفتك بالمجموعة العصبية.

لذلك لا يستغرب أن تكون من أهم الأسباب الموجبة لكثير من الأمراض العصبية ومن أعظم دواعي الجنون والشقاوة والإجرام، لا لمستعملها وحده، بل وفي أعقابه من بعده.

فهي إذن علة الشقاء والعوز والبؤس، وهي جرثومة الإفلاس والمسكنة والذل، وما نزلت بقوم إلا أودت بهم: مادة ومعنى، بدنًا وروحًا، جسمًا وعقلًا.

وعلماء الأخلاق يقولون: لكي يكون الإنسان محافظًا على الرزانة والعفة والشرف والنخوة والمروءة، يلزم عدم تناوله شيئًا يضيع به هذه الصفات الحميدة[1].

وبالجملة فقد جمعت الخمر جميع المفاسد الدنيوية، فضلًا عن مفاسدها الدينية، ولذلك كانت أم الخبائث، وقد سميت بذلك في الأثر المروي عن عثمان رضي الله عنه قال: **(اجتنبوا الخمر، فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت: إنا ندعوك لشهادة، فدخل معها فطفقت كلما دخل بابا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب الخمر، فسقته كأسًا، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه)**[2].

موضوعات ذات صلة:

الحرام، السؤال، الشرب، الميسر

الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، يوسف الحاج أحمد ص٦٠٧-٦٣٧.

(١) انظر: فقه السنة، السيد سابق ٢/ ٣٧٣.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الأشربة والحد فيها، باب ما جاء في تحريم الخمر، ٨/ ٥٠٠، رقم ١٧٣٣٩.
قال ابن كثير في تفسيره ٣/ ١٨٩: «رواه البيهقي وهذا إسناد صحيح. وقد رواه أبو بكر ابن أبي الدنيا في كتابه ذم المسكر عن محمد ابن عبد الله بن بزيع، عن الفضيل بن سليمان النميري، عن عمر بن سعيد، عن الزهري، به مرفوعًا، والموقوف أصح، والله أعلم».





عناصر الموضوع



مفهوم الخوف

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور مادة (خوف) حول الذعر والفزع[(١)]، يقال: خاف يخاف خوفًا وخيفة ومخافة، ومنه التخويف والإخافة، والنعت منها خائف[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج عن معناه في اللغة تقريبًا، فالأصفهاني يعرّف الخوف بأنه: «توقّع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة، كما أنّ الرّجاء والطمع توقّع محبوب عن أمارة مظنونة، أو معلومة، ويضادّ الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية»[(٣)].

وعرفه الجرجاني بأنه: «توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب»[(٤)].

وقال التفتازاني: «غم يلحق الإنسان مما يتوقعه من السوء»[(٥)].

يتضح مما سبق أن الخوف شعور بالاضطراب وعدم الأمن نتيجة حدوث مكروه في الحال، أو توقع حدوثه في المستقبل.

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٢٣٠ .
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٨١، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ١٢٩٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥١٢.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٣.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص ٩٠.
(٥) التوقيف، المناوي ص ١٦١ .

الخوف في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خوف) في القرآن الكريم (١٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦]
الفعل المضارع	٦٨	﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٥٠]
فعل الأمر	١	﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥]
المصدر	٣٤	﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش:٤]
اسم الفاعل	٣	﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨]

وجاء الخوف في القرآن الكريم على ثلاثة وجوه[٢]:

الأول: الخوف نفسه: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف:٥٦].

الثاني: القتل أو القتال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ [النساء:٨٣] أي: القتل، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ [الأحزاب:١٩] يعني: انجلى الحرب والقتال.

الثالث: العلم أو الظن: ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢٩] يعني: علمتم أو ظننتم.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٤٦-٢٤٨، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الخاء ص٤٨٨-٤٩١.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٠٠-٢٠١، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٧٩-٢٨١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٥٧٦-٥٧٩، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ٥٤٠-٥٤٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخشية:

الخشية لغة:

تدل مادة (خشي) على خوفٍ وذعرٍ[١].

الخشية اصطلاحًا:

عرفها الأصفهاني بأنها: «خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]»[٢].

وعرفها الجرجاني بأنها: «تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته. وخشية الأنبياء من هذا القبيل»[٣].

الصلة بين الخوف والخشية:

الخشية أعلى من الخوف وأشد منه.

وقيل: «الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا»[٤].

٢ الرعب:

الرعب لغة:

ذكر ابن فارس أن معنى الرعب يرجع إلى ثلاثة أصول: الخوف، والملء، والقطع[٥].

وقال الراغب: «الرّعب: الانقطاع من امتلاء الخوف»[٦].

الرعب اصطلاحًا:

هو الذعر والخوف الشديد من خطر يؤدي إلى فقدان القدرة على الحركة أحيانًا.

الصلة بين الخوف والرعب:

الرعب أخص من الخوف وهو يدل على امتلاء القلب بالخوف وسيطرته عليه مما يسبب

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٤٨.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨٣.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص ٨٦-٨٧.
(٤) الكليات، الكفوي ص ٤٢٨.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٠٩.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥٦.



الانقطاع والذهول.

٣ الشفقة:

الشفقة لغةً:

أشفقت من الأمر، إذا رقفت وحاذرت[١]، وهي «صرف الهمة إلى إزالة المكروه عن الناس»[٢]. شفق: الشَّفق والشَّفقة: الاسم من الإشفاق. والشَّفق: الخيفة[٣].

الشفقة اصطلاحًا:

الشفقة هي ضرب من الرقة وضعف القلب ينال الإنسان، وهي عناية مختلطة بخوف[٤].

«الإشفاق رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة، فإنها ألطف الرحمة وأرقها»[٥].

الصلة بين الخوف والشفقة:

«إن الشفقة ضرب من الرقة وضعف القلب ينال الإنسان، ومن ثم يقال للأم إنها تشفق على ولدها، أي: ترق له، وليست هي من الخشية والخوف في شيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ [المؤمنون:٥٧].

ولو كانت الخشية هي الشفقة لما حسن أن يقول: ذلك، كما لا يحسن أن يقول يخشون من خشية ربهم»[٦].

٤ الرهبة:

الرهبة لغة:

رهب: خاف رَهْبَةً ورُهْبًا. ورجلٌ رَهَبوتٌ، أي: مرهوبٌ، يقال: رَهَبُوتٌ خيرٌ من رحموتٍ. أي: لأن تُرْهَب خيرٌ من أن تُرْحَم[٧].

الرهبة اصطلاحًا:

الرهبة: هي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي مخافة مع تحرز واضطراب، وهي ضد

(١) المصباح المنير، الفيومي ص٣١٧.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٢٧.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٧٩.
(٤) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٣١.
(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١٤.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤١.
(٧) مختار الصحاح، الرازي ١/ ١٣٠.

الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه[1].

الصلة بين الخوف والرهبة:

قال العسكري: «الرهبة طول الخوف واستمراره، ومن ثمّ قيل للراهب راهب؛ لأنّه يديم الخوف»[2].

فالرهبة خوف مخصوص.

٥ الإشفاق:

الإشفاق لغةً:

أشفقت من الأمر، إذا رققت وحاذرت[3]، وهي «صرف الهمة إلى إزالة المكروه عن الناس»[4]. شفق: الشّفق والشّفقة: الاسم من الإشفاق. والشّفق: الخيفة[5].

الإشفاق اصطلاحًا:

«الإشفاق رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة، فإنها ألطف الرحمة وأرقها»[6].

الصلة بين الخوف والإشفاق:

«الشّفقة ضرب من الرقة وضعف القلب ينال الإنسان، ومن ثمّ يقال للأم إنّها تشفق على ولدها، أي: ترق له»[7].

وهكذا فالإشفاق من أعلى درجات الخوف، مصحوب برقة كبيرة وعناية ونصح للمشفق عليه، يرافقه التوقع والحذر.

٦ الفزع:

الفزع لغة:

قال ابن فارس: «(فزع) الفاء والزّاء والعين أصلان صحيحان، أحدهما الذّعر، والآخر الإغاثة»[8].

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣٦٦، مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥٠٨.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٤١.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٣١٧.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٢٧.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٧٩.
(٦) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١٤.
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٤١.
(٨) مقاييس اللغة، ٤/ ٥٠١.



يقال: «فزع منه وفزع فزعًا وفزعًا وفزعًا، وأفزعه وفزّعه: أخافه وروّعه، فهو فزِعٌ»[1].

الفزع اصطلاحًا:

«انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الجزع، ولا يقال: فزعت من الله، كما يقال: خفت منه»[2].

الصلة بين الخوف والفزع:

«الفزع مفاجأة الخوف عند هجوم غارة أو صوت هدة وما أشبه ذلك، وهو انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل»[3].

وهكذا فالفزع يختص بالمفاجأة، ويصاحبه توقع مكروه عاجل، وانقباض ونفور من المخوف.

٧ الأمن:

الأمن لغة:

ضد الخوف، والفعل منه: أمن يأمن أمنًا[4].

الأمن اصطلاحًا:

عدم توقع مكروه في الزمان الآتي[5]، وأصله: طمأنينة النفس وزوال الخوف[6].

الصلة بين الأمن والخوف:

الأمن ضد الخوف.

(١) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٢٥١.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٣٥.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٤٢.
(٤) العين، الفراهيدي ٨/ ٣٨٨.
(٥) التعريفات، الجرجاني، ص ٣٧.
(٦) التوقيف، المناوي، ص ٦٣.

أنواع الخوف

إن المتدبر في كتاب الله عز وجل يجد أن الخوف ينقسم -حسب مشروعيته- إلى قسمين:

أولًا: خوف مشروع:

وهو ينقسم إلى قسمين:

١ . خوف الفطري.

وهو حالة انفعالية تتسم بالقلق وعدم الراحة بسبب التواجد قريبًا من مصادر الخطر، أو الشرور، أو الألم التي يتوقع الإنسان حدوثها أو مصادفتها، ويتوق إلى تجنبها.

وهذا الخوف موجود عند جميع البشر بمن فيهم الأنبياء، وهو ليس صفة ذم أو نقص بالعموم ما دامت تتناسب مع حجم المخوف، لذا فلا يلام عليها الإنسان؛ لأنه مفطور عليه في الغالب.

٢ . خوف محمود.

وهو الخوف الذي يرضاه الله ورسوله.

ويشمل كل ما يحجز المرء عن محارم الله، ويردعه عن الانزلاق في مستنقع المعاصي والآثام، ويسوقه إلى التوبة النصوح كلما استزله الشيطان أو أصابه رذاذ الغفلة والنسيان.

و«الخوف له قصور، وله إفراط، وله اعتدال، والمحمود هو الاعتدال والوسط.

فأما القاصر منه: فهو الذي يجري مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألمًا مبرحًا فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها.

وأما المفرط: فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضًا؛ لأنه يمنع من العمل.

وأما خوف الاعتدال: فهو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات، وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفًا»[1].

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات، كان ذلك فضلًا محمودًا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ص ١٥٠٥.

أو همًّا لازمًا، بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل لم يكن محمودًا»[1].

وهذا الخوف المحمود يشمل ثلاثة أمور:

١. الخوف من مقام الله.

ورد الخوف من مقام الله تعالى في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

منها قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦].

قال القرطبي: «والمعنى خاف مقامه بين يدي ربّه للحساب فترك المعصية. فـ﴿مَقَامَ﴾ مصدرٌ بمعنى القيام. وقيل: خاف قيام ربّه عليه، أي: إشرافه واطّلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد:٣٣].

وقال مجاهدٌ وإبراهيم النّخعيّ: هو الرّجل يهمّ بالمعصية فيذكر اللّه فيدعها من خوفه»[2].

والخوف من مقام الله يشمل الخوف من عظمته وجلاله وكبريائه، ومراقبته لعبده واطلاعه عليه وإحصائه لأعماله، والخوف من غضبه وسخطه وسطوته، كل ذلك يدفع المؤمن إلى تقوى الله بفعل طاعته واجتناب نواهيه، وزجر نفسه كلما دعته إلى اتباع الهوى ومقارفة السيئات. وهكذا يصوغ الخوف شخصية المؤمن وفق مسار التقوى فلا ينحرف عنه يمنة أو يسرة. يقول الأستاذ سيد قطب: «والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة، فظل في دائرة الطاعة.

ونهي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة. فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان، وكل تجاوز، وكل معصية. وهو أساس البلوى، وينبوع الشر، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى، فالجهل سهل علاجه، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها.

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة. وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى. ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة. فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها، الخبير بدوائها، وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها، وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها! ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى. فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته، ولكنه كلفه

(١) التخويف من النار، ابن رجب ص ٢٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/١٤٨.

أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها، وأن يستعين في هذا بالخوف؛ الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب»[1].

٢. الخوف من عذاب الله.

تعددت النصوص القرآنية التي تحذر العباد من عذاب الله تعالى سواء الدنيوي أو الأخروي.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧].

قال ابن كثير: «أي: ينبغي أن يحذّر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذًا باللّه منه»[2].

إن غفلة الناس عن عذاب الله تعالى تدفعهم إلى الاستخفاف بحرماته وتضييع أوامره، وربما استغل الشيطان هذه الفرصة ففتح لهم أبواب الرجاء الكاذب والأمل الخادع ليجعلهم يتخذون من الطمع في رحمة الله، مدخلًا يدخلون به على المعاصي فى جرأة فاجرة، ناسين أن من يرجو ويطمع في رحمة الله عز وجل، يجب أن يكون ممن يخشاه، ويتوقّى محارمه.

ولقد قصَّ علينا القرآن الكريم صورًا كثيرة من عذاب الله الدنيوي للأمم السابقة التي تمادت في الكفر والجحود والعناد حتى أهلكها الله بعذابه، كما قال تعالى:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت:٤٠]

قال ابن كثير: «﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وهم عادٌ، وذلك أنّهم قالوا: من أشدّ منّا قوّةً؟ فجاءتهم ريحٌ صرصرٌ باردةٌ شديدة البرد، عاتيةٌ شديدة الهبوب جدًّا، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وهم ثمود، قامت عليهم الحجّة وظهرت لهم الدّلالة، من تلك النّاقة الّتي انفلقت عنها الصّخرة، مثل ما سألوا سواءًا بسواءٍ، ومع هذا ما آمنوا بل استمرّوا على طغيانهم وكفرهم، وتهدّدوا نبيّ اللّه صالحًا ومن آمن معه، وتوعّدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحةٌ أخمدت الأصوات منهم والحركات.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وهو قارون الّذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرّبّ الأعلى، ومشى في الأرض مرحًا، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنّه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف اللّه به

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣٨١٨-٣٨١٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٨٩.

ويداره الأرض.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، وهم فرعون ووزيره هامان، وجنوده عن آخرهم، أُغرقوا في صبيحةٍ واحدةٍ، فلم ينج منهم مخبرٌ.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: فيما فعل بهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاءً وفاقًا بما كسبت أيديهم»[1].

كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢].

إنها سنة الله تعالى في إهلاك المجرمين الذين يستخفون بالإنذار والوعيد، ويتمادون في العناد والطغيان، فعندما يأتي عذاب الله في الأجل المقدر له فلا مفر منه ولا مهرب، فليحذر المجرمون من عقاب الله وعذابه، ولا يغرهم تأخر نزوله، فإنما هو إملاء واستدراج.

عن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: (إن اللّه تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾)[2].

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المرور بمنازل أهل العذاب إلا مع البكاء والخشية، فقد ذكر ابن عمر رضي الله عنه قال: لما مر النبي بالحجر- منازل ثمود قوم صالح- قال: (لا تدخلوا مساكن الّذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم إلاّ أن تكونوا باكين)، ثمّ قنّع رأسه وأسرع السّير حتّى أجاز الوادي[3].

أما عن العذاب الأخروي فقد وصفه الله تعالى بأنه أشد وأبقى كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٢٧].

«أي: أفظع من المعيشة الضّنك، وعذاب القبر. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أدوم وأثبت؛ لأنّه لا ينقطع ولا ينقضي»[4].

كما وصف العذاب بأنه أخزى كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت:١٦].

«والخزي: هو الذّل، والهوان بسبب ذلك الاستكبار ولعذاب الآخرة أخزى، أي: أشدّ إهانةً وذُلًّا، ووصف العذاب بذلك، وهو في الحقيقة وصفٌ للمعذّبين؛ لأنّهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٧٨-٢٧٩ باختصار.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب قوله تعالى: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة)، رقم ٤٦٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب نزول النبي الحجر، رقم ٤٤١٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٥٩.

الّذين صاروا متّصفين بالخزي»[١].

كما وصف بصفات أخرى منها: العذاب الأليم، كما في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧﴾ [الذاريات:٣٧].

ووصف أيضًا بالكبير كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:٣].

ووصف بأنه عذاب يوم محيط، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود:٨٤].

قال القرطبي: «وصف اليوم بالإحاطة، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم، فإنّ يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم، وهو كقولك: يومٌ شديدٌ، أي: شديدٌ حرّه. واختلف في ذلك العذاب، فقيل: هو عذاب النّار في الآخرة. وقيل: عذاب الاستئصال في الدّنيا»[٢].

إن القلوب العامرة بالتقوى إذا تذكرت عذاب الله عز وجل امتلأت خشية وخوفًا، وسارعت إلى مرضاته وطاعته، وتجنبت ما يسخطه ويغضبه، ولقد مدح القرآن الكريم المؤمنين الذين يخشون عذابه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨﴾ [المعارج:٢٧-٢٨].

إنها «درجة الحساسية المرهفة، والرقابة اليقظة، والشعور بالتقصير في جنب الله على كثرة العبادة، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب في أية لحظة، والتطلع إلى الله للحماية والوقاية.

وفي قوله هنا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ إيحاء بالحساسية الدائمة التي لا تغفل لحظة، فقد تقع موجبات العذاب في لحظة الغفلة فيحق العذاب. والله لا يطلب من الناس إلا هذه اليقظة وهذه الحساسية، فإذا غلبهم ضعفهم معها، فرحمته واسعة، ومغفرته حاضرة. وباب التوبة مفتوح ليست عليه مغاليق!»[٣].

ولشدة عذاب الله عز وجل وخطورته، ذكر القرآن الكريم حرص وخوف عدد من الأنبياء عليهم السلام على أقوامهم وتحذيرهم من الكفر والتكذيب المستحق لعذاب الله الدنيوي والأخروي، فمن ذلك خوف نوح عليه السلام على قومه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦﴾ [هود:٢٥-٢٦].

ومن ذلك خوف هود عليه السلام على قومه في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥١١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن القرطبي ١١/ ١٩١-١٩٢.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٧٠٠ بتصرف.

﴿خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف:٢١].

كما حذر شعيب عليه السلام قومه من عذاب ربهم إذا استمروا على عنادهم وكفرهم وتطفيفهم في الميزان، في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود:٨٤].

وقد سجل القرآن الكريم أيضًا خوف بعض الصالحين على أقوامهم، ونصحهم لهم، فمن ذلك نصيحة مؤمن آل فرعون لقومه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر:٣٠-٣٣].

٣. الخوف من التقصير في الواجبات.

لما علم المؤمنون أن ميزان الحساب دقيق يجازي على مثقال الذرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وأن الكتاب لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

دفعهم ذلك إلى المراقبة الدائمة والمحاسبة المستمرة لجميع أعمالهم خشية أن يتسرب إليها شيء يفسدها أو مخافة ألا يؤدوها على الوجه الأكمل.. وقد أشار الله عزوجل إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠].

«قال الزّجّاج: قلوبهم خائفةٌ؛ لأنّهم إلى ربّهم راجعون، وسبب الوجل هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب، لا مجرّد رجوعهم إليه سبحانه. وقيل: المعنى: أنّ من اعتقد الرّجوع إلى الجزاء والحساب وعلم أنّ المجازي والمحاسب هو الرّبّ الّذي لا تخفى عليه خافيةٌ لم يخل من وجلٍ»[(١)].

«قيل: وجل العارف من طاعته أكثر من مخالفته؛ لأنّ المخالفة تمحوها التّوبة والطّاعة تطلب التّصحيح. وقال الحسن: المؤمن يجمع إحسانًا وشفقةً، والمنافق

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٨.

يجمع إساءةً وأمنًا»[١].

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: (لا يا بنت الصّدّيق، ولكنّهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدّقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون:٦١])[٢].

وهكذا يطهر الخوف والوجل قلوب المؤمنين من شوائب الاغترار أو العجب أو الرياء أو غير ذلك من آفات القلوب، ليمنح هذه القلوب الوجلة حساسية وتوقّيًا لكل مفسدات الأعمال.

ثانيًا: خوف غير مشروع:

وهو الذي لم يكن من الله، ولا من صفاته المقتضية للهيبة والخشية، ولا من معاصي العبد وجناياته، بل يكون لغير ذلك من الأمور.

وقد ذكر القرآن الكريم صورًا من الخوف المذموم، نذكر منها:

١ . الخوف من الشيطان.

منذ اللحظة الأولى لرفض إبليس اللعين السجود لآدم وإعلانه تمرده، واستحقاقه الطرد من رحمة الله، ناصب إبليس آدم وذريته العداء وسعى بشتى الطرق لإضلالهم وإغوائهم.

لذا تعددت النصوص القرآنية التي تحذر من عداوة هذا الخبيث، ودعت عباد الله إلى عدم الخوف من كيده ومكره، كما دعتهم إلى عدم الاستجابة لوساوسه التي يلقيها عبر أوليائه من الكافرين والمنافقين لتوهين عزيمة المؤمنين وتثبيطهم عن الدعوة والجهاد، كما صور القرآن الكريم حال المؤمنين بعد غزوة أحد وهم في طريقهم إلى حمراء الأسد حيث أثختهم الجراح وأنهكهم القتال.

فاستغل الشيطان هذه الفرصة ليلقي بالوهن في قلوبهم ويخوفهم من عدوهم ويوهمهم بأنهم عدد كثير وأولو قوة وبأس شديد، وأن من مصلحة المؤمنين أن يقعدوا عن لقائهم، ويجبنوا عن مدافعتهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٥].

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣٧٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة المؤمنين، رقم ٣١٧٥. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، ٣/ ٢٨٧.

«وفي تخويف أوليائه قولان:

أحدهما: أنه يخوف المؤمنين من أوليائه المشركين، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

والثاني: أنه يخوف أولياءه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين، وهذا قول الحسن، والسدي»[1].

والقول الأول أولى بالصواب، فالشيطان يسعى لتثبيط المؤمنين عن قتال عدوهم بما يقذفه في قلوبهم من الخوف من كثرة أعدادهم وقوة أسلحتهم.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

«أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته. وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله»[2].

ومن المخاوف التي يثيرها الشيطان في قلوب العباد الخوف من الفقر، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة:٢٦٨].

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ «أي: يخوفكم منه، وينذركم به، إذا أنتم أنفقتم في سبيل الله، والأصل في الوعد أن يكون بالخير، والإيعاد بالشرّ، ووعد الشيطان هنا لمن يوسوس له بالشحّ والإمساك مخافة الفقر وعده له بالفقر، إنما هو في صورة الخير، إذ يحذره ويريه عاقبة أمره، فهو وعد الناصح الأمين الحريص على مصلحة من ينصحه. هكذا يزين الشيطان للناس الشر ويلبسه وجه النفع والخير»[3].

وفي مقابل وعد الشيطان بالفقر، هناك وعد الله بالمغفرة والفضل وسعة العطاء ووفرته لمن أعطى وبذل وأنفق فى سبيل الله.. فمن استجاب لوعد الشيطان قاده إلى الهلاك والخسران، ومن استجاب لدعوة الرحمن نال الرحمة والرضوان.. وقد قدمت الآية السابقة الدواء الناجع لعلاج وساوس الشيطان في تخويف العباد بالفقر، وذلك بتذكيرهم بأن الله تعالى بيده خزائن السماوات والأرض، يرزق عباده من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون، ويعوّض عليهم من واسع فضله أضعاف ما أنفقوه، كما أنه سبحانه يجعل إنفاقهم سببًا في مغفرة سيئاتهم والعفو عن ذنوبهم مع أنه غني عنهم ولا تنفعه طاعتهم أو تضره معصيتهم.

فهل يبقى مع وعد الله عز وجل لعباده

(١) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٣٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥٧.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١/ ٣٣٥.

أي وساوس أو مخاوف من الفقر؟!

وهكذا يستغل الشيطان خوف كثير من الناس من الفقر ليمنعهم من الإنفاق في سبيل الله ومرضاته، ويغريهم بالبخل، ويصيبهم بالهم والقلق الدائمين، فينغص عليهم عيشهم، ويحرمهم من السكينة والطمأنينة.

فأي جريمة يرتكبها المرء في حق نفسه عندما يستجيب لوعود الشيطان بالفقر وينسى أن ربه عز وجل واسع العطاء عظيم الفضل والإنعام!

إن القلب المؤمن لا يطرقه خوف الشيطان؛ لأنه يسجد في محراب الخشية لله عز وجل، فإذا اقترب منه الشيطان يغريه بالأوهام ويوسوس له بما يخيفه عاد سريعًا إلى حصن مولاه خائفًا ذاكرًا عابدًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف:٢٠١].

فيا لسعادة المؤمن بقوة صلته بمولاه وحسن توكله عليه يمنحانه الثقة والطمأنينة في معركته مع الشيطان!

٢. الخوف من الأعداء.

اقتضت سنة الله تعالى أن يواجه المجرمون دعوات الأنبياء والدعاة -على مر العصور- بالصد والتكذيب تارة، وبتدبير المكائد والمؤامرات تارة أخرى، واتخذ أعداء الإسلام في سبيل ذلك كافة الوسائل والتدابير التي من شأنها بث الخوف في قلوب المؤمنين وتثبيطهم، وإضعاف روحهم المعنوية. لذا كان الخوف من الأعداء من صور الخوف المذموم التي حذر الله عزوجل منها في أكثر من آية؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

وقوله تعالى: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ [المائدة:٣].

وكيف يخاف المؤمن من أعدائه وهو يوقن بأن الله عز وجل وليه وناصره، صاحب القدرة النافذة والعزة الحقيقية، بيده الآجال والأرزاق، بيده وحده الأمر كله من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧]؟!

نعم.. إن الخوف من العدو أمر طبيعي إذا دفع المؤمن إلى الاستعداد والتجهز لهذا العدو، أما إذا تجاوز الخوف الحدود ودعا أصحابه إلى الجبن والفرار أو الاستسلام فهذا هو الخوف المذموم الذي يعاقب عليه صاحبه. وقد مدح الله عز وجل عباده المؤمنين ووصفهم بأنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي: لا يردّهم عمّا هم فيه من طاعة اللّه، وقتال أعدائه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، لا يردّهم عن ذلك رادٌّ، ولا يصدّهم عنه صادٌّ، ولا يحيك فيهم لوم لائمٍ ولا عذل عاذلٍ»[1].

فهم «يظهرون الشّدّة والغلظة والتّرفّع على الكافرين، ويجمعون بين المجاهدة في سبيل اللّه وعدم خوف الملامة في الدّين، بل هم متصلّبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحقّ وحزب الشّيطان من الإزراء بأهل الدّين وقلب محاسنهم مساوئ ومناقبهم مثالب، حسدًا وبغضًا وكراهةً للحقّ وأهله»[2].

وقد قص القرآن علينا موقف بني إسرائيل لما أصابهم الخوف من عدوهم وجبنوا عن مقاتلتهم، ورفضوا دخول الأرض المقدسة، فاستحقوا الخزي والهوان.

قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ۝٢١ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢﴾ [المائدة:٢١-٢٢].

وهكذا تصور هذه الآيات مدى الخوف الذي تمكن من قلوب بني إسرائيل حتى أصابهم بضعف الهمة وخور العزيمة والجبن عن ملاقاة عدوهم رغم وعد الله عز وجل لهم بالغلبة والنصر.

«وهذا الجبن والخوف والوهن هو أساس الداء عند أية أمة تسلك ما سلكه أولئك اليهود، حيث ترفض طريق القتال والجهاد والاستشهاد، وتؤثر عليه طريق الذل والضعف والاستسلام، وخداع النفوس بأوهام وخيالات، تتوهم فيها الانتصار على الأعداء عن طرق الضغط السلمي أو المفاوضات المباشرة وغير المباشرة. أو تنتظر خروج أعدائها من البلاد، وانسحابهم من الميدان بكرم وأريحية، وتعتبر هذا المنطق هو قمة الوعي والفطنة والدهاء والواقعية والاعتدال!»[3].

وقد نجح أعداء الإسلام في استخدام سلاح بث الشائعات ونشر الأكاذيب والأراجيف عبر وسائل الإعلام التي تصور قوة العدو بأنها لا تقهر، وأنهم يمتلكون من الأسلحة الحديثة الفتاكة ووسائل القتال المتطورة والتي لا يمكن مواجهتها، وذلك من أجل بث الخوف والرعب في قلوب المسلمين، وهو ما يعرف بالحرب النفسية.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥١.
(٣) مع قصص السابقين في القرآن، صلاح الخالدي ص ١٨٩.

ولا بديل أمام المسلمين حيال ذلك إلا الاعتصام بالله والتوكل عليه وإعداد القوة واتخاذ الأسباب، ولتكن لهم عبرة في أسلافهم الأبرار عندما مدحهم الله عز وجل في كتابه بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فلم يزدهم إرجاف المرجفين وتثبيط المخذّلين إلا إيمانًا وتسليمًا.

٣. الخوف من الموت المؤدي للنكوص عن الجهاد والفرار من التكاليف.

إن الخوف من الموت خوف طبيعي أو فطري لا يلام عليه العبد إلا إذا كان سببًا لترك واجب، أو فعل محرم. فالخوف من الموت محفز قوي لأصحاب القلوب الحية يدفعها للمسارعة إلى الخيرات والبعد عن المعاصي والسيئات، كما يسوقها إلى التوبة كلما حادت عن الصراط المستقيم.

أما إذا أدى الخوف من الموت إلى الجبن والخور، وترك تكاليف الجهاد، فهو خوف مذموم.

ولقد قص علينا القرآن الكريم قصة قوم خرجوا من ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم خوفًا من الموت.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣].

يقص الله تعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت، إما بسبب الخوف من العدو، أو بسبب وباء عام كالطاعون ونحوه، فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم، ليروا هم وكل من خلف بعدهم أن الإماتة إنما هي بيد الله تعالى لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف، ولا لاغترار مغتر.

«وفي هذه القصّة عبرةٌ ودليلٌ على أنّه لن يغني حذرٌ من قدرٍ وأنّه، لا ملجأ من اللّه إلّا إليه، فإنّ هؤلاء فرّوا من الوباء طلبًا لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعًا في آنٍ واحدٍ»[1].

«إن الحذر من الموت لا يجدي، وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلًا، ولا يردان قضاءً، وإن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة، وإنه متفضل في الحالتين: حين يهب، وحين يسترد، والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد. وإن مصلحة الناس متحققة في هذا وذاك، وإن فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء.

إن تجمع هؤلاء القوم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ وخروجهم من ديارهم ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ لا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٦١.

يكون إلا في حالة هلع وجزع، سواء كان هذا الخروج خوفًا من عدو مهاجم، أو من وباء حائم، إن هذا كله لم يغن عنهم من الموت شيئًا»[1].

٤ . الخوف المجاوز لليأس والقنوط.

ذكرنا أن الخوف المحمود ما حجز عن محارم الله، فإذا زاد عن حده، وأورث اليأس والقنوط، دفع المرء إلى استمراء المعاصي والذنوب نتيجة قوة يأسه.

لذا فالواجب على المؤمن ألا «يدع الخوف يفضي به إلى حد يوقعه في القنوط واليأس من رحمة الله، فإن هذا الخوف مذموم، وهذا الخوف الموقع في الإياس: إساءة أدب على رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه وجهل بها»[2].

لذا تنوعت النصوص القرآنية التي تدعو المؤمن إلى الجمع بين الخوف والرجاء، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ⁽٩⁾﴾ [الزمر:٩].

كما جمع تعالى بين مغفرته وعذابه في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⁽٤٩⁾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ⁽٥٠⁾﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

«فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائمًا بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها»[3].

كما حذر تعالى عباده من اليأس من روحه والقنوط من رحمته.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ⁽٥٦⁾﴾ [الحجر:٥٦].

«إنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون؛ الضالون عن طريق الله الذين لا يستروحون روحه، ولا يحسون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته؛ فأما القلب الندي بالإيمان، المتصل بالرحمن، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، ومهما ادلهمت حوله الخطوب، ومهما غام الجو وتلبد، وغاب وجه الأمل في ظلام الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر؛ فإن رحمة الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٦٤.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٣ / ٢٣٧٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٨.

قريب من قلوب المؤمنين المهتدين، وقدرة الله تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج، وتغير الواقع كما تغير الموعود»[1].

«وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

أحدهما: أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم، فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفًا وخلقًا لازمًا، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم، ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته، فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئ من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها. فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل: لعلم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه»[2].

وهناك صور أخرى للخوف المذموم تشمل: خوف المرء من وثن، أو طاغوت، أو ميت، أو غائب من جن أو إنس أن يصيبه بما يكره؛ كما قال الله عن قوم هود عليه السلام أنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود:٥٤].

«أي: ما نقول إلّا أنّه أصابك بعض آلهتنا الّتي تعيبها وتسفّه رأينا في عبادتها بسوءٍ: بجنونٍ، حتّى نشأ عن جنونك ما تقوله لنا وتكرّره علينا من التّنفير عنها، فأجابهم بما يدلّ على عدم مبالاته بهم وعلى وثوقه بربّه وتوكّله عليه، وأنّهم لا يقدرون على شيء مما يريده الكفّار به، بل اللّه سبحانه هو الضّارّ النّافع، فقال: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من إشراككم من دون اللّه من غير أن ينزّل به سلطانًا فكيدوني جميعًا أنتم وآلهتكم إن كانت كما تزعمون من أنّها تقدر على الإضرار بي وأنّها اعترتني بسوء ثمّ لا تنظرون، أي: لا تمهلوني، بل عاجلوني واصنعوا ما بدا لكم. وفي هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم الّتي يعبدونها ما يصكّ مسامعهم، ويوضّح عجزهم وعدم قدرتهم على شيءٍ إنّي توكّلت على اللّه ربّي وربّكم فهو يعصمني من كيدكم، وإن بلغتم في تطلّب وجوه الإضرار بي كلّ مبلغٍ، فمن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٤٨.
(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد، السعدي ص ٢١٣-٢١٤.

توكّل على اللّه كفاه»[1].

وقد خوّف المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوثانهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر:٣٦].

وهذا من ضلال المشركين إذ يحسبون أن آلهتهم الزائفة تلك تملك ضرًّا أو نفعًا، وتستطيع أن تلحق الأذى والسوء بمن يريدون.. فالله عز وجل هو الذي يتولى رعاية نبيه وحفظه كما يتولى رعاية عباده الصالحين، فمن ذا الذي يجرؤ أن يمس أولياء الله بسوء وهم في كنفه وعنايته؟

ومن ذا الذي يصيبه القلق أو الخوف من أوثان المشركين على اختلاف صورها وأشكالها وهو يتوكل على من بيده ملكوت السماوات والأرض؟

وقد أعلن إبراهيم عليه السلام هذه الحقيقة في وجه المشركين في يقين جازم وحسم قاطع، في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام:٨١].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٠٥.

نفي الخوف عن الله

من لوازم الإيمان بالله: الإيمان بأسمائه وبصفاته، والإيمان بهذه الصفات يشمل إثبات كل صفات الكمال والجلال والجمال لله عز وجل، وتنزيهه عن كل صفات النقص وعن مشابهته شيئًا من مخلوقاته، وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه له المثل الأعلى، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل:٦٠].

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

يقول الشوكاني: «ولله المثل الأعلى وهو أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل والجود الشّامل والعلم الواسع، أو التّوحيد وإخلاص العبادة، أو أنّه خالقٌ رازقٌ قادرٌ مجازٍ»[2].

وأضاف الشيخ السعدي رحمه الله: «﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة والمحبة والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين والذكر الجليل والعبادة منهم. فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما ترتب عليه»[3].

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٧٠-١٧١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٢.

ومن الصفات المنفية عن الله عز وجل: صفة الخوف، «فالخوف يتضمن نقصان العلم والقدرة والإرادة، فإن العالم بأن الشيء لا يكون، لا يخافه، والعالم بأنه يكون ولا بد قد ييئس من النجاة منه فلا يخاف، وإن خاف فخوفه دون خوف الراجي، وأما نقص القدرة فلأن الخائف من الشيء هو الذي لا يمكنه دفعه عن نفسه، فإذا تيقن أنه قادر على دفعه لم يخفه.

وأما نقص الإرادة فلأن الخائف يحصل له الخوف بدون مشيئته واختياره، وذلك محال في حق من هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، ومن لا يكون شيء إلا بمشيئته وإرادته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا لا ينافي كراهته سبحانه وبغضه وغضبه، فإن هذه الصفات لا تستلزم نقصًا لا في علمه ولا في قدرته ولا في إرادته، بل هي كمال؛ لأن سببها العلم بقبح المكروه المبغوض المغضوب عليه، وكلما كان العلم بحاله أهم كانت كراهته وبغضه أقوى ولهذا يشتد غضبه سبحانه على من قتل نبيه أو قتله نبيه»[1].

قال الله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝١٥﴾ [الشمس: ١٤-١٥].

«قال ابن عباسٍ: لا يخاف الله من أحدٍ تبعةً. وكذا قال مجاهدٌ، والحسن، وبكر بن عبد الله المزنيّ، وغيرهم. وقال الضّحّاك والسّدّيّ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي: لم يخف الّذي عقرها عاقبة ما صنع. والقول الأوّل أولى؛ لدلالة السّياق عليه، واللّه أعلم»[2].

وقال أبو السعود: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ «أي: عاقبتها وتبعتها كما يخاف سائر المعاقبين من الملوك فيبقي بعض الإبقاء وذلك أنّه تعالى لا يفعل فعلًا إلاّ بحق وكلّ من فعل بحق فإنه لا يخاف عاقبة فعله وإن كان من شأنه الخوف»[3].

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ وهذا يعني: «أن الله لا يخاف من عاقبة هؤلاء الذين عذبهم، ولا يخاف من تبعتهم؛ لأن له الملك وبيده كل شيء، بخلاف غيره من الملوك لو انتصروا على غيرهم، أو عاقبوا غيرهم تجدهم في خوف يخشون أن تكون الكرة عليهم. أما الله عز وجل فإنه لا يخاف عقباها. أي: لا يخاف عاقبة من عذبهم؛ لأنه سبحانه وتعالى له الملك كله، والحمد كله، فسبحانه وتعالى ما أعظمه، وما أجل سلطانه»[4].

وخلاصة القول إن الخوف صفة نقص تتصف بها المخلوقات الحية من أجل تحقيق افتقارها وفرارها وحاجتها الدائمة إلى مولاها.. أما الخالق جل وعلا فإنه

(١) الصواعق المرسلة، ابن القيم ٤/ ١٤٤٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤١٥.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٥٣٩.
(٤) تفسير جزء عم، ابن العثيمين ص ٢٢٩.



متنزه عن الخوف، فهو صاحب الإرادة التامة والمشيئة النافذة والقدرة الكاملة والهيمنة التامة والقوة القاهرة، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.. فهل يستطيع أحد من البشر الضعاف المهازيل أن يحول بينه سبحانه وبين تصرفه المطلق في شئون كونه بالحساب والمجازاة ؟! «سبحانه وتعالى ومن ذا يخاف؟ وماذا يخاف؟ وأنى يخاف؟ إنما يراد من هذا التعبير لازمه المفهوم منه. فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل، يبلغ غاية البطش حين يبطش. وكذلك بطش الله كان: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ [البروج:١٢]، فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله في النفوس»[1].

ألا فلترتدع وترعوي نفوس الطغاة التي استمرأت العدوان والظلم والطغيان، ولتستفق من نشوة سكرتها واغترارها بإمهال الله عز وجل لها واستدراجها!

ولنتأمل في حال المكذبين على مر العصور الماضية كانوا أشد منهم قوة، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وجعلهم أثرًا بعد عين، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾ [مريم:٩٨].

الخوف طبيعة انسانية

الخوف شعور فطري أوجده الله تعالى في النفس البشرية؛ ليعين الإنسان على اتقاء الأخطار التي تهدده مما يساعده على الحياة والبقاء، يقوى ويضعف حسب الحالة التي يكون فيها الإنسان والمؤثر الذي يتعرض له، فلا يخلو شخص من هذا الشعور مهما علت منزلته.

وهذا ما يؤكده علماء النفس: « فالخوف حالة انفعالية داخلية طبيعية يشعر بها الإنسان فى بعض المواقف، ويسلك فيها سلوكًا يبعده عادة عن مصادر الضرر، وهذا كله ينشأ عن استعداد فطري أوجده الخالق فى الإنسان والحيوان، ويسمى الغريزة، ولابد أن يكون الخالق قد أوجد هذا الاستعداد الغريزي لحكمة تتعلق بصالح الكائن الحي، فالخوف هو الذي يدفعنا لحماية أنفسنا وللمحافظة عليها، فإذا كنا لا نخاف النار مثلًا فقد تحرقنا، وإذا كنا لا نخاف الحشرات والحيوانات الضارية فقد تقتلنا، وإذا كنا لا نخاف الجراثيم فقد تفتك بنا، وهناك كذلك الخوف من الزلل، وخوف الإنسان على سمعته وما إلى ذلك، ومن الطبيعي أن تقترن الحالة الشعورية الانفعالية (وهي الخوف) بالسلوك الملائم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩١٩.

وهو الخلاص من الخطر»[1].

يقول د. محمد بني يونس: «الخوف: ظاهرة طبيعية أو سوية، و لا يدل على أي اضطراب نفسي أو انحراف في الشخصية و طالما أن هناك أسبابًا معقولة له، وأن مستوى الخوف الذي يبديه الشخص الخائف يتناسب مع حجم المثير المخوف، والخوف في حد ذاته ليس شيئًا رديئًا يجب القضاء عليه، أو يجب الاستغناء عنه في مجالات التربية والمجالات الاجتماعية العادية»[2].

أما إذا تجاوز الخوف الحد المطلوب فإنه يصبح حالة مرضية تنغص على المرء معيشته، وتشل ذاكرته وتصيبه بالشلل الحركي، وتدفعه إلى الاستسلام والجمود.

ولقد وصف القرآن الكريم انفعال الخوف عند بعض الأنبياء عليهم السلام نتيجة تعرضهم لمؤثرات مختلفة[3]، نتناولها بإيجاز:

١ . الخوف نتيجة شدة الموقف وعامل المباغتة.

ويتجلى ذلك بصورة واضحة في قصص موسى وداود ولوط عليهم السلام:

١ . خوف موسى عليه السلام.

ويتجلى ذلك في موقفين:

الموقف الأول: عندما تحولت العصا في يده إلى ثعبان يتحرك يمينًا وشمالًا، قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾ [النمل:٩-١٠].

قال عز وجل: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ۝٣١﴾ [القصص:٣١].

لقد فوجىء موسى عليه السلام بمجرد أن ألقى العصا أنها صارت حية كبيرة هائلة مخيفة، تهتز وتضطرب، تسعى وتسير، وتتحرك حركة سريعة مخيفة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ «أي: انطلق مسرعًا، فأعطاها ظهره، وأطلق ساقيه للريح فرارًا من هذا الهول الذي طلع عليه من تلك العصا التي كانت خشبة جامدة في يده منذ لحظات»[4].

لقد كان الأمر بالغ الصعوبة خاصة أن موسى عليه السلام فى مثل هذا الموقف كان يحوطه القلق والاضطراب، وتغمره

(١) أسس الصحة النفسية، عبد العزيز القوصي ص ٣٣٦.

(٢) سيكولوجية الدافعية والانفعالات، محمد بني يوسف ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٣) ذكر أنواع هذه المؤثرات رمضان القذافي في كتابه علم النفس في الإسلام ص ١١٦.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٠ / ٢١٧.

الوحشة، ويحتويه الظلام وهو عائد من مدين إلى مصر يبحث عن الأنس والدفء في ظلمة الليل، ووحشة الصحراء، كما قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ [طه:٩-١٠].

لذا طمأنه الله عزوجل فقال له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ «وهذا أبلغ ما يكون في التأمين، وعدم الخوف.

فإن قوله: ﴿أَقْبِلْ﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل في الأمر المخوف، فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ أمر له بشيئين، إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئنًا، واثقًا بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية، أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون أجرأ له، وأقوى وأصلب»[1].

الموقف الثاني: عند لقاء السحرة، وإذا حبالهم وعصيّهم بما عمل فيها من حيل يخيّل للناظر إليها أنها حيات تسعى.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه:٦٥-٦٨].

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ «أي: أحسّ، وقيل: وجد، وقيل: أضمر، وقيل: خاف، وذلك لما يعرض من الطّباع البشريّة عند مشاهدة ما يخشى منه، وقيل: خاف أن يفتتن النّاس قبل أن يلقي عصاه، وقيل: إنّ سبب خوفه هو أنّ سحرهم كان من جنس ما أراهم في العصا، فخاف أن يلتبس أمره على النّاس فلا يؤمنوا، فأذهب اللّه سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشّره به بقوله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾»[2].

إن خوف موسى عليه السلام في هذا المشهد ليس خوف جبن أو خوفًا على حياته، بل كان خائفًا من أن يقع الناس تحت تأثير هذا المنظر بصورة يصعب معها إرجاعهم إلى الحقّ. «فالتعبير عن الحالة العرضية التي مرت بموسى عليه السلام بكلمة ﴿خِيفَةً﴾ بدل (خوف)، وتعيين هذه الحالة بأنها كانت في نفسه، يشير إلى أنها كانت حالة نفسية عرضية سريعة، سرعان مازالت وتلاشت، وحلَّ محلها يقينه وثقته

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢١.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٧٤-٣٧٥.

وثباته، وهذا التوجس النفسي لم يؤثر على موقفه وتحديه، ولم يتحول إلى خوف وجودي، ينتج آثارًا عملية سيئة»[1].

فما أروع عناية الله عز وجل بأوليائه تربط على قلوبهم وتثبت أقدامهم في أحلك المواقف وأصعب اللحظات لتسكب في قلوبهم السكينة والطمأنينة.

٢. خوف داود عليه السلام في موقفه مع الخصمين.

قال الله عز وجل: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص:٢١-٢٢].

«تتحدث الآيات عن قصة حدثت لداود عليه السلام، وتذكر أن خصمين دخلا عليه مجلسه في صورة غير مألوفة، إذ تسورا عليه السور، ولم يدخلا من المدخل الطبيعي إليه. ففزع منهما، وتوقع الشر من دخولهما على تلك الصورة، التي يقتحمان عليه فيها مجلسه اقتحامًا، من غير استئذان، وهو الملك، ذو البأس والسلطان، الذي تقوم على حراسته الجنود، والحجّاب»[2].

وكأن هذه الآيات تبين لنا أن داود عليه السلام مع ما آتاه الله من الحكم، والملك، والسلطان، والجاه، والجيوش والحراس. يفزع ويخاف، ويتوقع الشر، وحصول المكروه. مما يؤكد أن الخوف انفعال فطري لا يخلو منه أحد مهما كانت قوته وسلطانه أو علت مكانته ومنزلته.

٣. خوف لوط عليه السلام على ضيوفه من قومه المجرمين.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت:٣٣-٣٤].

تصور هذه الآيات الكرب والضيق والهم والأسى والحزن والخوف الذي أصاب لوطًا عليه السلام عندما جاءته الملائكة في صورة سويّة من صور البشر، فيهم الشباب، والنضارة، والجمال. فخاف عليهم من تعرض قومه الشاذين لهم وقد اشتهروا بفعل الفاحشة دون تحرج أو حياء، فأحس لوط عليه السلام وهو في هذا الموقف العصيب بأنه عاجز عن حماية ضيوفه والتصدي لقومه الذين أعمتهم سكرة الشهوة عن الاستجابة

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي ٢/ ٤٥٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ١٠٦٦.

لندائه المتكررة عبر استثارة النخوة الآدمية فيهم أو استجاشة وجدان تقوى الله فيهم، فقول الملائكة للوط عليه السلام: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ يدل على ظهور أمارات الخوف عليه مع ما أصابه من الهم والأسى.

٢. الخوف نتيجة الضغوط المتنوعة والشعور بالألم.

ويتجلى ذلك في خوف موسى عليه السلام من ضغط فرعون وإفراطه في التعدي.

قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٢-٤٦].

لما كلف الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون ودعوته إلى الحق، تذكر موسى عليه السلام -وقد تربى في قصره- بطش فرعون وطغيانه وجبروته، كما أن موسى قد قتل القبطي بطريق الخطأ، فهناك احتمال كبير أن يتعرض للمساءلة والحساب، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء:١٤].

فعندها توجه موسى وهارون عليهما السلام إلى الله عز وجل: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، فقد خاف موسى عليه السلام من أن يعجل فرعون بعقابه قبل أن يسمع منه ما أرسل به إليه، وهكذا شأن الطاغية دومًا إذا سمع شيئًا لا يعجبه ولا يتفق مع هواه، تعجل الأمر بالقتل.

وهنا تأتي المعية الربانية بالحفظ والتأييد والرعاية والعناية ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: «لا تخافا منه، فإنّني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيءٌ، واعلما أنّ ناصيته بيدي، فلا يتكلّم ولا يتنفّس ولا يبطش إلّا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي»[1].

فأي ثقة وطمأنينة يستشعرها القلب المؤمن وهو يوقن أنه في معية من بيده ملكوت كل شيء، ومن يقول للشيء كن فيكون! فيا لقرة أعين المؤمنين بمعية ربهم تحفظهم في أشد المواقف وتحميهم من كيد الطغاة وبطش المجرمين!

٣. الخوف من المجهول أو غير المعلوم.

ويتجلى ذلك في هذه المواقف الثلاثة:

١. خوف إبراهيم عليه السلام من ضيوفه.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٩٦.

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٨].

يصور هذا المشهد القرآني وصول مجموعة من الملائكة على صورة رجال إلى منزل إبراهيم عليه السلام، وكان إبراهيم لا يعرفهم، دخلوا عليه منزله، فقام من فوره وقدم لهم طعامًا شهيًّا، فلم تمتد أيديهم إليه، فلما رأى إبراهيم ذلك منهم نكرهم.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «نكر الشيء وأنكره: ضد عرفه، أي: نكر ذلك منهم، ووجده على غير ما يعهد من الضيف، فإن الضيف لا يمتنع من طعام المضيف إلا لريبة، أو قصد سيء، وأحس في نفسه خيفة منهم وفزعًا، أو أدرك ذلك وأضمره إذ شعر أنهم ليسوا بشرًا، أو أنهم ربما كانوا من ملائكة العذاب، والوجس يطلق على ما يعتري النفس من الشعور والخواطر عند الفزع»[(١)].

وقد عبر الله عز وجل عن هذا الموقف نفسه في سورة هود بقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود: ٧٠].

ثم اكتشف إبراهيم حقيقة ضيوفه وأنهم ملائكة الرحمن جاءوا لإهلاك قوم لوط كما بشروه بغلام عليم يكون له من زوجه العجوز العقيم.

«والجميل في التعبير أنه بمجرد ما داخل إبراهيم الخوف، وظهرت علاماته على وجهه، بادر الملائكة إلى طمأنته، وطرد الشعور بالخوف من فؤاده، بالكشف عن هويتهم الملائكية الكريمة، وتعزيزها بإلقاء بشرى الولد، بردًا وسلامًا على إبراهيم، فالرسول آمن عند ربه، وما كان ليروعه شيء ولا أحد أبدًا، وإنما كان خوف إبراهيم توجسًا، أي: شعورًا خفيًّا، فقوله: ﴿وَأَوْجَسَ﴾ من الوجس، وهو إضمار الشعور بالخوف في النفس. ومع ذلك سارعت الملائكة إلى طرد ذلك الخاطر من قلبه، وتمكين وجدانه من روح الأمن والسلام»[(٢)].

٢. خوف يعقوب عليه السلام على يوسف من الذئب.

منذ اللحظة الأولى التي قصَّ فيها يوسف رؤياه على أبيه يعقوب عليهما السلام، أدرك يعقوب أنه سيكون ليوسف مستقبل مشرق زاهر، فطلب من يوسف ألا يقص رؤياه على إخوته خوفًا من كيدهم ومكرهم،

(١) تفسير المنار، الشيخ محمد رشيد رضا ١٢/ ١٢٨.

(٢) مجالس القرآن، فريد الأنصاري ٢/ ١٠٧.

خاصة وأنهم كانوا يرون تعلق يعقوب به وإيثاره عليهم في زعمهم، ثم جاءت اللحظة التي طلب فيها إخوة يوسف من أبيهم أن يرسل معهم يوسف في نزهة للهو واللعب، ووعدوه بحفظه وحمايته، كما حكى القرآن في قوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف:١١-١٣].

«لقد سلّم لهم أبوهم بما طلبوه، ولكنه أظهر لهم بعض مخاوفه، إذا هو أجابهم إلى ما طلبوا.. فهو يحزن لبعد يوسف عنه، ولو ليوم أو بعض يوم، إذ كان سلوته، وأنسه.

ثم هو يخشى أن يصيبه مكروه إذا هم غفلوا عنه، فيعدو عليه ذئب من تلك الذئاب المتربّصة لصيد تناله من إنسان أو حيوان في هذه الفلاة التي يرعون فيها! وفي قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ قد وضع بين أيديهم السلاح الذي يستعملونه في تنفيذ أمرهم الذي دبّروه، وليكون لهم منه ما يصدّق ظنون أبيهم ومخاوفه فيما ظنّه وتخوّفه؛ فكانت قصّة الذئب التي جاءوا أباهم بها، هي من وحي هذه الظنون وتلك المخاوف التي أعلنها أبوهم لهم.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف:١٤]. إنهم التقطوا من أبيهم كلمة ﴿الذِّئْبُ﴾ وجعلوها العدوّ المتربص بهم، وأنهم سيأخذون حذرهم منه، وهم عشرة رجال، وإنه لن يستطيع أن ينال شيئًا منهم»[1].

«وهذا المشهد يؤكد حصول انفعال الخوف عند يعقوب عليه السلام تجاه ولده وقرّة عينه يوسف عليه السلام، وهذا الأمر طبيعي جدًّا، وهو فطرة بشرية مغروزة في أعماق الآباء تجاه أولادهم، فالخطر قد يدهم يوسف عليه السلام من غيرة إخوته وحسدهم، أو من بطشهم به من خلال وسوسة الشيطان لهم، فجاء تحذير يعقوب عليه السلام له. ومن حق يعقوب عليه السلام أن يخاف وينفعل، سواء خوفه من الذئب، أو من إهمالهم أخاهم فيأكله الذئب، أو من إخوته أنفسهم، وهو يستشعر تغلغل الحسد إلى قلوبهم»[2].

٣. خوف موسى عليه السلام من فرعون وزبانيته بعد قتله القبطي بطريق الخطأ.

قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ١٢٤٣-١٢٤٤.

(٢) الانفعالات النفسية عند الأنبياء في القرآن الكريم، إبراهيم عبدالرحيم مصطفى، رسالة ماجستير، ص ٦٨-٦٩ باختصار.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص:١٨-٢١].

تصور هذه الآيات لحظات الحيرة والاضطراب التي انتابت موسى بعد قتله للقبطي بطريق الخطأ وانتشار الخبر في قصر فرعون، وخوف موسى من اكتشاف أمره، خاصة بعدما نصحه أحد الناصحين من آل فرعون بالخروج من مصر قبل أن تصل إليه أيدي زبانية فرعون.

«وقد صور القرآن حالة موسى عندما خرج من المدينة.

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢١].

خرج من المدينة خائفًا، وكان قد أصبح في المدينة خائفًا، وخرج من المدينة يترقب، وكان قد أصبح في المدينة يترقب. كان في المرة الأولى خائفًا أن يتعرف عليه أحدهم؛ لأنه قتل قبطيًّا بالأمس، وكان يترقب ويتلفت وينظر يمنة ويسرة.

أما الآن فهو خائف من جنود فرعون، لأن معهم أمرًا بالقبض عليه وقتله.

وخوف موسى طبيعي، لا يلام ولا يعاب عليه، وليس جبنًا ولا ضعفًا، ألا تريد من رجل مطلوب القبض عليه وقتله أن يخاف من ذلك؟

ولكن خوف موسى الطبيعي من الخطر الفرعوني المحدق به لم يؤثر على إيمانه بالله وتوكله عليه وثقته به، فكل حياته كانت هكذا، وكان يرى فضل الله عليه وحفظه له، في كل ما مر به من أحداث»[(١)].

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي ٢/ ٣٢٣.

أسباب الخوف المحمود

أولًا: معرفة الله بصفات جلاله وعظمته وكبريائه:

إن التفكر في عظمة الله تعالى عبر التدبر في أسمائه وصفاته، يفتح للقلب البشري نافذة يطل منها على أوصاف العظمة والكبرياء لله عز وجل، بما يسكب في القلب الخوف منه والحرص على خشيته وتقواه، فالقلب اليقظ حين يتأمل في صفات مولاه ويعلم أنه هو القوي المتين، الكبير المتعال، الواحد القهار، الحميد المجيد، القادر المقتدر والجبار المتكبر، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد، ذو الجبروت والملكوت، عندها تنتابه قشعريرة ووجل تدفعه إلى سلوك سبيل الهدى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢].

إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر بالله في أمر أو نهي فيغشاه جلاله، وتنتفض فيه مخافته ويتمثل عظمة الله ومهابته، إلى جانب تقصيره هو وذنبه، فينبعث إلى العمل والطاعة، وهي الحال التي يجدها القلب المؤمن حين يذكر بالله في صدد أمر أو نهي فيأتمر معها وينتهي كما يريد الله؛ وَجَلًا وتقْوَى لله[1].

وقد نعى الله عز وجل على أولئك الذين لا يتفكرون في عظمة ربهم في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح:١٣].

وقد ذكر الماوردي في هذه الآية خمس تأويلات نذكر منها:

«أحدها: ما لكم لا تعرفون للّه عظمة، قاله مجاهد، وعكرمة.

الثاني: لا تخشون للّه عقابًا وترجون منه ثوابًا، قاله ابن عباس في رواية ابن جبير.

الثالث: لا تعرفون للّه حقه ولا تشكرون له نعمه، قاله الحسن.

الرابع: لا تؤدون للّه طاعة، قاله ابن زيد»[2].

فما أعجب من يرى آيات الله مبثوثة في الكون والأنفس تنبىء عن عظمته وجلاله، ثم ينصرف دون أن يخشع قلبه أو تنتفض جوارحه أو يسكن الإيمان واليقين وجدانه!

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر:٦٧].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٧٥ بتصرف.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ١٠١.

ثانيًا: الشعور بالتفريط في جنب الله، ومعرفة قبح عواقب الذنوب والمعاصي:

إن القلب اليقظ المترع بالخوف من مولاه ينتفض وجلًا وخشية كلما وقع في المعصية أو قصّر في الطاعة؛ لأنه يعلم ما للمعاصي والذنوب من أضرار سيئة وعواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، وأنها قد تشكل -مع إلفها والتعود عليها- حجابًا يحرمه تذوق حلاوة الإيمان ولذة العبادة، ويقوده إلى الغفلة واتباع الهوى.

«إن الخوف منه تعالى مانعٌ للذنب، عاصمٌ من الخطأ، حافظٌ من الزلل، مبعدٌ عن الخلل، حافزٌ للنفس، موقظٌ للضمير، حاثٌّ على الاجتهاد، وأنى لقلب لم يزرع فيه خوف الله أن يرتدع عن الهوى، ويرعوي عن الجهل، وكيف لفؤادٍ لم تسكنه خشية الله والهيبة لجلاله، والوجل من بطشه، والإشفاق من وعيده؛ كيف له أن يعمر بالطاعة، ويتجافى عن المعصية، ويتنكر للخطيئة، ويستوحش من الذنب»[1].

فالخوف من الله يجعل العبد في حساسية وتوق للذنوب؛ لأنه يعلم أن كل ما يفعله من طاعات ومعاصٍ مسجل في صحيفته، منشور في ديوانه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠].

كما أخبر تعالى أن الميزان دقيق يزن أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قال ابن القيم: «العبد إما أن يكون مستقيمًا أو مائلًا عن الاستقامة، فإن كان مائلًا عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف، وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه، فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه، وإما عدم علمه بسوء عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان، فإذا علم قبح

(١) الله أهل الثناء والمجد، ناصر الزهراني ص ٦٤٣.

الذنب، وعلم سوء مغبته، وخاف أن لا يفتح له باب التوبة بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد. وبالجملة، فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو»[1].

ثالثًا: مراقبة الله تعالى في السر والعلن:

إن علم المؤمن بسعة علم الله تعالى وإحاطته وشموله ومراقبته، وأنه لا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عنه ذرة، وأنه معه أينما كان، وأنه لا تأخذه سنة ولا نوم، يعلم خلجات الأنفس، وخواطر القلب، وخائنة الأعين وما تخفي الصدور، كل هذه الحقائق إذا تمثلها القلب المؤمن غرست فيه شجرة الخوف من الله وامتدت فروعها إلى الجوارح، فآتت أكلها الطيبة بإذن ربها وأثمرت عملًا صالحًا، وقولًا رابحًا، وسلوكًا قويمًا، وفعلًا كريمًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة:٩٤].

يخبر الله عز وجل في هذه الآية أنه ابتلى عباده المؤمنين بصيد البر يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًا وجهرًا، ويقع في متناول أيديهم من غير معاناة، أو بحث عنه، إذ هو قريب دان، يغري بصيده، وذلك امتحان للتقوى في قلوبهم واختبار للخشية في نفوسهم، حيث لا يمنع المرء من الصيد في هذا الموطن إلا تقوى الله والخوف منه.

رابعًا: تذكر الموت وشدته والقبر وظلمته:

من أهم أسباب الخوف التفكر في الموت، المصير المحتوم، والأجل المكتوب، والخاتمة المنتظرة، لا مهرب منه ولا مفر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨].

لايفرق بين غني وفقير، ملك أو مملوك، عظيم أو حقير، الموت هو موعد ظهور نتيجة امتحان الدنيا وعندها ينقسم الناس إلى فريقين: فريق ينتظره التكريم والإحسان، كما قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

وفريق آخر ينتظره الخزي والهوان كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال:٥٠].

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٦١٦.

يقول أبو حامد الغزالي مصورًا هذه اللحظات العصيبة:

«اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب، ولا هول، ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرًا بأن ينغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقًا بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده، لا سيما وهو في كل نفس بصدده، كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك. والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات، وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته، وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل»[1].

وقد عرض القرآن الكريم صورة لحظة الموت وخروج الروح بما يبث الخشية في القلب، ويغرس المراقبة في النفوس، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

«أي: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى، حتى يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها. فهذا الزجر الذي ذكره الله يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها»[2].

ويلحق بالخوف من الموت الخوف من القبر وضمته وظلمته ووحشته.. عن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: (إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة، وإن كان من أهل النّار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتّى يبعثك اللّه يوم القيامة)[3].

خامسًا: التفكر في القيامة وأهوالها:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج: ١].

«أي: اخشوه في أوامره أن تتركوها، ونواهيه أن تقدّموا عليها. والاتّقاء: الاحتراس من المكروه، والمعنى: احترسوا بطاعته عن عقوبته. قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الزّلزلة: شدّة

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٣/ ١٨٣٩-١٨٤٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٥٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، رقم ١٣٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم ٢٨٦٦.

الحركة، وأصل الكلمة من زلّ عن الموضع، أي: زال عنه وتحرّك، وهذه اللّفظة تستعمل في تهويل الشّيء. وقيل: هي الزّلزلة المعروفة الّتي هي إحدى شرائط السّاعة، الّتي تكون في الدّنيا قبل يوم القيامة، هذا قول الجمهور»[(١)].

إنه يوم عصيب شديد الأهوال «ومن هنا كان الذين يؤمنون بالآخرة، ولا يعملون لها، مطالبين بأن ينتبهوا، وأن يعملوا أكثر مما عملوا.. فإنهم على يقظتهم، وعلى خوفهم من لقاء ربّهم، وعلى إعدادهم ليوم اللقاء، إنهم مع هذا كله أشبه بالغافلين، فإن الهول شديد، والموقف لا يمكن تصوره، ومن هنا أيضًا كان المؤمن فى حاجة دائمة إلى تذكر هذا اليوم، وإلى الحياة معه، وإلى العمل له، وإنه مهما أكثر من عمل، فإنه قليل إلى المطلوب منه لهذا اليوم، لو علم هوله، وتصور صورته»[(٢)].

ولقد تعددت النصوص القرآنية التي تصف أهوال ذلك اليوم العصيب، منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ [المزمل:١٧-١٨].

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان:٣٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٦٨].

روى الترمذي وأحمد من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير:١]، و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار:١]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق:١])[(٣)].

إن تنوع النصوص القرآنية التي تصف أهوال ذلك اليوم وكثرتها يهدف إلى بث الخوف في قلوب العباد حتى يستقيم سيرهم على الصراط المستقيم في رحلتهم في الحياة الدنيا، ويسهل عليهم تقوى الله في السر والعلن، فتصبح التقوى هي الميزان الذي يزنون به جميع أقوالهم وأفعالهم، ويحتكمون إليه في خلافاتهم وخصوماتهم، ولا ينتفع بهذه الآيات إلا

---

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٣٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٩/ ٩٧٣.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب القراءات عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، باب ومن سورة (إذا الشمس كورت)، رقم ٣٣٣٣.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٠٨١.

أصحاب القلوب الحية الذين لا تشغلهم الدنيا بزخارفها وزينتها عن ذكر ربهم وعبادته، ابتغاء رضوانه، وخوفًا من لقائه في يوم تضطرب فيه القلوب هولًا وفزعًا، وتزيغ فيه الأبصار، كربًا وجزعًا كما وصفهم ربهم بقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور:٣٧].

سادسًا: التفكر في النار وشدة عذابها:

إن المتدبر للنصوص القرآنية يجد القرآن قد عرض صورًا متكررة لعذاب النار من أجل بث الخوف في نفوس العباد وحمل القلوب على الاستقامة على طاعة الله والفرار من معصيته.

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ [المدثر:٣٥-٣٦].

«أي: إنّ هذه النّار لإحدى الكبر، أي: لإحدى الدّواهي، و﴿الْكُبَرِ﴾: هي العظائم من العقوبات، وقال الحسن: والله ما أنذر الخلائق بشيءٍ أدهى منها»[1]، كما وصف الله تعالى النار بأنها تلهب وتتوقّد وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل:١٤].

كما أخبر سبحانه أن ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده إلى التقوى وزاجر عما يوجب العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر:١٦].

كما تنوعت الآيات التي تصف عذاب أهل النار، فقد ذكر تعالى أن حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها من حديد، ثيابهم من قطران، يصب فوق رؤوسهم الماء المغلي، فلا يفتر عنهم العذاب، ولا هم ينظرون، كما في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج:١٩-٢٢].

ويكفي في وصف عذاب النار أن غمسة واحد فيها تنسي المرء كل ألوان النعيم والمتاع في الدنيا، فما بالك بالخلود الأبدي والعذاب السرمدي.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: **(يؤتى بأنعم أهل الدّنيا من أهل النّار يوم القيامة، فيصبغ في النّار صبغةً، ثمّ يقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قطّ، هل مرّ بك نعيمٌ قطّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ)**[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢١/ ٣٩٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة، رقم ٢٨٠٧.

يا لها من أهوال وشدائد يود المرء لو يفتدي في سبيل الخلاص منها بكل ما يملك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة:٣٦].

ولكن هيهات هيهات!

ولما تدبر عباد الرحمن صور عذاب أهل النار وما يقاسونه من الألم والحرمان، دعوا الله عز وجل في ضراعة وخشوع أن يصرف عنهم عذابها وينجيهم من أهوالها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان:٦٥-٦٦].

وهكذا يفعل الخوف في نفوس الصالحين يمنحهم يقظة دائمة تجعلهم يفكرون كثيرا في عذاب النار، حتى تصبح النجاة منها شغلهم الشاغل.

سابعًا: مجالسة الصالحين والاستماع لنصائحهم:

فالجليس لا يخفى أثره سلبًا أو إيجابًا على أحد، فمجالسة الخائفين تورث الخوف من الله، ومجالسة الغافلين تورث الغفلة عن الله.

ألم يوص الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بصحبة أولياء الله تعالى المريدين لوجهه والمبتغين لفضله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف:٢٨].

فهي دعوة للنبي عليه الصلاة والسلام -ولأمته من بعده- بالمداومة على مجالسة الذين يذكرون الله ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه ويدعونه في كل وقت يبتغون وجهه ويطلبون مرضاته، ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم، فإن صحبتهم ترقق القلب، وتزكي النفس، وتحفز على العمل للآخرة، وتثبّت المرء على الطاعة والعبادة، فشتان شتان بين صحبة تذكرك بالله، وتغرس الخشية منه تعظيمًا وإجلالًا لمقامه، وبين صحبة تزين لك شهوات الدنيا، وتغريك بالإقبال على مغرياتها، وتضعف رغبة القلب في السير إلى الآخرة.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إنّما مثل الجليس الصّالح والجليس السّوء، كحامل المسك ونافخ الكير. فحامل المسك إمّا أن يحذيك**[1]**، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحًا طيّبةً. ونافخ الكير إمّا أن**

(١) أي: يعطيك.
انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٨/ ٣٩٥.

يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد ريحًا خبيثةً»[1].

«قال الراغب: نبه بهذا الحديث على أن حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ومجالستهم فهي قد تجعل الشرير خيرًا كما أن صحبة الأشرار قد تجعل الخير شريرًا، وليس إعداء الجليس جليسه بمقاله وفعاله فقط بل بالنظر إليه والنظر في الصور يورث في النفوس أخلاقًا مناسبة لخلق المنظور إليه»[2].

وهكذا فمجالسة الصالحين سبب للتشبه بهم، والأخذ عنهم والاتعاظ بأحوالهم.

ثامنًا: تدبر القرآن:

وتدبر القرآن يجمع كل ما سبق من أسباب الخوف، ففيه تدبر صفات الجلال والعظمة والكبرياء لله تعالى مما يثمر المراقبة له سبحانه، وفيه آيات الوعيد وما أعده الله عز وجل للعصاة من العذاب الأليم، وفيه وصف لأهوال الموت والقيامة والنار، وفيه ذكر عاقبة التفريط في جنب الله واستمراء الذنوب، وفيه عقوبات الله تعالى الدنيوية للأمم السابقة لما أصرت على التكذيب والعناد.

قال الإمام ابن القيم: «فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته؛ من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع الفكر على معاني آياته، فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل»[3].

قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

«قال ابن عبّاسٍ: قالوا: يا رسول اللّه لو خوّفتنا، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: ما أعددته لمن عصاني من العذاب»[4].

وهكذا «إن كلمات القرآن إنما تقع موقع الإيمان من القلوب المشفقة من اليوم الآخر، ومن الفطر السليمة التي تصغي إلى وعيد الله ونذيره، فتدرك أنه الحق، ولا تعميها الأهواء والشهوات عن الاستجابة لله ولرسوله»[5].

وقد بين الله عز وجل أن لآياته المجيدة أعظم أثر في تخويف القلوب من باريها وتحذيرها سطواته، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم ٥٥٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم ٢٦٢٨.

(٢) فيض القدير، المناوي ٥/ ٥٠٧ بتصرف.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١١٦٠-١١٦٣ بتصرف.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٤٦٧.

(٥) مجالس القرآن، فريد الأنصاري ٢/ ٧١.

«والقشعريرة، حال تعتري الجسد من أثر رهبة أو خوف، فيموج الجلد بموجات أشبه بمسّة الكهرباء. واقشعرار جلود الذين يخشون ربّهم من هذا الحديث المنزل من عند اللّه، هو لما يقع في قلوبهم من رهبة وجلال لما يسمعون من كلام اللّه، الذي يقول سبحانه وتعالى فيه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

فإذا نزل هذا القرآن على القلوب المؤمنة اهتزت لجلاله، وزلزلت أقطارها لرهبته»[١].

فيا لروعة القلوب المؤمنة تتلقى آيات ربها في وجل وارتعاش، وفي تأثر شديد تقشعر منه الجلود، فيستشعرون الرهبة منه عز وجل في حالة عصيانه أو التقصير في طاعته، فتعيدهم هذه الرهبة إلى الصراط المستقيم، لينعموا بالأمن والسلام والأمان.

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ١١٤٥.

آثار الخوف المحمود

للخوف المحمود آثار إيجابية منها:

أولًا: الاستقامة على طاعة الله، واجتناب الكبائر والموبقات.

إن الخوف من الله يمنح القلب يقظة تعينه على توقّي عثرات ومزالق الطريق، وتدفعه للاستقامة على طاعة ربه واجتناب كل ما حرمه من الكبائر والصغائر، كما تسوقه إلى التوبة إذا شرد عن الطريق أو غشيته سحب الغفلة.

وقد قص الله علينا في كتابه الكريم خبر ابني آدم عندما تقبل الله قربان أحدهما لصلاحه ولم يتقبل من الآخر لفساده، فعزم الأخير على قتل أخيه حسدًا وحقدًا، فأخبره الأخ الصالح أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، لا ابتداء ولا مدافعة بسبب خوفه من الله، كما قال تعالى: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة:٢٨].

والعبرة في هذا الموقف أن الخوف من الله إذا استقر في القلب أورث مراقبة الله عز وجل، والتي بدورها تمنعه من ارتكاب المحرمات، وفعل المعاصي والمنكرات.

فالخوف هو صمام الأمان في حياة الأفراد والجماعات، وإنه أقوى حارس لهم، يمنعهم من الاعتداء والظلم والطغيان.

فالمؤمن عندما يواجه طوفان المغريات والموبقات، أو يزين له الشيطان الوقوع في المحرمات، يرفع دائمًا شعار ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فيثبت على الطاعة، ويلزم الاستقامة.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: «اعلم أن الشهوات لا تنقمع بشيء كما تقمع بنار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات، وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى»[1].

وقد ذكر ابن القيم بعض الأقوال التي تؤكد على أهمية الخوف في تحقيق الاستقامة منها: «قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبًا إلّا خرب، وقال إبراهيم بن شيبان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشّهوات منها، وطرد الدّنيا عنها، وقال ذو النّون: النّاس على الطّريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلّوا الطّريق»[2].

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٣/ ١٥٠٩.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٢ / ١٣٠٥.

ثانيًا: المسارعة إلى الخيرات والتنافس في الأعمال الصالحات:

تنوعت النصوص القرآنية التي تبين أن الخوف من الله باعث على المسارعة إلى الخيرات والتنافس في القربات.. فقد أثنى الله تعالى على أنبيائه لما كانوا عليه من الخوف من عذابه والخشوع لعظمته وجلاله والطمع فى رحمته.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ «أي: في عمل القربات وفعل الطّاعات، ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ قال الثّوريّ: ﴿رَغَبٗا﴾ فيما عندنا، ﴿وَرَهَبٗاۖ﴾ ممّا عندنا، ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ قال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاس: أي: مصدّقين بما أنزل اللّه. وقال مجاهدٌ: مؤمنين حقًّا. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللّازم للقلب، لا يفارقه أبدًا»[3].

كما مدح الله عز وجل عباده الصالحين الذين دفعهم الخوف منه سبحانه إلى هجر مضاجعهم ليذكروا اللّه ويدعوه، خائفين من عذابه، طامعين في رحمته، كما في

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٧٠.

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة:١٦].

إنها «صورة وضيئة للأرواح المؤمنة، اللطيفة، الشفيفة الحساسة المرتجفة من خشية الله وتقواه، المتجهة إلى ربها بالطاعة المتطلعة إليه بالرجاء، في غير ما استعلاء ولا استكبار. هذه الأرواح هي التي تؤمن بآيات الله، وتتلقاها بالحس المتوفز والقلب المستيقظ والضمير المستنير»[(١)].

والآيات التي تدل على أثر الخوف في المسارعة إلى الخيرات كثيرة منها: قوله تعالى في وصف عباده الذين جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصودهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان:٧-١٠].

فالخوف من أهوال يوم القيامة دفعهم إلى المسارعة إلى الطاعات والإخلاص في أدائها.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

«إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه، ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة، ومن ثم يستصغر كل عباداته، ويستقل كل طاعاته، إلى جانب آلاء الله ونعمائه. كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته، ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله، ومن ثم يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه، لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكرًا»[(٢)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنّ سلعة اللّه غاليةٌ، ألا إنّ سلعة اللّه الجنّة**)[(٣)].

الجرأة والشجاعة في طلب الحق والانتصار له: إذا تمكن خوف الله من القلب أزال كل خوف من سواه، فالمؤمن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨١٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٧٢.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم ٢٤٥٠. قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وصحّحه الألباني لغيره في صحيح الترغيب، رقم ٣٣٧٧.

يوقن أن الله وحده بيده الضر والنفع وأن ما سواه تحت سيطرته لا يشاؤون إلا أن يشاء الله، لذا فهو يجاهر بالحق، ويدافع عنه، ويجاهد في سبيل نصرته باللسان والسنان، لا يخاف أحدًا من المخلوقين ولو حصل منهم إرهاب أو أذى له في نفسه أو أهله أو ماله.

ولقد قصّ الله علينا في كتابة صورة سامقة لأثر الخوف من الله في تحصيل الجرأة والشجاعة في ميدان الجهاد.

فعندما رفض الجبناء من بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة مجاهدين، وجلسوا ينتظرون خروج أهلها منها مختارين، وقف رجلان منهما أنعم الله عليهما بالشجاعة والجرأة والثبات لخوفهما منه وحده ينصحانهم ويذكرانهم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

وقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ «أي: فلمّا نكل بنو إسرائيل عن طاعة اللّه ومتابعة رسول اللّه موسى عليه السّلام حرّضهم رجلان للّه عليهما نعمةٌ عظيمةٌ، وهما ممّن يخاف أمر اللّه ويخشى عقابه»[1].

وهكذا المؤمن لا يجبن في مواطن اللقاء، ولا يخاف من مواجهة الأعداء، ولا يهادن الباطل خوفًا من بطشه، ولا يقصر في تبليغ الحق مهما واجه من صعوبات؛ لأنه يعلم أن الله عز وجل وحده المستحق للتعظيم والخشية، وأن ما عداه من البشر ضعفاء مهازيل لا يقدرون على إيصال الأذى له إلا أن يشاء الله.

وقد قص الله عز وجل علينا موقف سحرة فرعون عندما خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، واستقرت الخشية من الله وحده في نفوسهم، فلم يبالوا بتهديدات فرعون وبطشه، ولم ترهبهم قوة فرعون الغاشمة، فالقلب المتصل بالله يستخف بكل عذاب في سبيل إعلاء راية الحق، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢-٧٣].

«إن قوى الأرض كلها لا تخيف -أو لا ينبغي أن تخيف- لأنها قوى مسخرة. لا تستمد من نفسها، ولا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا، والقوة التي ينبغي أن تخاف حقًّا هي القوة التي بيدها كل شيء. هي المانحة حقًّا والمانعة حقًّا. وإذن فخوفها هو الخوف الواجب، وخشيتها هي السبيل. الخوف

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٦.

ينبغي أن يكون من الله، ومما يخوف به الله»[1].

ثالثًا: الانتفاع بالذكرى والإنذار، والتأثر بآيات القرآن:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس:١١].
وقال سبحانه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه:٢-٣].

وقال عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٥١].

فهذه الآيات كلها تبين أن أهل الخوف والخشية من الله هم الذين ينتفعون بالإنذار ويستجيبون لمواعظ القرآن وهداياته، فالخوف يرقق قلوبهم، ويطهره من الآفات والأدران، ويمنحهم رؤية واضحة لعواقب الأمور. وقال سبحانه بعد ذكر أخذه الأليم الشديد للظالمين: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ «أي: في أخذ اللّه سبحانه لأهل القرى، أو في القصص الّذي قصّه على رسوله لعبرةً وموعظةً لمن خاف عذاب الآخرة لأنّهم الّذين يعتبرون بالعبر، ويتّعظون بالمواعظ»[2].

وقال عز وجل بعد إهلاك أصحاب الفاحشة من قوم لوط عليه السلام: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات:٣٧].

إن المؤمن ليرتجف قلبه وهو يتأمل الآيات التي تصور عذاب الله للمجرمين في الدنيا أو الآخرة، فهو يلمح فيها مظهرًا من مظاهر الجبروت الرباني العظيم، وأثرًا من آثار العزة الإلهية، ولمحة من لمحات عذاب الله الأليم، فينتفض قلبه كلما هم بمعصية أو وقع فيها، ويتوجه إلى الله ضارعًا أن يقيه شر السيئات وأن يوفقه للتوبة كلما استزله الشيطان. ولقد ذم الله أصحاب القلوب القاسية، المحبوسة في سجن الغفلة، المقفرة من الخوف، والتي لا تتأثر بالنذر والمواعظ، بل ويستقبلونها بالضحك والاستهزاء، في قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النجم:٥٩-٦١].

«أي: كيف تعجبون منه تكذيبًا وتضحكون منه استهزاءًا مع كونه غير محلٍّ للتّكذيب ولا موضعٍ للاستهزاء ولا تبكون خوفًا وانزجارًا لما فيه من الوعيد الشّديد. والسّمود: الغفلة والسّهو عن الشّيء»[3].

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ص ١٣١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٢٤.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١١٨.

رابعًا: البكاء من خشية الله:

إن القلب إذا مازجته الخشية والخوف من الله، كان رقيقًا رقيقًا خاشعًا مستكينًا، لا تمر عليه آية رحمة أو عذاب إلا أثرت فيه أثرًا بليغًا، فلا ترى صاحبه إلا هطّال الدمع شوقًا وحزنًا، ورغبة فيما عند الله ورهبة من عقابه.. وقد أثنى الله عز وجل على أنبيائه لخشوعهم وبكائهم في قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم:٥٨].

«فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجدًا وبكيًّا»[(١)].

كما وصف سبحانه صالحي أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

«هكذا يخر عباد الرحمن لربهم، كلما وقعت الذكرى بقلوبهم ! يخرون كما تخر الجبال الرواسي إذا ازّلزلت الأرض من تحتها وانهارت من أعلاها خشوعًا وخضوعًا لله الواحد القهار! فلا يملك العباد عند ذلك إلا البكاء، البكاء الحار العميق، لما وقع في مواجيدهم من المعرفة بقدر الله العظيم وبمقامه العلي الكريم ولما تنثره أسماؤه الحسنى على قلوبهم المتضرعة من أنوار التسبيح وجمال التقديس! وما يقتضيه ذلك كله من المشاهدة لحقوق الله على عباده! فيهرع العبد إلى منازل البوء بالنعمة والبوء بالذنب معًا، تائبًا منيبًا، تسبقه دموعه إلى حدائق السجود ومن ذا يقدر على حبس عيون الروح أن تتدفق بأشجان الذكرى؟! إلا من كانوا صمًّا بكمًا عميًا فهم لا يفقهون»[(٢)].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣١٤.

(٢) مجالس القرآن، فريد الأنصاري ١/ ٢٦٧.

جزاء الخائفين من الله

أولًا: جزاء الخائفين من الله في الدنيا:

١. النصر على الأعداء والتمكين في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

«فقوله ذلك إشارةٌ إلى أنّ ما قضى اللّه تعالى به من إهلاك الظّالمين وإسكان المؤمنين ديارهم إثر ذلك الأمر حق لمن خاف مقامي، وفيه وجوهٌ:

الأوّل: المراد موقفي وهو موقف الحساب؛ لأنّ ذلك الموقف موقف اللّه تعالى الّذي يقف فيه عباده يوم القيامة، ونظيره قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات: ٤٠].

وقوله: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرحمن:٤٦].

الثاني: أن المقام مصدرٌ كالقيامة، يقال: قام قيامًا ومقامًا، قال الفرّاء: ذلك لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي إيّاه كقوله: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ [الرعد:٣٣].

الثّالث: ذلك لمن خاف مقامي، أي: إقامتي على العدل والصّواب، فإنّه تعالى لا يقضي إلّا بالحقّ ولا يحكم إلّا بالعدل، وهو تعالى مقيمٌ على العدل لا يميل عنه ولا ينحرف البتّة.

الرّابع: ذلك لمن خاف مقامي، أي: مقام العائذ عندي وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول.

ثم قال تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قال الواحديّ: الوعيد اسمٌ من أوعد إيعادًا وهو التّهديد. قال ابن عبّاسٍ: خاف ما أوعدت من العذاب»[1].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾

«أي: إنّ ذلك الجزاء الحسن وهذا النصر العظيم، إنما هو لمن خاف مقام ربّه، وخشي بأسه، فوقّره وعظّمه، واتقى حرماته، وعظم شعائره، والرسل من هذا في المقام الأول، ثم من اقتفى أثرهم»[2].

وهكذا فالخوف من الله يدفع المؤمنين إلى فعل الخيرات وترك المنكرات، والابتعاد عن الفساد والإفساد، والعلو والاستكبار، فهم يريدون التمكين في الأرض من أجل نشر العدل والإصلاح؛ لذا وعدهم الله تعالى بوراثة الأرض والنصر على أعدائه والتمكين لهم.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٠٢.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ١٦١.

٢. قبول الدعاء.

قال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

«أي: خوفًا ممّا عنده من وبيل العقاب، وطمعًا فيما عنده من جزيل الثّواب. ثمّ قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إنّ رحمته مرصدة للمحسنين، الّذين يتّبعون أوامره ويتركون زواجره»[١].

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ «أي: إن رحمته تعالى قريبة من المحسنين أعمالهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل كما قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾[الرحمن:٦٠].

فمن أحسن في عبادته نال حسن الثواب، ومن أحسن في الدعاء أعطى خيرًا مما طلبه، أو مثل ما طلبه»[٢].

ففي هذه الآية ارتباط وثيق بين الخوف من الله وقبول الدعاء، وكيف لا والخوف يحمل صاحبه على التشمير في الطاعات والاجتهاد في العبادات، فكلما وهن عزمه أو فترت همته ساقه الخوف إلى الجد في الطاعات والبعد عن السيئات، فهو يتقلب دائمًا بين خوفه من ربّه وطمعه في رحمته.

٣. التوفيق للهداية.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٠]

«وهذه الآية تدل على أنّ الواجب على المرء في كلّ أفعاله وتروكه أن ينصب بين عينيه: خشية عقاب اللّه، وأن يعلم أنّه ليس في يد الخلق شيءٌ البتّة، وأن لا يكون مشتغل القلب بهم، ولا ملتفت الخاطر إليهم»[٣].

فهذا هو الطريق للهدى والثبات على المنهج الحق، وتجنب الضلال، ومشابهة الأعداء والتلقي منهم خشية منهم، فالخوف من الله رأس كل خير، وأساس كل هداية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات:٢٦].

«والعبرة: الحالة الّتي ينتقل الذّهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها وعاقبة أمثالها، وهي مشتقّةٌ من العبر، وهو الانتقال من ضفّة وادٍ أو نهرٍ إلى ضفّته الأخرى. والمراد بالعبرة هنا الموعظة وجعل ذلك عبرةً لمن يخشى، أي: من تخالط نفسه خشية اللّه؛ لأنّ الّذين يخشون اللّه هم أهل المعرفة الّذين يفهمون دلالة الأشياء على لوازمها وخفاياها»[٤].

وهكذا إن الذي يعرف ربه ويخاف منه يهتدي إلى المواعظ والإنذار، وينتفع بهما،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٩.
(٢) تفسير المراغي ٨/ ١٨٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٥٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٨٢.

وتغرس في قلبه شجرة التقوى لتثمر نظرة سديدة بعواقب الأمور والاستعداد لها قبل وقوعها، «أما الذي لا يعرف قلبه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب. حتى يصطدم بالعاقبة اصطدامًا. وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى. وكل ميسر لنهج، وكل ميسر لعاقبة. والعبرة لمن يخشى»[1].

ثانيًا: جزاء الخائفين من الله في الآخرة:

١ . المغفرة والأجر الكبير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

يقول تعالى مخبرًا عمّن يخاف مقام ربّه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن النّاس، فينكفّ عن المعاصي ويقوم بالطّاعات، حيث لا يراه أحدٌ إلّا اللّه، بأنّه له مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ، أي: يكفّر عنه ذنوبه، ويجازى بالثّواب الجزيل.

«والذين يخشون ربهم بالغيب، هم الذين خافوا عذاب يوم القيامة، وخافوا لقاء ربهم، قبل هذا اليوم الغائب عنهم. ثم إنهم هم الذين يخشون ربهم فى سرهم، كما يخشونه فى علانيتهم، حيث يشهدون سلطان اللّه قائمًا عليهم فى كل حال من أحوالهم. فهم لشهودهم هذا السلطان، لا يعصون اللّه، ولا يفعلون ما لا يرضاه، وهم لهذا مجزيّون من اللّه تعالى، بمغفرة ذنوبهم التي تقع منهم، وإلى جانب غفران ذنوبهم يكون مضاعفة أجرهم لما يعملون من حسنات»[2].

فيا لسعادة المؤمنين الخائفين بما أعده الله عز وجل لهم من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات المتواصلات، والقصور العاليات، والحور الحسان، والخدم والولدان.

٢ . الفوز بالجنة وحصول الأمن في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

«أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل، فأثر هذا الخوف في قلبه فنهى نفسه عن هواها الذي يقيدها عن طاعة الله، وصار هواه تبعًا لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير، ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ﴾ «المشتملة على كل خير وسرور ونعيم» ﴿هِيَ الْمَأْوَى﴾ لمن هذا وصفه»[3].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٦.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٥ / ١٠٥٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٥.

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق:٣٢-٣٤].

﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ﴾ «أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته ولازم على خشية الله في حال غيبه، أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشية الله في الغيب والشهادة. ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: دخولًا مقرونًا بالسلامة من الآفات والشرور، مأمونًا فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم، ولا كدر ولا تنغيص، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات»[١].

كما أخبر تعالى في موضع آخر عن حال عباده الذين ألزموا قلوبهم الخوف منه سبحانه ومن عذابه، فأثابهم الله بالأمن والأمان والنجاة من عذاب النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور:٢٦-٢٧].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان:١٠-١٢].

وهكذا فالجزاء من جنس العمل؛ فالخوف من الله في الدنيا هو سبيل الأمن في الآخرة. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه عن ربه جلا وعلا، أنه قال: (**وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين، إذا خافني في الدّنيا أمّنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدّنيا أخفته يوم القيامة**)[٢].

٣. نيل رضا الله عز وجل.

قال تعالى وهو يصف ما أعده من النعيم والتكريم لعباده الصالحين: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٨].

﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ «ومقام رضاه عنهم أعلى ممّا أوتوه من النّعيم المقيم، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: هذا الجزاء حاصلٌ لمن خشي اللّه واتّقاه حقّ تقواه، وعبده كأنّه يراه، وقد علم أنّه إن لم يره فإنّه يراه»[٣].

فيا لقرة أعين المؤمنين بهذه المنزلة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم ٦٤٠، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٧٥٩. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٣٣٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥٨.

العظيمة والكرامة السامقة برضا مولاهم عنهم، «هذا الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم، وهذا الرضا في نفوسهم عن ربهم؛ الرضا عن قدره فيهم، والرضا عن إنعامه عليهم، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم، الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق، إنه تعبير يلقي ظلاله بذاته.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ حيث يعجز أي تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال!

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ وذلك هو التوكيد الأخير. التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله، ونوع هذه الصلة، والشعور بخشيته خشية تدفع إلى كل صلاح، وتنهى عن كل انحراف، الشعور الذي يزيح الحواجز، ويرفع الأستار، ويقف القلب عاريًا أمام الواحد القهار، والذي يخلص العبادة ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صوره»[1].

موضوعات ذات صلة:

الأمن، التقوى، الجهاد، الحذر، الخشية، القتل، القتال

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٥٣.





عناصر الموضوع



مفهوم الخيانة

المعنى اللغوي:

تدل مادة (خون) على التنقص. يقال: خانه يخونه خَوْنًا. وذلك نقصان الوفاء[1].

يقال: خانه الدهر والنعيم خونًا، إذا تغير حاله إلى شر منها. وخائنة الأعين: ما تخون به من مسارقة النظر إلى ما لا يحل له[2].

وقد يكون التخون بمعنى التنقص، ويقال: تخونته الدهور وتخوفته، أي: تنقصه. فالتخون له معنيان: أحدهما التنقص والآخر التعهد. ومن جعله تعهدًا جعل النون مبدلة من اللام. ويقال: رجل خائن وخائنة إذا بولغ في وصفه بالخيانة[3].

المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «الخيانة تعني التفريط في الأمانة»[4].

وعرفها الفيروزآبادي بأنها: «أن يؤتمن الإنسان فلا ينصح»[5].

فالخيانة نقص في الأمانة والوفاء.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٣٢.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٢٥.
(٣) انظر: تهذيب اللغة ٧/ ٢٣٧، مختار الصحاح، الرازي ص١٩٦، لسان العرب ٧/ ٢٨٥.
(٤) المفردات ص ٣٠٥.
(٥) بصائر ذوي التمييز ٢/ ٥٨٢.



الخيانة في الاستعمال القرآني

ووردت مادة (خون) الدالة على الخيانة في القرآن الكريم (١٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنفال:٧١]
الفعل المضارع	٥	﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال:٢٧]
اسم فاعل	٥	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾ [الأنفال:٥٨]
مصدر	٢	﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال:٥٨]
صيغة المبالغة	٢	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج:٣٨]

وجاءت الخيانة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو التنقّص، أو التفريط فيما يؤتمن عليه الإنسان[٢].

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١].

يعني: «وإن أبطنوا خيانة ما رغبوا أن يؤتمنوا عليه من العهد، فقد خانوا الله من قبل بكفرهم وتركهم النظر في آياته»[٣].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص١٣٦ - ١٣٩.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٢٨١، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٣١.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦٣٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ المكر:

المكر لغة:

الاحتيال في خفية والخداع[1].

المكر اصطلاحًا:

عرفه الراغب الأصفهاني بأنه: «صرف الغير عما يقصده بحيلة»[2].

وعرّفه الجرجاني بأنه: «إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر»[3].

الصلة بين المكر والخيانة:

أن النوع المقارب للخيانة بداهة هو المكر المذموم، وقد ورد الحديث عنه في القرآن الكريم في صورة واضحة بينة.

٢ الكيد:

الكيد لغةً:

هو المكر والخبث، والحيلة، والحرب[4].

الكيد اصطلاحًا:

«إرادة مضرة الغير خفية، وهو من الخلق: الحيلة السيئة، ومن الله سبحانه وتعالى التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق»[5].

الصلة بين الكيد والخيانة:

كلاهما يشتركان في الإرادة بسوء، إلا أن الخيانة خدعة في مقام الائتمان، وهو مذموم مطلقًا، بخلاف الكيد، فإنه لو وقع لمستحق فهو كمال.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي، ص٤٧٠، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٢٦٣، ٣٤٥، لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ١٨٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التعريفات، ص٢٢٧.

(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٣١٦.

(٥) التعريفات، الجرجاني، ص١٨٩.



٣ النفاق:

النفاق لغة:

المادة تدل على الخفاء والإغماض، والانقطاع والذهاب، يقول صاحب البصائر: «والنّفق، يدّل على انقطاع الشيء وذهابه، وتارةً على إخفاء الشيء وإغماضه، وعلى مضيّ شيء ونفاذه، ومنه نفق البيع نفاقًا: راج»[(١)].

النفاق اصطلاحًا:

هو: «إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب»[(٢)].

والصلة بين الخيانة والنفاق:

الصلة بينة في إظهار المرء خلاف ما يبطن، وإيهام الغير بغير الواقع. قال الراغب الأصفهاني: «والخيانة والنفاق واحد، لكن الخيانة تقال اعتبارًا بالعهد والأمانة، والنفاق اعتبارًا بالدين، ثم يتداخلان»[(٣)].

(١) بصائر ذوي التمييز ٥/ ١٠٤- ١٠٥.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص٣١١.
(٣) المفردات ص ٣٠٥، التوقيف على مهمات التعاريف ص ١٦٢.

أنواع الخيانة في القرآن

الراصد لآيات القرآن الكريم يجد أنه بين أنواعًا للخيانة متعددة، تحدثت عنها الآيات بوضوح وجلاء، وفي النقاط الآتية نتناول تلك الأنواع على النحو الآتي:

أولًا: خيانة الله ورسوله:

من أشد أنواع الخيانة: خيانة الله والرسول؛ ذلك أنها تتعلق بمنبع الهدى ومصدر الإنعام، وتدل على تدني نفسية الخائن؛ فمن يخن الله والرسول لا يؤتمن على شيء، وكيف يؤتمن وقد خان مصدر وجوده في الحياة، والمنعم عليه بها، وخان رسول الحق الذي أنقذه من الضلال إلى الهدى، ومن الشقاء الأبدي إلى السعادة الخالدة، ولقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١].

ولقد تعددت أقوال المفسرين في بيان المقصود من خيانة الله والرسول، فمنهم من يرى أن المقصود بخيانة الله تعالى والرسول هي كفرهم به وعدم إيمانهم بما بعث به رسوله، وتوحيدهم إياه، واستندوا في هذا إلى سبب نزول الآية الكريمة، فقد قال قتادة: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي السرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين[(١)].

وخيانتهم للرسول: هي الغدر به والمكر والخداع له بإظهارهم له بالقول خلاف ما في أنفسهم[(٢)].

أو خيانته للرسول، أي: «في السعي لحربه ومنابذته»[(٣)].

يقول صاحب الظلال: «لقد خانوا الله فأشركوا به غيره، ولم يفردوه سبحانه بالربوبية، وهو قد أخذ العهد على فطرتهم فخانوا عهده. فإن أرادوا خيانة رسوله صلى الله عليه وسلم وهم أسرى في يديه، فليذكروا عاقبة خيانتهم الأولى التي أوقعتهم في الأسر، ومكّنت منهم رسول الله وأولياءه. والله ﴿عَلِيمٌ﴾ بسرائرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في إيقاع العقاب بهم»[(٤)].

ومنهم من يرى أن المقصود من خيانة الرسول: نكثهم العهد، والبيعة على الإسلام، والردّة، واستحباب دين آبائهم[(٥)].

وفي الآية طمأنة للرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، وضمان لهم بأنهم إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأنّ الله يمكّن المسلمين منهم مرّةً أخرى، كما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٩٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٨٧.

(٣) جامع البيان ١٤/ ٧٥.

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٤.

(٥) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٢/ ٢٣٩.

أمكنهم منهم في هذه المرّة[1].

وفي ذلك طمأنة لكل من وقعت عليه خيانة بأن الله تعالى مضت سنته في ذلك بأنه لا يهدي كيد الخائنين، ولا يضيع عمل من وقعت في حقهم تلك الخيانة.

كما يرى بعض المفسرين أن الخيانة المقصودة هنا هي شركهم بالله تعالى؛ فإنّه خيانةٌ للعهد الفطريّ الّذي أخذه اللّه على بني آدم فيما حكاه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية. فإنّ ذلك استقرّ في الفطرة، وما من نفسٍ إلّا وهي تشعر به، ولكنّها تغالبها ضلالات العادات واتّباع الكبراء من أهل الشّرك[2].

ومنهم من يرى أن المقصود بخيانة الرسول: «ترك سنّته وارتكاب معصيته»[3].

ومن المفسرين من عبّر عن تلك الخيانة بالمعصية كما سبق، ومنهم من عبّر عنها بالغدر والمكر والخداع، كالطبري في جامع البيان؛ إذ يقول: «وإن يرد هؤلاء الأسارى الذين في أيديكم «خيانتك»، أي: الغدر بك والمكر والخداع، بإظهارهم لك بالقول خلاف ما في نفوسهم»[4].

ومنهم من رآها في كذبهم على الرسول، وقولهم له: «آمنّا بك ونشهد أنّك رسول الله»[5].

ومنهم من رآها في «الإخلال بالسّلاح في البعوث»[6].

وكل تلك الصور التي ذكرها المفسرون ألوان من الخيانة لله والرسول، وتنوعها لا ينفي بعضها، ولا يخرجها من كونها خيانة لله والرسول.

ثانيًا: خيانة الدين:

وخيانة الدين من أقبح الخيانات وكل الخيانات قبيحة؛ ذلك أنها خيانة للنعمة التي بدونها لا يكون الإنسان إنسانًا، ولا يعيش إلا كما تعيش البهم السائبة، بلا شرع ضابط ولا قانون رابط، يدل المرء على هدى أو يردّه عن ردى، وقد رصد القرآن الكريم صورة من أشد صور الخيانة للدين؛ لأنها كانت في بيئة يفترض أن تكون هي الناصر والمعين لنشر الدين ورفع رايته والدعوة إليه، ومن يضلل الله فما له من هاد.

وتلك الصورة كانت في شخص امرأة نبي الله نوح وامرأة نبي الله لوط؛ إذ قال القرآن عنهما: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ٨١.
(٢) المصدر السابق ١٠/ ٨٢.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٨٤.
(٤) جامع البيان ١٤/ ٧٥.
(٥) الوجيز، الواحدي ص ٤٤٩.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٨٤.

﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾، [التحريم: ١٠].

والخيانة المذكورة هنا هي خيانة الدين وليست خيانة العرض كما أجمع المفسرون على أنه ما خانت امرأة نبي قط.

فالخيانة هنا خيانة «في الدين، وما بغت امرأة النبي قط»[(١)].

وقد نص الإمام الماوردي في النكت والعيون على أن خيانتهما كانت في الدين، وأورد صورًا أربعة كلها تمضي في نفس الاتجاه، فيقول: «في خيانتهما أربعة أوجه:

أحدها: أنهما كانتا كافرتين، فصارتا خائنتين بالكفر، قاله السدي.

الثاني: منافقتين تظهران الإيمان وتستران الكفر، وهذه خيانتهما. قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين.

الثالث: أن خيانتهما النميمة، إذا أوحى الله تعالى إليهما شيئًا أفشتاه إلى المشركين، قاله الضحاك.

الرابع: أن خيانة امرأة نوح أنها كانت تخبر الناس أنه مجنون، وإذا آمن أحد به أخبرت الجبابرة به، وخيانة امرأة لوط أنه كان إذا نزل به ضيف دخنت لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف»[(٢)].

وفي بناء الآية الكريمة وتركيبها ما يبيّن شناعة الخيانة في الدين، مهما كانت درجة القرب والصحبة والمعايشة والمعاشرة، كما تبيّن صيانة الله تعالى وحفظه وكرامته للمخانين، وعدم نقصان حقهم، كما تبين أن الجزاء من جنس العمل، فكما استقلت المرأتان وتقدمتا في تلك الخيانة حتى عن بنات جنسهما زجّ بهما القرآن في صفوف الذكور في موطن لا محمدة فيه ولا كرامة، فقال تعالى: ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ ولم يقل: تحتهما، «بل أظهر بالوصف العبودية المضافة إليه سبحانه وتعالى والوصف بالصلاح؛ لأن ذلك أفخم، فيكون أشد تأثيرًا للمواعظ وأعظم، ودفعًا لأن يتوهم أحد بشيء لا يليق بمقامهما عليهما الصلاة والسلام، فقال: ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ أي: كل واحدة منهما تحت عبد»[(٣)].

ثالثًا: خيانة العرض:

جاء الإسلام نقيًّا صافيًا يرقى بالبشرية إلى مدارج السمو الأخلاقي والمادي، ويأخذ بيدها إلى مصاف الإنسانية الحقيقة التي لم تدنّسها شهوانية ولم تغبّرها أدناس الحياة، فوضع منهاجًا سليمًا لصيانة الإنسان، يحفظه من خيانة العرض واختلاس ما ليس له بحق، بداية من الدعوة إلى غض

(١) الكشف والبيان ٩/ ٣٥١.
(٢) النكت والعيون ٦/ ٤٦.
(٣) نظم الدرر ٨/ ٥٧.

البصر، ومرورًا بالنهي عن الاقتراب من الفاحشة، ووصولًا إلى بيان بشاعة الوقوع فيها، ووصفها بأنها فاحشة ومقت وساءت سبيلًا، وصوّر القرآن الكريم مشهدًا من أدق المشاهد التي تبيّن طبيعة النفس البشرية وميولها، ومع ذلك صاغه في صورة راقية شفافة، لا تجرح شعورًا ولا تهيج ساكنًا، وهو موقف زليخا من يوسف، وضمت الآية الكريمة في صدرها نفيًا للخيانة، وفي عجزها بيانًا لسنة الله تعالى في الخائنين، وهي أن الله لا يهدي كيدهم، ولا يبلغهم مرادهم، ولا ينالون أمنياتهم.

فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾، [يوسف: ٥٢].

أي: «ذلك القول الذي قلته في تنزيهه والإقرار على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالكذب عليه، ولم تقع مني الفاحشة، وأنني راودته، واعترفت بذلك لإظهار براءتي وبراءته، وأن الله لا يوفّق أهل الخيانة، ولا يرشدهم في خيانتهم»[1].

وكما يقول الإمام القرطبي: «أي: أقررت بالصدق ليعلم أني لم أخنه بالغيب، أي: بالكذب عليه، ولم أذكره بسوء وهو غائب، بل صدقت وحدت عن الخيانة»[2].

وقد اختلف المفسرون فيمن قال هذا القول: فذهب بعضهم إلى أنه من قول امرأة العزيز، وبعضهم إلى أنه من قول يوسف عليه السلام، وواضح من السياق أنه من كلام امرأة العزيز، وكما اختلفوا في ذلك اختلفوا فيمن توجه هذا الكلام ﴿لِيَعْلَمَ﴾ لزوجها أم ليوسف؟، فقالوا: «يحتمل أن مرادها بذلك زوجها، أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف، أني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر منّي إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ فإن كل خائن، لابد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولابد أن يتبين أمره»[3].

تلك منهجية القرآن الكريم في تخلية المجتمع من أدران الجاهلية وتطهيرها من أرجاسها، ولا يتعالى على نوازع النفس البشرية بل يهذّبها ويوظّفها ويوجّهها إلى طريقها الحق، ووجهتها الصحيحة، وما ضلت البشرية وارتكست في حمأتها إلا بعد أن تخلت تعاليم الإسلام وتوجيهاته في حفظ العرض، والحفاظ على نقاء الإنسان وطهارته.

(١) التفسير الميسر ٤/ ١٥٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٠٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٠.

رابعًا: خيانة النفس والجوارح:

وكما أبان القرآن الكريم عن صور وألوان من الخيانات وبيّن منهجية التعامل معها تناول خيانة النفس في آيتين كريمتين منه.

الأولى: في مجال تعامل الزوج مع زوجه في بداية فرض الصيام.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة:١٨٧].

والثانية: في نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الدفاع عن الذين يختانون أنفسهم بالسرقة واتهام الغير ظلمًا وعدوانًا، كما في واقعة طعمة بن أبيرق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء:١٠٧].

لكن كيف يخون الإنسان نفسه أو يختانها؟

قال المفسرون: إن خيانة المرء نفسه تكون بتعريضها للعقاب، ونقصان حظها من الثواب[1].

ويعلق ابن عرفة على هذا التركيب اللغوي بأنه من باب القلب؛ لأنّ النفس هي الخائنة[2].

أو أن المعنى: «يظلمون أنفسهم بالخيانة والسرقة ويرمي بها اليهودي»[3].

وقد يكون معنى الاختيان إلجاء المرء نفسه إلى الخيانة[4].

وقد يكون معنى الاختيان للنفس بما يعود عليها من الإثم والعقوبة في الدنيا والآخرة[5].

ذلك أن من قدم على المعصية، فقد حرم نفسه الثّواب، وأوصلها إلى العقاب، فكان ذلك منه خيانة لنفسه؛ ولهذا المعنى، قيل لمن ظلم غيره: إنّه ظلم نفسه[6].

ونلاحظ في تعبير القرآن خاصة في صيغة «تختانون» ما يدل على الافتعال؛ لأن خيانة المرء نفسه ليست سهلة، بل تحتاج إلى جهد ومشقة؛ لأن الأصل فيه أنه يسعى إلى صلاحها وفلاحها وصيانتها، فعندما يعود الحارس لصًّا فقد اختان نفسه.

---

(١) أيسر التفاسير، ١/ ١٦٦.
(٢) تفسير ابن عرفة ٢/ ٥٥١.
(٣) الكشف والبيان ٣/ ٣٨٢.
(٤) التحرير والتنوير ٢/ ١٨٣.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ١٣٠.
(٦) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٧، روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢١٩.

«قال ابن قتيبة وطائفة من المفسرين: وجعلوا الإنسان قد خان نفسه، أي: ظلمها بالسرقة كما فعل ابن أبيرق -أو بجماع امرأته ليلة الصيام كما فعل بعض الصحابة- وهذا القول فيه نظر؛ فإن كل ذنب يذنبه الإنسان فقد ظلم فيه نفسه، سواء فعله سرًّا أو علانية»[1].

إن القرآن الكريم حفظ نفس العبد حتى من نفسه، ونصحها حتى من ذاته؛ لأنها ثمينة عند الله، فالإنسان هو خليفة الله في أرضه، والقائم بشرعه والمتعبد له به، فنهاه عن تعريضها للظلم، أو تعرّضها للعقاب والحساب، أو الدفاع عن الظالم، فكيف بمن يعين الظالم ويسعى له، ويحلّل له فعله، ويبرّر له ظلمه، بل يخرج له هذا الظلم بطريقة شرعية.

خامسًا: خيانة الأمانة:

اختلف المفسرون في بيان المقصود من خيانة الأمانة، بل اختلفوا في بيان وتحديد مفهوم الأمانة، الوارد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فمنهم من يرى أن الأمانة هي ما يخفى عن أعين النّاس من فرائض اللّه[2].

ومنهم من يرى أنها الأعمال، ومنهم من يرى أنها الدّين[3].

وعن ابن عباس في قوله: «﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾: الأمانة: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، يعني: الفريضة. يقول: لا تخونوا يعني: لا تنقضوها»[4].

ومنهم من رآها في الغنيمة، ومنهم من جعلها في كل ما يؤتمن عليه الإنسان، يقول الإمام الماوردي: «﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: فيما أخذتموه من الغنيمة أن تحضروه إلى المغنم.

الثاني: فيما ائتمن الله العباد عليه من الفرائض والأحكام أن تؤدوها بحقها ولا تخونوها بتركها.

والثالث: أنه على العموم في كل أمانة أن تؤدى ولا تخان»[5].

ويرى الإمام السمعاني أنها «في جميع الأمانات، نهي العباد عن الخيانة في الأمانات، وتدخل في الأمانات الطّاعات؛ فإن الطّاعات أمانات عند العباد على معنى أنها بينهم وبين ربهم أدوها أو لم يؤدوها»[6].

ومنهم من جعل الأمانة هي النفس والأموال، بكل ما تشتمل عليه، «فعلى

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٤٣٨.
(٢) انظر: جامع البيان ١١/ ١٢٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ١١/ ١٢٥.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٩٠.
(٥) النكت والعيون ٢/ ٣١١.
(٦) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٥٩.

ذلك أنفسكم وأموالكم لله عندكم أمانة استحفظكم فيها، فإن استعملتموها في غير ما أذن لكم فيها، ختتم الله والرسول فيها، فتخونوا أماناتكم التي لكم عند الله إذا ضيعتم الأمانة؛ كقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾، أي: ولا تخونوا أماناتكم التي فيما بينكم. وأصله: أنه عز وجل امتحنهم فيما امتحنهم لمنافع أنفسهم ولحاجتهم، فيصيرون فيما خانوا فيما امتحنهم كأنهم خانوا أنفسهم وخانوا أماناتهم؛ كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، وقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ الآية. وقوله عز وجل: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أن أنفسكم وأموالكم ليست لكم، إنما هي لله عندكم أمانة، فلا تخونوا فيها[1].

ومنهم من ترقى في بيان الأمانة إلى درجة الحديث عن الأعمال والأحوال، بأن الخيانة في الأعمال: الدعوى فيها بأنها من قبلك، دون التحقيق بأن منشئها الله.

والخيانة في الأحوال ملاحظتك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك في شهود الحق، إن لم يكن استهلاكك في وجود الحق. وإذا أخللت بسنة من السنن أو أدب من آداب الشرع فتلك خيانة الرسول صلى الله عليه وسلم.

والخيانة في الأمانات -بينك وبين الخلق- تكون بإيثار نصيب نفسك على نصيب المسلمين، بإرادة القلب فضلًا عن المعاملة بالفعل[2].

ومن بدائع أهل التفسير وروائعهم حقًّا أنهم لمحوا مسؤولية الأمة عن ريادتها للبشرية، وتكليفها بقيادة الأمم إلى توحيد الله تعالى، وهدايتها إلى ربها، ودلالتها عليه، وهذا ما يعبّر عنه في عصرنا بالشهود الحضاري؛ إذ جعلوا معنى الأمانة التي كلّف الله تعالى بها المسلمين أنهم مكلّفون بذلك ومؤهّلون له، بل حددوا مؤهلات هذا الشهود، ومقومات تلك المسؤولية، بأن الأمة وسط، وعدل، فـهذه الأمة وسطًا عدلًا بقوله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ فكأنه قال: يا أيها الذين آمنوا قد جعلكم الله أمناء عدلًا وسطًا، فلا تخونوا الله فيه؛ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

---

(١) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣١١.

(٢) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٦١٨.

وقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

أخبر أنه ألزمهم الأمانة -أعني: البشر- دون ما ذكر من الخلائق فمنهم من ضيع تلك الأمانة؛ من نحو المنافقين والمشركين، وخانوا فيها، فلحقهم الوعيد بالتضييع»[(١)].

وفي هذا يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن التخلي عن تكاليف الأمة المسلمة في الأرض خيانة لله والرسول. فالقضية الأولى في هذا الدين هي قضية: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، قضية إفراد الله سبحانه بالألوهية والأخذ في هذا بما بلّغه محمد صلى الله عليه وسلم وحده، ومن هنا كان التخلي عنها خيانة لله والرسول يحذّر الله منها العصبة المسلمة التي آمنت به وأعلنت هذا الإيمان، فأصبح متعينًا أن تجاهد لتحقيق مدلوله الواقعي والنهوض بتكاليف هذا الجهاد في الأنفس والأموال والأولاد.

كذلك يحذّرها خيانة الأمانة التي حملتها يوم بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام.

فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان، وليس مجرد عبارات وأدعيات، إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق. إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله، وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق وردّ المجتمع إلى حاكميته وشريعته، وردّ الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء وتأمين الحق والعدل للناس جميعًا، وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت، وتعمير الأرض، والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله.

وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها، وخاس بعهده الذي عاهد الله عليه، ونقض بيعته التي بايع بها رسوله»[(٢)].

وتلك أهم زاوية من زوايا الأمانة، وأعمق تعريف لها؛ لأنه يشمل كل التعاريف السابقة ويزيد عليها بيان مسؤولية الأمة عن ريادة العالم، وقيامها بمهمتها التي ندبها الله لها.

سادسًا: خيانة العهد:

لقد رسم القرآن الكريم للبشرية منهاجًا من الوفاء، لو اتبعته وسارت به لعزت في الدنيا ونجت في الآخرة، وتوالت وصايا القرآن الكريم مشدّدة على الوفاء بالعهد والبعد عن خيانته، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وحذّرهم من نقضه والانقلاب عليه،

---

(١) تأويلات أهل السنة، النيسابوري ٥/ ١٨٣.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٩٧-١٤٩٨.

ونبّههم إلى أن هذا العهد عهد مع الله، وأن الله كفيل عليهم، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

ووصف المؤمنين المفلحين بأنهم: ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

وفي خيانة العهد تحدث القرآن الكريم مبيّنًا ضرره وخطره ومنهجية التعامل معه، كما يرد في عاقبتهم ومنهجية التعامل معهم، وورد هذا في قوله تعالى مخاطبًا الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨].

وقد نص المفسرون على أن الخيانة هنا: خيانة العهد، يقول الإمام الماوردي رحمه الله: «قوله عز وجل: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ يعني: في نقض العهد. ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: فألق إليهم عهدهم حتى لا ينسبوك إلى الغدر بهم. والنبذ هو الإلقاء»[1].

لقد ربط القرآن الكريم بين الكفر ونقض العهد والخيانة فيه؛ تفظيعًا له، وبيانًا لما هو فيه من شر وضرر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٨].

وبيّن للنبي أنه إن شعر منهم بالنقض أو بوادره ينبذ إليهم على سواء؛ ذلك أن الله لا يحب الخائنين، حتى ولو كان ذلك الفعل مع الكفار.

وعلى ﴿سَوَاءٍ﴾ هنا بمعنى: البيان والوضوح، ذكر ابن عادل الحنبلي في الموضع الرابع من مواضع معنى كلمة سواء: أنها «بمعنى: البيان»[2].

لقد حذّر القرآن النبي من خيانة الخائنين، ومكر الماكرين، وبيّن له أن تلك سمتهم وهذا ديدنهم، فقال له: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿عَلَىٰ خَائِنَةٍ﴾ أي: على معصية، وكانت خيانتهم نقض العهد، ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، وهمّهم بقتله وسمه، ونحوها من الخيانات الّتي ظهرت منهم.

وبيّن أن هذه الخيانة طبع اليهود، لا يغادرونها ولا تغادرهم، ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك[3].

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٣٢٨.

(٢) اللباب في علوم الكتاب ٧/ ٤٢.

(٣) انظر: المصدر السابق ٧/ ٢٥٤.

وقال مجاهدٌ وغيره: يعني بذلك تمالؤهم على الفتك بالنّبيّ صلى الله عليه وسلم [(١)].

وتلك من خلائقهم التي ورثوها ممن قبلهم وورّثوها أولادهم وأحفادهم، والواقع المنظور خير دليل على ذلك.

طريقة التعامل مع الخائنين

المتتبع لآيات القرآن الكريم في قضية الخيانة يجد أنها رسمت في التعامل مع الخائنين منهاجًا واضح المعالم، بيّن القسمات، لو طبّقته الأمة المسلمة في التعامل معهم لنجوا من تكرار الخيانة في واقعهم، ولابتعدوا عن الوقوع فيها أفرادًا وجماعات، وشعوبًا وحكومات؛ ذلك المنهاج الحق، والطريق الصدق يتلخص في النقاط الآتية:

أولًا: عدم المدافعة عنهم:

وأول طريقة من طرق التعامل مع الخائنين هي عدم المدافعة عنهم، أو التستر عليهم؛ حتى لا ينبت هذا الداء العضال في أوصال المسلمين، أو يعشّش في بيوتهم وقلوبهم، وهو المجتمع الذي يتغيا الصفاء، ويبغي الطهر، ويسعى نحو الكمال البشري، ويبدو من ملامح الآية الكريمة التي تناولت تلك المنهجية، ومن خلال أسباب نزولها، أنها وقعت في أفراد من بين ثنايا المجتمع المسلم، قام به واحد، وشاركه آخرون، وسعى في الدفاع عنه غيرهم، فنزلت الآيات الكريمة -كما سيأتي- تبيّن للجميع منهاجية القرآن العادلة في التعامل معهم.

ولنا أن نقف أمام الآية الكريمة التي تناولت تلك المنهجية؛ حتى يتسنى لنا تبيّن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٦.

معالم وملامح منهجية التعامل مع الخائنين، وسنجد الآية الكريمة تخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم قائلة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٩].

وأول ما نقف أمامه من تلك الآية الكريمة هو سبب نزولها؛ حتى يتسنى لنا تبيّن الجو الذي نزلت فيه زمانًا، ومكانًا، وأفرادًا، فقد نزلت الآية في المدينة بمجتمعها الذي يجمع أنماطًا من الناس: مؤمنين ومسلمين ومشركين ويهود ومنافقين، حتى يكون هذا نموذجًا للمجتمع الجامع الذي يتعايش فيه الناس، متوحّدين على قاسم مشترك، مهما تباينت رؤاهم، واختلفت توجهاتهم، وتتنزل الآيات تبيّن الحكم الفصل الذي ينطبق على الجميع بما أن قيادة هذا المجتمع في أيدي المسلمين القيمين على البشرية بما أوتوا من مؤهّلات تضعهم في الصدارة، وتعينهم على إقامة القسط والحكم بالعدل، ولو على أنفسهم والأقربين، كما سيتضح ذلك جليًّا في تضاعيف معالجة القرآن لهذا التعامل في قضية الخيانة.

وتذكر كتب التفسير وعلوم القرآن إجماعًا على نزول هذه الآيات في طعمة بن أبيرق، كما قال الإمام الكرماني: «أجمع المفسرون على أن هذه الآيات نزلت في طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر بن الحرث، إلا ابن بحر فإنه قال: نزلت في المنافقين»[(١)].

وفصّل ابن العربي سبب النزول «بأن بني أبيرق سرقوا طعام رفاعة بن زيد، واعتذر عنهم قومهم بأنهم أهل خير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتادة بن النعمان ذلك، فطالبهم عن عمه رفاعة بن زيد، فقال رفاعة: الله المستعان، فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ونصر رفاعة وأخزى الله بني أبيرق بقوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أي: بما أعلمك، وذلك بوحي أو بنظر»[(٢)].

كما يتبدّى أيضًا من متابعة سبب النزول أن الآية نزلت نصرة ليهودي على مسلم؛ لأن الحق في جانب اليهودي، وفي ذلك من ملامح قيام الأمة الممثّلة في رسولها صلى الله عليه وسلم على إقامة الحق ما

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٧٩.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٤٧٤.

فيه، والمتأمل لسياق الآية ودلالات السياق والسباق واللحاق يجد ذلك بيّنًا، فصدر الآية يؤكد للرسول صلى الله عليه وسلم أنه أنزل إليه الكتاب ليحكم بين الناس بالحق، ولك أن تتأمل ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ وليس بين المسلمين فقط، «إنه مطلب تكليفي من الله للمسلمين حتى يشيع في كل الناس، ولا يخص المؤمنين يتعاملون به فيما بينهم، وإنما يشمل أيضًا ما بين المؤمنين والكافرين، وما بين الكافرين بعضهم مع بعض إن ارتضوا حكم رسول الله، وحينما أمر الحق رسوله أن يحكم بين الناس فذلك الحكم يقتضي عدم تمييز المؤمن على الكافر؛ لأن المسلمين هم القوّام، وهم خير أمة أخرجها الله للناس كافة. ولو فهم الناس أن خير الأمة الإسلامية عائد عليهم لما حاربوها. فنحن -المسلمين- لسنا خيرًا لأنفسنا فقط، ولكننا أمة لخير الناس جميعًا»[1].

وكما قال المفسرون: «وفي هذه الآية تشريف للرسول صلى الله عليه وسلم، وتفويض الأمور إليه بقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾[2].

إن الإسلام -والقرآن دستوره الخالد- يمتلك منهاج ريادة البشرية، والقدرة على العبور بها إلى بر الأمان، دون تفريق بين دين ودين، أو جنس وجنس، أو فصيل و فصيل، إن اليهود هم من أسسوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾، ولكن الإسلام بما أنه كلمة الله الخاتمة إلى أهل الأرض يضع قانونًا عادلًا، ومنهاجًا وسطًا، الناس جميعهم أمامه سواء.

وكما قال شوقي في همزيته[3]:

الله فوق الخلق فيها وحده

والناس تحت لوائها أكفاء

وإن خطابات القرآن الكريم للنبي صلى الله عليه وسلم ترد في صورة حانية، هادئة، حتى في مواطن العتاب يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم بصيغ أهدأ وألطف، حتى يخاطبه بصيغة الغيبة في عتابه في ابن أم مكتوم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١ - ٢].

ويقدم العفو قبل بيان العتاب في: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في موطن آخر، أما هنا فالخطاب بصورة مباشرة، وبصيغة لافتة.

وإذا كان هذا الخطاب والتنبيه للنبي بتلك الصورة فهو لأمته من باب أولى، «إننا نحس في التعبير صرامة، يفوح منها الغضب للحق، والغيرة على العدل، وتشيع في جو الآيات وتفيض منها، وأول ما يبدو هذا في تذكير رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير الشعراوي ٢/ ٦٦٤.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٤٧٤.
(٣) الشوقيات ١/ ٣٩.

بتنزيل الكتاب إليه بالحق ليحكم بين الناس بما أراه الله، وإتباع هذا التذكير بالنهي عن أن يكون خصيمًا للخائنين، يدافع عنهم ويجادل. وتوجيهه لاستغفار الله سبحانه عن هذه المجادلة.

ثم تكرار هذا النهي، ووصف هؤلاء الخائنين، الذين جادل عنهم صلى الله عليه وسلم بأنهم يختانون أنفسهم، وتعليل ذلك بأن الله لا يحب من كان خوّانًا أثيمًا.

وهم خانوا غيرهم في الظاهر، ولكنهم في الحقيقة خانوا أنفسهم، فقد خانوا الجماعة ومنهجها، ومبادئها التي تميّزها وتفردها، وخانوا الأمانة الملقاة على الجماعة كلها، وهم منها.

ثم هم يختانون أنفسهم في صورة أخرى، صورة تعريض أنفسهم للإثم الذي يجازون عليه شر الجزاء، حيث يكرههم الله، ويعاقبهم بما أثموا، وهي خيانة للنفس من غير شك.

وصورة ثالثة لخيانتهم لأنفسهم، هي تلويث هذه الأنفس وتدنيسها بالمؤامرة والكذب والخيانة»[1].

لكن هل كان هؤلاء الذين دافعوا عن أبيرق يعلمون خيانته؟

إن المفسرين يقولون: إنهم «لم يكونوا أيضًا على يقين من أمر الخائن وسرقته، ولكنه لم يكن لهم الحكم جائزًا على اليهودي بالسرقة لأجل وجود الدرع في داره»[2].

وهذا يدل على أنه غير جائز لأحد أن يخاصم عن غيره في إثبات حق أو نفيه وهو غير عالم بحقيقة أمره؛ لأن الله تعالى قد عاتب نبيه على مثله وأمره بالاستغفار منه، وهذه الآية وما بعدها من النهي عن المجادلة عن الخونة إلى آخر ما ذكر كله تأكيد للنهي عن معونة من لا يعلمه حقًّا[3].

لكن أكان النبي صلى الله عليه وسلم هو المخاطب أصالة بهذا الخطاب أم كان المقصود من الخطاب أمته، وصدور الخطاب بهذه الصورة لشخص النبي صلى الله عليه وسلم مقصود به تفخيم الأمر والتنبيه على خطورته؟

يرى بعض المفسرين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد شيئًا من ذلك، ولا علم له بالواقعة، لولا أطلعه تعالى، وعليه فلا نقص في اهتمامه، ولا درك يلحقه، وأن الآية خرجت مخرج التعريف بحقيقة الأمر في النازلة[4].

ويرى بعضهم أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره، كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ «والنبي

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٢٣٤.

(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٢٦٦.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٢٦٤.

(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٤٨٢.

لا يشك مما أنزل الله، فإن قيل: قد أمر بالاستغفار، قلنا: هو لا يوجب وجود الذنب، ولا يجب أن يستغفر كما أمر في سورة الفتح بالاستغفار من غير ذنب مقدّم»[1].

وعلى كل حال فلا ينافي أن يكون الرسول مخاطبًا بذلك أصالة مقام النبوة؛ فهو صلى الله عليه وسلم بشر يوحى إليه، ولعل كون الخطاب له يشعر بعدالة السماء، فإذا كان القرآن قد تعامل مع أفضل الخلق بهذا فغيره من باب أولى.

كما يبدو من الآية أن من منهاج التعامل مع الخائنين عدم جواز المجادلة عنهم، وعدم جواز مجادلتهم هم عن أنفسهم؛ إذ كانت خائنة، «لها في السر أهواء وأفعال باطنة تخفى على الناس، فلا يجوز المجادلة عنها، فالاعتذار عن النفس بالباطل والجدال عنها لا يجوز»[2].

ثانيًا: طرح عهودهم:

أما الملمح الثاني من ملامح منهج التعامل مع الخائنين، فيكمن في طرح عهودهم، ونبذ معاهداتهم، وهذا ما بيّنه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وهذا واضح فيه أنه في جانب الدول والأمم، حيث المعاهدات والمواثيق، وإن لم ينص المفسرون على هذا المعنى صراحة، لكن ورود العهد والنبذ والحرب وتشريد بهم من خلفهم يوحي بكونها في جانب الأمم والدول.

ومعنى ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتّى يبقى علمك وعلمهم بأنّك حربٌ لهم، وهم حربٌ لك، وأنّه لا عهد بينك وبينهم على السّواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك»[3].

ومن تتبّع كلام المفسرين في معنى ﴿سَوَآءٍ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يبين لنا أنها تدل على واحد من خمسة معان: أحدها: على مهل. والثاني: على محاجزة مما يفعل بهم. والثالث: على سواء في العلم حتى لا يسبقوك إلى فعل ما يريدونه بك. والرابع: على عدل من غير حيف، أي: إلى العدل. والخامس: على الوسط[4].

ومما يشعر بالجانب الحضاري في هذا الدين أن عدم حب الله للخائنين ليس مقصورًا على الخائنين للمسلمين فحسب، بل مطلق الخائنين، أي: «حتّى ولو في حق الكافرين، لا يحبّها أيضًا»[5].

ولقد عاش الجيل القرآني الفريد هذا المعنى القرآني، وطبّقه في تعاملاته، حتى

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٣٨٢.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٤٤٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٩.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٢٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٩.

كانوا نماذج تحتذى للبشرية كلها، وفخرًا حقيقيًّا لكل مسلم على كرّ الدهور والعصور، فعن سليم بن عامر قال: «كان معاوية يسير بأرض الروم وكان بينهم وبينه أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدر، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدّها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء)** فبلغ ذلك معاوية فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة»[1].

والمراد من خوف الخيانة ظهور آثارها، أو الإحساس ببداياتها، وليس ظن الخيانة، وليس الانتظار حتى يتمكن الخائنون، والنموذج التطبيقي لذلك ما حدث من بني قريظة في مظاهرتهم أبا سفيان ومن معه من المشركين[2] وذلك في غزوة الأحزاب.

وهذا هو ثبات المعايير، وصدق المبادئ في حضارة الإسلام، مع العدو والصديق، والقريب والبعيد، وتلك من مؤهلات الشهود الحضاري، الذي اختصت به أمة الإسلام.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم؛ لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة، ولقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ وهنا قد كان معلومًا عند الجميع غدرهم. ودل مفهومها أيضًا أنه إذا لم يخف منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته[3].

«إن الإسلام يعاهد ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية، ولم يخن ولم يغدر ولم يغش ولم يخدع، وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم، فليس بينه وبينهم أمان.

وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة، إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ، ولا يروّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم.

فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة؛ لأن كل خصم قد أخذ حذره، فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به إنما هو غافل! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة؛ لأنها ليست غادرة! إن الإسلام يريد للبشرية

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٨/ ٢٢٩، رقم ١٧٠١٥. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٥/ ٤٧٢، رقم ٢٣٥٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٣٩، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٧٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٢٤.

أن ترتفع، ويريد للبشرية أن تعف، فلا يبيح الغدر في سبيل الغلب، وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود، ومن ثمّ لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة، إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة، وليس مسلمًا من يبرّر الوسيلة بالغاية، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية؛ لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات.

إن الشط الممرع لا يغري المسلم بخوض بركة من الوحل، فإن الشط الممرع لابد أن تلوّثه الأقدام الملوثة في النهاية، من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة.

ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتنزل والبشرية بجملتها لا تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق. لقد كان قانون الغابة هو قانون المتحاربين حتى ذلك الزمان، قانون القوة التي لا تتقيد بقيد متى قدرت»[1].

ثالثًا: التنكيل بهم:

ومن منهجية التعامل مع الخائنين التي رصدها القرآن الكريم، ودل عليها صريح الآيات وبيّنها سياقها أننا بعد النبذ إليهم على سواء، لابد من مناجزتهم، وعدم تركهم يعيثون في الأرض فسادًا، يفرّخون فسادهم، ويدبّرون مكائدهم، فمن أمن العقوبة أساء الأدب، كما قالوا في أدبنا العربي؛ ولذلك تجد الآية السابقة عليها في نفس سياقها تقول: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[الأنفال: ٥٧].

والمعنى: «نكّل بهؤلاء الذين جاءوا لحربك أو نقضوا عهدك تنكيلًا يفرّق بينهم من خلفهم من جماعاتهم»[2].

ذلك أن من الناس من لا يرعوي حتى يرى العقوبة ماثلة، بل في ذلك ما يجعلهم عبرة لكل من يجترأ على حرمات الديار وخفر الذمار، كما ختمت الآية بـ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ «أي: لعل المشردين يتعظون بما شاهدوا ما نزل بالناقضين، فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر»[3].

وفي تذييل الآية الكريمة بعدم حب الله تعالى للخائنين لطائف بديعة، منها أنه تعليل للأمر بالنبذ، وأن الله تعالى لا يحب من كانت الخيانة طبعه، وفيه من طمأنة الرسول ومن سار على منهاجه ما فيه؛ فكون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٤٢.

(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٧٤.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٣١٣.

هؤلاء الخائنين محرومين من حب الله لهم، يعني أنهم محرومون من الأمن والهداية، ومحرومون من النصر والغلب، وممنوعون من التمكن، فمن حرم حب الله تعالى حرم كل خير، وتخلّت عنه كل سعادة.

كما تلمح من هذا التذييل والتعليل البديع إشارة من القرآن الكريم للرسول بمناجزة قتال الخائنين، وعدم تركهم، ما دام تيقن من عزمهم على الخيانة، ففي التذييل «تعليل للأمر بالنبذ، إما باعتبار استلزامه النهي عن مناجزة القتال؛ لكونها خيانة، فيكون تحذيرًا له صلى الله عليه وسلم منها، وإما باعتبار استتباعه للقتال، فيكون حثًا له صلى الله عليه وسلم على النبذ أولًا، وعلى قتالهم ثانيًا، كأنه قيل: وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم، ثم قاتلهم»[1].

وفي ذلك بيان صريح لمنهجية التعامل مع الخائنين في المستقبل، فيا ليت قومي يعلمون، يقول أبو حيان: «الظاهر أن هذا استئناف كلام، أخبره الله تعالى بما يصنع في المستقبل مع من يخاف منه خيانة إلى سالف الدهر»[2].

بل جعلها صاحب المنار قاعدة، من (القواعد الحربية العسكرية والسياسية) التي اشتملت عليها سورة الأنفال، فقال في (القاعدة التاسعة): «وجوب معاملة ناقضي العهد بالشدة التي يكونون بها عبرة ونكالًا لغيرهم، تمنعهم من الجرأة والإقدام على مثل خيانتهم بنقضهم، ومنه يظهر الفرق بين تعاليم الإسلام الجامعة بين الحزم والعدل، والشدة والفضل، وبين ما عليه دول المدنية الإفرنجية من القسوة والظلم»[3].

إننا أمام نظرية قرآنية جامعة ومنهجية متكاملة في التعامل مع الخائنين، سواء كانوا أفرادًا أم دولًا، وسواء كانت الخيانة مادية أم معنوية، إذا أخذ المسلمون بتلك المنهجية في تعاملهم مع هؤلاء الخائنين، كفّوا شرهم، ومنعوا أذاهم، ووأدوا فتنتهم في جحرها، ودفنوها في مهدها، ولا يتنافى هذا مع السماحة والندى، فلكل حلة لبوسها، ولكل عقوبة جزاؤها، وقديمًا كان العرب بفطرتهم الصحيحة يتفهّمون هذا المعنى، ويدركون قيمة القوة في مكانها، والمسامحة في بابها، قال أبو تمام[4]:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا
فليقس أحيانًا على من يرحم

(١) المصدر السابق ٥/ ٣١٤.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٤٠.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٢٧.
(٤) الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف ص٣٢٨.

عاقبة الخائنين

لله عز وجل في الخائنين سنن ثابتة لا تتحوّل ولا تتبدّل، نصّت عليها آيات القرآن الكريم، ويمكننا أن نتناول تلك العاقبة في النقاط الآتية:

أولًا: حرمان الهداية إلى الحق:

ومن عقوبات الله تعالى للخائنين: أنه تعالى يحرمهم الهداية إلى الحق، والوصول إلى الصراط المستقيم، فهداية الله نوعان:

- هداية دلالة وإرشاد.
- وهداية معونة وتوفيق.

فالله تعالى يهدي عباده إلى طريقه المستقيم، ويعينهم على تلك الهداية، أما الناكثون عن طريق الحق، الرافضون لمنهاج الصدق فالله تعالى يكلهم إلى أنفسهم، ويخليهم إلى قدرتهم، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

ويقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

والآيات الكريمة في ذلك كثيرة.

وقد نصّت آيات بعينها على حرمان الخائنين من هداية الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

والمعنى: «لا ينفذه ولا يسدده، أو لا يهدي الخائنين لكيدهم. وأوقع الفعل على الكيد مبالغة»[1].

«أي: لا يصلح»[2]، أو: «وأن الله لا يوفّق أهل الخيانة، ولا يرشدهم في خيانتهم»[3]، أو أنه تعالى «لا يهدي الخائنين بكيدهم»[4].

قال السدي: «يعني لا يصلح عمل الزناة»[5].

ومن بدائع القرآن الكريم ومنهاجيته في البيان عن تلك القضية أنه أوردها بصورة قاعدية سننية، تمضي على الجميع، وتعم كل الخائنين، وهذا ما نلمحه من تذييل الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

فهي واردة في حادثة معينة، ومع ذلك وردت في صورة عامة بتلك الصورة البنائية البيانية المعبّرة.

ومن لطائف الكتاب العزيز هنا أنه عبّر عن الزنا بالخيانة؛ ذلك أن هذا الفعل في حق الزوج خيانة، ولعل السر في التعبير بهذه الصيغة التنزه عن ذكر اللفظ في هذا المقام، وإن كان قد ورد في موطن آخر، والتنبيه على استبشاعه؛ حيث جرمه يلحق أكثر من طرف: الزوج، والولي، وكل من

---

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ١١٤.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ٢٧٤.
(٣) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٣٧٧.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٧.
(٥) تفسير ابن أبي زمنين ١/ ٣٠٧.

يهمه أمرها، بل المجتمع بأسره.

كما عبّر عن تيسير الوصول بالهداية، وعبّر عن تركه بتركها؛ مبالغة في بيان تلك العقوبة التي تلحق الخائنين، وتعممهم؛ «لئلا يتوهّم أن الحديث عن خائن معين تعني نفسها، فيصير الجمع في هذه المواطن قرينة على قصد الاستغراق، فأطلقت الهداية التي هي الإرشاد إلى الطريق الموصلة على تيسير الوصول، وأطلق نفيها على نفي ذلك التيسير، أي أن سنة الله في الكون جرت على أن فنون الباطل وإن راجت أوائلها لا تلبث أن تنقشع»[1]. كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

«أي: أنها أقرّت بأنه سبحانه وتعالى لا ينفذ كيد الخائنين، ولا يوصّله إلى غايته»[2].

وفي هذا التذييل البديع طمأنة لقلوب من وقعت عليهم الخيانة، وتسرية عن نفوسهم؛ حيث إن الله تعالى وعدهم أنه لا يهدي كيد من خانهم، ولا يوليهم إلى غايتهم التي خانوا من أجلها، كما أن «فيه إشارة إلى أن الله تعالى يوصل عباده الصادقين بعد الغم إلى السرور ويخرجهم من الظلمات إلى النور»[3].

«لا يرشد من خان أمانته، ويفضحه في عاقبته»[4].

والنص على إبطال كيد الخائنين ينبّه على أن غير الخائنين يهديهم الله تعالى، ويصلح أعمالهم؛ لأنه تعالى «خص الخائنين تنبيهًا أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده خيانة، ككيد يوسف بأخيه وقوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧] أي: لأريدن بها سوءًا»[5].

ومن أبرز الدلائل على عدم هداية الله للخائنين، وأنه لا ينعم عليهم بأن يكونوا في سبيله الحق، أو على طريقه المستقيم، أنه يحرمهم من اتباعه، ويخلي بينهم وبينه، ولو كانت مصادر الهداية أقرب ما تكون منهم، أو كانت بواكير الوحي بين أيديهم، وفي بيوتهم، وأقرب مثال لذلك بيوت كانت بيوت النبوة، وأشخاص عاصروها، وعاشروها في حياتهم، ونزل الوحي في مساكنهم، ومع ذلك لم يتنسّموا عبيره، ولم يجدوا ريحه، وليس مثال امرأة نبي الله نوح وامرأة نبي الله لوط اللتين قال الله عنهما: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] عنا ببعيد.

أي: «كانتا في عصمة نبيين عظيمين،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٩٣.
(٢) تفسير الشعراوي ٣/ ١٦٣٥.
(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ١١٩.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٤٨.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٤٣.

متمكّنين من تحصيل خير الدنيا والآخرة، وحيازة سعادتهما، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بإفشاء سرهما، أو بالكفر والنفاق، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فلم يغن الرسولان عن المرأتين بحق ما بينهما من الزواج شيئًا من الإغناء من عذاب الله تعالى، ﴿وَقِيلَ﴾ لهما عند موتهما، أو يوم القيامة: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ أي: مع سائر الداخلين من الكفرة، الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء.

قال القشيري: لما سبقت للمرأتين الفرقة يوم القسمة لم تنفعهما القرابة يوم العقوبة.

قال ابن عطية: وقول من قال: إن في المثلين عبرة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعيد، قلت: لا بعد فيه لذكره إثر تأديب المرأتين، وليس فيه غض لجانبهن المعظم، إنما فيه إيقاظ وإرشاد لما يزيدهم شرفًا وقربًا من تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته، وصيانة سره، والمسارعة إلى ما فيه محبته ورضاه، وكل من نصحك فقد أحبك، وكل من أهملك فقد مقتك»[(١)].

وليس هذا المثل خاصًّا بمن ضرب لهم، كعادة القرآن في منهجياته، بل عادة ضرب الأمثال في اللغة، فكل من خان وتنكب الطريق عقوبته الحرمان والتيه وعدم الدلالة وفقدان الهداية.

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٣٦٥.

ففي «ضرب هذا المثل دليل على أن القرب من الأنبياء والصالحين، لا يفيد شيئًا مع العمل السيء»[(٢)].

فهم مع قربهما من مصدر الوحي، وصلتهما بمنبع الرسالة لم يغنيا عنهما من الله شيئًا؛ «تنبيهًا بذلك على أن العذاب يدفع بالطاعة دون الوسيلة»[(٣)]، ودخلتا النار «مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام»[(٤)].

وفي ذلك بيان واضح لمن أراد أن يذّكر، وعبرة لمن أراد أن يعتبر، وورود هذا المثل بعد أن ذكر في صدر السورة ما يتعلق بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أنهن لا ينفعهن قربهن من النبي دون عملهن وطاعتهن، «وكذلك كفار مكة وإن كانوا أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم لا ينفعهم صلاح النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك أزواجه إذا خالفنه»[(٥)].

وفي ذكر المثل في الآية الكريمة دليل على عموم القاعدة، وسننية القضية، وأنه ينسحب حكمها على كل من جمع صفاتها.

يقول الخازن: «وهذا مثل ضربه الله تعالى للصالحين والصالحات من النساء، وأنه لا ينفع العاصي طاعة غيره، ولا يضر

(٢) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص١٨٧.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٤٧.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٤٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧١.

المطيع معصية غيره، وإن كانت القرابة متصلة بينهم، وأن القريب كالأجانب بل أبعد، وإن كان القريب الذي يتصل به الكافر نبيًّا»[1].

وهذه لمحة من لمحات العدالة المطلقة في شريعة الإسلام فلا قرب ولا بعد إلا بالعمل، ولا نسب ولا شرف إلا برضا الله تعالى، كما أنها سمة من سمات التأهل للشهود الحضاري، وريادة البشرية على منهاج عدل، «فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلًا بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوصلة التي كانت بين لوط ونوح وامرأتيهما، فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئًا ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾»[2].

وتلك «سنة الله فيمن توغل في الظلم والشر والفساد أنه يحرم التوبة فلا يموت إلا كافرًا»[3].

ثانيًا: حرمان محبة الله عز وجل:

ومن أقسى عقوبات الله تعالى للخائنين: أنه يحرمهم محبته، ويمنعهم مودته، تلك المحبة التي هي سبب كل خير، وعدمها سبب كل بلاء وضر.

ومحبة الله معناها: «مراعاته لهم»[4]، أو هي: «حالة لا يعبر عنها مقالة»[5].

وقال صاحب البصائر: «ولا يحدّ المحبّة بحدّ أوضح منها، والحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً فحدّها وجودها. ولا توصف المحبّة بوصف أظهر من المحبّة، وإنّما يتكلّم النّاس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها»[6].

وقد نصّت آيات القرآن الكريم على تلك العقوبة، فقد أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في تعامله مع من يخاف خيانتهم أن ينبذ إليهم عهدهم على بيان ووضوح؛ ذلك أن الله تعالى لا يحب الخائنين، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وقال في بيان سبب من أسباب مدافعته عن المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال في سبب نهيه عن المجادلة عن الذين يختانون أنفسهم: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

أي: «لا يرضى فعلهم، وهو تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول

(١) لباب التأويل، الخازن ٧/ ١٢٣.
(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٢٢٢.
(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٢٦٥.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٦٠.
(٥) التوقيف، المناوي ص٢٩٩.
(٦) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤١٦.



عليه بالحال»[1].

فالله لا يحبهم؛ «لأنهم متصفون بالخيانة، فلا تستمر على عهدهم فتكون معاهدًا لمن لا يحبهم الله؛ ولأن الله لا يحب أن تكون أنت من الخائنين»[2].

وموقع التذييل هذا من الآية وروده عقب هذا الأمر بمناجزتهم والمنابذة إليهم على سواء مشعر بعلّية عدم حب الله للخائنين، ويحتمل أن تكون تلك الجملة الكريمة تعليلًا معنويًا للأمر بنبذ العهد على عدل، وهو إعلامهم، وأن تكون مستأنفة سيقت لذم من خان رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقض عهده[3].

ومن روائع المنهاج القرآني أنه أورد صيغة عدم الحب خالية عن تحديدها حتى تكون عامة شاملة، سواء كانت تلك الخيانة في حق المؤمنين أو في حق الكافرين، أي: «حتى ولو في حق الكافرين، لا يحبها أيضًا»[4].

وفي ذلك من خصائص السننية من الاطراد والعموم والشمول ما فيه.

كما أن في ذلك من دلالات تهيئة الأمة للشهود الحضاري ما لا يخفى؛ فالإسلام -والقرآن دستوره- ينهى عن الخيانة ولا يحب أصحابها، ولو كانت في حق الكافرين، ويؤمر نبيه بأن ينبذ إليهم على سواء، ولا يباغتهم قبل أن يعرفوا نقض عهدهم، وعلى سواء بما تحمله تلك الكلمة من بيان، أي: على وضوح وجلاء، أو بحيث يصل الخبر إليهم ويستوون في معرفته.

«وحاصل الكلام في هذه الآية أنه تعالى أمره بنبذ من ينقض العهد على أقبح الوجوه، وأمره أن يتباعد على أقصى الوجوه من كل ما يوهم نكث العهد ونقضه»[5].

وعاش أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تلك القيم عيشة حقيقية واقعية لفتت أنظار العدو قبل الصديق، إلى ربانية هذا الدين، ومثله العليا التي لا تقوم أخلاقه على نسبية تختلف من شخص إلى آخر ولا من جنس إلى جنس، ولا من دين إلى دين، بل الكل أمام القيمة سواء.

فقد «روي أنّ معاوية كان بينه وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدرًا، فإذا هو عمرو بن عنبسة، فأرسل إليه معاوية يسأله فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من كان بينه **وبين قوم عهد فلا ينبذ عقدة ولا يحلها حتى**

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٣٦٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٥٣.
(٣) الدر المصون، السمين الحلبي ٥/ ٦٢٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٩.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٤٢١.

يتقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء»[1] فرجع معاوية»[2].

ويؤكد هذا الفهم أن القرآن الكريم قال في موطن آخر: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥].

«تلاحظ أن الآية لم تقل: بين المؤمنين، ولكن قالت: ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ حتى لا تكون هناك تفرقة في العدل بين مؤمن وغير مؤمن، فغير المؤمن مخلوق لله، استدعاه الله إلى هذا الوجود، وسبحانه قد أعد له مكانه في هذا العالم؛ لذلك لابد أن تراعي العدل معه في كل الأمور ولا تظلمه بل تعطيه حقه؛ لأنك بذلك تكون أنت مددًا من إمدادات الله. وقد كان هذا السلوك العادل الذي أمر به الله سببًا في دخول عدد كبير في الإسلام»[3].

كما تلمح شدة بيان القرآن عن حرمانهم محبة الله تعالى من تركيب الجملة وسياقها، وقد أكد نفي محبة الله تعالى للخيانة «بالجملة الاسمية، وبـ(إن)، ونفي المحبة أبلغ في النهي؛ لأن محبة الله مطلوبة، فإذا كانت الخيانة لا تؤدي إليها فهي منهي عنها نهيًا شديدًا مؤكدًا»[4].

كما تلمح بلاغة الآية وعمق دلالتها عن دفاع الله عن المؤمنين وعدم حبه للخائنين من ترتب الجملة الاستئنافية المبدوءة بإن كأنها تعليل لما سبق في صدر الآية، كما قال صاحب التحرير والتنوير: و«تعليل الدفاع بكونه عن الذين آمنوا، بأن الله لا يحب الكافرين الخائنين، فلذلك يدفع عن المؤمنين لرد أذى الكافرين، ففي هذا إيذان بمفعول ﴿يُدَٰفِعُ﴾ المحذوف، أي: يدافع الكافرين الخائنين»[5].

وتلمح بلاغتها أيضًا في حذف مفعول ﴿يُدَٰفِعُ﴾ في صدر الآية «فلم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم، وإن كان في الحقيقة أنه يدافع بأس المشركين، فلذلك قال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾؛ فنبّه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار»[6].

وهي بشرى واضحة للمؤمنين الذين ابتلوا بالخيانة ممن ائتمنوهم، ووثقوا فيهم، بأن الله سيحفظهم وسينصرهم على هؤلاء الخائنين؛ فتلك سنة الله تعالى التي لا تتخلّف ولا تتبدل.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٨/ ٢٢٩، رقم ١٧٠١٥.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٥/ ٤٧٢، رقم ٢٣٥٧.

(٢) السراج المنير، الشربيني ١/ ٤٥٦.

(٣) تفسير الشعراوي ٣/ ١٢٠٥.

(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣١٧٢.

(٥) التنوير والتحرير، ابن عاشور ٢٤/ ٨٣.

(٦) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٤/ ٩٩.

وبتلك المناهج التي يربي الإسلام عليها أتباعه يعلي قيمة البشرية، ويرسّخ معنى الحضارة الحقة التي تمسك بمقود العالم، فلا يظلم فيه فقير لحساب غني، ولا يهان فيه ضعيف إرضاء لقوي؛ لأن صاحب المنهاج هو رب البشرية، وسيد العالمين، الإله الحق الذي خلقه كلهم عنده سواء، وفضله عليهم كلهم سواء.

«إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع؛ ويريد للبشرية أن تعف؛ لا يبيح الغدر في سبيل الغلب؛ وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد؛ ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود؛ ومن ثمّ لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة، إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ؛ ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة.. وليس مسلمًا من يبرّر الوسيلة بالغاية، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية؛ لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات.

إن الشط الممرع لا يغري المسلم بخوض بركة من الوحل؛ فإن الشط الممرع لابد أن تلوّثه الأقدام الملوثة في النهاية.

من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة، وفي مقابل هذه النصاعة وهذه النظافة يعد الله المسلمين النصر، ويهون عليهم أمر الكفار والكفر!»[1].

والمبالغة في لفظة ﴿خَوَّانٍ﴾ ليست على بابها، فليس المراد نفي المحبة عن الخوان فتثبت للخائن، بل المراد أن المشركين خوانون، أو «لأن خيانة أمانة الله تعالى وكفران نعمته لا يكونان حقيرين، بل هما أمران عظيمان، أو لكثرة ما خانوا فيه من الأمانات، وما كفروا به من النعم، أو للمبالغة في نفي المحبة على اعتبار النفي أولًا، وإيراد معنى المبالغة ثانيًا»[2].

وقد تكون صيغة المبالغة للنسب، فشملت ما لا مبالغة فيه، أو مراعاة الحال من الآية في شأنه.

ومما يؤيد نصرة الله تعالى لمن وقعت في حقه الخيانة، وينصره على الخائنين، الإذن بالقتال بعد نفي المحبة عن كل خوان كفور، وتلك سنة الله في الخيانة، لا تتبدل ولا تتغير، «وما دام هناك الخوّان والكفور فلابدّ للسماء أن تؤيّد رسولها، وأن تنصره في هذه المعركة أولًا، بأن تأذن له في القتال، ثم تأمره بأخذ العدة والأسباب المؤدية للنصر، فإن عزّت المسائل عليكم، فأنا

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٣١.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٣/ ٧٤.

معكم أؤيدكم بجنود من عندي»[1].

وفي هذه الآية إشارة لطيفة بترك المدفوع عن المؤمنين عامًا مطلقًا، وجعل سياقها يشير إلى الخيانة، وذلك بشارة عظيمة للمؤمنين الذين يتعرضون للخيانة، بأنه عز وجل متكفل بالدفاع عنهم.

إن لطف الله بعباده دائم، شامل، سواء عن طريق محبتهم وتأييدهم، أو عن طريق رصده لأعدائهم، فهو تعالى متكفل بالدفاع عنهم، ونصرتهم على أعدائهم، وتلك سنة الله الماضية، وناموسه الباقي، ما بقيت على الأرض حياة وأحياء.

ثالثًا: إبطال كيدهم:

ومن عقوبات القرآن الكريم للخائنين أن الله تعالى يبطل كيدهم، ويفلّ حدهم، ولا ينيلهم مبتغاهم، حتى وإن بدا للناظر المتعجل أنهم وصلوا إلى غايتهم، وظفروا بمنيتهم، ونالوا ما يصبون إليه، فمقاييس الحق غير مقاييس الباطل، وغايته غير غايته، وقد ومضت سنة الله تعالى بذلك، كما نصت الآيات الكريمة عليه.

لقد عبّر القرآن الكريم غب كيد امرأة العزيز على لسانها عن ذلك فقالت: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

ومعنى عدم هداية كيدهم يبيّن سننية القرآن الكريم في إبطال كيدهم، فعدم هداية كيدهم يعني: أنه «لا ينفذه ولا يسدده، أو لا يهدي الخائنين لكيدهم. وأوقع الفعل على الكيد؛ مبالغةً»[2].

وأتت الآية الكريمة مبينة استغراق الأمر لجميع الخائنين بـ(ال) التي تفيد الاستغراق، إضافة إلى ورودها بصيغة الجمع؛ «لئلا يتوهّم أن الحديث عن خائن معين.. فيصير الجمع في هذه المواطن قرينة على قصد الاستغراق»[3].

فكل خائن بهذه الصورة لا يصل إلى مبتغاه، ويبطل الله كيده، وتلك سنة الله الماضية، وقانونه الدائم في الخلق.

أو المعنى: «أن الله لا يوّفق أهل الخيانة»[4]، وعدم توفيقهم وإرشادهم فيه إبطال لكيدهم، فمن يهديهم أو يرشدهم بعد أن خلاهم الله وحرمهم الرشاد والهداية؟

أو المعنى: «لا يوصّله إلى غايته»[5]، وإذا لم يصل إلى غايته فقد بطل، وفشل، ولم يحقق غايته.

أو أن المعنى: «لا يصلح»[6]، وفي عدم صلاحه إبطال له.

(١) تفسير الشعراوي ٦/ ٢٦١٥.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٣٩٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٥٣.

(٤) التفسير الميسر ص ١٥٢.

(٥) تفسير الشعراوي ٩/ ٤٤٢٧.

(٦) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ٢٧٤.

أو المعنى: «قال: لا يقرب»[1]، فكيف يصل من لا يقرب؟

أو المعنى: «لا يرشد من خان أمانته»[2]، وما دام فقد إرشاد الله له فكيف يصل إلى مبتغاه، أو ينال مناه؟

وقد دلت الآية الكريمة على عدد من الدلالات فيما يخص إبطال الكيد، منها: أنهم يفتضحون في الدنيا قبل الآخرة، وأن الله يخليهم لذواتهم، ويتركهم لقدراتهم البشرية، فلا يعينهم ولا يرشدهم، ولا يهديهم ولا يسدّد فعلهم.

ومبالغة في نفي وصول الخائنين إلى مبتغاهم، أو تحصيلهم نوالهم وردت الصيغة البنائية في الآية الكريمة بهذه الصورة، موقعة الفعل على الكيد، لا على الفعل، فلم يقل القرآن الكريم: (لا يهديهم) أو (لا يهدي فعلهم)، بل قال: ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾؛ كأن الكيد نفسه لن يهتدي، بل هو مثل أصحابه تائه ضال، لن يصل إلى غايته، فهو مبطل من البداية.

كما قال علماء التفسير: «أوقع الفعل على الكيد مبالغة»[3]، فسبحان من هذا كلامه.

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ٣٤٥.

(٢) الوجيز، لواحدي ١/ ٥٥٠.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٢٩٤.

ثالثًا: الإهلاك:

ومن عقوبات الله تعالى للخائنين أنه يعاجلهم بالهلكة، ويمكّن منهم من نقضوا عهده وخانوه، ووردت الآيات الكريمة مبيّنة ذلك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١].

لقد وعد الله رسوله بأنه تعالى يتمكن من الخائنين، ويقهرهم ويخزيهم، وينصرك عليهم، وهذه سنة ماضية في الناس إلى يوم القيامة؛ لأن من سنته تعالى في الخائنين -كما سبق- أنه لا يحبهم، ولا يهديهم، ويعاجلهم بالعقوبة، ومعنى أمكن منهم أي: «أمكنكم أنتم أيها المؤمنون منهم فقتلتموهم وأسرتموهم»[4].

والتذييل في الآية الكريمة له دلالة بديعة كعادة القرآن في تذييله؛ حيث ورد هنا صفتان من صفات الله تعالى، هما (عليم)، (حكيم)، وهما -كما لا يخفى- متناسبتان تمام التناسب مع الوعد بالإمكان من الخائنين؛ فهو عليم بهم، حكيم في تمكينك منهم؛ حتى لا يعلو الباطل على الحق، وحتى تمضي سنة الله تعالى في ردع الخائنين، والإمكان منهم.

وقد فعل تعالى بالمشركين في بدر «فأمكنك -يا رسول الله- منهم وأظهرك

(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٢٧٦.

عليهم يوم بدر، حتى قهرتهم وأسرتهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث أمكنك منهم، يعني إن خانوك أمكنتك منهم؛ لتفعل بهم مثل ما فعلت من قبل»[1].

وهذا من روائع القرآن الكريم وأسراره في التعبير؛ إذ يعبر عن المعنى بلفظ محدد له ظلال مقصوده، وهذا ما يسميه البلاغيون: العدول، حيث يترك القرآن لفظًا ويعبّر بآخر اختيارًا؛ لما للمختار من دلالة تتناسب مع السياق والمعنى المقصود للآية.

وفي ذلك من التطيب والتسرية والتطييب بالتهنئة والطمأنة ما فيه؛ «بأن ضمن لهم، إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأن الله يمكّن المسلمين منهم مرة أخرى، كما أمكنهم منهم في هذه المرة، أي: إن ينووا من العهد بعدم العود إلى الغزو خيانتك، وإنما وعدوا بذلك لينجوا من القتل والرق، فلا يضركم ذلك، لأن الله ينصركم عليهم ثاني مرة»[2].

وقد تطابق المسطور والمنظور في ذلك، في تمكين الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ممن خانوه بعد وعد بعدم القتال ضده، كالشاعر ابن عزة الجمحي، «فإنه سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم المنّ عليه بغير شيء؛ لفقره وعياله، وعاهده على أنه لا يظاهر عليه أحدًا، ثم خان فظفر به في غزوة حمراء الأسد عقب يوم أحد أسيرًا، فاعتذر له وسأله العفو عنه فقال: (لا، لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرّتين) وأمر به فضربت عنقه»[3].

وكما ورد الوعد بالإمكان منهم هنا ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

وفي الآية الكريمة وعد بالدفاع عن الذين آمنوا، وتعليل لهذا الدفاع بأنه لا يحب كل خوّان كفور.

وفي تذييل الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ «تعليل لما في ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين وإيذان بأن دفعهم بطريق القهر والخزي. وقيل: تعليل للدفاع عن المؤمنين ببغض المدفوعين على وجه يتضمن أن العلة في ذلك الخيانة والكفر، وأوثر ﴿لَا يُحِبُّ﴾ على يبغض تنبيهًا على مكان التعريض وأن المؤمنين هم أحباء الله تعالى»[4].

ومما يؤيد تأييد الله تعالى لمن وقعت في حقه الخيانة، وأنه ينصرهم على الخائنين، ويهلك هؤلاء الخونة بمغبة أفعالهم، إذنه

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٠٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٨١.
(٣) السراج المنير، الشربيني ١/ ٤٦١.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١٣/ ٧٤.

تعالى للمؤمنين بالقتال، وتلك سنة الله في الخيانة، لا تتبدل ولا تتغير، «وما دام هناك الخوّان والكفور فلابدّ للسماء أن تؤيّد رسولها، وأن تنصره في هذه المعركة أولًا، بأن تأذن له في القتال، ثم تأمره بأخذ العدة والأسباب المؤدية للنصر، فإن عزّت المسائل عليكم، فأنا معكم أؤيدكم بجنود من عندي»[1].

وفي هذه الآية إشارة لطيفة بترك المدفوع عن المؤمنين عامًا مطلقًا، وجعل سياقها يشير إلى الخيانة، وذلك بشارة عظيمة للمؤمنين الذين يتعرضون للخيانة، بأنه عز وجل متكفل بالدفاع عنهم.

إن هلاك الخائنين ليس في الدنيا فقط، بالنصر عليهم وقهرهم وخزيهم، بل في الآخرة أيضًا، حتى يقال لهم: ادخلوا النار مع الداخلين، وقد أكد القرآن الكريم ذلك، حتى مع من كانوا أشد الناس قربًا من المرسلين، كامرأة نوح وامرأة لوط، إذ قال الله تعالى فيهم صراحة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

لقد جعلهم الله مثلًا يضرب، ونموذجًا مطلقًا على هلاك الخائنين مهما كانت مكانتهم، ومهما كان قربهم؛ لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق، وبتّ الوصل وجعلهم أبعد من الآمال، وإن كان المؤمن الذي يفصل به الكافر سائر أنبياء الله بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما خانتا ونافقتا الرسولين عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الأزواج أغنى من عذاب الله، وقيل لهما عند موتهما، أي: يوم القيامة: ادخلا النار مع سائر الداخلين الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء ومع داخلها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط.

وبذلك وضع القرآن قاعدة عامة في هلاك الخائنين مهما كانوا، بل صيّرهم مثلًا لغيرهم، «وقطع الله بهذه الآية طمع كل من يركب المعصية أن ينفعه صلاح غيره، ثم أخبر أن معصية غيره لا تضره إذا كان مطيعًا»[2].

ويبيّن الإمام البقاعي -رحمه الله- سر القاعدية والسننية في هذا الإهلاك للخائنين في الدارين، وضرب الله بهم مثلًا، وأنهم لم تنفعهم قراباتهم، كما لا تضر المسلمين قراباتهم من الكافرين بأنه: «لما كان أمر الاستئصال في الإنجاء والإهلاك أشبه شيء بحال أهل الآخرة في الدينونة بالعدل والفضل، وكان المفتتح به السورة عتاب النساء، ثم أتبع بالأمر بالتأديب لجميع الأمة

(١) تفسير الشعراوي ٥/ ٢٦١٥.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٣٥٨.

إلى أن ختم بهلاك المخالف في الدارين، وكان للكفار قرابات بالمسلمين وكانوا يظنون أنها ربما تنفعهم، وللمسلمين قرابات بالكفار وكانوا ربما توهموا أنها تضرهم، قال مجيبًا لما يتخيل من ذلك تأديبًا لمن ينكر عليه صلى الله عليه وسلم من النساء وغيرهن ضرب الله المثل بهؤلاء في عدم انتفاعهم مع كفرهم بما بينهم وبين المؤمنين من الوصل والعلائق، فيغلّظ عليهم في الدارين معاملة بما يستحقون من غير محاباة لأحد، وإن جل مقامه، وعلا منصبه ومرامه»[(١)].

وتلك عقوبات الله تعالى للخائنين، حرمان من الهداية، وحرمان من محبة الله تعالى ومودته، وإبطال كيدهم، وإهلاك لا يتخلف ولا يتأجل، وتلك سنن الله الماضية، وعقوبته العاجلة، وناموسه الذي لا يتخلف، فليتعظ من خان ربه أو رسوله أو أمانة أو عرضًا، وليبادر بالتوبة النصوح قبل حلول الأجل، فسنة الله لا تنتقي ولا تنتخب، بل ماضية ما مضى الجديدان، دائمة ما كرّ الملوان، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

موضوعات ذات صلة:

الأمانة، العهد، الميثاق، النفاق، الوفاء

(١) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٥٧.





عناصر الموضوع

مفهوم الخير

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (خير) على العطف والميل، فكل أحد يميل إلى الخير، ويعطف على صاحبه[1].

والخير ضد الشر، وجمعه خيور، ويقال: رجلٌ خَيْرٌ وخَيِّرٌ -مشدّد ومخفّف-، أي: فاضل، والجمع أخيارٌ، وخيارٌ، والخيرات جمع خيرةٍ، وهي الفاضلة من كل شيء[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف عن معناه اللغوي، فهو يطلق على «ما يرغب فيه كل الناس، كالعقل، والعدل، والفضل، والشيء النافع»[3].

كما يصدق الخير أيضًا على كل ما يتقرّب به العبد إلى الله تعالى من فعل الطاعات، والبعد عن المعاصي والسيئات، لذا قيل في تعريفه: هو إتيان ما يوجب الثواب الجزيل، ويجنب العقاب الأليم[4].

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٢٣٢.

(٢) مختار الصحاح، الرازي ص ٩٩.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٠٠.

(٤) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٥٩٣.

الخير في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خير) في القرآن الكريم (١٩٦) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٨٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	١٧٦	﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران:٢٦]
الأسماء	١٢	﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[البقرة:١٤٨]

وأطلق الخير في القرآن الكريم على أربعة أوجه[٢]:

الأول: كل ما هو طيب وممدوح ومرغوب فيه، ويشمل العافية والسعة والنفع والأجر وغير ذلك: ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج:٣٦]، أي: لكم في البدن منافع كثيرة في الدنيا، والأجر في الآخرة إذا تقربتم إلى الله بذبحها.

الثاني: الإسلام أو القرآن: ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

الثالث: المال: ومنه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:١٨٠] أي: إن ترك مالًا.

الرابع: الأفضل: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف:١٢] أي: أنا أفضل منه.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن، عبدالله جلغوم، ص٤٩١-٤٩٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٩٦-١٩٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٥٧٢-٥٧٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٨٥-٢٨٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ البر:

البرّ لغة:

الاتساع في الإحسان والزيادة فيه إلى الناس، ويقال: أبر على صاحبه في كذا، أي: زاد عليه[١]، وأصل معنى البر السعة، ومنه أخذ البر مقابل البحر، ثم شاع في الشفقة والإحسان والصلة[٢].

البر اصطلاحًا:

قال الطبري: «كل طاعة لله تعالى تسمّى برًّا»[٣]، وقال الزمخشري: «البرّ سعة الخير والمعروف، ومنه البر، لسعته، ويتناول كل خير. ومنه قولهم: صدقت وبررت»[٤]. وقيل: هو اسم جامع لكل خير[٥].

الصلة بين البر والخير:

يشترك لفظ البر مع لفظ الخير في معان كثيرة، وبينهما فروق منها: «أن الخير يقابله الشر، والبر يقابله العقوق، ومنها: أن البر هو الخير الواصل إلى الغير، مع القصد إلى ذلك، أما الخير فمطلق سواء كان عن قصد أو غير قصد، حتى لو وقع عن سهو لم يخرج عن استحقاق الصفة به»[٦].

٢ النعمة:

النعمة لغة:

قال ابن فارس: «النعمة: المنة، وكذلك النعماء. والنعمة: المال، يقال: هو واسع النعمة»[٧]، يقال: نَعِمَ يَنْعَمُ نَعْمَةً، ونِعمة العيش: حُسْنه، ونعمة الله: مَنُّه وعطاؤه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠][٨].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ١٣٨.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٥١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ٧.
(٤) الكشاف، الزمخشري ١/ ١٣٣.
(٥) انظر: تحرير ألفاظ التنبيه، النووي ص ١٤٩.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص١٧٠.
(٧) مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٨٧٤.
(٨) تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٩.



النّعمة اصطلاحًا:

الحالة الحسنة[1]. وهي في أصل وضعها الحالة الّتي يستلذها الإنسان[2].

الصلة بين النعمة والخير:

أنها سبيل إليه، فنعمة المال سبيل للإنفاق منه في وجوه الخير، ونعمة الصحة سبيل للقيام بواجبات العبودية لله تعالى من صلاة وصيام وحج وهكذا. وقد ذكر أبو هلال العسكري الفرق بين لفظ الخير ولفظ النعمة، فقال: «والفرق بينها: أي: النعمة وبين الخير، أن الإنسان يجوز أن يفعل بنفسه الخير كما يجوز أن ينفعها، ولا يجوز أن ينعم عليها»[3].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨١٤.
(٢) الكليات، الكفوي ص٩١٢.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص١٩٧.

الخير الإلهي

من الحقائق الثابتة التي لا مراء فيها أن الله تعالى خالق كل شيء، وهو خالق الخير يهدي إليه من يشاء من خلقه، ولا يعلم حقيقة الخير إلا الله. والناظر في القرآن الكريم يجد أن لفظ الخير ورد في بعض الآيات مقرونًا ببعض أسماء الله تعالى وصفاته: كـ ﴿خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾، و﴿خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ ونحوهما، كما أن هناك ميادين كثيرة للخير: كالإيمان، والعبادات، والأخلاق؛ وضحها القرآن الكريم ليرشد المسلمين إليها. والحديث حول هذا الموضوع يشتمل على ما يأتي:

أولًا: مصدر الخير:

مصدر الخير هو الله سبحانه وتعالى فهو الذي خلقه ويسّره لأهله، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

فالخير بيد الله تعالى هو خالقه وملهمه، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: كيف قال: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ فذكر الخير دون الشر؟ قلت: لأنّ الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرته الكفرة، فقال: بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك، ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضارّ صادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله، كإيتاء الملك ونزعه»[١].

وقال الفخر: «والألف واللام في الخير يوجبان العموم، فالمعنى: بقدرتك تحصل كلّ البركات والخيرات، وأيضًا فقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ يفيد الحصر، كأنّه قال بيدك الخير لا بيد غيرك»[٢].

ومما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في افتتاح الصلاة بعد التكبير وقبل القراءة: (اللّهمّ أنت الملك لا إله إلاّ أنت، أنت ربّي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي إنّه لا يغفر الذّنوب إلاّ أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلاّ أنت، واصرف عنّي سيّئها إنّه لا يصرف سيّئها إلاّ أنت، لبّيك وسعديك، والخير بيديك، أستغفرك وأتوب إليك، لا منجا منك إلاّ إليك)[٣].

ثانيًا: الخير في أسماء الله وصفاته:

اقترن الخير في مواضع من القرآن الكريم بأسماء الله تعالى وصفاته، كـ ﴿خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ ونحوه. ومعلوم أن أفعل

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٥٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٩٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ١/ ٥٣٤، رقم ٧٧١.

التفضيل هنا ليس على بابه، بل من قبيل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وبيان ذلك كما يأتي:

١. خير الناصرين.

ومعناه في حق الله تعالى أنه سبحانه ينصر من يستنصره، ويجازيه على استنصاره به[١].

وورد هذا الوصف في القرآن مرةً واحدةً، وذلك في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠].

قال الفخر: «وإنّما كان تعالى خير النّاصرين؛ لأنّه تعالى هو القادر على نصرتك في كلّ ما تريد، والعالم الّذي لا يخفى عليه دعاؤك وتضرّعك، والكريم الّذي لا يبخل في جوده، ونصرة العبيد بعضهم لبعضٍ بخلاف ذلك في كلّ هذه الوجوه، واعلم أنّ قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ ظاهره يقتضي أن يكون من جنس سائر النّاصرين وهو منزّهٌ عن ذلك، لكنّه ورد الكلام على حسب تعارفهم»[٢].

وقال الألوسي: «وهو خير النّاصرين؛ لأنه القوي الذي لا يغلب، والناصر في الحقيقة فينبغي أن يخص بالطاعة والاستعانة»[٣]، فالله سبحانه هو الغالب الذي لا يغلب جنده وصاحب القدرة المطلقة، فلا نصر إلا منه تعالى، ومهما بلغت قوة العدو وعدته وعتاده، فلا قيمة لكل ذلك أمام قدرة الله تعالى، نصر رسوله صلى الله عليه وسلم في هجرته وهزم الأحزاب وحده.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (لا إله إلاّ الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده)[٤].

٢. خير الرازقين.

وهذا الوصف معناه في حق الله تعالى: «أنّه سبحانه مختصٌّ بأن يرزق ما لا يقدر عليه غيره، وأنه تعالى هو الأصل في الرزق»[٥].

وقد ورد هذا الوصف في خمسة مواضع من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

أي: أعطنا من عطائك؛ فإنك يا رب خير من يعطي، وأجود من تفضّل[٦].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة:

(١) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٢٨٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٨٤.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٣٠٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ٢/ ٨٨٦، رقم ١٢١٨.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٤٣.
(٦) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٢٦.

[١١].

قال ابن الجوزي في تفسيرها: «والله خير الرّازقين؛ لأنه يرزق من يؤمن به ويعبده، ومن يكفر به ويجحده، فهو يعطي من سأل ويبتدئ من لا يسأل، وغيره إنما يرزق من يرجو منفعته، ويقبل على خدمته»[١].

وقال ابن عاشور: «وذيّل الكلام بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾؛ لأنّ اللّه يرزق الرّزق لمن يرضى عنه سليمًا من الأكدار والآثام؛ ولأنّه يرزق خير الدّنيا وخير الآخرة، وليس غير اللّه قادرًا على ذلك، والنّاس في هذا المقام درجاتٌ لا يعلمها إلّا اللّه، وهو العالم بالسّرائر»[٢].

٣. خير الفاصلين.

وهو من الفصل في الخصومات، ومعناه في حق الله تعالى أنه سبحانه خير من يفصل ويحكم بين الخلق كلهم.

قال الراغب: «الفصل: إبانة أحد الشيئين عن الآخر حتى يكون بينهما فرجة، وسمّي يوم القيامة يوم الفصل؛ لأنّه يبيّن الحق من الباطل، ويفصل بين الناس بالحكم، وفصل الخطاب ما فيه قطع الحكم»[٣].

وورد هذا الوصف مرةً واحدةً في القرآن في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

ومعنى الآية: «أنه هو خير من بيّن وميّز بين المحق والمبطل وأعدلهم؛ لأنه لا يقع في حكمه وقضائه حيف إلى أحد لوسيلة له إليه، ولا لقرابة ولا مناسبة، ولا في قضائه جور؛ لأنه لا يأخذ الرشوة في الأحكام فيجور، فهو أعدل الحكام وخير الفاصلين»[٤].

قال صاحب الكشاف: «يقصّ الحقّ: أي: القضاء الحق، وهو خير الفاصلين: أي: القاضين»[٥].

٤. خير الحاكمين.

ومعناه في حق الله تعالى أنه سبحانه أفضل من يحكم بين الناس. وورد هذا الوصف في ثلاثة مواضع من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

قال الطبري: «والله خير من يفصل وأعدل من يقضي؛ لأنه لا يقع في حكمه ميلٌ إلى أحد ولا محاباة لأحد»[٦].

٥. خير الفاتحين.

قال الراغب: «الفتح: إزالة الإغلاق

(١) زاد المسير، ٤/ ٢٨٥.
(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٣٠.
(٣) المفردات، ص٦٣٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٩٨.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٠.
(٦) جامع البيان، ١٢/ ٥٦١.

والإشكال، فتح القضيّة فتاحًا: أي: فصل الأمر فيها، وأزال الإغلاق عنها، والفاتح والفتّاح القاضي بلغة حمير»[(١)].

ومعناه في حق الله تعالى هنا أنه تعالى خير القاضين. وورد هذا الوصف في موضع واحد من القرآن هو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال ابن عاشور: «فسّروا الفتح هنا بالقضاء والحكم»[(٢)].

وبذلك يعلم أنّه تعالى خير الفاتحين، أي: خير الحاكمين؛ لأنّ حكمه هو العدل والقسط، وعلمه هو النافذ غير الخاطئ أبدًا، بخلاف حكم الآخرين، فهم بين حاكم عادل أو جائر، ومصيب أو مخطئ.

٦. خير الغافرين.

قال صاحب اللسان: «الغفور الغفّار جلّ ثناؤه وهما من أبنية المبالغة، ومعناهما: الساتر لذنوب عباده، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم»[(٣)].

قال الفخر: «خير الغافرين، معناه: أنّ كلّ من سواك فإنّما يتجاوز عن الذّنب: إمّا طلبًا للثّناء الجميل، أو للثّواب الجزيل، أو دفعًا للرّبقة الخسيسة عن القلب؛ وبالجملة فذلك الغفران يكون لطلب نفعٍ، أو لدفع ضررٍ، أمّا أنت فتغفر ذنوب عبادك لا لطلب عوضٍ وغرضٍ، بل لمحض الفضل والكرم، فوجب القطع بكونه خير الغافرين»[(٤)].

وورد هذا الوصف في القرآن مرّةً واحدةً في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

ومعنى الآية كما قال الطبري: «﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾، أي: فاستر علينا ذنوبنا بتركك عقابنا عليها، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ تعطف علينا برحمتك، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، أي: أنت خير من صفح عن جرم، وستر على ذنب»[(٥)].

٧. خير الماكرين.

قال الراغب: «المكر: صرف الغير عمّا يقصده بحيلة، وذلك ضربان: مكر محمود، وهو أن يتحرّى بذلك فعل جميل، ومذموم، وهو أن يتحرّى به فعل قبيح»[(٦)].

وقد ورد هذا الوصف في موضعين من القرآن:

الأول: في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

والثاني: في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

(١) المفردات، ص٦٢١.
(٢) التحرير والتنوير ٩/ ١١.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٥.
(٤) مفاتيح الغيب، ١٥/ ٣٧٨.
(٥) جامع البيان، ١٣/ ١٥٢.
(٦) المفردات ص٧٧٢.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد اتّفق المفسّرون على أنّ المراد من مكره سبحانه هو المجازاة على مكرهم.

قال ابن عاشور: «ومعنى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، أي: أقواهم عند إرادة مقابلة مكرهم بخذلانه إيّاهم. ويجوز أن يكون معنى ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾: أنّ الإملاء والاستدراج الّذي يقدّره للفجّار والجبابرة والمنافقين الشّبيه بالمكر في أنّه حسن الظّاهر سيّئ العاقبة، هو خيرٌ محضٌ لا يترتّب عليه إلّا الصّلاح العامّ، وإن كان يؤذي شخصًا أو أشخاصًا، فهو من هذه الجهة مجرّدٌ عمّا في المكر من القبح، ولذلك كانت أفعاله تعالى منزّهةً عن الوصف بالقبح أو الشّناعة؛ لأنّها لا تقارنها الأحوال الّتي بها تقبّح بعض أفعال العباد من دلالةٍ على سفاهة رأيٍ، أو سوء طويّةٍ، أو جبنٍ، أو ضعفٍ، أو طمعٍ، أو نحو ذلك، أي: فإن كان في المكر قبحٌ فمكر اللّه خيرٌ محضٌ، ولك على هذا الوجه أن تجعل ﴿خَيْرُ﴾ بمعنى التّفضيل وبدونه»[1].

٨. خيرٌ حافظًا.

«الحفظ له معنى واحد يدل على مراعاة الشيء، والتحفّظ: قلّة الغفلة، والحفاظ: المحافظة على الأمور. والحفيظ: الموكّل بالشّيء يحفظه، كالحافظ»[2].

ورد هذا الوصف في القرآن مرةً واحدة في قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

والآية تحكي ما قاله يعقوب عليه السلام لأبنائه عندما طلبوا منه أن يأخذوا أخاهم للملك؛ ليأذن لهم في الكيل.

ومعنى الآية كما قال ابن عاشور: «أي: خيرٌ حفظًا منكم؛ فإن حفظه اللّه سلم، وإن لم يحفظه لم يسلم، كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمتكم عليه»[3].

٩ - خير الوارثين.

قال في اللسان: «الوارث صفة من صفات الله عز وجل وهو الباقي الدائم الذي يرث الخلائق ويبقى بعد فنائهم، والله عز وجل يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، أي: يبقى بعد فناء الكل ويفنى من سواه؛ فيرجع ما كان ملك العباد إليه وحده لا شريك له»[4].

وورد هذا الوصف في القرآن أيضًا مرة واحدةً في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

قال البغوي: «﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾:

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٥٧.

(٢) مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٢٤٤.

(٣) التحرير والتنوير ١٣/ ١٦.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ١٩٩.

ثناءٌ على الله بأنّه الباقي بعد فناء الخلق، وأنّه أفضل من بقي حيًّا»[1].

١٠ . خير المنزلين.

قال الفخر: «الإنزال في الأمكنة قد يقع من غير الله، كما يقع من الله تعالى وإن كان هو سبحانه خير من أنزل؛ لأنّه يحفظ من أنزله في سائر أحواله، ويدفع عنه المكاره بحسب ما يقتضيه الحكم والحكمة»[2].

ورد هذا على أنه صفة لله تعالى مرةً واحدةً في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره لنبيه نوح عليه السلام: وقل إذا سلّمك الله، وأخرجك من الفلك، فنزلت عنها: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا﴾ من الأرض ﴿مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾: أنت خير من أنزل عباده المنازل»[3].

وفي هذه الآية توجيه من الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام أن يطلب من الله تعالى أن يتفضّل عليه بإنزاله منزلًا مباركًا، بأن يكون ذات ماء وشجر، أو غير ذلك ممّا يمهّد الحياة.

وورد قوله تعالى: ﴿خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ مرة واحدةً أيضًا في شأن يوسف عليه السلام حينما قال لإخوته -فيما حكى القرآن-: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]، أي: خير المضيفين، «وعدهم بأن يوفي لهم الكيل، ويكرم ضيافتهم، إن أتوا بأخيهم»[4].

١١ . خير الراحمين.

قال صاحب اللسان: «الرحمة: الرّقّة والتّعطّف، والرحمة: المغفرة، والرّحمة في بني آدم عند العرب: رقّة القلب وعطفه، ورحمة الله: عطفه وإحسانه ورزقه»[5].

ورد هذا الوصف في القرآن مرتين:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

والثانية: في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

أي: أنت يا ربّ خير من رحم ذا ذنب، فقبل توبته، ولم يعاقبه على ذنبه[6].

ثالثًا: حقيقة الخير لا يعلمها إلا الله:

إن الخير بيد الله تعالى فهو سبحانه خالقه وملهمه ولا يعلم حقيقته إلا هو، فقد يقع للإنسان شيء من الأقدار المؤلمة والمصائب الموجعة التي تكرهها نفسه،

(١) معالم التنزيل ٥/ ٣٥٢.
(٢) مفاتيح الغيب، ٢٣/ ٢٧٤.
(٣) جامع البيان، ١٩/ ٢٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٣.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٣٠.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٨٥.

فربما جزع أو أصابه الحزن وظنّ أن ذلك المقدور هو الضربة القاضية والفاجعة المهلكة لآماله وحياته، فإذا بذلك المقدور منحة من الله في ثوب محنة، وعطية منه تعالى في رداء بليّة، وكم أتى نفع الإنسان من حيث لا يحتسب، والعكس صحيح، فكم من إنسان سعى إلى شيءٍ ظاهره الخير، واستمات في سبيل الحصول عليه، وبذل الغالي والنفيس من أجل الوصول إليه، فإذا بالأمر يأتي على خلاف ما يريد.

وهذا هو ما يقرره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

والآية وإن كانت واردة في شأن القتال والجهاد إلا أن العبرة بعموم اللفظ.

ومعنى الآية: «عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أنكم تغلبون وتظهرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيدًا، ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا﴾ الدعة وترك القتال ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ في أنكم تغلبون وتذلّون ويذهب أمركم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما يصلحكم وما هو خير لكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك»[١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

والآية واردة في كراهية الرجل لزوجته، والمعنى: «فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله في ذلك الشيء الذي تكرهونه خيرًا كثيرًا، والمراد بالخير الكثير -كما فسره ابن عباس- أن يعطف عليها فيرزق الرجل ولدها، ويجعل الله في ولدها خيرًا كثيرًا»[٢].

وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة تدل على ذلك، منها قصة الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام بأمر من الله تعالى؛ فإنه علّل قتله إياه بقوله: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠-٨١].

قال الطبري: «وأما الغلام، فإنه كان كافرًا، وكان أبواه مؤمنين، فعلمنا أنه يرهقهما. يقول: يغشيهما طغيانًا -وهو الاستكبار على الله- وكفرًا به. وعن قتادة أنه ذكر الغلام الذي قتله الخضر، فقال: قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، وقوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ يقول: خيرًا من الغلام الذي قتله

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٥٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ٨/ ١٢٢- ١٢٣.

صلاحًا ودينًا»[1].

ومنها كذلك قصة أم موسى عندما ألقته في اليمِّ بأمر من الله تعالى، فظاهره شر، ولكنه خير لنجاة موسى عليه السلام وهو طفل، من بطش فرعون.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

والوحي هنا وحي إلهام لا وحي نبوة، قال قتادة: قذفنا في قلبها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾، يعني: من الذبح ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، أي: البحر، ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه من الغرق أو من الضيعة، ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ على فراقه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2].

(١) المصدر السابق ١٨/ ٨٥- ٧٨.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٩٠.

ميادين الخير في القرآن

للخير ميادين كثيرة، دل عليها القرآن الكريم، وأرشد المسلمين إليها وأمرهم بها؛ ليحصل لهم بسببها الفوز والفلاح، والسعادة في الدنيا والآخرة، كدعوته إلى الإيمان والتقوى، والطاعة والعبادة، والأخلاق الفاضلة وحسن المعاملة، إلى غير ذلك من الميادين الكثيرة التي أرشد إليها القرآن الكريم، والحديث حول هذا الموضوع يتضمن ما يأتي:

أولًا: الإيمان:

الإيمان من أعظم ميادين الخير التي أرشد إليها القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

«وقد اتّفق أهل العلم من اللّغويّين وغيرهم على أن الإيمان معناه التصديق»[3].

أما معناه الشرعي فهو كما بينه النبي صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبريل: ما الإيمان؟ فقال: (الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر،

(٣) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ١٩٠.

وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

وقد أمر الله به الناس جميعًا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧٠].

ومعنى الآية: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، يعني: محمدًا صلى الله عليه وسلم، ﴿بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، يقول: بالإسلام الذي ارتضاه الله لعباده دينًا، ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾، يعني: من عند ربكم، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾، يقول: فصدّقوه وصدّقوا بما جاءكم به من عند ربكم من الدين؛ فإن الإيمان بذلك خير لكم من الكفر به، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾، يقول: وإن تجحدوا رسالته وتكذّبوا به وبما جاءكم به من عند ربكم، فإن جحودكم ذلك وتكذيبكم به، لن يضرّ غيركم»[2].

فالإيمان خير في الدنيا؛ لأنه تصديق بالله ورسوله، وخير في الآخرة؛ لأنه أول وأهم سبب من أسباب دخول الجنة.

ولا بد أن يكون الإيمان مقرونًا بالعمل؛ لينفع صاحبه عند الله.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والإيمان بالله وتوحيده هو دعوة الأنبياء جميعًا، ومنهم يوسف عليه السلام حينما قال لصاحبيه في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

ومن أعظم ميادين الخير أيضًا: التقوى، ومعناها إجمالًا: الائتمار بما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر. وهي من مستلزمات الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣].

قال ابن كثير: «ولو أنهم -أي: اليهود- آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيرًا لهم ممّا استخاروا لأنفسهم ورضوا به»[3].

وقال عز وجل: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والمراد بلباس التقوى، قيل: هو الإيمان، وقيل: هو العمل الصالح، وقيل: هو خشية الله، وقيل: السمت الحسن، وقيل: هو الورع، والكل محتمل.

قال في الكشاف: «وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدوّ السّوآت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة السّاعة، ١/ ٣٦، رقم ٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٤١٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣٦٤.

وخصف الورق عليها؛ إظهارًا للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارًا بأنّ التستر باب عظيم من أبواب التقوى»[1].

وقال ابن عباس: «لباس التّقوى: العمل الصّالح، وقيل: هو السّمت الحسن، وقيل: هو العفاف والتّوحيد»[2].

وقد أمر الله تعالى بالتزود منها فقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال الفخر: «وتحقيق الكلام فيه أنّ الإنسان له سفران: سفرٌ في الدّنيا، وسفرٌ من الدّنيا، فالسّفر في الدّنيا لا بدّ له من زادٍ، وهو الطّعام والشّراب والمركب والمال، والسّفر من الدّنيا لا بدّ فيه أيضًا من زادٍ، وهو معرفة الله ومحبّته والإعراض عما سواه، وهذا الزاد خير من زاد الأوّل؛ لوجوهٍ:

الأول: أنّ زاد الدّنيا يخلّصك من عذابٍ موهومٍ، وزاد الآخرة يخلّصك من عذابٍ متيقّنٍ.

وثانيها: أنّ زاد الدّنيا يخلّصك من عذابٍ منقطعٍ، وزاد الآخرة يخلّصك من عذابٍ دائمٍ.

وثالثها: أنّ زاد الدّنيا يوصلك إلى لذّةٍ ممزوجةٍ بالآلام والأسقام والبليّات، وزاد الآخرة يوصلك إلى لذّاتٍ باقيةٍ خالصةٍ عن شوائب المضرّة، آمنةٍ من الانقطاع والزّوال.

ورابعها: أنّ زاد الدّنيا وهي كلّ ساعةٍ في الإدبار والانقضاء، وزاد الآخرة يوصلك إلى الآخرة، وهي كلّ ساعةٍ في الإقبال والقرب والوصول.

وخامسها: أنّ زاد الدّنيا يوصلك إلى منصّة الشّهوة والنّفس، وزاد الآخرة يوصلك إلى عتبة الجلال والقدس. فثبت بمجموع ما ذكرنا أنّ خير الزّاد التّقوى»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

أي: «اعبدوا الله دون غيره، واتقوا سخطه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه»[4].

ومن مفاتيح الخير كذلك الانتهاء عن الكفر والشرك، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

وهذا نهي عن قول ذلك أو اعتقاده؛ لأنه

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٩٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٢.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٣٢١.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٨.

كفر بوحدانية الواحد سبحانه، وقد سمّى الله هؤلاء كفارًا؛ لقولهم واعتقادهم ذلك، وتهددهم بالعذاب الأليم إن لم ينتهوا عنه.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

والانتهاء عن ذلك القول يكون بالتوبة والرجوع إلى الله عز وجل واعتقادهم وحدانيته، وإلاّ فالله ورسوله منهم براء.

قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣].

قال الطبري: «قوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من كفركم -أيها المشركون- ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد، فالرجوع إلى ذلك ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإقامة على الشرك في الدنيا والآخرة»[1].

وقال تعالى أيضًا: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

والآية الكريمة نزلت في المنافقين الذين حلفوا بالله كذبًا على كلمة كفر تكلموا بها أنهم لم يقولوها، ثم تأمرهم بالتوبة منها والرجوع عنها والندم على قولها، فذلك خير لهم من الاستمرار على ما هم عليه من الكفر والنفاق، وإن يتولوا ويدبروا عن التوبة ويصروا على كفرهم؛ فإنّ الله يعذبهم عذابًا أليمًا موجعًا في الدنيا والآخرة[2].

وكلمة الخير في الآية تدل على أن توبتهم إلى الله أفضل مما هم عليه من كلمة الكفر، وهمّهم بما لم ينالوا ونقمتهم، فتكون توبتهم سببًا لنجاتهم من العذاب الذي يصيبهم إذا تولوا ولم يتوبوا ويرجعوا عن قولهم كلمة الكفر. قيل: نزلت في عبد الله بن أبيّ بن سلول.

فالتوبة كلها خير بالنسبة لمن يتوب من كفره وشركه ونفاقه؛ لأنه يعود إلى طريق الحق والإيمان، وخير لمن يتوب من ذنبه؛ لأنه يعود إلى رشده وصوابه، والعمل بطاعة ربه، وإتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (كلّ بني آدم خطّاءٌ، وخير الخطائين التّوّابون)[3].

(١) المصدر السابق ١٤/ ١٣١.

(٢) المصدر السابق ١٤/ ٣٦٤- ٣٦٥ باختصار.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/ ١٤٢٠، رقم ٤٢٥١.

كما حثّ عليها بقوله صلى الله عليه وسلم: (يا أيّها النّاس توبوا إلى الله، فإنّي أتوب إليه في اليوم مائة مرّة)[1].

ثانيًا: العبادة:

من ميادين الخير التي أرشد إليها القرآن: العبادات بأنواعها:

- إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

ومعنى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾، أي: حافظوا عليها؛ لتحفظكم، وتحصلوا الخير بسبب حفاظكم عليها.

وفي بيان ما يحصل للعبد من خيرات بسبب إقامتها، يقول الفخر: «واعلم أنّ حفظ الصّلاة للمصلّي على ثلاثة أوجهٍ:

الأول: أنّ الصّلاة تحفظه عن المعاصي، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فمن حفظ الصّلاة حفظته الصّلاة عن الفحشاء والمنكر.

والثاني: أنّ الصّلاة تحفظه من البلايا والمحن، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ١٢].

ومعناه: إنّي معكم بالنّصرة والحفظ إن كنتم أقمتم الصّلاة وآتيتم الزّكاة.

والثالث: أنّ الصّلاة تحفظ صاحبها وتشفع لمصلّيها؛ ولأنّ الصّلاة فيها القراءة، والقرآن يشفع لقارئه، وهو شافعٌ مشفّعٌ»[2].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

«أي: وما تقدّموا -أيها المؤمنون- لأنفسكم في دار الدنيا من صدقة أو نفقة تنفقونها في سبيل الله، أو غير ذلك من نفقة في وجوه الخير، أو عمل بطاعة الله من صلاة أو صيام أو حجّ، أو غير ذلك من أعمال الخير في طلب ما عند الله، تجدوه عند الله يوم القيامة في معادكم، هو خيرًا لكم مما قدمتم في الدنيا وأعظم منه ثوابًا، أي: ثوابه أعظم من ذلك الذي قدّمتموه لولم تكونوا قدّمتموه»[3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الدعوات، باب في التوبة ٨/ ٧٢، رقم ٢٧٠٢.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٨٣، رقم ٤٥١٥.

(٢) مفاتيح الغيب، ٦/ ٤٨٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٧٠٠.

﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

وهنا يرشد الله عباده إلى أن يمضوا إلى الصلاة عندما يسمعوا النداء ويتركوا البيع وكل ما يشغلهم عنها، وأن ذلك فيه الخير لهم وهو الثواب في الآخرة التي هي خير وأبقى.

❁ الصوم.

قال تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

قال الطبري: «والصواب من القول في ذلك عندنا أنّ الله عمّم بقوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فلم يخص بعض معاني الخير دون بعض، وعني بقوله: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟﴾ ما كتب عليكم من شهر رمضان هو خير لكم من أن تفطروه وتفدوا»[1].

❁ الحج والعمرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

والمعنى: «ومن تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته الواجبة عليه فإن الله شاكرٌ له على تطوعه له بما تطوع به من ذلك ابتغاء وجهه، فمجازيه به عليمٌ بما قصد وأراد بتطوّعه بما تطوع به»[2].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[البقرة: ١٩٧].

قال الطبري: «أي: افعلوا -أيها المؤمنون- ما أمرتكم به في حجكم، من إتمام مناسككم فيه، وأداء فرضكم الواجب عليكم في إحرامكم، وتجنب ما أمرتكم بتجنبه من الرفث والفسوق في حجكم؛ لتستوجبوا به الثواب الجزيل»[3].

والخير المترتب على الحج والعمرة كثير، ومنه تحصيل المنافع من الهدي والأضاحي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾[الحج: ٣٦].

أي: «لكم في البدن خير، والبدن: ما يساق من الإبل للهدي والنحر، وذلك الخير هو الأجر في الآخرة بنحرها والصدقة بها، وفي الدنيا الركوب إذا احتاج إلى ركوبها، وشرب لبنها»[4].

❁ الفدية.

والمراد بها ما يقدم من مال ونحوه؛ لتخليص أسير أو غيره.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم

(١) المصدر السابق ١/ ١٩٦.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٤٧.

(٣) المصدر السابق ٤/ ١٥٥.

(٤) المصدر السابق ١٨/ ١٣٠- ١٣١.

مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٠].

والمعنى كما قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: يا أيها النبي، قل لمن في يديك وفي يدي أصحابك من أسرى المشركين الذين أخذ منهم من الفداء ما أخذ ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، يقول: إن يعلم الله في قلوبكم إسلامًا، ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يقول: ويصفح لكم عن عقوبة جرمكم الذي اجترمتموه بقتالكم نبي الله وأصحابه، وكفركم بالله، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾، لذنوب عباده إذا تابوا، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم أن يعاقبهم عليها بعد التوبة»[1].

- **الصدقة.**

والمراد بها ما ينفق في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥].

والمعنى: «يسألك أصحابك يا محمد: أي شيء ينفقون من أموالهم فيتصدقون به؟ وعلى من ينفقونه فيما ينفقونه ويتصدقون به؟ فقل لهم: ما أنفقتم من أموالكم وتصدقتم به، فأنفقوه وتصدقوا به واجعلوه لآبائكم وأمهاتكم وأقربيكم، ولليتامى منكم، والمساكين، وابن السبيل، فإنكم ما تأتوا من خير وتصنعوه إليهم فإن الله به عليم، وهو محصيه لكم حتى يوفّيكم أجوركم عليه يوم القيامة، ويثيبكم على ما أطعمتموه بإحسانكم عليه. و(الخير) الذي قال جل ثناؤه في قوله: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، هو المال الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من النفقة منه، فأجابهم الله عنه بما أجابهم به في هذه الآية»[2].

وقد حث الله عباده المتصدقين على إخفاء الصدقات، وأن ذلك خير لهم من إعلانها؛ حتى لا يخالطهم العجب والرياء.

قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ

(١) المصدر السابق ١٤/ ٧٢.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٩١- ٢٩٢.

عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧١-٢٧٣].

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع، قال ابن عباس: «جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها، يقال بسبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها، يقال: بخمسة وعشرين ضعفًا»[(١)].

كما حثّ الله تعالى الموسرين أن يتصدقوا على المعسرين الذين استدانوا منهم، ولم يستطيعوا الوفاء؛ لفقر يلازمهم. قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

أي: «إن كان المدين غير قادر على الأداء؛ لعسرة ملازمة له، فانتظار إلى وقت يتيسر فيه؛ فلا يزيد عليه ليرهقه فيعجز عن الوفاء، بل ينتظر حتى يجيء الوقت الذي يستطيع الأداء. والميسرة: هي حال اليسر، وليست مجرد اليسار، بل هي اليسار المستقر الثابت الذي يتمكن فيه المدين من وفاء دينه كله، أي أن الدائن ينتظر المدين حتى يقف من عثرة العسرة ويستقيم أمره، لا أن يترقب أيّ مال حتى يأخذه كما يأخذ الصائد قنيصته، وإذا ثبت العجز وتقرر، وأصبح احتمال اليسار غير قريب فتصدقوا بالدّين على صاحبه وأبرئوه منه؛ فإن ذلك يكون خيرًا لكم في الدنيا والآخرة: أما في الدنيا فلأنكم إذا فقدتم الأمل في الاستيفاء فكل جهد في سبيله ضائع، وكل تعقب في سبيله يورث الإحن من غير جدوى، ويثير الأحقاد المستمرة من غير فائدة، فيكون من الخير العفو والإبراء والإبقاء على الأخوة والعلاقات الاجتماعية، وأما في الآخرة فالنعيم المقيم»[(٢)].

وكان الله تعالى قد أمر المؤمنين أن يقدموا صدقة بين يدي مناجاتهم الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢].

إلا أن هذا الأمر قد نسخ بالآية بعدها. قاله ابن كثير وجمهور المفسرين.

❁ الوصية.

وهي تمليك الغير عينًا أو دينًا أو منفعةً مضافًا إلى ما بعد الموت بطريق التبرع. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

والمعنى: فرض عليكم الوصية ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، والخير: المال، ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الذين لا

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٦٥.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ١٠٦١.

يرثونه، ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: وهو ما أذن الله فيه وأجازه في الوصية مما لم يجاوز الثلث، ولم يتعمّد الموصي ظلم ورثته، ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، يعني بذلك: فرض عليكم هذا وأوجبه، وجعله حقًّا واجبًا على من اتقى الله فأطاعه أن يعمل به. «وجمهور المفسرين على أن هذه الآية منسوخة بالمواريث»[1].

- **تنمية أموال اليتيم.**

حثّ القرآن على المحافظة على أموال اليتامى، وعدم إهدارها أو الاستيلاء عليها بغير وجه حق، ورغّب في تنميتها لهم، قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

والمعنى: «ويسألونك يا محمد عن مال اليتامى، وخلطهم أموالهم به في النفقة، والمطاعمة، والمشاربة، والمساكنة، والخدمة، فقل لهم: تفضّلكم عليهم بإصلاحكم أموالهم من غير أخذ عوض من أموالهم على إصلاحكم ذلك لهم، خيرٌ لكم عند الله، وأعظم لكم أجرًا؛ لما لكم في ذلك من الأجر والثواب، وخيرٌ لهم في أموالهم في عاجل دنياهم؛ لما في ذلك من توفر أموالهم عليهم»[2].

- **التمسك بالكتاب والسنة.**

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

والمعنى كما قال ابن كثير: «ردّوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فدلّ على أنّ من لم يتحاكم في مجال النّزاع إلى الكتاب والسّنّة، ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمنًا باللّه ولا باليوم الآخر. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾، أي: التّحاكم إلى كتاب اللّه وسنّة رسوله، والرّجوع في فصل النّزاع إليهما خيرٌ وأصلح لكم في دنياكم؛ لأن ذلك يدعوكم إلى الألفة، وترك التنازع والفرقة، ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾، أي: وأحسن عاقبةً ومآلًا»[3].

- **القتال في سبيل الله.**

وهو من أفضل الأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

قال الطبري: «يخاطب جل ثناؤه عباده المؤمنين، يقول لهم: لا تكونوا -أيها المؤمنون- في شك من أن الأمور كلها بيد الله، وأن إليه الإحياء والإماتة، كما شك المنافقون في ذلك، ولكن جاهدوا في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله، على يقين

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٣٨٤.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٥٤- ٣٥٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٤٥- ٣٤٦.

منكم بأنه لا يقتل في حرب ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله، وحانت وفاته، ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة، وأخبرهم أن موتًا في سبيل الله وقتلًا في الله، خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها، ورغيد عيشها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل الله، ويتأخرون عن لقاء العدو»[1].

وقد يكون القتال في سبيل الله فرض عين على كل حال، في اليسر والعسر، والغنى والفقر، والخفة والثقل، قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وأصل النفر: الخروج إلى مكان لأمر واجب، والمراد هنا: الحث على الجهاد، والدعوة إليه عند غلبة العدو على بلد من بلاد المسلمين، أو مقاربته ديار الإسلام.

قال ابن كثير: «أمر اللّه تعالى بالنّفير العامّ مع الرّسول صلوات اللّه وسلامه عليه عام غزوة تبوك، لقتال أعداء اللّه من الرّوم الكفرة من أهل الكتاب، وحتّم على المؤمنين في الخروج معه على كلّ حالٍ، في المنشط والمكره، والعسر واليسر»[2].

﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، أي: نشاطًا وغير نشاط، وقيل: أقوياء وضعفاء، كهولًا وشبانًا، في العسر واليسر، أو أغنياء وفقراء.

كما أن الجهاد تجارة تنجي صاحبها من العذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١].

قال الفخر: «وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يعني: الّذي أمرتم به من الإيمان باللّه تعالى، والجهاد في سبيله، خيرٌ لكم من أن تتّبعوا أهواءكم»[3].

وفي الآية إشارة إلى أن الجهاد يقتضي بذل الأموال والأنفس، قال ابن عاشور: «وإذ قد كان الخطاب لقوم مؤمنين فإنّ فعل ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ مع ﴿وَتُجَاهِدُونَ﴾ مرادٌ به: تجمعون بين الإيمان باللّه ورسوله، وبين الجهاد في سبيل اللّه بأموالكم وأنفسكم؛ تنويهًا بشأن الجهاد، وأمّا ﴿وَتُجَاهِدُونَ﴾: فإنّه لإرادة تجدّد الجهاد إذا استنفروا إليه»[4].

❁ الابتلاء بالخير.

الابتلاء كما يكون بما تكرهه النفس، وهو الشر، كذلك يكون بما تحبه النفس، وهو الخير.

قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٣٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٥٦.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٣٥١.
(٤) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٩٤.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وأصل البلاء في كلام العرب الاختبار والامتحان.

قال الطبري في معنى الآية: «أي: ونختبركم -أيها الناس- بالشر: وهو الشدة نبتليكم بها، وبالخير: وهو الرخاء والسعة العافية فنفتنكم به»(١).

وقال الزمخشري: «أي: نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر»(٢).

ومن صور الابتلاء بالخير المذكورة في القرآن ما ورد في شأن الذين آتاهم الله مالًا فبخلوا به، ولم يؤدوا منه حقه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

قال الفخر في المسألة الثانية من تفسير هذه الآية: «اعلم أنّ الآية دالّةٌ على ذمّ البخل بشيءٍ من الخيرات والمنافع، وذلك الخير يحتمل أن يكون مالًا، وأن يكون علمًا»(٣).

وعليه، فالآية تدل على أن الله آتاهم من فضله مالًا أو علمًا، ابتلاءً، أي: امتحانًا واختبارًا لهم هل يؤدون حقه -وهو الزكاة- أو لا؟

ومن الناس من إذا أنعم الله عليه بالخير ابتلاءً له أمسكه وضنّ به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢١].

أي: «إذا كثر ماله، ونال الغنى فهو منوع لما في يده، بخيل به، لا ينفقه في طاعة الله، ولا يؤدّي حق الله منه»(٤).

❁ تعظيم حرمات الله.

ومن الخير: تعظيم حرمات الله، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

أي: «ومن يجتنب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه، فهو خيرٌ له عند ربّه، أي: فله على ذلك خيرٌ كثيرٌ وثوابٌ جزيلٌ، فكما على فعل الطّاعات ثوابٌ جزيلٌ وأجرٌ كبيرٌ، فكذلك على ترك المحرّمات واجتناب المحظورات»(٥).

ونقل الطبري عن مجاهد قوله: «الحرمات: مكة والحجّ والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها».

ونقل عن ابن زيد قوله: «الحرمات: المشعر الحرام، والبيت الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام»(٦).

وقال الفخر: «والحرمة: ما لا يحلّ هتكه، وجميع ما كلّفه اللّه تعالى بهذه الصّفة

(١) جامع البيان، ١٨/ ٤٣٩.
(٢) الكشاف ٣/ ١١٦.
(٣) مفاتيح الغيب، ٩/ ٤٤٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦١١.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤١٩.
(٦) جامع البيان، ١٨/ ٦١٧.

من مناسك الحجّ وغيرها، يحتمل أن يكون عامًّا في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصًّا فيما يتعلّق بالحجّ. وقوله: ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾: يدلّ على الثّواب المدّخر؛ لأنّه لا يقال عند ربّه فيما قد حصل من الخيرات»[1].

وقال ابن عاشور: «والحرمات: جمع (حرمة) بضمّتين، وهي ما يجب احترامه. والاحترام: اعتبار الشّيء ذا حرم، كنايةٌ عن عدم الدّخول فيه. أي: عدم انتهاكه بمخالفة أمر اللّه في شأنه. والحرمات يشمل كلّ ما أوصى اللّه بتعظيم أمره، فتشمل مناسك الحجّ كلّها»[2].

ثالثًا: الأخلاق:

الأخلاق ميدان عظيم من ميادين الخير، وبسببها فضل الله هذه الأمة على غيرها من الأمم؛ لتواصيها فيما بينها بالحق والصبر، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فلا بقاء لأمة من الأمم إلا ببقاء الأخلاق فيها، ومن الأخلاق التي دعا إليها الإسلام ونصّ على خيريتها:

- الصبر.

وهو حبس النفس على ما تكرهه؛ رضاءً بقضاء الله تعالى، وهو ضد الجزع والضجر المذموم فاعله، وقد ذم الله بني إسرائيل؛ لجزعهم وتضجرهم مما رزقهم الله من طعام المنّ والسلوى الذي طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو الله لهم أن يبدلهم به القثّاء والفوم والعدس والبصل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[البقرة: ٦١].

قال ابن كثير في تفسيرها: «واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المنّ والسّلوى، طعامًا طيّبًا نافعًا هنيئًا سهلًا، واذكروا دبركم وضجركم ممّا رزقتكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدّنيّة من البقول ونحوها ممّا سألتم، فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الّذي كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداسٍ وبصلٍ وبقلٍ وفوم»[3].

ولاشك أن عاقبة الصبر كلها خير، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

(١) مفاتيح الغيب، ٢٣/ ٢٢٢.
(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٥٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٢٨٠.

﴿رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

والآية واردة في شأن نكاح الإماء بملك اليمين لمن لم يستطع نكاح الحرائر من النساء؛ خوفًا على نفسه من الوقوع في الفاحشة.

قال ابن كثير، وغيره: «وإن ترك تزوّج الأمة وجاهد نفسه في الكفّ عن الزّنا فهو خيرٌ له؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقّاء لسيّدها، ولما فيهنّ من الدّناءة في العدول عن الحرائر إليهن؛ ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾»[1].

وفي جانب العفو عن معاقبة المعتدي، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين: وإن عاقبتم -أيها المؤمنون- من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة، ولئن صبرتم عن عقوبته واحتسبتم عند الله ما نالكم به من الظلم، ووكلتم أمره إلى الله حتى يكون هو المتولي عقوبته ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾، يقول: للصّبر عن عقوبته بذلك خير لأهل الصبر؛ احتسابًا وابتغاء ثواب الله؛ لأن الله يعوّضه عن الذي أراد أن يناله بانتقامه من ظالمه على ظلمه إياه من لذّة الانتصار»[2].

والعفو من الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، وبيّن القرآن أن أجر العافين عند الله عظيم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[الشورى: ٤٠].

قال الطبري: «فمن عفا عمن أساء إليه إساءته إليه، فغفرها له ولم يعاقبه بها، وهو على عقوبته عليها قادرٌ؛ ابتغاء وجه الله، فأجر عفوه ذلك على الله، والله مثيبه عليه ثوابه»[3].

وقد ذم الله الأعراب الذين جاءوا إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم ينادونه بصوت عال من وراء الحجرات ولم يصبروا حتى يخرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤-٥].

قال الطبري: «أي: أكثرهم جهال بدين الله واللازم لهم من حقك وتعظيمك، ولو أن هؤلاء الذين ينادونك يا محمد من وراء الحجرات صبروا فلم ينادوك حتى تخرج إليهم إذا خرجت، لكان خيرًا لهم عند الله؛ لأن الله قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك، فهم بتركهم نداءك تاركون ما قد نهاهم الله

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٦٦- ٢٦٧.

(٢) جامع البيان، ١٧/ ٣٢٢.

(٣) المصدر السابق ٢١/ ٥٤٨.

عنه»(1).

وقال الفخر: «في الآية إشارة إلى حسن الأدب الّذي على خلاف ما أتوا به من سوء الأدب، فإنّهم لو صبروا لما احتاجوا إلى النّداء، وإذا كنت تخرج إليهم فلا يصحّ إتيانهم في وقت اختلائك بنفسك، أو بأهلك، أو بربّك؛ فإنّ للنّفس حقًّا، وللأهل حقًّا»(2).

❁ السمع والطاعة.

وهما يدلان على الانقياد التام لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [النساء: ٤٦].

والآية واردة في شأن اليهود الذين عاندوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرفوا ما نزل إليهم على أنبيائهم.

قال الطبري: «ولو أن هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم، قالوا لنبي الله: «سمعنا يا محمد قولك، وأطعنا أمرك، وقبلنا ما جئتنا به من عند الله، واسمع منا، وانظرنا ما نقول، وانتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا»، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾، يقول: لكان ذلك خيرًا لهم عند الله، ﴿وَأَقْوَمَ﴾، يقول: وأعدل وأصوب في القول»(3).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وهي في شأن المشركين.

قال الطبري: «ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره؛ حتى يعقلوا عن الله عز وجل حججه منه، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون، ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا لتولوا عن الله وعن رسوله، وهم معرضون عن الإيمان بما دلّهم على صحته مواعظ الله وعبره وحججه، معاندون للحق بعد العلم به»(4).

ولأهمية السمع والطاعة أمر الله تعالى بهما أمرًا مباشرًا، فقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾[التغابن: ١٦].

قال الطبري: «أي: واسمعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾، يقول: وأنفقوا مالًا من أموالكم لأنفسكم؛ تستنقذوها من عذاب الله، والخير في هذا الموضع المال»(5).

❁ الصلح والإصلاح.

والصلح يكون بين متخاصمين والإصلاح يكون بفعل ما يصلح المجتمع.

(1) المصدر السابق ٢٢/ ٢٨٥.
(2) مفاتيح الغيب، ٢٨/ ٩٧.
(3) جامع البيان، ٨/ ٤٣٦.
(4) المصدر السابق ١٣/ ٤٦٣.
(5) المصدر السابق ٢٣/ ٤٢٧.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

قال الطبري: «أي: لا خير في كثير من نجوى الناس جميعًا ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، والمعروف: هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، وهو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله الإصلاح بينهما؛ ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة»[1].

وفي شأن تخاصم الأزواج قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[النساء: ١٢٨].

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾لفظ عام مطلق، بمقتضى أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أن صلح الزوجين على ما ذكرنا خير من الفرقة»[2].

كما نهى القرآن عن الفساد في الأرض بعد أن أصلحها الله تعالى، وذلك فيما حكاه القرآن على لسان شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

قال الطبري في تفسيرها: «أي: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه، من عبادة غير الله والإشراك به، وبخس الناس في الكيل والوزن، ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، أي: بعد أن قد أصلح الله الأرض بابتعاث النبي عليه السلام فيكم، ينهاكم عما لا يحل لكم وما يكرهه الله لكم، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: هذا الذي ذكرت لكم وأمرتكم به من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن، وترك الفساد في الأرض، خيرٌ لكم في عاجل دنياكم وآجل آخرتكم عند الله يوم القيامة»[3].

قول معروف ومغفرة.

قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:

(١) جامع البيان، ٩/ ٢٠٢.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ١٢٠.
(٣) جامع البيان، ١٢/ ٥٥٦.

٢٦٣].

والقول المعروف: هو الكلمة الطيبة، والمغفرة: هي العفو عمن أساء إليه، قال الطبري: «قولٌ جميلٌ ودعاء الرجل لأخيه المسلم، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾، يعني: وسترٌ منه عليه لما علم من خلّته وسوء حالته، خيرٌ عند الله من صدقة يتصدقها عليه يتبعها أذى، يعني يشتكيه عليها، ويؤذيه بسببها»[1].

وقال ابن عطية: «هذا إخبار جزم من الله تعالى أنّ القول المعروف، وهو الدعاء والتأنيس والترجية بما عند الله، خيرٌ من صدقة هي في ظاهرها صدقة، وفي باطنها لا شيء؛ لأن ذلك القول المعروف فيه أجر، وهذه لا أجر فيها»[2].

* قبول النصيحة.

والنصيحة: دعوة إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد[3].

والنصيحة لا تكون إلا بخير، وقبولها سبب من أسباب الفلاح؛ لأنها من أساسيات الدين كما قال صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة)[4].

وهي أيضًا من أهم السبل التي اتبعها الأنبياء في دعوة أقوامهم إلى الحق، فنوح عليه السلام قال لقومه فيما حكى القرآن: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

وقال صالح عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وكان قبول بني إسرائيل لنصيحة موسى عليه السلام سببًا لقبول توبة الله منهم؛ حيث نصحهم بأن يتوبوا إلى الله من عبادتهم العجل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

ولا يخفى ما لقبول النصيحة من الخير الكثير في حياة الفرد والمجتمع على السواء.

* فعل الموعظة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧- ٥٨].

والمراد بالموعظة هنا: القرآن الكريم،

(١) المصدر السابق ٥/ ٥٢٠.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٣٥٧.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٢٤١.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ١/ ٧٤، رقم ٥٥.

كما قاله كثير من المفسرين[(١)].

«والباء في قوله: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ و﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ يجوز أن تكون متعلقة بما دل عليه المعنى، أي: قد جاءتكم الموعظة مصاحبة أو ملتبسة بفضل الله وبرحمته، وأن ذلك خير مما يجمعون من حطام الدنيا.

ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ صفة لقوله: ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ وما عطف عليها من شفاء الصدور والهدى والرحمة»[(٢)].

فإن ما يحصل للعبد من فضل الله ورحمته بهذا القرآن العظيم من الهدى، والرحمة، والموعظة، وشفاء ما في الصدور، لهو الجدير بأن يفرح به العبد؛ لأنه سعادة دنياه وآخرته، وليس من الجدير بالعبد أن يفرح بحطام الدنيا ليحصّله على حساب عمل الآخرة؛ لأن المال لا يخلّد أصحابه، وأصحابه لا يخلدون له، أما ما يحصل من فضل الله ورحمته بهذا القرآن الكريم فهو خالد لأصحابه باقٍ لهم، وهو خير ممّا يجمعون من الدنيا كلّها؛ لأن غايته الوصول إلى الجنة.

السماع المحمود.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾[التوبة: ٦١].

والآية الكريمة هنا تسجل على المنافقين أذاهم للرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم هذا في حقه. ومعنى قولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: «أنه يأخذ العلم من مسمعه من غير أن يفحصه، بل يقبله مصدقا له، فما عليهم إلا أن يحلفوا أنهم ما قالوه حتى يصدق أيمانهم من غير أن يفحص كذب ما قالوا، ونسوا أن اللّه يعلمه بما تبلبل به ألسنتهم، ويجيش في صدورهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، فقد سلّم بأنه أذن، يستمع إلى الأقوال التي تصل إليه، ولكن لا يقبلها بإطلاقها كما يتقوّلون، ولكن يفحصها ويعالج نفوسكم على مقتضاها، ويتدبر الأمر لهدايتكم، ولا يبادركم بشر يناسبكم، ولا يفضحكم؛ لأن الله تعالى أمره بذلك؛ ولأنه يقصد إلى خيركم»[(٣)].

العفّة.

قال تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور: ٦٠].

والآية الكريمة تتحدث عن القواعد من النساء اللاتي قعدن عن طلب الزواج؛ لعدم رغبتهن فيه لكبر سنهن، أنه لا حرج عليهن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٠٥، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٥٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٧٤.

(٢) الدر المصون، السمين الحلبي ٦/ ٢٢٤.

(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٦/ ٣٣٥١.

أن يتخففن من ملابسهن، كالقناع الذي يكون فوق الخمار، أو الرداء الذي يكون فوق الثياب، إذا كن غير متبرجات بزينة، وكن بحضرة محارمهن من الرجال، وأن الاستعفاف عن فعل ذلك خير لهن، قال في الكشاف: «ولكن التخفّف إذا احتجن إليه، والاستعفاف من الوضع خير لهنّ، لما ذكر الجائز عقبه بالمستحب؛ بعثًا منه على اختيار أفضل الأعمال وأحسنها»[(١)].

* **الصدق.**

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

«وهذه الآية بيان لما يحصل للصادقين من الخير؛ جزاءًا لصدقهم وانتفاعهم به، وهو دخولهم الجنة ورضوان الله عليهم، والمراد باليوم: يوم القيامة، وإنما خصّ نفع الصدق به؛ لأنه يوم الجزاء. وفي الصدق هنا قولان: أحدهما: أنه صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة. والثاني: صدقهم في الآخرة ينفعهم هنالك»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

والآية الكريمة تتحدث عن المنافقين وكرههم للقتال، وجبنهم من لقاء الأعداء، ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: «جدّ الحال وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: أخلصوا له النية في الجهاد والقتال، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، أي: لكان خيرًا لهم في عاجل دنياهم، وآجل معادهم، وهو الاستشهاد أو الظفر بالغنيمة»[(٣)].

* **إعطاء القريب حقه من الصلة والصدقة.**

قال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

قال البغوي في معالم التنزيل: «قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾، من البرّ والصّلة، ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾، وحقّه أن يتصدّق عليه، ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، يعني: المسافر، وقيل: هو الضّعيف، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، يطلبون ثواب اللّه بما يعملون، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾»[(٤)].

* **عدم السخرية.**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

والمعنى كما قال الطبري: «لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟

---

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٥٥.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٦٠٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٧٧.
(٤) معالم التنزيل، ٣/ ٥٧٩.

﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، يقول: عسى أن يكون المهزوء منهم خيرًا من الهازئين، ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ يقول: ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات، عسى المهزوء منهنّ أن يكنّ خيرًا من الهازئات»[1]. وهذا نهي صريح عن السخرية بالناس والاستهزاء بهم.

❁ الإنفاق.

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

أي: «وابذلوا ممّا رزقكم اللّه على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق اللّه كما أحسن إليكم، يكن خيرًا لكم في الدّنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شرًّا لكم في الدّنيا والآخرة»[2].

رابعًا: المعاملات:

❁ العدل في الكيل والوزن.

لا شك أن تحقيق العدل في الكيل والوزن فيه المصلحة للناس جميعًا، وهي قضية أمانة وعدالة جاءت الشريعة بإقرارها، ودعت الناس إليها.

قال تعالى في قصة شعيب مع قومه: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

«وهنا يأمر شعيب عليه السلام قومه بالعدل في الكيل والوزن، ويذكرهم بأن توفيتهم الكيل والوزن، وتركهم البخس والفساد هو خير لهم في طلب المال؛ لأنّ النّاس إذا علموا منهم الوفاء والصّدق والأمانة رغبوا في المعاملات معهم فكثرت أموالهم»[3].

وقال تعالى آمرًا عباده بتوفية الكيل: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

أي: «ذلك الوفاء خير لكم في معاشكم ومعادكم، وخير عند الله وأقرب إليه، وأحسن عاقبةً وجزاءً»[4].

❁ الاستئذان في الدخول على البيوت.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

قال العلامة أبو زهرة في زهرة التفاسير: «الاستئناس أدق في التعريف وأدل على الاستعلام؛ لأن الاستئذان الإذن المجرد، وتتحقق الإجابة بالإذن، أما الاستئناس

(١) جامع البيان، ٢٢/ ٢٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٤١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٤.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٤.

فطلب الأنس وإزالة الوحشة وذلك لا يتحقق بمجرد الإذن بل لابد لتحققه من إيجاد الألفة، وهو يتضمن في تحقيق طلب الإذن والاستجابة بالإذن فعلًا»[(١)].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: «استئناسكم وتسليمكم على أهل البيت الذي تريدون دخوله خير لكم؛ لأنكم لا تدرون أنكم إذا دخلتموه بغير إذن على ماذا تهجمون؟ على ما يسوءكم أو يسرّكم؟ وأنتم إذا دخلتم بإذن لم تدخلوا على ما تكرهون، وأدّيتم بذلك أيضًا حقّ الله عليكم في الاستئذان والسلام، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لتتذكروا بفعلكم ذلك أوامر الله عليكم واللازم لكم من طاعته، فتطيعوه»[(٢)].

(١) زهرة التفسير، ١٠/ ٥١٧٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٩.

الخيرية بين المتضادات

قابل القرآن الكريم بين المتضادات في كثير من آياته، ونصّ على أن بعضًا منها خير من الآخر؛ لتثبيت الناس على الخير منها، وإبعادهم عن الشر منها، والحديث عن ذلك يشتمل على الآتي:

أولًا: المقابلة بين الإله الحق والآلهة الباطلة:

أقام القرآن الكريم الحجج القاطعة الدالة على وحدانية الله تعالى وأحقيته سبحانه بالألوهية والطاعة والعبادة، ومن بين هذه الحجج مقابلته بين الإله الحق سبحانه وتعالى وبين الآلهة الباطلة.

قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام وهو يدعو إلى الله في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

قال الطبري: «ذكر أن يوسف -صلوات الله عليه- قال هذا القول للفتيين اللذين دخلا معه السجن؛ لأن أحدهما كان مشركًا، فدعاه بهذا القول إلى الإسلام وترك عبادة الآلهة والأوثان، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، يقول: أعبادة أربابٍ شتى متفرقين وآلهة لا تنفع ولا تضر، خيرٌ، أم عبادة المعبود الواحد الذي لا ثاني له في

قدرته وسلطانه الذي قهر كل شي فذلّله وسخّره؛ فأطاعه طوعًا وكرهًا»[1].

وقال الشيخ أبو زهرة: «هذا استفهام إنكاري توبيخي توجيهي، فليس بمعقول أن تكون أرباب متفرقة ليس لها فضل المنشئ المنعم ليس لواحد منها ذلك، ولا لها مجتمعة قدرة، لا تنفع ولا تضر، وتكون عبادتها مع ضعفها وعدم قدرتها، خيرًا من عبادة الواحد الأحد الخالق للكون وحده والقهار الغالب عليه، والذي لا يكون في الكون شيء إلا بأمره»[2].

وقال تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

قال ابن كثير: «استفهام إنكارٍ على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى، ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره»[3].

فذكر تعالى خلق السموات والأرض وما فيهما من بدائع صنعه وعظيم قدرته، وإنزاله المطر وما ينبت به من النباتات والحدائق التي لم تستطع آلهتهم أن تنبت أشجارها ولا تخرج ثمارها، وخلق الجبال والبحار والأنهار، وجعل الحاجز بين المالح منها والعذب، وكونه تعالى يجيب دعاء المضطر ويكشف السوء، ويهدي الخلق، ويبدأ الخلق ثم يعيده.

كما أنه تعالى قد اتصف بجميع صفات الكمال المطلق الذي يليق بذاته المقدسة، فاتصف بالقدرة المطلقة، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، واتصف بالإرادة ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

واتصف بالعلم المطلق ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

وقال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦].

وإليه تعالى وحده المرجع والمآب قال تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤].

وغير ذلك من صفات الكمال والجلال الثابتة لله تعالى، بخلاف هذه الآلهة الأخرى التي يعبدها الجاهلون من دون الله، فإنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، بل هي من مخلوقات الخالق سبحانه، فصفاتها دائمًا النقص المطلق، والضعف التام.

ثانيًا: المقابلة بين الدنيا والآخرة:

قابل القرآن بين الدنيا الفانية والآخرة

(١) جامع البيان، ١٦/ ١٠٤.
(٢) زهرة التفاسير ٧/ ٣٨٢٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٠١.

الباقية؛ للترغيب في العمل للآخرة، وعدم الانهماك في الدنيا بما ينسي الآخرة؛ لأن متاعها قليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

قال الطبري: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، قل يا محمد لهؤلاء القوم الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ عيشكم في الدنيا وتمتعكم بها قليل؛ لأنها فانية وما فيها فانٍ، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، يعني: ونعيم الآخرة خير؛ لأنها باقية ونعيمها باق دائم، ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾، يعني: لمن اتقى الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، فأطاعه في كل ذلك، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، يعني: ولا ينقصكم الله من أجور أعمالكم فتيلًا»[(١)].

وقد صرح القرآن بأن كثيرًا من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧].

قال ابن عطية: «أخبر تعالى الناس أنهم يؤثرون الحياة الدّنيا، فالكافر يؤثرها إيثار كفر يرى أن لا آخرة، والمؤمن يؤثرها إيثار معصية وغلبة نفس إلا من عصم الله، وسبب الإيثار حب العاجل، والجهل ببقاء الآخرة»[(٢)].

وقال تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤].

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره: وللدار الآخرة وما أعد الله لك فيها خير لك من الدار الدنيا وما فيها، فلا تحزن على ما فاتك منها؛ فإن الذي لك عند الله خير لك منها»[(٣)].

أي: خير لك من الدنيا وما فيها؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يستكثر منها، وكان يقول: (مالي وللدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)[(٤)].

ثالثًا: المقابلة بين نعيم الآخرة وعذابها:

قابل القرآن بين نعيم الآخرة وعذابها، وما على العاقل إلا أن يختار النعيم المقيم.

قال تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢].

ومعنى الآية كما قال الطبري: «يقول

(١) جامع البيان ٨/ ٥٥١.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٧.

(٣) جامع البيان ٢٤/ ٤٨٧.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، ٤/ ٥٨٨، رقم ٢٣٧٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب في مثل الدنيا، ٢/ ١٣٧٦، رقم ٤١٠٩.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٨٩، رقم ٥٦٦٨.

-تعالى ذكره-: أهذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين الذين وصفت صفتهم من كرامتي في الجنة ورزقتهم فيها من النعيم خير، أو ما أعددت لأهل النار من الزّقوم؟!

والزّقّوم: ثمرة شجرةٍ خبيثةٍ مرّةٍ كريهة الطّعم، يكره أهل النّار على تناولها، فهم يتزقّمونه على أشدّ كراهيةٍ، ومنه قولهم: تزقّم الطّعام، إذا تناوله على كرهٍ ومشقّةٍ»[1].

وقال ابن عاشور: «والاستفهام مكنى به عن التنبيه على فضل حال المؤمن وفوزه وخسار الكافر، وهو خطاب لكل سامع، والإشارة بـ ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم من حال المؤمنين في النعيم والخلود، وجيء باسم الإشارة مفردًا بتأويل المذكور، بعلامة بعد المشار إليه لتعظيمه بالبعد، أي: بعد المرتبة وسموّها؛ لأن الشيء النفيس الشريف يتخيل عاليًا، والعالي يلازمه البعد عن المكان المعتاد، وهو السفل»[2].

كما قابل القرآن أيضًا بين الآمنين من العذاب وبين المعذبين يوم القيامة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

«والاستفهام في الآية الكريمة بمعنى التقرير، والغرض التنبيه على أن الذين يلحدون في آيات الله يلقون في النار، والذين يؤمنون بآيات الله يـأتون آمنين يوم القيامة، والمعنى: هل يستوي من يلقى في النار قسرًا وقهرًا؛ لإلحاده بالآيات وتكذيبه للرسول، ومن يكون آمنًا يوم القيامة من العذاب؟ والمراد: أن الملحدين في الآيات يلقون في النار، وأن المؤمنين بها يأتون يوم القيامة آمنين، فاحكموا -أيها العقلاء- أيّ الحالين أفضل؟ ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أي: اعملوا أي شيء تريدون فعله من خير أو شر؛ فإنّ الله عالم بكم، وبصير بأعمالكم، ومجازيكم بحسب ما تعملون، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وهذا وعيد وتهديد صرف فيه الأمر إلى التهديد»[3].

وقال ابن عاشور: «الآية لبيان أن الوعيد بنار جهنم تعريض بالمشركين بأنهم صائرون إلى النار، وبالمؤمنين بأنهم آمنون من ذلك، والاستفهام تفريع مستعمل في التنبيه على تفاوت المرتبتين»[4].

رابعًا: المقابلة بين الأقوام الهالكين:

قابل القرآن بين الأقوام الهالكين؛ للاتعاظ بأحوالهم، ولبيان عاقبة المتقدمين منهم والمتأخرين، وبيان عاقبة أقويائهم وضعفائهم، ومن ذلك المقابلة بين مشركي

---

(١) جامع البيان، ٢١/ ٥٢.
(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ٣٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٦٨.
(٤) التحرير والتنوير ٢٥/ ٦٨.

مكة وما قبلهم من الأمم، كقوم تبّع، يقول الله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

وتبّع هو تبّع الحميري، كان مؤمنًا وقومه كافرين، ولذلك ذمّ الله قومه ولم يذمّه، قال في الكشاف: «فإن قلت: ما معنى قوله تعالى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ ولا خير في الفريقين؟ قلت: معناه: أهم خير في القوّة والمنعة، وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما: أهم أشدّ أم قوم تبع»(١).

ومعنى الآية: «أكفار قريش الذين هم عرب من عدنان خير في القوة والمنعة، أم قوم تبّع الحميري الذين هم عرب من قحطان، الذين كانوا أقوى جندًا وأكثر عددًا، وكان لهم دولة وحضارة عريقة ومجد، وكذلك الأمم الذين سبقوهم، كعاد وثمود ونحوهم؛ أهلكناهم جميعًا لكفرهم وإجرامهم، فإهلاك من هو دونهم لجرمه وضعفه وعجزه بالأولى، فهم ليسوا بخير من قوم تبع في العدد والعز والمنعة»(٢).

وقد ذكر ابن كثير أن الله تعالى أهلك قوم تبع وخرب بلادهم وشردهم وفرقهم في البلاد(٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣] فيه مقابلة بين مشركي مكة ومن قبلهم.

والمعنى: «أكفاركم -معشر قريش- خير من أولئكم الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وآل فرعون، فهم يأملون أن ينجوا من عذابي ونقمي على كفرهم بي، وتكذيبهم رسولي، يقول: إنما أنتم في كفركم بالله وتكذيبكم رسوله، كبعض هذه الأمم التي وصفت لكم أمرهم، وعقوبة الله بكم نازلة على كفركم به كالذي نزل بهم، إن لم تتوبوا وتنيبوا»(٤).

قال في الكشاف: «يعني: أكفّاركم -يا أهل مكة- خيرٌ من أولئكم الكفار المعدودين: قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وآل فرعون، أي: أهم خير قوّة وآلة ومكانة في الدنيا؟ أو أقل كفرًا وعنادًا؟ يعني: أنّ كفاركم مثل أولئك بل شر منهم، أم أنزلت عليكم -يا أهل مكة- براءةٌ في الكتب المتقدّمة أنّ من كفر منكم وكذب الرسل كان آمنًا من عذاب الله فأمنتم بتلك البراءة؟!»(٥).

خامسًا: المقابلة بين ما عند الله وحطام الدنيا:

ركزت بعض آيات القرآن الكريم على صرف همم الناس عن الدنيا إلى ما عند الله

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٧٩- ٢٨٠.
(٢) التفسير المنير ٢٥/ ٢٢٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٥٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦٠٠، ٦٠١.
(٥) الكشاف ٤/ ٤٤٠.

من الأجر والثواب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٥-٩٦].

أي: «ولا تنقضوا عهودكم -أيها الناس- وعقودكم التي عاقدتموها من عاقدتم مؤكّديها بأيمانكم، تطلبون بنقضكم ذلك عرضًا من الدنيا قليلًا، ولكن أوفوا بعهد الله الذي أمركم بالوفاء به؛ يثبكم الله على الوفاء به؛ فإن ما عند الله من الثواب لكم على الوفاء بذلك، هو خير لكم إن كنتم تعلمون فضل ما بين العوضين اللذين أحدهما الثمن القليل الذي تشترونه بنقض عهد الله في الدنيا، والآخر الثواب الجزيل في الآخرة على الوفاء به.

ثم بَيَّنَ -تعالى ذكره- فرق ما بين العوضين وفضل ما بين الثوابين، فقال: ما عندكم -أيها الناس- مما تتملكونه في الدنيا، وإن كثر فنافدٌ فانٍ، وما عند الله لمن أوفى بعهده وأطاعه من الخيرات باق غير فانٍ، فلما عنده فاعملوا، وعلى الباقي الذي لا يفنى فاحرصوا، وليثيبنّ الله الذين صبروا على طاعتهم إياه في السّراء والضرّاء ثوابهم يوم القيامة على صبرهم عليها، ومسارعتهم في رضاه بأحسن ما كانوا يعملون من الأعمال دون أسوئها، وليغفرنّ الله لهم سيّئها بفضله»[(١)].

قال ابن عطية: «أخبر تعالى أن ما عنده من نعيم الجنة ومواهب الآخرة خير لمن اتقى وعلم واهتدى، ثم بيّن الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتنقضي عن الإنسان، أو ينقضي عنها، ومنن الآخرة باقية دائمة»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

ومعنى الآية كما قال الطبري: «قل لهم يا محمد: الذي عند الله من الثواب لمن جلس مستمعًا خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وموعظته يوم الجمعة إلى أن يفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، خير له من اللهو ومن التجارة التي ينفضّون إليها، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يقول: والله خير رازق، فإليه فارغبوا في طلب أرزاقكم، وإياه فاسألوا أن يوسع عليكم من فضله دون غيره»[(٣)].

والآية نزلت في شأن من خرجوا من المسجد لطلب التجارة، وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم قائمًا يخطب الجمعة.

قال ابن كثير: «يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التّجارة الّتي قدمت المدينة

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٨٩.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٩.
(٣) جامع البيان، ٢٣/ ٣٨٩.

يومئذ»[1].

ولا ريب في أن ذلك يشمل كل عمل يلهي عن طلب ما عند الله تعالى.

سادسًا: المقابلة الفاسدة بين خلق إبليس وخلق آدم:

تحدث القرآن الكريم عن قصة خلق آدم عليه السلام وأمر الملائكة بالسجود له، وتكبّر إبليس -عليه اللعنة- وامتناعه عن السجود زاعمًا أنه خير منه؛ لأنه خلق من نار وآدم من طين.

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وادعاء إبليس هذه الخيرية لنفسه باطل من وجوه ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال رحمه الله: «حجّة إبليس في قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ باطلةٌ؛ لأنّه عارض النّصّ بالقياس؛ ولهذا قال بعض السّلف: أوّل من قاس إبليس.

ويظهر فسادها بالعقل من وجوهٍ خمسةٍ:

أحدها: أنّه ادّعى أنّ النّار خيرٌ من الطّين، وهذا قد يمنع؛ فإنّ الطّين فيه السّكينة والوقار والاستقرار والثّبات والإمساك، ونحو ذلك، وفي النّار الخفّة والحدّة والطّيش، والطّين فيه الماء والتّراب.

الثاني: أنّه وإن كانت النّار خيرًا من الطّين، فلا يجب أن يكون المخلوق من الأفضل أفضل؛ فإنّ الفرع قد يختصّ بما لا يكون في أصله، وهذا التّراب يخلق منه من الحيوان والمعادن والنّبات ما هو خيرٌ منه.

الثالث: أنّه وإن كان مخلوقًا من طينٍ، فقد حصل له بنفخ الرّوح المقدّسة فيه ما شرّف به؛ حيث علّق السّجود بأن ينفخ فيه من روحه تعالى، فالموجب للتّفضيل هذا المعنى الشّريف الّذي ليس لإبليس مثله»[2].

وقال أبو زهرة: «وإبليس في هذا غافل ومدّع ما لا دليل فيه على دعواه، أما غفلته فهو أن الله تعالى خالق النار وخالق الطين، وما في خلقه تفاوت، فهما خلق الله تعالى وهو الذي اختار النار له، واختار الطين لآدم، واختار أن يسجد إبليس الناري لآدم الذي هو من طين، فكيف يعترض عليه بخلقه؟!

وإن هذا ضلال في الفهم، وغفلة في الإدراك؛ ولذا قال بعض العلماء: أشد العالمين غفلة إبليس، ودعواه أن النار خير من الطين، وأنه بذلك خير من آدم، هذه دعوى لا دليل عليها، بل الدليل يناقضها؛ لأن الطين خلق الله منه الخصب، وكان من الخصب الزروع والثمار والأشجار والنخيل وكل طعام أهل الأرض، والماء ينزل عليه

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٢٣.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٥-٦.

غيثًا فيكون منه ثمر كل شيء وطعام الإنسان والحيوان، والنار تدمر وتحرق، فإذا كان من الطين العمران، فمن النار الدمار»[1].

سابعًا: المقابلة الفاسدة بين فرعون وموسى:

ادعى فرعون عليه لعنة الله أنه خير من موسى عليه السلام؛ لما له من ملك وسلطان وجنود وخدم وبيان لسانه.

قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل فرعون لقومه بعد احتجاجه عليهم بملكه وسلطانه، وبيان لسانه وتمام خلقه، وفضل ما بينه وبين موسى بالصفات التي وصف بها نفسه وموسى: أأنا خير أيها القوم، وصفتي هذه الصفة التي وصفت لكم؟ أم ﴿هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ لا شيء له من الملك والأموال، مع العلة التي في جسده، والآفة التي بلسانه، فلا يكاد من أجلها يبين كلامه؟»[2].

وقال الفخر: «وعنى بكونه مهينًا كونه فقيرًا ضعيف الحال، وبقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حبسةً كانت في لسانه»[3].

وقال ابن كثير: «إنّما يعني فرعون -عليه اللّعنة- أنّه خيرٌ من موسى عليه السلام، وقد كذب في قوله هذا كذبًا بيّنًا واضحًا، فعليه لعائن اللّه المتابعة إلى يوم القيامة»[4].

وهذه سفاهة من فرعون أن يدعي أنه خير من نبي الله وكليمه موسى عليه السلام، وقد سمى ابن عاشور كلام فرعون هذا في حق موسى عليه السلام سفسطة عندما تعرض لتفسير هذه الآية، فقال: «ومقصوده تصغير شأن موسى في نفوسهم بأشياء هي عوارض ليست مؤثّرةً، انتقل من تعظيم شأن نفسه إلى إظهار البون بينه وبين موسى الّذي جاء يحقّر دينه وعبادة قومه إيّاه، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا﴾.

والإشارة هنا للتّحقير، والمهين -بفتح الميم-: الذّليل الضّعيف، أراد أنّه غريبٌ ليس من أهل بيوت الشّرف في مصر، وليس له أهلٌ يعتزّ بهم، وهذا سفسطةٌ وتشغيبٌ إذ ليس المقام مقام انتصارٍ حتّى يحقّر القائم فيه بقلّة النّصير، ولا مقام مباهاةٍ حتّى ينتقص صاحبه بضعف الحال.

وأشار بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إلى ما كان في منطق موسى من الحبسة والفهاهة، وليس مقام موسى يومئذٍ مقام خطابةٍ ولا تعليمٍ وتذكيرٍ حتّى تكون قلّة الفصاحة نقصًا في عمله، ولكنّه مقام استدلالٍ وحجّةٍ،

(١) زهرة التفاسير ٥/ ٢٧٩٥.
(٢) جامع البيان ٢١/ ٦١٧.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢٧/ ٦٣٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٣١.

فيكفي أن يكون قادرًا على إبلاغ مراده، وقد أزال اللّه عنه ذلك حين تفرّغ لدعوة بني إسرائيل»[(١)].

ثامنًا: المقابلة الفاسدة بين مقام أهل الشرك ومقام أهل الإيمان في الدنيا:

وذلك عندما افتخر المشركون بمنازلهم وديارهم وأثاثهم على المؤمنين الفقراء؛ وظنوا أنهم على حق وأنّ المؤمنين على باطل لفقرهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن الكفّار حين تتلى عليهم آيات اللّه ظاهرة الدّلالة بيّنة الحجّة واضحة البرهان، أنّهم يصدّون عن ذلك ويعرضون ويقولون عن الّذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجّين على صحّة ما هم عليه من الدّين الباطل بأنّهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، أي: أحسن منازل وأرفع دورًا، ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وهو مجمع الرّجال للحديث، أي: ناديهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطلٍ، وأولئك الّذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدّور على الحقّ؟

عن ابن عبّاسٍ قال: المقام: المنزل، والنّديّ: المجلس، والأثاث: المتاع، والرّئي: المنظر»[(٢)].

وهذا الذي أعطاهم الله إياه من النعيم في الدنيا ليس تكريمًا لهم كما يزعمون، إنما هو استدراج.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

قال في الكشاف: «والمعنى: أنّ هذا الإمداد ليس إلا استدراجًا لهم إلى المعاصي، واستجرارًا إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعةً لهم في الخيرات وفيما لهم فيه نفع وإكرام، ومعاجلة بالثواب قبل وقته»[(٣)].

كما أن نعيم الدنيا لا قيمة له إذا كان صاحبه من أهل النار يوم القيامة؛ فقد جاء في صحيح مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النّار يوم القيامة، فيصبغ في النّار صبغةً، ثمّ يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قطّ؟ هل مرّ بك نعيمٌ قطّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ، ويؤتى بأشدّ النّاس بؤسًا في الدّنيا من أهل الجنّة، فيصبغ صبغةً في الجنّة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قطّ؟ هل مرّ بك شدّةٌ قطّ؟**

(١) التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٣٠- ٢٣١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٥٧.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٩١.

فيقول: لا والله يا ربّ ما مرّ بي بؤسٌ قطّ، ولا رأيت شدّةً قطّ)[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدّنيا في النّار وصبغ أشدّهم بؤسًا في الجنّة، ٤/ ٢١٦٢، رقم ٢٨٠٧.

الحث على فعل الخير في القرآن

تعددت طرق القرآن الكريم في الدعوة إلى الخير، والاستزادة منه، والحث عليه؛ فتارةً يأمر بفعله، وتارةً يثني على أهله، وأخرى يعد على فعله الثواب الجزيل.

والحديث عن ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الأمر بفعل الخير:

ورد في بعض آيات القرآن الكريم الأمر بفعل الخير أمرًا مباشرًا، قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

أي: «بادروا -أيها الناس- إلى الصالحات من الأعمال، والقرب إلى ربكم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

«اللام في: (لتكن) هي لام الأمر، أي: لتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

قال الفخر: «قوله تعالى: ﴿وَافْعَلُوا

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩١.

﴿ٱلْخَيْرَ﴾، قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: يريد به صلة الرّحم ومكارم الأخلاق، والوجه عندي في هذا التّرتيب أنّ الصّلاة نوعٌ من أنواع العبادة، والعبادة نوعٌ من أنواع فعل الخير؛ لأنّ فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الّذي هو عبارةٌ عن التّعظيم لأمر اللّه، وإلى الإحسان الّذي هو عبارةٌ عن الشّفقة على خلق اللّه، ويدخل فيه البرّ والمعروف، والصّدقة على الفقراء، وحسن القول للنّاس، فكأنّه سبحانه قال: كلّفتكم بالصّلاة، بل كلّفتكم بما هو أعمّ منها، وهو العبادة، بل كلّفتكم بما هو أعمّ من العبادة، وهو فعل الخيرات»[1].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

والآية تتحدث عن إبراهيم عليه السلام وذريته من الأنبياء، أن الله تعالى أنعم عليهم وجعلهم أئمة يرشدون الناس إلى الهدى والخير، وأوحي إليهم وألهمهم فعله، والمعنى: وجعلنا إبراهيم وذريته أئمة، أي: رؤساء يوجهون ويرشدون ويقتدى بهم، ويكونون قوة للخير والهداية.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أي: يدعون بدعاية الله. وإضافة الهداية إلى أمر الله؛ للإشارة إلى طاعتهم أولا؛ ولبيان صواب ما يدعون إليه، وأنه الحق لا ريب فيه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: ألهمنا نفوسهم وقلوبهم فعل الخيرات، وهديناهم إليها، بما أوحينا به لرسلهم الذين جاءوا رسولًا بعد رسول، والخيرات: جمع (خير)، وهو كل ما فيه نفع للناس؛ ويقصد به فعله لنفعه للناس، ولإرضاء الله تعالى[2].

ثانيًا: الثناء على أهله:

من طرق القرآن أيضًا في الدعوة إلى الخير، الثناء من الله تعالى على أهله الذين يوصفون بأنهم أهل الخير.

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

قال الطبري: «﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: ويبتدرون فعل الخيرات؛ خشية أن يفوتهم ذلك قبل معاجلتهم مناياهم، ثم أخبر جل ثناؤه أن هؤلاء من عداد الصالحين»[3].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

والمشار إليه بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ هم الذين سبق ذكرهم في الآيات السابقة

(١) مفاتيح الغيب، ٢٣/ ٢٥٤.

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٩/ ٤٨٩٥.

(٣) جامع البيان ٧/ ١٣٠.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٠].

ومعنى الآية: أن هؤلاء الذين هذه صفاتهم يبادرون في الأعمال الصالحة، ويطلبون الزلفة عند الله بطاعته[١].

ولا شك أن العبد إذا عرف أن الله تعالى يثني على فاعلي الخير فإنه يحب أن يكون ممن أثنى الله تعالى عليهم، ويجتهد في أن يصل إلى هذه المنزلة.

قال صاحب الكشاف: «﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يراد: يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها.

والثاني: أنهم يتعجلون في الدنيا المنافع ووجوه الإكرام»[٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

والبرية: هم الخلق كلهم. قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل: (إن المؤمنين)؛ إشارةً إلى أنهم أقاموا سوق الإسلام حال كساده، وبذلوا الأموال والمهج لأجله؛ ولهذا السبب استحقوا الفضيلة العظمى[٣].

ثالثًا: الوعد بالثواب الجزيل:

وعد الله تعالى كل من يفعل الخير بالثواب الجزيل، وهذا أيضًا من باب الدعوة إلى فعل الخير والحث عليه.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥].

أي: «وما تفعل هذه الأمة من خير وتعمل من عملٍ لله فيه رضًى، فلن يكفرهم الله ذلك، يعني بذلك: فلن يبطل الله ثواب عملهم ذلك، ولا يدعهم بغير جزاء منه لهم عليه، ولكنه يجزل لهم الثواب عليه، ويسني لهم الكرامة والجزاء»[٤].

وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

والآية الكريمة واردة في سياق الحديث عن قصة قارون، الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة.

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٧.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٩٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٤٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٣٢.

قال الطبري في معنى الآية: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بالله، حين رأوا قارون خارجًا عليهم في زينته، للذين قالوا ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ اتقوا الله وأطيعوه؛ فثواب الله وجزاؤه لمن آمن به وبرسله وعمل بما جاءت به رسله من صالحات الأعمال في الآخرة خير مما أوتي قارون من زينته وماله»[1].

وفعل الخير أيضًا مهما قلّ فثوابه لن يضيع عند الله تعالى.

قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

والمعنى: فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير فإنه يرى ثوابه هنالك، وهذا حث لأهل الدنيا على العمل بطاعة الله، والزجر عن معاصيه.

قال صاحب التفسير المنير: «والمراد: أي عمل مهما كان صغيرًا، فإنه يجده يوم القيامة في كتابه، ويلقى جزاءه فيفرح به، أو يراه بعينه معروضًا عليه»[2].

موضوعات ذات صلة:

الإحسان، البر، التطوع، الشر، المسابقة، المسارعة

(١) جامع البيان، ١٩/ ٦٢٩.
(٢) التفسير المنير، للزحيلي ٣٠/ ٣٦٠.





داود عليه السلام

عناصر الموضوع



التعريف بداود عليه السلام

أولًا: نسب داود عليه السلام:

ورد اسم داود في القرآن علمًا على نبي الله، وهو اسم أعجمي، ونسبه كما ذكر أهل التاريخ[1] هو: داود بن إيشى بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمّي نوذب بن رام بن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

وبالاطلاع على ما ذكره المؤرخون من نسب داود نجد أن فيه اتفاقًا، ما عدا تغير طفيف لا يكاد يذكر في إعجام أو إهمال بعض الحروف، مما قد يكون سببه النسخ أو التصحيف في المطبوع، فضلًا على أن مثل هذه الأنساب لا تستند إلى دليل يمكن الجزم به، وأوفرها حظًا ما كان مستنده المرويات الإسرائيلية.

ومما يلاحظ في نسب داود عليه السلام أن بينه وبين أبينا إبراهيم الخليل اثني عشر أبًا، مما قد يشير بالنظرة التقريبية إلى الفترة الزمنية بينهما على فرض إمكانية النسب بهذه الصورة.

ويرسم اسم (داود) في التوراة بأحرف ثلاثة (دود) وضبطه آخرون في التوراة بحيث ينطق (داويد) التي آلت من بعد إلى (دافيد) (David)[2].

وأما في النسخة المترجمة للعربية من الكتاب المقدس فإن الاسم مكتوب (داود)[3].

معنى اسم داود:

اسم (داود) عند علماء العبرية والتوراة بمعنى الحّب والمحبوب، ورجح صاحب العلم الأعجمي أن معنى داود (ذو الأيد) ودليله ما جاء في القرآن ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧﴾ [ص:١٧].

ومما قال: «لم ترد (ذو الأيد) في كل القرآن إلا في هذا الموضع فحسب، تفسيرًا لمعنى الاسم العلم (داود) بالمرادف المطابق اللصيق (ذو الأيد)»[4].

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٤٧٦، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ١٩٤، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٣٠٠.
(٢) انظر: العلم الأعجمي في القرآن، محمود أبو سعدة ٢/ ١٧٣.
(٣) انظر: الكتاب المقدس، سفر صموئيل الثاني.
(٤) انظر: العلم الأعجمي ٢/ ١٧٣- ١٧٩.



ثانيًا: عمر داود عليه السلام:

ذكر ابن جرير في تاريخه[1] أن بعض أهل الكتاب زعم أن عمر داود كان سبعًا وسبعين سنة، وضعّف هذا ابن كثير في البداية والنهاية، وقال: «هذا غلط مردود عليه»[2].

رغم أن ابن جرير ذكر معلومة أخرى في ذات الموضع من تاريخه دون أن يرجّح، فقال: «عمره فيما وردت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة سنة»[3].

فيحتمل أنه ذكر ما ورد عن بعض أهل الكتاب لمجرد إيراد ما لديهم، ويحتمل لعدم ترجيحه عدم صحة الحديث الوارد لديه بأن عمر داود مائة سنة.

ولا شك أن الصواب في عمر داود عليه السلام ما صح به الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن عمره مائة سنة، فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلًا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب، زده من عمري أربعين سنة، فلما قضي عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟! قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته)[4].

وممن صحح الحديث ابن الأثير في الكامل قال: «كان عمر داود لما توفي مائة سنة، صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم »[5].

ثالثًا: وصف داود عليه السلام:

جاء عن وهب بن منبه أنه قال: كان داود عليه السلام قصيرًا، أزرق العينين، قليل الشعر،

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٤٨٥.
(٢) البداية والنهاية ٢/ ٣١٩.
(٣) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٤٨٥.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف، ٥/ ٢٦٧، رقم ٣٠٧٦. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٢٥، رقم ١٦٨١.
(٥) الكامل في التاريخ ١/ ١٩٩.

طاهر القلب نقيّه[1].

رابعًا: وفاته:

قيل: إن داود عليه السلام مات في أورشليم[2] يوم السبت، وقيل: الأربعاء[3]، وصح أنه مات عن مائة سنة، كما في حديث أبي هريرة السابق.

وأما قصة وفاته عليه السلام فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كان داود النبي فيه غيرة شديدة، وكان إذا خرج أغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع) قال: (فخرج ذات يوم، وأغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل الدار والدار مغلقة؟ والله لتفتضحن بداود، فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمتنع مني الحجاب، فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت، مرحبًا بأمر الله، فرمل داود مكانه حيث قبضت روحه حتى فرغ من شأنه، وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهم الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحًا جناحًا)[4]. وجوّد إسناده ابن كثير في البداية والنهاية، فقال: «إسناده جيد، ورجاله ثقات».

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٤٧٦، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ١٩٤، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٣٠٠.

(٢) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير ٧/ ٣٣٨: «داود بن يسي من سبط يهوذا من بني إسرائيل، ولد بقرية بيت لحم سنة ١٠٨٥ قبل المسيح، وتوفي في أورشليم».

(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٣٢١.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٥/ ٢٥٤، رقم ٩٤٣٢.
قال ابن كثير في البداية والنهاية: إسناده جيد، ورجاله ثقات.

ذكر داود عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر داود عليه السلام في القرآن الكريم (١٦) مرة، في (٩) سور.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	٢٥١
الأنبياء	٧٨-٨٠
ص	٢١-٢٥، ٣٠-٣٣

فضائل داود عليه السلام

وهب الله عز وجل داود عليه السلام عدة فضائل، منها:

أولًا: الجمع بين النبوة والملك:

كان داود عليه السلام نبيًا بدلالة القرآن الكريم؛ وذلك في أكثر من موضع ذكر فيه داود مع إخوته الأنبياء في سياق واحد في معانٍ مختلفة.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة:٧٨].

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام:٨٤].

وذكره الله تعالى في معرض تفضيل الأنبياء فقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:٥٥].

كما نص الله في القرآن على إيتائه الزبور، فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣].

فذكر الله تعالى داود ضمن أنبيائه -في سياقات مختلفة- يدل على دخوله فيهم بلا شك، وأنه ممن اصطفاه رب العالمين معهم، كما جاء النص بإيتائه الزبور، وهو دليل محتمل يشير إلى إرساله بعد ثبوت نبوته، كما أن الله قد أعطى لداود من المعجزات الأخرى التي رافقت نبوته، قال الفخر الرازي في تفسيره: «لا شك أن داود عليه السلام كان من أكابر الأنبياء والرسل»[1].

وقال السعدي في تفسيره: «داود وسليمان من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم الخمسة، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام الذين نوه الله بذكرهم، ومدحهم في كتابه مدحًا عظيمًا»[2].

والجديد في حالة نبي الله داود عليه السلام وانفرد به عمّن سبقه من الأنبياء الكرام: أن وهبه الله الملك مع النبوة، فهو أول من جمع الله له بين النبوة والملك من الأنبياء، فتميز بهذا، وانفرد عمن سبقه من أنبياء بني إسرائيل، فأعطى صورةً مختلفةً للنبي الملك للمجتمع الإسرائيلي.

قال ابن كثير في البداية والنهاية بعد أن بيّن أنّ قتل داود لجالوت هو سبب حب بني إسرائيل لداود وتملكه عليهم: «وجمع الله له بين الملك والنبوة، بين خيري الدنيا والآخرة، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في سبط آخر، فاجتمع في داود هذا

(١) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٧٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٦٠٢.

وهذا»[1].

وقال العليمي الحنبلي في تفسيره: «ولم تجتمع السلطنة والنبوة لأحد قبل داود، بل كان الملك في سبط والنبوة في سبط»[2].

وقد كان حال بني إسرائيل مختلفًا قبل ذلك، فكان الملك في جماعة والنبوة في آخرين، كما روى ابن عباس: «كان في بني إسرائيل سبطان أحدهما للنبوة والآخر للملك، فلا يبعث نبي إلا من الواحد، ولا ملك إلا من الآخر»[3]. فكان داود أول من جمع الله له بين الملك والنبوة في بني إسرائيل[4].

وكان أول ملك ملّكه بنو إسرائيل على أنفسهم هو شاؤول[5]، وجاء في العهد القديم في سفر صموئيل الأول[6] الإشارة إلى أن الله أوحى لنبيه صموئيل أن يأتيه رجل فأوحي إليه أن: «امسحه رئيسًا لشعبي إسرائيل».

وشاؤول هو نفسه طالوت الذي نص الله على تملّكه على بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وإنما الاسم (شاؤول) هو الاسم العبراني له، والوارد في التوراة، وجاء في القرآن باللفظ العربي له (طالوت) وبينهما اتفاق في المعنى، وليس هذا محل التوسع في ذلك، وحسبنا أن نعلم أن ملك بني إسرائيل الذي اسمه شاؤول في التوراة اسمه الوارد في القرآن طالوت[7].

وبعدما مات طالوت ملّك بنو إسرائيل عليهم داود[8]، وقد أحبوه قبل ذلك عندما قتل جالوت.

وفي موضع آخر من القرآن جاءت الإشارة من الله عز وجل لملك داود وخلافته في الأرض، فقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص:٢٦].

وفسّر هذه الآية السديّ[9] بأن الله «ملّكه في الأرض»[10].

---

(١) البداية والنهاية، ٢/ ٣٠٠-٣٠١.

(٢) فتح الرحمن في تفسير القرآن ١/ ٣٥٩.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٥١٦.

(٥) انظر: العلم الأعجمي، أبو سعدة ٢/ ١٧٤.

(٦) الإصحاح ٩.

(٧) انظر: العلم الأعجمي، أبو سعدة ٢/ ١٥٩-١٦٣.

(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٥١٤.

(٩) انظر: المصدر السابق ٢٠/ ٧٧.

(١٠) قال د.صلاح الخالدي في كتابه الأعلام الأعجمية في القرآن ص٩١: «لم يطلق لقب خليفة في القرآن إلا على نبيين: آدم في سورة البقرة، وداود في سورة ص عليهما

وفي ذات السياق جاء التوجيه الرباني لداود في طريقة حكمه في الأرض، فقال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

وعندنا قضيتان هنا:

الأولى: هل كان داود نبيًّا عند قتله لجالوت؟

قال الماوردي في النكت والعيون: «واختلفوا هل كان داود عند قتله جالوت نبيًّا؟ ذهب بعضهم أنه كان نبيًّا؛ لأن هذا الفعل الخارج عن العادة، لا يكون إلا من نبي، وقال الحسن: لم يكن نبيًّا. قال ابن السائب: وإنما كان راعيًا، فعلى هذا يكون ذلك من توطئة لنبوته مِنْ بعد»[١].

والثانية: هل كان مَلِكًا ثم أوتي النبوة، أم العكس؟

الظاهر من سياق الآيات أن داود عندما قتل جالوت لم يكن نبيًّا ولا ملكًا، وكانت النبوة بعد تملكه على بني إسرائيل، وظاهر اختيار ابن جرير أنه آتاه الله الملك قبل قتله لجالوت.

قال ابن جرير في تاريخه بعد أن ساق بعض الإسرائيليات في قصة داود وطالوت: «وفي هذا الخبر بيان أن داود قد كان الله حوّل الملك له قبل قتله جالوت»[٢].

وذهب ابن كثير في البداية والنهاية إلى عكس ذلك، فقال: «والذي عليه الجمهور أنه إنما ولي الملك بعد قتل جالوت»[٣].

وذهب ابن الأثير في تاريخه إلى احتمال الأمرين[٤].

والذي يظهر أن داود أصبح ملكًا على بني إسرائيل قبل أن يكون نبيًّا.

قال ابن جرير في تاريخه: «ولما اجتمعت بنو إسرائيل على داود أنزل الله عليه الزبور، وعلمه صنعة الحديد، وألان له، وأمر الجبال والطير أن يسبحن معه إذا سبح»[٥].

كما أن ظاهر القرآن في ترتيب ما وهبه الله لداود كان الملك، ثم الحكمة التي فسرت بأنها النبوة، وسيأتي ذكر ذلك.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١].

وتحتمل الآية أن الله وهب داود الملك والنبوة معًا، ويحتمل أن داود أصبح ملكًا بعد حين أصبح نبيًّا.

السلام». وذكر معنى لطيفًا فقال: «وهذا يشير إلى معنى إيماني إسلامي خاص في ملك داود لبني إسرائيل، ففترة حكمه وملكه يعتز بها المسلمون؛ لأن حكمه لم يكن يهوديًا إسرائيليًّا، مع أنه إسرائيلي من حيث النسب، وإنما كان حكمًا إسلاميًّا إيمانيًا، ولذلك وصفه الله بأنه خليفة».

(١) النكت والعيون ١/ ٣١٩-٣٢٠.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ١/ ٤٧٨.

(٣) البداية والنهاية ١/ ٣٠٥.

(٤) الكامل في التاريخ ١/ ١٩٤.

(٥) تاريخ الأمم والملوك ١/ ٤٨٧.

وعلّل الفخر الرازي القول بتقدم ملكه على نبوته بأنه: «ترقّى في المراتب العالية، وإذا تكلم المتكلم في كيفية الترقي فكل ما كان أكثر تأخرًا في الذكر كان أعلى حالًا، وأعظم شأنًا»[1].

وقال الفخر الرازي في تفسيره: «قال بعضهم: ظاهر الآية يدل على أن داود حين قتل جالوت آتاه الله الملك والنبوة؛ وذلك لأنه تعالى ذكر إيتاء الملك والنبوة عقيب ذكره لقتل داود جالوت، وترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم»[2].

وأما في مدة ملك داود، فقد كانت مدته أربعين سنة، كما ذكر ابن جرير وابن الأثير في تاريخيهما[3].

وعقب على ذلك ابن كثير في البداية والنهاية بقوله: «وهذا قد يقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه»[4].

ونلحظ أن ابن كثير دقيق في عبارته، فأشار إلى قبول نقله لا إلى إثباته.

ولو نظرنا في تحديد وقت ملكه فلا فائدة من ذلك، والمهم أنه ملك دهرًا، وجمعت له النبوة والملك، واستمر ملك داود عليه السلام إلى حين وفاته.

وقد أثنى الله على ملك داود ووصفه بقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص:٢٠]، فكان متانة ملك داود هبة من الله عز وجل.

ومعنى ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ تقويته، وتحديد متعلق القوة فيه خلاف، فقيل: إنه شدّد ملكه بالجنود والرجال، وهو قول السدي[5].

وقيل: شدّد ملكه بأن أعطي هيبة من الناس له لقضية كان قضاها، وهو قول ابن عباس[6].

وقال الطبري عقب ذكره للأقوال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى أخبر أنه شدّد ملك داود، ولم يحصر ذلك من تشديده على التشديد بالرجال والجنود دون الهيبة من الناس له، ولا على هيبة الناس له دون الجنود، وجائز أن يكون تشديده ذلك كان ببعض ما ذكرنا، وجائز أن يكون كان بجميعها، ولا قول أولى من ذلك بالصحة من قول الله؛ إذ لم يحصر ذلك على بعض معاني التشديد خبرٌ يجب التسليم له»[7].

وقال ابن العربي في أحكام القرآن: «وعندي أن معناه: شددناه بالعون والنّصرة،

(١) مفاتيح الغيب ٢/ ٥١٧.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٥١٦.
(٣) انظر: تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٤٨٥، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ١٩٩.
و في سفر صموئيل الثاني الإصحاح ٥: أن مدة ملك داود أربعين سنة.
(٤) البداية والنهاية ٢/ ٣١٩.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٦.
(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٧.
(٧) جامع البيان ٢٠/ ٤٨.

ولا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير معان»[1].

وقال ابن كثير في تفسيره: «أي: جعلنا له ملكًا كاملًا من جميع ما يحتاج إليه الملوك»[2].

وقال الطاهر ابن عاشور: «فشد الملك هو تقوية ملكه وسلامته من أضرار ثورة لديه، ومن غلبة أعدائه عليه في حروبه»[3].

والذي ظهر هو الجمع بين الأقوال -كما ذهب إليه ابن جرير- فهي أبلغ في شدة ملكه وثبوته له مما يزعزعه.

ثانيًا: إيتاؤه الزبور:

لقد تفضل الله على داود عليه السلام بأن آتاه الزبور، وهو كتاب الله عز وجل المنزل على داود، وقد جاء ذكر الزبور ونسبته لداود ككتاب من الله لداود عليه السلام في القرآن والسنة.

فالزبور هو كتاب الله الذي أنزله على داود عليه السلام.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: «الزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام»[4].

وجاء ذكر إيتاء الله الزبور لداود عليه السلام في مواضع من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء:١٦٣].

وقال جل وعلا: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [الإسراء:٥٥].

وقد جاءت آية سورة النساء في سياق ذكر الله لأنبيائه ومنهم داود، وهذا أول موضع ورد فيه اسم كتاب داود عليه السلام في القرآن الكريم.

معنى الزبور ونزوله على داود عليه السلام:

اختلف أهل العلماء في المقصود بالزبور هل هو اسم علم على كتاب داود عليه السلام أم وصف؟ وسيتضح أن الراجح أنه علم على كتاب الله الذي أنزله على داود عليه السلام، وعلى ذلك جملة من الأدلة، وسيأتي إيرادها، بعد التعريج على جذر كلمة الزبور ومعناها في المعجم العربي، وورودها في القرآن الكريم.

إن مادة (زبر) في المعاجم العربية تأتي بمعان، ومنها: زبره بالحجارة أي رماه بها، وزبر البناء يعني وضع بعضه فوق بعض، أي رصّه رصًّا، وزبره عن الأمر يعني منعه ونهاه، والأصل فيها قطعه عنه، فزبر بمعنى

(١) أحكام القرآن ٤/ ٤١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٥٨.
(٣) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٢٩.
(٤) البداية والنهاية ٢/ ٤٦٩.

قطع، والزِّبر الكتابة، وزبر الكتاب يعني كتبه، والأصل فيه أتقن كتابته مبينًا مفصلًا (مقطعًا) وهذا هو المعنى الرئيس في مادة زبر[1]. ولذا قال المفسرون (الزبور) بمعنى: المكتوب[2].

قال ابن منظور: «وقد غلب الزبور على صحف داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وكل كتاب زبور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥]»[3].

علمًا أن الآية السابقة من سورة الأنبياء لا تدل بوجه الجزم على نسبة الزبور لداود، فقد اختلف المفسرون[4] في تحديد المقصود بالزبور فيها، فمنهم من اعتبره كتاب داود بعينه، ومنهم من قال: هو التوراة والإنجيل، وقيل: اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب، وقيل غيره، والخلاف في هذه الآية بعينها لا ينقض أصل نسبة الزبور ككتاب إلهي لداود عليه السلام، وأقصى ما يذهب إليه أن الخلاف الواقع هنا إنما هو في تحديد المراد بالزبور في تلك الآية فحسب،

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٤٠٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٥١، تفسير النسفي ٢/ ٤٢٣.
(٣) انظر: لسان العرب ٥/ ٤٠٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٤١٣، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٣٨.

وسيأتي ذكر الآيات الدالة على نسبة الزبور لداود.

وقد وردت كلمة (الزبور) في القرآن في أكثر من موضع، ومن أصرحها في نسبة الزبور لداود قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء٥٥].

وفي كلمة (زبورًا) قراءتان متواترتان، فقرأ حمزة وخلف بضم الزاي (زُبورًا) وقرأ الباقون بفتح الزاي (زَبورًا)[5]. وتوجيه قراءة ضم الزاي أن يكون جمع زبر، أي: كتبًا وصحفًا مزبوره[6].

قال ابن جرير في تفسيره: «وجهوا تأويله: وآتينا داود كتبًا وصحفًا مزبوره، من قولهم: زبرت الكتاب أزبره زبرًا، وزبرته أزبره زبرًا: إذا كتبته»[7].

وقال ابن أبي مريم في الموضح: «بضم الزاي وهو على وجهين:

أحدهما: أن يكون جمع زبر، وهو المزبور، وجاز جمعه وإن كان مصدرًا لوقوعه موقع الأسماء.

الثاني: أن يكون زبور بالضم جمع زبور بالفتح، جمعًا بحذف الزوائد، وبفتح الزاي وهو ظاهر، فإن زبورًا بمعنى مزبور، وهو

(٥) انظر: التيسير، الداني ص٢٦٧، إتحاف فضلاء البشر، البناء ١/ ٥٢٦.
(٦) الحجة، ابن زنجلة ص٢١٩.
(٧) جامع البيان ٧/ ٦٨٧.

اسم لهذا الكتاب المخصوص»[1].

وأما بفتح الزاي فيكون بمعنى: وآتينا داود الكتاب المسمى زبورًا. قال ابن أبي مريم في الموضح: «وبفتح الزاي وهو ظاهر، فإن زبورًا بمعنى مزبور، وهو اسم لهذا الكتاب المخصوص»[2].

فيكون اسمًا للكتاب الذي نزل على داود، كما سمّي الكتاب الذي أنزل على موسى بالتوراة، والذي نزل على عيسى بالإنجيل، والذي نزل على محمد عليهم الصلاة والسلام الفرقان؛ ولأن ذلك هو الاسم المعروف به مما أوتي داود[3].

قال مكي بن أبي طالب في الكشف: «حجة من قرأ بالفتح أن المعروف أن داود صلى الله عليه وسلم أوتي كتابًا اسمه الزّبور، كالتوراة والإنجيل والقرآن، فهو كتاب واحد لكل نبي، فالفتح أولى به؛ لأنه اسم لكتاب واحد، وهو الاختيار، لصحة معناه؛ ولأن عليه الجماعة»[4].

واعتبر السمرقندي[5] أن القراءتين بمعنى واحد، وهو عبارة عن الكتاب.

وجاء في العلم الأعجمي أن (الزبور) هو علم عربي -ليس فيه شبهة عجمة- على كتاب داود عليه السلام، وأن (زبور) بمعنى (مزبور) بالنظر إلى مادته وصيغته فهو كتاب (تسابيح) مقطعات، وقال: «ومن غير الجيد فهمه بمعنى مطلق الكتاب، وإلا لما تميز وحي الله على داود باسم علم يختص به من دون كتب الله على رسله، كما اختص باسمه العلم كل من التوراة والإنجيل والقرآن، وإنما أريد له معنى مضاف يميزه عن غيره من الكتاب المكتوب...، إنه كتاب (تسابيح) مقطعات»[6].

واسم كتاب داود في ترجمات العهد القديم هو (سفر المزامير) وهو كذلك في كتابهم المقدس الموجود الآن، وأما في النص العبراني فإن اسمه (سفر تهلّيم) أي: سفر التسابيح، وعليه فالترجمة العربية الدقيقة لاسم هذا السفر (سفر التسابيح) أو (سفر التهليل)[7].

ولقد أشار الله على فضل داود وكتابه الزبور، فقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:٥٥].

(١) الموضح في وجوه القراءات وعللها ١/ ٤٣٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٨٧.
(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ١/ ٤٠٢.
(٥) تفسير السمرقندي ١/ ٤٠٤.
(٦) العلم الأعجمي، أبو سعدة ٢/ ١٨٧ -١٨٨.
(٧) انظر: المصدر السابق ٢/ ١٨٣ وجاء فيه: هو هلل العبري المأخوذ من هلل العربي، بمعنى سبح، وترخصت الترجمة السبعينية اليونانية لأسفار العهد القديم في تسميته في النسخة العربية بالمزامير؛ لأن في أصله العبري جاءت عند عنونة المقاطع بكلمة مزمور.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه»[1].

وثبت بأصرح مما سبق إثبات اسم الزبور كعلم لكتاب الله في عدة أحاديث مرفوعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وقرأ عليه أُبيٌّ أمّ القرآن فقال: (والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة، ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، إنها السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أعطيت)[2].

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل)[3].

بل وجاء في الحديث تحديد وقت نزول الزبور، فقد أخرج الطبراني في المعجم الكبير عن واثلة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع عشرة خلت من رمضان)[4].

وقد نزل الزبور على داود عليه السلام بعد أن اجتمعت بنو إسرائيل عليه، كما نص ابن جرير في تاريخه[5].

حجم الزبور ومحتواه:

نقل السمرقندي في تفسيره عن مقاتل قال: «الزبور مائة وخمسون سورة، ليس فيها حكم ولا فريضة، إنما ثناء على الله عز وجل»[6].

وهو كذلك في ما هو بين أيدي أهل الكتاب ضمن كتابهم المقدس، فقد بلغ مائة وخمسون مزمورًا.

وأما نسبة كل هذه المزامير لداود فغير صحيح، فإن أهل الكتاب ينسبون بعضها فقط إلى داود، وينسبون بعضها لابنه سليمان، كما ينسبون بعضها لرجل يدعى آساف، وهو كبير المغنين في بلاط داود، وبعضها الآخر مسكوت عنه غير منسوب[7].

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٨٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٨/ ٣٨٧، رقم ٨٦٦٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٩١، ٧٠٧٩.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٨/ ٣٨٧، رقم ٨٦٦٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٤١، رقم ١٠٥٩.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ ٧٥-١٨٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣١٣، ١٤٩٣.

(٥) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٤٧٨.

(٦) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٧٣.

(٧) وهنا ذكر محمود أبو سعدة فائدة عزيزة قال:

ولا يدرى على وجه التحقيق أي المزامير التي قالها داود؛ ولهذا في ترجمات العهد القديم سموه (سفر المزامير) بدلًا من (مزامير داود)[1].

ويصدّق ذلك الترجمة المطبوعة من الكتاب المقدس للغة العربية، فإنه في سفر المزامير يصدّرون بعضها بقولهم: «مزمور داود» كما في المزمور رقم (٤ و٥ و٦ و٨ و٩ و١١ و١٩ و٢٨ وغيرها) بينما بعضها دون تسمية، وبعضها نسبوها لغير داود كما في المزمور (٧٢) كتب: «المزمور الثاني والسبعون لسليمان».

وأما في المزمور (٧٣،٧٤،٥٠) كتب: «مزمور لآساف». بل ونسبوا لآساف اثني عشر مزمورًا!

وأما محتوى الزبور: فقد تميز عن غيره من كتب الله في محتواه، فقد كان فيه التسابيح والتهليل، وليس فيه شيء من التعاليم أو التكاليف، كما هي في التوراة والإنجيل والقرآن، وهو قول جماهير أهل العلم.

عن الربيع بن أنس قال: الزبور ثناء على الله عز وجل، ودعاء وتسبيح[2].

وعن قتادة قال: كنا نحدث أن الزبور دعاء علّمه داود عليه السلام، وتحميد وتمجيد لله عز وجل، ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض، ولا حدود[3].

وقال القرطبي في تفسيره: «الزبور: كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد»[4].

ومما يؤيد ذلك ما بقي من وحي الله على داود -سليمًا من التحريف- مما هو في أيدي أهل الكتاب في العهد القديم[5].

ولقد وهب الله داود عليه السلام سهولة قراءة كتابه، فقد أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده)**[6]. والمراد بالقرآن هنا مصدر القراءة لا القرآن المعهود لهذه الأمة، كما قال ابن حجر في فتح الباري[7].

«وهذا يدلك على أن المجموع بين دفتي العهد القديم ليس كله من وحي الله عز وجل على رسله وأنبيائه، بل منه هذا وذاك، وهو يدلك أيضًا على أن معنى الوحي عند أهل الكتاب ليس هو نفس معناه عند أهل القرآن».
انظر: العلم الأعجمي ٢/ ١٨٢.

(١) انظر: العلم الأعجمي، أبو سعدة ٢/ ١٨٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٤/ ١١١٨.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٦٢٥، وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٣٣٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٠٥.
(٥) انظر: العلم الأعجمي، أبو سعدة ٢/ ١٨٧.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وآتينا داوود زبورًا)، ٤/ ١٦٠، رقم ٣٤١٧.
(٧) فتح الباري ٨/ ٣٩٧.

ثالثًا: إيتاؤه العلم والحكمة:

أثنى الله على داود عليه السلام بأنه آتاه العلم والحكمة في أكثر من موضع في القرآن، وجاءت الآيات بصور مختلفة: فتارة يجمع الله له بين العلم والحكمة، وتارةً يذكر العلم فقط، وتارةً الحكمة فقط.

أما الجمع بين العلم والحكمة فجاءت في آية واحدة، قال تعالى: ﴿وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١].

وجاء ذكر العلم دون الحكمة لداود في آيتين:

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

ففي هذه الآية امتدح الله سليمان عليه السلام في إصابته في القضاء في الحكم إلا أن الله لم يذم داود، بل امتدحه الله بإيتائه العلم والحكمة، كما آتاهما سليمان، وكون الآية وردت في سياق تأييد الحكم لسليمان عليهما السلام، أعقبه الله تعالى بذكر الفضيلة لهما؛ لئلا يتوهم الإغضاء من قدر داود عليه السلام، ودفعًا لما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهم، من عدم كون حكم داود عليه السلام حكمًا موافقًا للصواب[(١)].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل:١٥].

وأما التي ذكر فيها إيتاءه للحكمة دون العلم فهي آية واحدة:

قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص:٢٠].

فالمذكور في الآيات مما وهبه الله لداود أمران: العلم والحكمة، فما المقصود بالعلم؟ وهل هو علم خاص بهما أم مشترك مع باقي الخلق؟ وما المقصود بالحكمة؟

١. العلم.

تعددت الأقوال في المراد بالعلم الذي أوتيه داود عليه السلام، وأساس الخلاف هل هو علم اختص الله به داود عليه السلام أم علم كباقي العلوم التي يمكن للعباد أن يؤتوها أو يكتسبوها؟

فقيل: هو الفهم، وهو قول قتادة[(٢)].

وقيل: هو علم بالدين والحكم وغيرهما[(٣)].

وقيل: «طائفة من العلم وهو علم الحكم

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١١/ ٢٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٨٧.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٩/ ٢٨٥٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١١٢.

والشرائع، أو علمًا أي علم»[1].

وذهب ابن جرير إلى أن المراد بالعلم «علم كلام الطير والدواب وغير ذلك مما خصهم الله بعلمه»[2].

وذهب ابن كثير إلى اختصاص العلم بداود، ولكن دون تحديد ماهية العلم، فقال في تفسيره: «علمه ما يشاء من العلم الذي اختصه به عليه السلام»[3].

وقيل: صنعة الكيمياء. قال القرطبي: «هو شاذ»، وقال عقب ذلك القرطبي: «وإنما الذي آتاهما الله النبوة والخلافة في الأرض والزبور»[4]. في إشارة للعلم أن يكون النبوة أو الزبور، والله أعلم.

وقال ابن عاشور: «علم نبوءة وحكمة»[5].

وجمع ما قيل في المراد بعلم داود الماوردي، فقال: «فيه ستة أوجه:

أحدها: فهمًا، قاله قتادة.

الثاني: صنعة الكيمياء، وهو شاذ.

الثالث: فصل القضاء.

الرابع: علم الدين.

الخامس: منطق الطير.

السادس: بسم الله الرحمن الرحيم»[6].

والذي يترجح لي -والله أعلم- أن الله خصه بعلم ديني ودنيوي، وهو الأكمل في حق داود عليه السلام، فأما الديني فيكفيه ما في النبوة والزبور من علم وافر، وأما العلم الدنيوي فمما يؤيده قوله تعالى عما آتاه لنبيه داود: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٠].

ويدخل فيها علمه لكلام الطير وغيره، وفي قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١].

إشارة إلى ذلك، قال في معناها ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها صنعة الدروع.

والثاني: الزبور.

والثالث: منطق الطير»[7].

وتحتمل كلمة (مما يشاء) أن يكون مما يشاؤه الله، أو يشاؤه داود، أو كلاهما[8].

فخص الله نبيه داود بعلم دون العباد، والفعل (آتينا) فيه إشارة إلى أنه «علم مفاض من عند الله، وليس علمًا مكتسبًا»[9]. وهو

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٤١، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٧٢.
(٢) جامع البيان ١٨/ ١٢٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٦٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ١١٢.
(٥) التحرير والتنوير ١٩/ ٢٣٢.
(٦) النكت والعيون ٤/ ١٩٧.
(٧) زاد المسير ١/ ٣٠٠.
(٨) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٢١.
(٩) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٣٣.



علم عظيم في شأنه، بدلالة تنكير لفظة (علمًا) كما جاء في آية سورة النمل[١]، ويحتمل أن يكون التنكير للتكثير[٢]، ولا مانع من الجمع بينهما، فهو علم عظيم وكثير، والله أعلم.

فهو إذن علم اختص به داود عليه السلام في الجنس والكم، ولو اشترك معه غيره من الخلق لما كان هناك مزية له في هذا العلم دون الآخرين.

قال القشيري على آية سورة النمل: «يقتضي حكم هذا الخطاب أنه أفردهما بجنس من العلم لم يشاركهما فيه أحد؛ لأنه ذكره على وجه تخصيصهما به، ولا شك أنه كان من العلوم الدينية، ويحتمل أنه كان بزيادة بيان لهما أغناهما عن إقامة البرهان عليه، وتصحيحه بالاستدلال الذي هو معرض للشك فيه، ويحتمل أن يكون علمهما بأحوال أمتهما على وجه الإشراف على ما كانوا يستسرون به، فيكون إخبارهما عن ذلك معجزة لهما»[٣].

٢. الحكمة.

كما اختلف في المراد بالعلم وقع الخلاف في المراد بالحكمة التي وهبها الله لداود عليه السلام، فقيل: هي النبوة، وهو قول ابن عباس والسدي، أخرجه عنه ابن جرير واختاره[٤].

وقيل: إنها السنة، وهو قول قتادة والحسن[٥].

وقيل: العقل في الدين، وإليه ذهب زيد بن أسلم[٦].

وقيل: الصواب، وهو قول مجاهد أخرجه سعيد بن منصور[٧].

وقال ابن الجوزي: «وفي المراد بالحكمة ها هنا قولان:

أحدهما: أنها النبوّة.

والثاني: الزبور»[٨].

وفي موضع آخر قال ابن الجوزي: «فيها أربعة أقوال:

الفهم، قاله ابن عباس والحسن وابن زيد.

والثاني: الصواب، قاله مجاهد.

والثالث: السنة، قاله قتادة.

والرابع: النبوة، قاله السدي»[٩].

وعند ابن عطية في المحرر الوجيز ذكر

---

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٥٢.
(٣) لطائف الإشارات ٥/ ٣٢.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره عن السدي ٥/ ٤١٥، ونسبه لابن عباس ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٠٠.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٨ عن قتادة، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢/ ٤٨٠ عن الحسن.
(٦) أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢/ ٤٨٠.
(٧) سنن سعيد بن منصور ٧/ ١٧٤.
(٨) زاد المسير ١/ ٣٠٠.
(٩) المصدر السابق ٧/ ١١١.

ما سبق وزاد في معنى الحكمة: أنها العلم الذي لا ترده العقول[1].

والذي يظهر أن الله ذكر إيتاءه الحكمة لنبيه داود في موضعين في كتابه الكريم، فجاء ذكر إيتائه الحكمة في سياق قتله لجالوت، فقال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:٢٥١].

وجاء ذكرها أيضًا في سياق تعداد النعم التي وهبها الله لداود، فقال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص:١٧-٢٠].

وإطلاق القول في معنى الحكمة في كلا الموضعين قد يحدث شيئًا من التداخل؛ فلذا لا بد من التفصيل، فلكل موضع مقال في معناها، فإذا فرقنا بين الموضعين، وما تحتمله من معنى اتضح لنا الأمر في معنى المراد بالحكمة، وفي نسبة الأقوال للسلف وغيرهم.

ففي الموضع الأول تكون الحكمة هي النبوة، كما ذهب إليه ابن عباس والسدي؛ بدلالة أن الله أشار في تلك الآية إلى إعطاء داود الملك بعد انتصارهم، وقرنه بالحكمة التي هي النبوة، فيكون أعظم امتنان على داود وبني إسرائيل.

وأما في الموضع الآخر: فإن الأقوال فيها تحتمل التعدد، فيمكن أن تكون الفهم أو الصواب أو العقل أو غيره، ويشملها النبوة.

رابعًا: فصل الخطاب:

لقد أثنى الله على داود بأن آتاه فصل الخطاب، فقال عز وجل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠].

وجاءت هذه الصفة في معرض ذكر فضائل داود عليه السلام، وقد تعددت أقوال المفسرين في معنى (فصل الخطاب) فقيل فيها عدة أقوال، وهي:

علم القضاء والفهم به، ذهب إليه ابن عباس ومجاهد والسدي وابن زيد وأبو عبدالرحمن السلمي[2].

وقيل: تكليف المدّعي البينة، واليمين على المدّعى عليه، وبعبارة أخرى: الشهود والأيمان، وذهب إليه علي بن أبي طالب وشريح والشعبي وقتادة[3]، ووصف هذا

---

(١) المحرر الوجيز ٧/ ٣٣١ ونسبه لأبي العالية.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٩-٥٠. قال السعدي في تفسيره ص٧٢٢: «من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس؛ كما امتن الله به على عبده داود».

(٣) أخرجه عنهم جميعًا -ما عدا علي بن أبي طالب- الطبري في تفسيره ٢٠/ ٥٠-٥١، ونسبه إلى علي بن أبي طالب ابن عطية في المحرر الوجيز ٧/ ٣٣١، والقرطبي في

القول الواحدي[1] بأنه قول الأكثرين.

وقيل عبارة: أما بعد، وهو قول أبي موسى الأشعري[2]، ونسب إلى الشعبي[3]، وأخرجه سعيد بن منصور عن زياد بن أبيه[4][5].

وكل هذه الأقوال مناقب حري بها نبي الله داود، وخليق بها؛ ولذا اختار ابن جرير في معنى (فصل الخطاب) أنه يشملها كلها، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه آتى داود -صلوات الله عليه- فصل الخطاب، والفصل: هو القطع، والخطاب هو المخاطبة، ومن قطع مخاطبة الرجل الرجل في حال احتكام أحدهما إلى صاحبه قطع المحتكم إليه الحكم بين المحتكم إليه وخصمه بصواب من الحكم، ومن قطع مخاطبته أيضًا صاحبه إلزام المخاطب في الحكم ما يجب عليه إن كان مدّعيًا، فإقامة البيّنة على دعواه، وإن كان مدّعيًا عليه فتكليفه اليمين إن طلب ذلك خصمه، ومن قطع الخطاب أيضًا الذي هو خطبةٌ عند انقضاء قصة وابتداء بأخرى، الفصل بينهما بـ(أما بعد) فإذ كان ذلك كله محتملًا ظاهر الخبر، ولم تكن في هذه الآية دلالة على أي ذلك المراد، ولا ورد به خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثابت، فالصواب أن يعمّ الخبر كما عمّه الله، فيقال: أوتي داود فصل الخطاب في القضاء والمحاورة والخطب»[6].

وبهذا التوجيه من ابن جرير تكون الفضيلة لداود أعم وأتم، وهو الصواب الذي يدل عليها ظاهر القرآن، وتتوافق مع مكانة نبي الله داود عليه السلام.

خامسًا: قتله لجالوت:

لقد انضم داود عليه السلام ضمن جيش بني إسرائيل بقيادة ملكهم طالوت الذي خرج لمحاربة جالوت وجنده، وكان في ذلك الحين داود إنما هو عبد صالح في بني إسرائيل ولم يكن نبيًّا، وكان أول بروز له لكافة شرائح مجتمعه في تلك المعركة التي وفقه الله فيها إلى قتل جالوت، فبرز وكان له الشأن عند قومه، وكأن الله عز وجل أراد تهيئته أو تهيئة بني إسرائيل لنبوة وملك داود، فقال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ

تفسيره ١٨/ ١٤٩.

(١) البسيط ١٩/ ١٧٦.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٧/ ١١٢.

(٣) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٥١.

(٤) سنن سعيد بن منصور ٧/ ١٧٥.

(٥) ضعف هذا القول ابن العربي، فقال في أحكام القرآن ٤/ ٤٥: «لو صحّ أن داود قالها -أي أما بعد- فإنه لم يكن ذلك منه بالعربية، على هذا النظم، وإنما كان بلسانه، والله أعلم». واستبعده ابن عاشور في التحرير والتنوير ٢٣/ ١٣٠ فقال: «ولا أحسب هذا صحيحًا؛ لأنها كلمة عربية، ولا يعرف في كتاب داود أنه قال ما هو بمعناها في اللغة العبرية».

(٦) جامع البيان ٢٠/ ٥٢.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١]علمًا أن هذا هو أول موضع ورد فيه اسم داود في القرآن الكريم، بحسب ترتيب سوره.

فنص الله على أن داود قتل جالوت، وأشار عقبها مباشرةً إلى إعطاء الله الملك له والحكمة، فبعد تلك المعركة وبعد تلك الحادثة أصبح داود ملكًا ونبيًا لبني إسرائيل.

داود وبنو اسرائيل

كان عهد داود عليه السلام بعد موسى عليه السلام قطعًا بمدة من الزمن، فقد قال تعالى في مطلع قصة قتل داود لجالوت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٦].

وقد نص ابن كثير[١] على أنه كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة.

وقد كان قبل داود على ملك بني إسرائيل طالوت، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٧].

وإن كان مجاهد ذهب إلى أن الملك في هذه الآية هو الإمرة على الجيش لا بالملك العام[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ [البقرة:٢٤٦] إشارة واضحة إلى وجود نبي لبني إسرائيل قبل داود، وفي تحديده خلاف بين المفسرين فقيل: شمعون[٣]، وقيل:

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٦٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦.
(٣) هو قول السدي أخرجه ابن جرير في تفسيره ٤/ ٤٣٦.

صمويل، وقيل: غيرهم[1]، وتحديد اسمه غير مهم لنا في هذا البحث، كما أنه ليس هناك دليل صحيح ينص على تحديده.

وقد توالت الأحداث على بني إسرائيل من خير وشر، ورفعة ومذلة، ثم كانت المعركة الفاصلة بين الملك طالوت ومعه داود عليه السلام وخصومهم جالوت وجنده، فوقع القتال بأمر الله، ثم قتل داود جالوت، فوقع حب داود في قلوب بني إسرائيل، ومالوا إليه، ثم آل الملك إليه مع ما منحه الله من النبوة.

فجمع الله لداود بين الملك على بني إسرائيل والنبوة.

وهنا لا بد من وقفة جلية تكشف لنا حقيقة صفات داود عند أهل الكتاب بما ورد في العهد القديم والعهد الجديد، مع موازنتها بما ذكره الله عز وجل عن نبيه داود في القرآن الكريم؛ ليتضح البون الشاسع بين ما نعتقد كمسلمين في حق داود عليه السلام، وبين ادعاءات البهتان لأهل الكتاب.

صفات داود في القرآن والعهد القديم:

إن الأنبياء هم صفوة الخلق، ونعتقد بجمال أحوالهم قبل نبوتهم وبعدها، ولا يتصور أي معظِّم لأنبياء الله أن يرميهم بالنقائص والعيوب التي يترفع عنها بسطاء الناس فضلًا عن كبرائهم، فضلًا عن صفوة الخلق!

وإن اليهود يزعمون أنهم يعظمون داود، وهذا ادعاء لا يتفق مع ما يؤمنون به من كتبهم، فإن في العهد القديم نسبة الصفات القبيحة والشنيعة لداود عليه السلام حاشاه من تلك المعايب، ولا أدري أي تعظيم له بعد ذلك؟!

ولنبدأ بالوجه المشرق لصفات داود كما وردت في القرآن الكريم على وجه الاختصار[2]:

جاء في القرآن عن داود عليه السلام أنه:

- الخليفة: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص:٢٦].
- صاحب الزبور: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء:١٦٣].
- الأواب: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧].
- والذي تسبح معه الطير والجبال: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩﴾ [ص:١٨-١٩].
- صاحب الملك والحكمة والعلم: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١].
- صاحب الصناعات: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٦٤.

(٢) انظر: الأنبياء في القرآن والكتاب المقدس، محمد عمارة ص٥٥.

﴿دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾ [سبأ: ١٠-١١].

❁ المغفور له، وصاحب الزلفى وحسن المآب: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥﴾ [ص: ٢٥].

هذه صفات نبي الله داود في القرآن، وعندما تقرأ هذه الصفات تشعر بانشراح نفس، وارتياح في ذكر هذه الصفات، بينما إذا انتقلت للطرف الآخر شعرت بالضيق والحرج من ذكر تلك الصفات الشنيعة عن داود عليه السلام، ولأبرهن على استنقاص أهل الكتاب لداود نعرج على ما رموا -زورًا وبهتانًا- به داود عليه السلام.

ومن تلك الصفات القبيحة الواردة في العهد القديم[1] على وجه الإجمال: يصورون داود عليه السلام في صورة الفاسق والزاني والقاتل بغير حق، ومدعي الجنون، وقاطع الطريق!

ودونك كلامهم على وجه التفصيل:

❁ **اتهامه بالزنا والعياذ بالله.**

فجاء في سفر صموئيل الثاني (١١: ٢-٥) قال: «وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره، وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت جميلة المنظر جدًا، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت اليعام امرأة أوريا الحثي؟! فأرسل داود رسلًا وأخذها فدخلت إليه، فاضطجع معها، وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود، وقالت إني حبلى».

فانظر أيها القارئ لهذا الاتهام الفاحش الذي يتورع عنه العقلاء في نسبته لصالحي الناس فضلًا عن الأنبياء -عليهم الصلوات والسلام-، قال الطاهر ابن عاشور: «وقد حكيت هذه القصة -أي قصة داود والمرأة- في سفر صموئيل الثاني في الإصحاح الحادي عشر على خلاف ما في القرآن، وعلى خلاف ما تقتضيه العصمة لنبوءة داود عليه السلام فاحذره»[2].

❁ **اتهامه بالقتل دون حق.**

بعد أن ذكروا اتهامه بالزنا والعياذ بالله، ولتكتمل القصة الدرامية في مخيلة اليهود، زعموا أنه مكر بزوج تلك المرأة لتغطية فعلته! فأمر بإرساله في وجه الموت ليموت، جاء في سفر صموئيل الثاني (١١: ٦-١٥)

(١) انظر: رسالة داود وسليمان في الأسفار اليهودية، مي المدهون ص ١٦٨-١٦٩. وأشير هنا إلى أن الموازنة فيما ذكرت عن صفات داود عليه السلام في العهد القديم والقرآن فحسب وليس لما يورد في كتب التفسير؛ لأن تلك الكتب هي التي يعتقد أهل كل ملة نسبتها إلى الله.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ٢٣٩.

بعد أن ذكروا أن داود سقاه الخمر، قال: «وكتب المكتوب -أي داود- يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت». فانظر إلى هذا التخطيط والمكر، أيعقل هذا من نبي كريم؟! حاشا والله.

- ادعاء داود الجنون.

جاء في سفر صموئيل الأول (٢١: ١٢-١٥) «فوضع داود هذا الكلام في قلبه، وخاف جدًا من أخيش ملك، فغير عقله في أعينهم، وتظاهر بالجنون بين أيديهم، وأخذ يخربش على مصاريع الباب، ويسيل ريقه على لحيته».

- قاطع طريق.

تصور الأسفار اليهودية المحرفة انشقاق داود عليه السلام عن الملك شاؤول، وهروبه إلى الفلسطينيين، وانعزالهم في مغارة، ثم قيامهم بغارات على المارة، وكان داود رئيسًا لهم، كما جاء في سفر صموئيل الأول (٢٢: ١-٥).

- الخداع.

ذكروا له موقفًا في خداع قومه بأن أخذ في أحد المعارك البقر والغنم والحمير والجمال والثياب، وقدمها لملك فلسطين وأخبره أنه غزا أعداءهم وهو لم يفعل، وصدقه الملك، قال: «صار داود مكروهًا لدى شعبه إسرائيل» انظر: سفر صموئيل الأول (٢٧: ١٢).

وغير ذلك من صور شنيعة لمن يزعمون تعظيمه، فما بالك بمن يكرهونه كمحمد عليه الصلاة والسلام، وباقي المسلمين.

وقد يستغرب المرء عندما يقرأ هذه الصفات القبيحة المنسوبة لنبي الله داود من قبل اليهود وعن علة ذلك.

وفي ذلك يقول البقاعي في نظم الدرر: «وأخبرني بعض من أسلم منهم -أي اليهود- أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام؛ لأن عيسى عليه السلام من ذريته ليجدوا السبيل إلى الطعن فيه»[1]. والله أعلم.

(١) نظم الدرر ٦/ ٣٧٦.
وذكرت مي المدهون أن بعض اليهود كانوا ينفون عن داود النبوة ويعتبرونه ملكًا فحسب.

آيات داود عليه السلام

أولًا: تسخير الجبال له وتسبيحها معه:

وهب الله لنبيه داود عليه السلام عددًا من الآيات ومن جملتها: تسخير الجبال والطير معه، فقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء:٧٩].

وقال أيضًا: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ:١٠].

وقال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص:١٧-١٩].

والآيات تذكر ما وهبه الله لداود وهي ثلاث آيات: تسخير الجبال، وتسخير الطير، وإلانة الحديد، وسنتناول هذه الآيات بشيء من التفصيل.

صدّر الله جل في علاه في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ منّته وفضله على داود، ثم بين ما وهبه من آيات، وفي ذلك إشعار لداود ولغيره من عباد الله أن هذه الفضائل هي من الله، ومستوجبة للشكر، فالمصدر والمنعم هو الله، وحسبنا بها من فضل.

وقبل الشروع في تسخير الجبال لداود أبين ما قيل في (الفضل) الذي أشارت إليه الآية آنفة الذكر، فقد قال القرطبي في تفسيره: «واختلف في هذا الفضل على تسعة أقوال:

الأول: النبوة.

الثاني: الزبور.

الثالث: العلم.

الرابع: القوة.

الخامس: تسخير الجبال والناس.

السادس: التوبة.

السابع: الحكم بالعدل.

الثامن: إلانة الحديد.

التاسع: حسن الصوت»[1]. انتهى مختصرًا.

والصواب -والله أعلم- أن الفضل المراد في هذه الآية هو ما ورد ذكره في نفس الآية، وبينه الله من تسبيح الجبال والطير وإلانة الحديد، وإن كان باقي أنواع الفضل نالها داود وثبتت بغير هذا الدليل.

فهذا الفضل الذي آتاه الله داود هو فضل عظيم، ونلحظ أن (فضلًا) جاءت بالتنكير، وهو تنكير للتفخيم[2]، كما أن لفظة (منا) تشير إلى أن الفضل من الله لداود بلا واسطة، لتأكيد فخامته الذاتية الإضافية، وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٦٠.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٢/ ٢٩.

بالمقدم والتشويق للمؤخر، ليتمكن في النفس عند وروده أفضل تمكن[1].

ومن اللطائف البلاغية في هذه الآية ما ذكره الزمخشري في الكشاف حيث قال: «ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى: من الدلالة على عزة الربوبية، وكبرياء الإلهية، حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا، إشعارًا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته، غير ممتنع على إرادته»[2].

والمتأمل في الآيات التي جاء ذكر ما آتاه الله لداود من تسخير الجبال والطير يجد أن الآيات قد جاءت بالجمع بينهما فما أن يذكر تسخير الجبال إلا ويذكر تسخير أو تسبيح الطير، وأيضًا جاء ذكر الجبال مقدمًا على ذكر الطير في الثلاث آيات، وفي علة ذلك يقول الزمخشري: «فإن قلت: لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد والطير حيوان، إلا أنه غير ناطق»[3].

وقد صاحب ذكر تسخير الجبال لداود عليه السلام بكلمتين هما ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ كما في سورة الأنبياء وسورة ص، وبكلمة ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ كما في سورة سبأ.

أما الكلمة الأولى فإن التسبيح معروف، وهو ظاهر الآيتين إلا أن هناك قولًا آخر فيه، فقد أخرج ابن جرير في تفسيره عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء:٧٩] أن المراد أي: يصلين مع داود إذا صلى، فجعل يسبح بمعنى يصلي[4].

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: «واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ فذهبت فرقة وهي الأكثر إلى أنه قول (سبحان الله)، وذهبت فرقة منها: منذر بن سعيد إلى أنه بمعنى: يصلين معه بصلاته»[5].

وقد يقال: لا يمنع أن يكون القولان بمعنى واحد، فالجبال تسبح مع داود، أي: بقول (سبحان الله)، وهي أيضًا تصلي معه، أي: تدعو الله وتذكره، ومعلوم أن ليس في صلاة داود الركوع والسجود الذي في شريعتنا، ولو كان فيها ذلك لما منع من حمل الصلاة على معناها اللغوي وهو الدعاء.

وأما ﴿أَوِّبِي﴾ فإن الفعل (أوّب) هو من آب يؤوب، والأوب في اللغة: الرجوع[6]، قال ابن جرير في تفسيره: «والتأويب عند

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٤.
(٣) الكشاف ٣/ ١٢٦.

(٤) جامع البيان ١٦/ ٣٢٨.
(٥) المحرر الوجيز ٦/ ١٨٨.
(٦) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٤٣٥.

العرب الرجوع»[١].

فإن الجبال كان ترجع مع داود تسبيحه، فداود عليه السلام يسبح وهي ترجع معه، أي: ترد الذكر والتسبيح[٢].

وبعد النظر في معنى ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ لغة، نجد أن المفسرين ذكروا في معنى تأويب الجبال ثلاثة معاني، وهي: التسبيح والترجيع، وتصرفي معه، وسيري معه.

فالقول الأول: سبحي معه، وهو قول ابن عباس وأبي ميسرة ومجاهد وقتادة وابن زيد والضحاك، أخرجه عنهم ابن جرير في تفسيره[٣].

قال ابن كثير: «الصواب رجعي معه، مسبحة معه»[٤].

والقول الثاني بمعنى: تصرفي معه[٥].

قال ابن جرير في تفسيره: «﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ قد كان بعضهم يقرؤه (أوبي معه) من آب يئوب، بمعنى تصرفي معه»[٦].

القول الثالث: بمعنى سيري معه، ذكره ابن عطية بلا نسبة في المحرر الوجيز[٧]، وهو قول أبي القاسم الزجاجي في كتابه الجمل قال: «أي: سيري معه بالنهار، والتأويب: سير النهار كله، والإسناد: سير الليل كله»[٨].

وتعقبه ابن كثير في تفسيره بقوله: «وهو غريب جدًا لم أجده لغيره، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية ها هنا»[٩].

وقول (سبحي ورجعي) يتفقان في المآل، فإن داود إذا سبح ثم سبحت بعده الجبال فقد سبحت ورجعت، أي: أعادت كلامه، وقد يشمل هذا التصرف، فإن التصرف -والله أعلم- المراد به متابعة داود فيما يتصرف به من كلام كالتسبيح، ويبقى القول الثاني وهو بمعنى السير وهو بعيد، كما ذكر ابن كثير وغيره، وإن كان ظاهر اللفظ يحتمله، ولكن تفاسير السلف على خلافه.

وعليه؛ فيكون الصواب في المراد بتأويب الجبال مع داود التسبيح والترجيع بدليل الآية الأخرى التي في سورة الأنبياء ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

وأما معنى تسبيح الجبال والطير فهو على حقيقته، والله قدير على كل شيء.

قال الأمين الشنقيطي: «والتحقيق أن

(١) جامع البيان ١٩/ ٢١٩.
(٢) انظر: المحرر الوجيز ٧/ ١٦١.
(٣) جامع البيان ١٩٦/ ٢٢٠-٢٢١.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٩٧.
(٥) الجامع في أحكام القرآن ١٧/ ٢٦١.
(٦) جامع البيان ١٩/ ٢١٩.
(٧) المحرر الوجيز ٧/ ١٦١.
(٨) الجمل في النحو ص١٥٢.
(٩) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٩٧. قال الشنقيطي عن هذا القول في أضواء البيان ٣/ ١٥٥: ساقط.

تسبيح الجبال والطير مع داود المذكور تسبيح حقيقي؛ لأن الله جل وعلا يجعل لها إدراكات تسبح بها، يعلمها هو جل وعلا ونحن لا نعلمها، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤] الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:٧٢] الآية.

وقد ثبت في صحيح البخاري أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي صلى الله عليه وسلم لما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سمع له حنين[١].

وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن)**[٢].

وأمثال هذا كثيرة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ٤/ ١٩٥، رقم ٥٨٣.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، ٤/ ١٧٨٢، رقم ٢٢٧٧.

والقاعدة المقررة عند العلماء أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

والتسبيح في اللغة: الإبعاد عن السوء، وفي اصطلاح الشرع: تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله[٣].

ثانيًا: تسبيح الطير والترديد:

ذكر الله تعالى تسخير الطير[٤] لداود عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠].

وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

والمراد أن الله سخر الجبال والطير يسبحن مع داود إذا سبح[٥]، فيكون قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ﴾ يعني: ونادينا الطير بمثل ذلك من ترجيع التسبيح معه[٦].

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٥٥.
(٤) مما يحتمل إضافته لآيات داود، علمه منطق الطير، فقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل:١٦].
والضمير في علّمنا يحتمل عوده على داود وسليمان عليهما السلام، ويحتمل عوده على سليمان فقط، قال البيضاوي في تفسيره ٢/ ١٧٣: «والضمير في علّمنا وأوتينا له ولأبيه عليهما الصلاة والسلام، أو له وحده على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة».
ورجح عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء ص٣٢٦ أن الضمير لداود وسليمان.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٢٨.
(٦) انظر: أضواء البيان ٣/ ١٥٥.

وجاء وصف اجتماع الطير لداود في قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ١٩﴾ [ص:١٩].

فيقول تعالى ذكره: وسخرنا الطير يسبحن معه محشورة بمعنى: مجموعة له[١]، وذهب قتادة فيما أخرجه عنه ابن جرير[٢] إلى أن معنى ﴿مَحْشُورَةً﴾ مسخَّرة، ومآل القولين -مجموعة أو مسخرة- واحد، فإن الله قد سخَّر لداود الطير، وجمعها له، وجعلها تسبح معه، أو تردد معه، فأحدهما متضمن للآخر.

ووصف الله هيئة الطير عند داود بقوله تعالى: ﴿مَحْشُورَةً﴾ بلفظ اسم المفعول؛ لأنه لم يرد أنها تحشر شيئًا إذ حاشرها هو الله تعالى[٣].

ومعنى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي: كل له مطيع، وهو قول قتادة وابن زيد[٤]، وقيل: كل ذلك لله مسبح، وهو قول السدي[٥].

فالخلاف آنف الذكر مبني على الخلاف في مرجع ضمير ﴿لَهُ﴾ وفيه قولان:

«أحدهما: ترجع إلى داود، أي: كل لداود أواب، أي: رجاع إلى طاعته وأمره، والمعنى: كل له مطيع بالتسبيح معه، وهذا قول الجمهور.

والثاني: أنها ترجع إلى الله تعالى، فالمعنى: كل مسبح لله، قاله السدي»[٦].

فوهب الله لداود تسخير بعض الكائنات، فأصبح يسبح وتردد معه الطير وغيرها، وكان داود عليه السلام قد رزقه الله صوتًا جميلًا عند تلاوته الزبور، ففي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أثنى على حسن صوت أبي موسى الأشعري لمّا سمع عذوبة قراءته وهو يتلو القرآن، فقال صلى الله عليه وسلم: (يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود)[٧].

ثالثًا: إلانة الحديد وصنع الدروع:

خلق الله الخلق، وجعل لكل شيء عناصره التي يتكون منها، وتستمد منه خصائصه التي تميزه عن غيره، ومن ذلك الحديد جعل الله فيه القوة والصلابة، بحيث لا يتغير شكله إلا بقوة خارجة عليه، مؤثرة فيه كالنار عندما يصهر بها، فإنه يلين، ثم يتم

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٣٧٤.
(٤) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٥-٤٦.
(٥) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٦.
(٦) انظر: زاد المسير ٧/ ١١١.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن ٦/ ١٩٥، رقم ٥٠٤٨ ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ١/ ٥٤٦، رقم ٧٩٣.

تشكيله بأشكال مختلفة ينتفع به الناس.

«فالحديد تراب معدني إذا صهر بالنار امتزج بعضه ببعض ولان وأمكن تطريقه وتشكيله، فإذا برد تصلب»[1].

ومن فضل الله على نبيه داود أنه آتاه آيةً حسيةً بأن ألان له الحديد بحيث يشكّله كما يشاء، فقال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠].

فكان الحديد في يديه كالطين المبلول يصرفه في يده كيف يشاء بغير إدخال نار ولا ضرب بحديد[2]. عن قتادة قال: «كان يسويها بيده ولا يدخلها نارًا، ولا يضربها بحديدة»[3].

وقيل: إن المراد أن الله أعطى داود قوةً يثني بها الحديد، فيكون التغيير ليس في ذات عنصر الحديد، ولكن بما رزق الله داود من قوة يؤثر على الحديد، ويثنيه ويحركه، ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز[4] ولم ينسبه لأحد، وذكر القولين الزمخشري في الكشاف[5].

وعلى كلا القولين فإنها آية من الله لداود عليه السلام سواءً ألان الحديد لداود بمحض قدرته سبحانه أم رزقه السبب والقوة التي يثني بها الحديد، والآية تحتمل القولين، وإن كان الأول أقوى لظاهر مدلول الآية أن الإلانة متجهة للحديد، والله أعلم.

وهنا يأتي علاقة قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠] بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص:١٧].

فإن الله ذكر ما منحه لداود من إلانة الحديد، وأثنى في موضع آخر بأن كان (ذا الأيد) واختلف المفسرون في معناها، ففريق نظر للقوة الحسية، وفريق للقوة المعنوية، فقيل: المعنى: ذا القوة، وهو قول ابن عباس[6]. وقيل: القوة في الطاعة، وهو قول مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد[7].

ولو دققنا النظر في عباراتهم لوجدنا أن تفسير ابن عباس مطلق في القوة دون تقييد بنوع القوة، بينما الآخرون قيدوا القوة بأنها في الطاعة، فعبارة ابن عباس أعم وأشمل من عبارتهم، فيدخل فيها القوة في الطاعة، والقوة في غيرها، فالخلاف خلاف تنوع، فذكر ابن عباس العام، وهم ذكروا نوعًا منه.

والصواب أن يقال: إن الله رزق داود القوة الحسية والمعنوية، وبه نجمع بين قولي السلف في الآية، وهو الأكمل في حق نبي الله داود، فأما في الدين فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما عن عبد الله بن عمرو

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٢٢.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٢٢.
(٤) المحرر الوجيز ٧/ ١٦٢.
(٥) الكشاف ٣/ ٤٥٥.
(٦) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤١.
(٧) أخرجه عنهم الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٠.

ابن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يومًا، ويفطر يومًا)[(١)].

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم جعل أعلى حد في الاجتهاد في الصوم كصيام داود، فقد كان صائمًا نصف الدهر، أخرج البخاري في صحيحه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو عندما قال: أطيق غير ذلك، فقال له: (فصم صوم داود) قال: وما صوم نبي الله داود؟ قال: (نصف الدهر)[(٢)].

وفيما سبق دلالة ظاهرة على قوته في الدين في الصلاة والصيام.

وأما قوته في الدنيا فإنه ظاهر المراد بالآية السابقة، كما أن الله امتدح داود في غير هذا الموضع بصنائع دنيوية كصنع الدروع، فالجمع حين ذلك بين المعنيين بأن يقال: بقوته في الدين وقوته في البدن، هو الأكمل والأحرى بداود، ومعنى الآية، قال ابن عطية في المحرر الوجيز: «و(الأيد) القوة، وهي في داود متضمنة قوة البدن وقوته على الطاعة»[(٣)].

وللشيخ عبد الرحمن السعدي توجيه لطيف في معنى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠] فإنه اعتبر أن إلانة الحديد لداود هي على جاري العادة بأن علمه الله الأسباب المعروفة لإذابتها، واستدل بأن الآية فيها امتنان على العباد بإلانة الحديد، ولا يقع الامتنان إلا فيما كان في مقدور العباد، قال السعدي: «يحتمل أن تعليم الله له على جاري العادة، وأن إلانة الحديد له بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها، وهذا هو الظاهر؛ لأن الله امتن بذلك على العباد، وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد لم يمتن عليهم بذلك، ويذكر فائدتها؛ لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام، متعذر أن يكون المراد أعيانها، وإنما المنة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب من نام عند السحر، ٢/ ٥٠، رقم ١١٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به ٢/ ٨١٦، رقم ١١٥٩.
إذا علمنا أن داود عليه السلام كان كثير العبادة بما ذكر، فإن العجب يزداد ويبلغ مداه إذا استشعرنا قوته في العبادة وهو ملك، قد جمعت له من ملذات الدنيا ما طاب فيها وما لذ، ولم تشغله عن عبادته وتميزه فيها عمن سبقه ولحقه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حق الضيف، ٨/ ٣١، رقم ٦١٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، ٢/ ٨١٦، رقم ١١٥٩.

(٣) المحرر الوجيز ٧/ ٣٣٠.

بالجنس، والاحتمال الذي ذكره المفسرون لا دليل عليه إلا قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠]وليس فيه أن الإلانة من دون سبب، والله أعلم بذلك»[١].

وعلى قول الشيخ السعدي لا تكون إلانة الحديد من المعجزات لداود، وإنما هو علم كشفه الله لداود وأسبابه المادية متوفرة لدى الخلق، وفي ظني أنه توجيه بعيد؛ لأن الآية جاءت في سياق فضائل داود عليه السلام، وذكر بعض معجزاته، فقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ:١٠].

كما أن الثناء على فضائل الأنبياء حتمًا ستميز فضيلتهم عن غيرهم من الخلق وعلى مر العصور، ونحن نجد أن الأسباب العلمية لإلانة الحديد قد اشتهرت وعرفت من أزمان بعيدة والآن لا تخفى على أحد، والأسمى لفضيلة داود أن تكون قوة وهبها الله له دون باقي الخلق، وبهذا يكون القول المتجه أنها كانت في حق داود عليه السلام آية، وليس هي من قبيل العلم الذي يمكن اكتسابه، كما أنها يمكن أن تكون فضيلة لداود وامتنان على من بعده من خلق الله في تعلمهم لتلك الصنعة، فهي لداود فضيلة، ولمن سواه امتنان عليهم، والله أعلم.

وذكر القرطبي في هذه الآية فضيلة تعلم الحرف والصنائع، فقال: «في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم»[٢].

ثم قال تعالى عقب الآية السابقة: ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ:١١].

فبين الله تعالى أمره لداود بأن يصنع دروعًا سابغات من الحديد الذي ألانه له، و(السابغات) هي: الدروع، وهو قول ابن زيد وقتادة[٣]. و(السرد) قيل هو: مسمار حلق الدروع، وهو قول قتادة[٤]. وقيل: هي الحلق بعينها، وهو قول ابن عباس وابن زيد[٥].

فنسج الدروع، أي: اجعل الحق والمسامير في نسجك الدروع بأقدار متناسبة[٦].

وكان داود عليه السلام أول من صنع الدروع، فقد أخرج ابن جرير في تفسيره[٧] عن قتادة قال: كانت قبل داود صفائح، وهو أول من صنع هذا الحلق.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٥٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٦٣.
(٣) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٢٣.
(٤) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٢٣.
(٥) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٢٣.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٥٦.
(٧) جامع البيان ١٦/ ٣٢٩.

وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ:١١] هو داخل في تفصيل فن الحرفة، وتلك الصنعة، قال ابن كثير في تفسيره: «هذا إرشاد من الله لنبيه داود عليه السلام، في تعليمه صنعة الدروع»[١].

وأما في تحديد المراد بالتقدير في السرد، فقال ابن عطية في المحرر الوجيز: «اختلف المتأولون في أي شيء هو التقدير من أشياء السرد، إذ السرد هو اتباع الشيء بالشيء من جنسه، فقال ابن زيد: التقدير الذي أمر به هو في قدر الحلقة، أي: لا تعملها صغيرة فتضعف ولا تقوى الدرع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة فينال لابسها من خلالها.

وقال ابن عباس: التقدير الذي أمر به هو المسمار يريد ثقبه حين يشد نتيرها.

وذكر البخاري في مصنفه ذلك، فقال: المعنى لا تدق المسمار فيسلسل، ويروى فيتسلسل، ولا تغلظه فيقصم بالقاف، وبالفاء أيضًا رواية.

وروى قتادة: أن الدروع كانت قبله صفائح فكانت ثقالًا، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفة والحصانة، أي: قدر ما يأخذ من هذين المعنيين بقسطه، أي: لا تقصد الحصانة فتثقل، ولا الخفة وحدها فتزيل المنعة»[٢].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير: «وفي معنى الكلام قولان:

أحدهما: عدّل المسمار في الحلقة ولا تصغّره فيقلق، ولا تعظّمه فتنفصم الحلقة، قاله مجاهد.

والثاني: لا تجعل حلقه واسعة فلا تقي صاحبها، قاله قتادة»[٣].

وقد نص الله سبحانه وتعالى على تصنيع داود للدروع، فقال جل ذكره: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾ [الأنبياء:٨٠].

فعلم الله داود صنعة الدروع فكان يصنعها أحكم صنعة؛ لتكون وقاية من الحرب، وسبب نجاة من العدو، فالمقصود بـ (اللبوس) هي الدروع[٤].

وقال الشنقيطي: «والدليل على أن المراد باللبوس في الآية الدروع أنه أتبعه بقوله: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: لتحرز وتقي بعضكم من بأس بعض؛ لأن الدرع تقيه ضرر الضرب بالسيف، والرمي بالرمح والسهم كما هو معروف»[٥].

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٩٨.
(٢) المحرر الوجيز ٧/ ١٦٢.
(٣) زاد المسير ٦/ ٤٣٧.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٦/ ١٨٩، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٥٨.
(٥) أضواء البيان ٣/ ١٥٦.

داود عليه السلام والفتنة

أولًا: حقيقة الفتنة ودخول الخصمين عليه:

لقد كثر كلام المفسرين في قصة دخول الخصمين على داود عليه السلام وحقيقة ما ظنّه أنه فتنة، وظاهر النص الوارد في القرآن أن فتنته حصلت عند تحاكم المتخاصمين لديه، ثم ظن داود أنه فتن فتاب وعاد إلى ربه وأناب، فغفر له الله ذلك، كما أن الفتنة جاءت في سياق تحاكم الخصمين، وفي ذلك إشارة لعلاقة ما ظنه فتنة بما دار في مجلس الحكم بين الخصمين.

وقد جاء ذكر فتنة داود في موضع واحد من القرآن في سورة ص، وهي سورة مكية[(١)].

قال فيها تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص:٢١-٢٥].

ولقد جال المفسرون في حقيقة الخصمين، وحقيقة تلك الفتنة، وارتباط الفتنة بتحاكم الخصمين، وأوردوا الكثير من الإسرائيليات في ذلك، منها ما قد يفهم منه البعض القدح في عصمة الأنبياء، فترتب عليه رد تلك الروايات، ومنه ما دون ذلك، ومنهم من رمى ذلك وراء ظهره، ولم يعول على تلك الإسرائيليات قط.

وقبل الخوض في تلك الفتنة والمراد بها أذكر معنى تلك الآيات بشرح إجمالي:

دخل على داود عليه السلام أشخاص أظهروا اختلافهم في قضية، وأظهروا النزاع فيها، وأرادوا أن يتحاكموا لداود، فدخلوا عليه من غير الهيئة المعهودة لديه؛ فتسوروا مكانه الذي كان يمكث فيه ليتعبد ربه، وتسبب دخولهم ذلك بالفزع لداود، فبادروه بتهدئته، وقالوا: لا تخف نحن خصمان، وشرحوا سبب مجيئهم له مباشرة؛ ليسكن روعه، ثم وجهوا لداود -بين يدي خصومتهم- النصيحة بأن يحكم بينهم بالعدل، ولا يسرف، أو يحف في حكمه، وأن يرشدهم إلى الحق والطريق المستقيم.

ثم بينوا له الواقعة، وهو أنه حصل بغي من أحدهما على الآخر، فقد كان لأحدهم تسع وتسعون نعجة، والآخر له واحدة، فطلب

(١) انظر: عدد السور، ابن عبد الكافي ص٣٧٧.

منه صاحب الأكثر أن يتركها له، وغلبه في خطابه معه حتى أدركها أو كاد، فحكم داود بأن صاحب الأكثر قد أخطأ في طلبه، وأن الظلم يقع بين الشركاء إلا من اتقى الله.

وعلم داود أنه قد وقع في فتنة وابتلاء، فاستغفر ربه، ورجع إليه أن يكون قد وقع في زلل أو خطأ، فغفر الله له ذلك، وبين ما له عند ربه من منزلة ومكانة عالية.

وإلى هنا انتهى تفسير الآيات إجماليًا، وراعيت فيه أن يكون موافقًا لجملة الأقوال التي قيلت في فتنة داود، أو في حقيقة الخصمين والنعجة.

وبالنظر في حقيقة هذه القصة نجد أن ثمة مسائل تقوم عليها كحقيقة الخصمين، ومعنى النعجة، وهل للخصومة ارتباط بفتنة داود؟ ثم حقيقة الفتنة الواقعة، فأركان القصة أربعة، وفيها ترابط في معناها، وتداخل مع تفسير القصة، وبين الأقوال تلك من الارتباط والتداخل الشيء الكثير؛ ولتجلية موقف المفسرين في ذلك يمكن جعل مواقف المفسرين في ثلاثة مسالك:

المسلك الأول: هو حمل القصة على ظاهرها، وأن المتخاصمين الذين دخلوا على داود هم من الإنس، وذهب إلى هذا القول النقاش[1]، وابن حزم الظاهري[2]، والفخر الرازي[3]، والسبكي[4]، وأبو حيان الأندلسي[5].

واتفق أصحاب هذا القول على أن المراد بالنعجة هو المعنى الحقيقي للماشية، ورجحه أبو حيان في البحر المحيط، فقال: «والظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن، ولا يكنّى بها عن المرأة، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك»[6].

ثم اختلف أصحاب هذا المسلك في حقيقة فتنة داود، فذهبوا فيه إلى أربعة مذاهب، هي:

الأول: أن داود ظنّ أن الداخلين عليه دخلوا لاغتياله.

وإليه ذهب الفخر الرازي في تفسيره[7]، وأبو حيان في البحر المحيط، وقال: «والذي يذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل، وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظانًا أنهم يغتالونه؛ إذ كان منفردًا في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة، وبرز منهم اثنان للتحاكم، كما قص الله

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٤٧.
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٣٠٥.
(٣) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٨١.
(٤) في كتابه: القول المحمود في تنزيه داود، نقله عنه السيوطي في الإكليل ٣/ ١١٤٠.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٣٧٧.
(٦) المصدر السابق ٧/ ٣٧٦.
(٧) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٨١.

تعالى، وأن داود عليه السلام ظن دخولهم عليه في ذلك الوقت، ومن تلك الجهة إنقاذ من الله له أن يغتالوه، فلم يقع ما كان ظنه، فاستغفر من ذلك الظن، حيث أخلف ولم يكن يقع مظنونه، وخر ساجدًا، أو رجع إلى الله تعالى فغفر له ذلك الظن»[(١)].

الثاني: أنه تعجل في إصدار الحكم بعدما سمع من الأول، ولم يسمع من الطرف الآخر:

ذهب إلى هذا القول أبو عبد الله الحليمي في منهاج الدين[(٢)].

وحكى هذا القول -دون نسبة- ابن عطية في المحرر الوجيز وضعّفه، فقال: «وهذا ضعيف من وجوه؛ لأنه خالف متظاهر الروايات، وأيضًا فقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ معناه: أن ظهر صدقك ببيّنة أو باعتراف، وهذا من بلاغة الحاكم التي ترد المعوج إلى الحق، وتفهمه ما عند القاضي من الفطنة»[(٣)].

ووجه ابن المنير هذا القول في حاشيته على الكشاف[(٤)] بتعليق لطيف قال فيه: «مقصود هذا القائل تنزيه داود عن ذنب يبعثه عليه شهوة النساء، فأخذ الآية على ظاهرها، وصرف الذنب إلى العجلة في نسبة الظلم إلى المدعى عليه؛ لأن الباعث على ذلك في الغالب إنما هو التهاب الغضب وكراهيته أخف مما يكون الباعث عليه الشهوة والهوى، ولعل هذا القائل يؤكد رأيه في الآية بقوله تعالى عقبها وصية لداود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص:٢٦].

فما جرت العناية بتوصيته فيما يتعلق بالأحكام إلا والذي صدر منه أولًا وبان منه من قبيل ما وقع له في الحكم بين الناس».

الثالث: أن داود ظن أن الله امتحنه واختبره في وقت عبادته، هل يترك العبادة ليشتغل بالحكم، أو يترك الحكم ليشتغل بالعبادة، ذكره السبكي[(٥)].

الرابع: لم يكن ثمة ذنب يستوجب الاستغفار؛ بل هم من سمت الأنبياء تلبسهم بهذه الأفعال الكريمة «والاستغفار فعل خير لا ينكر ملك ولا نبي، ولا من مذنب ولا من غير مذنب، وإنما قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص:٢٤].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٧٧.
وهو قول أبي شهبة في كتابه: الإسرائيليات ص٢٦٩.

(٢) عزاه له القرطبي في تفسيره ١٨/ ١٧٠، ومحققو الكتاب عزوه للمنهاج ٢/ ٥٥١-٥٥٢.

(٣) المحرر الوجيز ٧/ ٣٣٩.
ومن ضعفه: ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ٥٥، والألوسي في روح المعاني ١٣/ ٢٥١.

(٤) الانتصاف من الكشاف، ابن المنيّر بهامش الكشاف ٤/ ٨٥.

(٥) في كتابه القول المحمود في تنزيه داود، نقله عنه السيوطي في الإكليل ٣/ ١١٤٠.

وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ [ص:٢٥].

فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما أتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة.

وهو قول ابن حزم[١]، والقاضي عياض[٢].

المسلك الثاني: أن القصة ليست حقيقية، وإنما مجرد تمثيل، وعليه فإن الخصمين ملكان[٣]، وفتنة داود كانت بسبب امرأة، وأن المراد بكلمة (نعجة) كناية عن المرأة، قال المبرد في الكامل: «العرب تكنّي عن المرأة بالبقرة والنعجة»[٤]. ثم جاءت الملائكة لتنبيه داود على ما وقع فيه من زلة.

قال الطبري في تفسيره: «هذا مثلٌ ضربه الخصم المتسوّرون على داود محرابه»[٥].

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: «ولا خلاف بين أهل التأويل[٦] أن هؤلاء الخصم إنما كانوا ملائكة، بعثهم الله تعالى ضرب مثل لداود عليه السلام، فاختصموا إليه في نازلة قد وقع هو في نحوها، فأفتى بفتيا هي واقع عليه في نازلته»[٧].

وفي إثبات أنهما ملكان، وأن الفتنة بسبب المرأة، قال الواحدي في البسيط: «وظاهر القرآن يوجب أن يكون داود قد كلّم أوريا في امرأته؛ لأن خصومة الملكين تمثيل لهذه القصة»[٨]. وفي نفس الموضع قال: «قال أهل التحقيق من علماء التأويل: جعل الله قصة الملكين تمثيلًا لداود أمره مع أوريا، وسلسلها له على ما فعل ليتوب ويراجع ربه فيستغفر».

وممن ذهب إلى هذا المسلك -على اختلاف توجيهاتهم للقصة-: ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، والسدي، وابن جرير، وأبو جعفر النحاس، والجصاص، والكيا الهراسي، والثعلبي، وابن العربي، والقاضي أبو يعلى، وابن عطية، والواحدي، والزمخشري -كما سيأتي-. والقائلون بهذا المسلك لهم ثلاثة أقوال في توجيه القصة:

الأول: أن داود طلب من زوج المرأة أن

---

(١) الفصل، ابن حزم ٢/ ٣٠٥ ومابين القوسين من الفصل.

(٢) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٣٧٣.

(٣) عند الواحدي في البسيط ١٩/ ١٧٨ قال ابن عباس: هما جبريل وميكائيل.

(٤) الكامل في اللغة والأدب ١/ ٣٠٧.
ومن اختار أن النعجة بمعنى المرأة في الآية، وإن اختلف تفسيرهم للقصة: الطبري في تفسيره ٢٠/ ٦١، والجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٥٦٠، والثعلبي في الكشف والبيان ٨/ ١٨٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٧/ ٣٣٧، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ٤٩، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٨١، والواحدي في البسيط ١٩/ ١٨٢.

(٥) جامع البيان ٢٠/ ٥٨.

(٦) مقصود ابن عطية عدم وجود الخلاف عند المتقدمين من الصحابة والتابعين.

(٧) المحرر الوجيز ٧/ ٣٣٤.

(٨) البسيط ١٩/ ١٨٥.

ينزل له عنها، وبهذا عوتب، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس، أخرجه عنهما ابن جرير في تفسيره[1] أنهما قالا: «ما زاد داود على أن قال: انزل لي عنها».

وقال بهذا القول: النحاس، والجصاص، والكيا الهراسي، والقاضي أبو يعلى، وابن العربي، والزمخشري، وابن عاشور[2].

قال النحاس: «قول العلماء المتقدمين الذين لا يدفع قولهم، منهم: عبد الله بن مسعود وابن عباس رحمهما الله فإنهم قالوا: «ما زاد داود عليه السلام على أن قال للرجل: انزل عن امرأتك»[3].

فعاتبه الله جل وعز على هذا، ونبّهه عليه، وليس هذا بكبير من المعاصي، ومن يخطي إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصح عن عالم، ويلحقه فيه الإثم العظيم».

الثاني: منهم من أخذ بكامل القصة، وهي أن داود نظر إلى امرأة وهي تغتسل فأعجب بها، ثم قدّم زوجها في القتال في مظان الموت؛ ليتزوجها بعد موته أو تزوجها، وهو مروي عن ابن عباس، والسدي، والحسن، ووهب بن منبه[4]، وروي من طريق أنس مرفوعًا[5] وهو قول الثعلبي في الكشف والبيان[6]. ولا يعني هذا صحة كل تفاصيل القصة ونسبتها لهم، بل الصحيح أن أصل القصة هو ما يمكن نسبته لهم، وهو القدر المشترك بينهم، مع إمكانية وقوع الخلاف في تفاصيل القصة بمجموع مروياتها، وهذا لا يؤثر على القدر المشترك المتفق عليه في تلك المرويات.

الثالث: أن داود لم يتوجع على قتل زوج المرأة، ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز[7]. وهو أبعد الأقوال في هذا المسلك.

وجاء النكير من المفسرين على أصحاب هذا المسلك، وكان المنكرون على نوعين، إما ينكر كل قصة نظر داود إلى المرأة، ولم

(١) جامع البيان ٢٠/ ٥٩.

(٢) انظر: إعراب القرآن، النحاس، ٣/ ٤٦١، أحكام القرآن، الجصاص، ٣/ ٥٦٠، أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/ ٣٥٩، أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٥٤، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٨، التحرير والتنوير ٢٣/ ١٣٨.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٤٦١.

(٤) أخرجه عنهم الطبري في تفسيره ٢٠/ ٦٤-٧٥، وهو ظاهر قوله فإنه لم يعلق على المرويات، ونسب هذا القول له القاسمي في محاسن التأويل ١٤/ ١٥٦.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٧٤.

(٦) الكشف والبيان ٧/ ١٨٦.

وحكى ابن عطية في المحرر الوجيز ٧/ ٣٣٥ أن ذلك الفعل كان مجرد همٍّ من داود ولم يفعله، وأن المعاتبة كانت على الهمّ. وهذا مما قد يستدرك على ابن عطية؛ لأن مصدره في أصل القول الذي اختاره ثم استدرك عليه بأنه مجرد همٍّ هو من المرويات الإسرائيلية التي رواها، وليس فيها ما يشير إلى أنه همّ من داود، فهو تحكم في المصدر دافعه تنزيه داود عن فعل ما لا يسوغ في نظر ابن عطية، والله أعلم.

(٧) المحرر الوجيز ٧/ ٣٣٥.

يقبل أن يكون حقيقة الخصمان مثل، وأنهما من الملائكة، وإما أن يثبت أن الموقف تمثيل، ولكنه أنكر نظر داود إلى المرأة وتسببه في مقتل زوجها، فبينهم عموم وخصوص.

فكلهم أنكر أن يكون داود نظر إلى المرأة وافتتن بها، ثم تسبب في قتل زوجها ليتزوجها، والبعض أنكر أن يكون الخصمين ملائكة.

قال أبو حيان: «ذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، ضربنا عن ذكرها صفحًا»[1].

وقال ابن الجوزي: «ذكر جماعة من المفسرين أن داود لما نظر إلى المرأة سأل عنها، وبعث زوجها إلى الغزاة مرة بعد مرة إلى أن قتل، فتزوجها، وروي مثل هذا عن ابن عباس ووهب والحسن في جماعة، وهذا لا يصح من طريق النقل، ولا يجوز من حيث المعنى؛ لأن الأنبياء منزهون عنه». وقال: «فأما ما روي أنه نظر إلى المرأة فهويها، وقدّم زوجها للقتل، فإنه وجه لا يجوز على الأنبياء؛ لأن الأنبياء لا يأتون المعاصي مع العلم بها»[2].

وقال الفخر الرازي: «فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها: أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها، فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبًا، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة، والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس، وأشدهم فجورًا لاستنكف منها، والرجل الحشوي الخبيث الذي يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه، وربما لعن من ينسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه.

الثاني: أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين: إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق، وإلى الطمع في زوجته، وكلاهما منكر، وإن أوريا لم يسلم من داود لا في روحه ولا في منكوحه.

والثالث: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة، ووصفه أيضًا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة، وكل هذه الصفات تنافي

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٧٥.

(٢) زاد المسير ٧/ ١١٥-١١٧.

قال ابن الجوزي هذا القول، وقد سبق أن نقلت عنه قوله: «عن قصة نظر داود إلى المرأة عليه أكثر المفسرين». فإما أن يكون إنكاره لتفاصيل في القصة، أو أنه نقل ذلك عن أكثر المفسرين ولم يختاره.

كونه عليه السلام موصوفًا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح»[1]. انتهى بتصرف طفيف.

وأما من أنكر نظر داود للمرأة، وافتتانه بها، وتسببه في قتل زوجها، ولكنه لم ينكر قصة الملكين، وأنهما تمثلا بحال الخصمين الزمخشري[2]، وابن العربي المالكي[3]، والجصاص[4]، فجاءت في عباراتهم النكير على المرويات الإسرائيلية التي أسهبت في وصف نظر داود للمرأة وافتتانه بها، ولكنهم أثبتوا واختاروا أن الخصمين ملكان، وأنهما جاءا لموعظة داود.

وسلك الألوسي في روح المعاني منهجًا متوسطًا في ذلك دون البيان عما يرجحه، فقد ساق جملة القصص والأقوال التي رويت في قصة فتنة داود، ثم قال عقبها: «وعندي أن ترك الأخبار بالكلية في القصة مما لا يكاد يقبله المنصف، نعم لا يقبل منها ما فيه إخلال بمنصب النبوة، ولا يقبل تأويلًا يندفع معه ذلك، ولا بد من القول بأنه لم يكن منه عليه السلام إلا ترك ما هو الأولى بعلي شأنه، والاستغفار منه، وهو لا يخل بالعصمة»[5].

المسلك الثالث: التوقف في حقيقة القصة، وتفويض علمها إلى الله، وحمل القرآن على ظاهره دون التفصيل في فتنة داود:

وممن ذهب إلى هذا المسلك ابن كثير والسعدي، فقال ابن كثير في تفسيره: «ذكر المفسرون ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يردّ علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا»[6].

وقال السعدي في تفسيره: «وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره؛ فالتعرض له من باب التكلف؛ وإنما الفائدة ما قصّه الله علينا من لطفه به، وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محلّه، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها»[7].

تحليل المسالك الثلاثة والترجيح:

بعد النظر والتأمل فيما سبق إيراده، وبعد سرد ونظم لأقوال المفسرين واختلافاتهم من مؤكد لقصة المرأة ونافٍ لها، ومن مؤكد لارتباط فتنة داود بقصة الخصمين، ومن نفى ذلك، نستخلص النتائج التالية:

أولًا: جميع المفسرين والعلماء يجمعون على عصمة الأنبياء، ومنهم داود عليه السلام

(١) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٧٧.
(٢) الكشاف ٤/ ٧٨.
(٣) أحكام القرآن ٤/ ٥٤.
(٤) أحكام القرآن ٣/ ٥٦٠.
(٥) روح المعاني ٢٣/ ٢٦٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٦٠.
(٧) تيسير الكريم الرحمن ص٧١١.

من الكبائر، وحكى الإجماع على ذلك ابن العربي[1]، كالزنا مثلًا.

ولذا فلا يصح بحال من الأحوال اتهام داود بفعل الفاحشة مع المرأة، بل هو منزه عن ذلك قطعًا، والمفسرون أجل من أن يرموا نبي الله بفعل فاحشة، كما أنه لم يرد مثل ذلك في كتب التفسير أبدًا، وقد ترفعوا عن روايتها -ولو روتها كتب بني إسرائيل كما ورد في العهد القديم-؛ ولذا فكل من قام بالتشنيع على من روى القصة إنما هو فيما دون فعل الفاحشة.

ثانيًا: انقسم المفسرون إلى فريقين في ضرورة حكاية القصة لفهم الآيات، فمر معنا أن ابن عطية جعل بعض تلك الأخبار جزءًا هامًا يقوم عليه تفسير الآيات، وكذا الألوسي قد اعتبر ترك الأخبار جملة لا يقبله منصف.

وأما الاتجاه الآخر وعلى رأسه ابن كثير فإنه رأى ضرورة إغفالها، وأنها لا تقدم مفيدًا في تفسير القصة، فلا يوجد اتفاق على حكايتها، أو عدم حكايتها بالنظر لجملة عصور المفسرين ككل، ويبقى الحال لاجتهاد المفسر، ويظهر أن حجة من نفى ضرورة حكاية الأخبار أنه يرى فيها قدحًا في العصمة، وليس ذلك على إطلاقه، فإن بعض الروايات قد ترد وبعضها قد يحكى ولا ضير فيه، وليس فيها ما يقدح في عصمة الأنبياء.

وإن كان ينبغي التأكيد على أن العبرة في منهج أصحاب القرون المفضلة في تفسير آيات الكتاب العزيز وهو بمثابة الميزان على العصور التي بعدها.

ثالثًا: مما يحيد بمسار البحث العلمي والبحث عن القول الصحيح استخدام عبارات فيها تشنيع وتقبيح لأفعال لا يرضها أي مسلم أو عاقل؛ لتكون حاجزًا نفسيًا يحول دون مجرد النظر في القول الآخر؛ فضلًا عن إمكانية صوابه.

فمثلًا يقول الفخر الرازي في تفسيره تشنيعًا على القول بقصة داود ونظره للمرأة وموت زوجها: «لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص:٢٥] لائقًا به»[2].

وأي عاقل ستسول له نفسه الظن -مجرد ظن- بأن نبيًا لله يسعى في الفجور والقتل بغير حق؟! هذا أقرب إلى ما يسمى بالإرهاب الفكري! وكان الأحرى البعد عن استخدام العبارات النارية الصارفة للقارئ عن مرويات السلف، والنظر فيها بعين البحث العلمي لا بعين الحكم المسبق أو الألفاظ الرنانة.

رابعًا: الداعي لاستشناع المروي عن

(١) أحكام القرآن ٤/ ٥١.

(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٧٨.

الصحابة والتابعين في قصة داود ورده -لدى البعض- إنما هو الدليل العقلي المجرد ورد خبر الآحاد بالقطعيات.

ومن ذلك ما قاله الفخر الرازي في تفسيره: «نقول: إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقيقيةً صحيحةً، فإن روايتها وذكرها لا يوجب شيئًا من الثواب؛ لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلةً فاسدةً فإن ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها، فإن صريح العقل يوجب السكوت عنها، فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه، وأن شرح تلك القصة محرم محظور»[١].

وقال الرازي: «فإن قال قائل: إن كثيرًا من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة فكيف الحال فيها؟

فالجواب الحقيقي: أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى»[٢].

خامسًا: حكاية نظر داود للمرأة ورغبته في نكاحها إنما رواه أئمة كبار من المفسرين من سلف الأمة، فقول ينسب لابن مسعود، ولابن عباس، والحسن، والسدي، ووهب ابن منبه، لا يصح رميه بأسوأ الأوصاف والألقاب لمجرد استشناع ما جاء في الروايات والاستقباح النفسي لها، بل إن منهج الرد والقبول له طريقه العلمي متى ما سلك أوصل إلى الصواب في منهجية البحث.

وقد يقال: إنّ من أغلظ في رده إنما اعتمد على عدم صحة نسبة تلك الأقوال إليهم، فإننا نقول: إنه لم يبين ضعف تلك الأسانيد، كما أنه قد قبل مروياتهم الأخرى وبذات السند المساق في هذه الروايات، فما وجه الفرق إذن ؟!

كما أن كثيرًا من كتب التفسير روتها لوجود الإذن الصريح من النبي صلى الله عليه وسلم في حكاية مرويات بني إسرائيل، كما أن كبير المفسرين ابن جرير الطبري قد حكى تلك الروايات عنهم، وهو من أئمة هذا الشأن، وكذا القاضي ابن عطية الغرناطي، ولا يغيب عليهما ما ورد في أذهان المتأخرين أو بعض المعاصرين من عدم صحة نسبة تلك الأقوال إليهم، أو احتمال تنقص نبي الله داود بمروياتهم.

وإذا علمنا أن ابن جرير وهو إمام المفسرين في زمانه وابن عطية قد حكوها، فإن العجب لا ينقضي من الباحث الذي يشتد نكيره على من رواها، ويقول: «وقد أعجب

(١) المصدر السابق ٩/ ٣٧٩.
(٢) المصدر السابق ٩/ ٣٨٠.

بعض المفسرين بهذه التفاصيل الإسرائيلية المكذوبة، فسجّلوها في تفاسيرهم، وفسّروا بها آيات القصة، ونسوا أنهم يتحدثون عن نبي رسول كريم، عصمه الله وحفظه، فكان أتقى وأفضل الناس» إلى أن قال: «أما المفسرون والمؤرخون المنهجيون فقد رفضوا تلك الإسرائيليات»[(١)].

ونلحظ أنه وصف من رفض تلك الإسرائيليات بالمنهجيين، فمن هم أولئك عنده؟ قال: «من هؤلاء ابن كثير وسيد قطب». ولازم قوله أن ابن جرير وابن عطية ليسوا من المفسرين المنهجيين! إن في ذلك مبالغة، وتزهيد للناس في إمام من أئمة هذا العلم، وكثير ممن جاء بعده إنما هم عالة عليه، كما أن له قدم السبق في التحرير والترجيح، وليس في جانب الرواية فقط. كما أن نقده لا يتجاوز أن يكون تشنيعًا بالألفاظ ممن يقدر عليه كل أحد، وإنما الحجة للدليل والبرهان مع حفظ مقام القامات العلمية المتخصصة من ذوي التفسير والتاريخ.

سادسًا: غالب من أنكر وشنع على من قال بقصة نظر داود للمرأة، ورغبته في استشهاد زوجها ليتمكن من تزوجها، انطلقوا من نقاط ثلاث: نظر داود للمرأة، أو استرساله في النظر لها، أو مساهمته في إراقة دم زوجها، أو تتبعه للدنيا وحرصه عليها.

وعند تأمل ذلك وتفنيده نجد أن ما ورد في الروايات ليس فيه قدحًا في عصمة داود، فإن النظر للمرأة كان فجأة، وهو معفو عنه بالإجماع، كما نص عليه ابن العربي[(٢)].

ولا يتصور بنبي الله أن ينظر لها فجأةً وأدام النظر استمتاعًا بها، إن ذلك لا دليل عليه، ولم يقل به أحدٌ من السلف، وليس هو من أخلاق الصالحين فضلًا عن الأنبياء، ولو فرضنا جدلًا أن ذنب داود كان إعادة النظر للمرأة فإن ذلك صغيرة وليس كبيرة، وعصمة الأنبياء في الصغائر فيها خلاف بين أهل العلم؛ ولذا فمن روى رواية فيها إثبات صغيرة لنبي وهو لا يرى بعصمتهم في الصغائر فإن له ذلك من هذا الوجه.

أما موت زوجها فلا نقطع بموته كما لا نقطع بأن داود سعى في هلاكه؛ لأن معتمد من قال به إنما تفاصيل المرويات الإسرائيلية، ولا يمكن الجزم بها، ثم إنه قد يدخل باب التأويل، فإن الزوج كان يقاتل في سبيل الله؛ وذلك مظنة قتله فتقدمه وتأخره في المعركة ليس فيه تحول جذري، بل كل مواطن المعركة مظنة الموت.

أما تتبعه للدنيا -كما قيل في لحاقه بالحمامة- فإنه لا يقدح في داود عليه السلام لو وقع ذلك فعلًا، فإنه كان ملكًا ولم يذمه على ذلك من أحد، بل عدوها منقبةً له بما

(١) القصص القرآني، صلاح الخالدي ٣/ ٤٥٢.

(٢) أحكام القرآن ٤/ ٥٤.

آتاه الله، وتتبع الدنيا بما لا يلهي عن ذكر الله وطاعته، وبما لا يوقع في المحظور لا يعد ذنبًا فضلًا أن يكون فيه قدحًا في العصمة.

سابعًا: أهم الركائز التي يدور عليها الخلاف هو ارتباط قصة الخصمين بفتنة داود، ومن نفى ذلك الارتباط فإنه قد دفعه لذلك تصوره أن ثمة ارتباطًا بين فتنة داود بقصة المرأة وتفاصيل ما حدث، فسلك طريق النفي لاعتقاده أنه أسلم.

ثامنًا: كل من فسّر فتنة داود بأن له علاقة بالمرأة فإن معتمده على الروايات الإسرائيلية، ولا حرج عليه -ويلزم من روايته لها أنه كان يعتقد أنه ليس ثمة ما يقدح في عصمة نبي الله داود فيما رواه- في رواياتها للإذن النبوي الذي سبق ذكره، وذلك في حالة صحته عنه.

الترجيح:

بالنظر في نص الآيات فحسب فإنه ليس فيها ما يجزم بحقيقة القول في فتنة داود، وبالاعتماد على أصول التفسير فإنه لا يوجد ما يفسر لنا ذلك إلا بالمروي عن الصحابة والتابعين.

وأما ما ورد في الحديث المرفوع الذي أخرجه ابن جرير في تفسيره فإنه ضعيف، وقد ضعّف إسناده ابن كثير في تفسيره، فقال: «ولم يثبت فيها -أي فتنة داود- عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثًا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس - ويزيد وإن كان من الصالحين- لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة»[(١)].

وكذا ضعفه القاسمي في محاسن التأويل[(٢)].

وتأخير ابن جرير له في إيراده في تفسيره قد يشير إلى تضعيفه له.

وأما ما روي عن الصحابة والتابعين فإنها لا تخرج عن مرويات إسرائيلية في عمومها، لا حرج عليهم في روايتها، قال القاسمي: «وأما الموقوف من ذلك على الصحب والأتباع -رضي الله عنهم-، فمعوّلهم في ذلك ما ذكر في التوراة من هذا النبأ، أو الثقة بمن حكي عنه، وينبني على ذلك ذهابهم إلى تجويز مثل هذا على الأنبياء»[(٣)].

وكما هو مقرر في أصول التفسير من اعتبار تفسير الصحابي والتابعي واعتبارها حجة عند عدم وجود المخالف، فإن ما روي عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهم يجعلنا نطمئن إلى أن فتنة داود عليه السلام كانت في طلبه من زوج المرأة أن يتنازل له عنها، وأن الملكين جاءا له في هيئة رجال لإشعاره بما وقع فيه من فتنة لا توافق مقام الأنبياء العلي.

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٦٠.
(٢) محاسن التأويل ١٤/ ١٥٦.
(٣) المصدر السابق.

وأما تفاصيل القصة فكما أننا لا نجد اتفاقًا عليها في كل المرويات، فإن الجزم بصحة التفاصيل دونه خرط القتاد، ولا يلزم من ذلك القول بنفي أصل القصة، والله تعالى أعلم.

وأما من سلك تجاهل الروايات تلك فلا يضره ما لم يخالف منهجه العلمي المنصوص عليه في تفسيره أو المستقرأ منه، ومن شنّع على المفسرين الذين رووا تلك المرويات فلا يحق له ذلك التشنيع لوجود الإذن النبوي برواية الإسرائيليات دون الجزم بالتصديق أو التكذيب لذاتها، وقد مر ذكر الحديث الذي رواه البخاري، وهذا من الناحية النظرية، وثانيًا من ناحية عملية؛ لأن روايتها جاءت عن بعض الصحابة رضوان الله عنهم.

ثانيًا: الإنابة والاستغفار:

أثنى الله عز وجل على نبيه داود عليه السلام بصفات علية، كالاستغفار والإنابة والأوبة، قال جل وعلا: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤].

وقال عنه أيضًا: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧] ومعنى (أناب)، أي: رجع إلى ربه وتاب[١]، وفي (راكعًا)، أي: خرّ ساجدًا[٢] قال ابن العربي: «لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع ها هنا: السجود»[٣].

وحكى ابن تيمية الإجماع في ذلك، فقال: «وأما قوله عن داود عليه السلام: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ [ص:٢٤] لا ريب أنه سجد، كما ثبت بالسنة وإجماع المسلمين أنه سجد لله»[٤].

وأما (أواب) فإنه من الأوبة، والأوبة الرجوع، والأواب: الرّجّاع الذي يرجع إلى التوبة والطاعة[٥].

واختلف قول المفسرين فيها، وكلها ترجع إلى جنس واحد، وهو حسن إقباله على ربه وطاعته له، فذهب مجاهد وابن زيد[٦] إلى أن معنى أواب: هو الرّجاع عن الذنب، وذهب قتادة[٧] إلى أنه المطيع لله كثير الصلاة، وأما السدي[٨] ففسره بالمسبّح، وفسّره الضحاك[٩] بأنه التوّاب.

وكل هذه الأقوال تعود لجنس واحد في معناه كما ذكرت، فيعدّ خلافهم اختلاف تنوع.

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٤.

(٢) هو قول ابن جرير في تفسيره ٢٠/ ٦٤ وقيل غير ذلك، فالخلاف موجود كما ذكر ابن عاشور في التحرير والتنوير ٢٣/ ٢٤٠.

(٣) أحكام القرآن ٤/ ٥٧.

(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٣/ ١٤٥.

(٥) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢١٩.

(٦) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٢.

(٧) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٢.

(٨) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٣.

(٩) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٤٤.

واختار ابن كثير قولًا عامًا يجمع ما سبق إيراده من أقوال، فقال في تفسيره: «هو الرجاع إلى الله في جميع أموره وشؤونه»[١].

وجاءت هاتين الآيتين في موضعين، بداية ذكر قصة دخول الخصمين وفي نهايتها، فقبل أن يذكر الله ما ظنه داود من وقع الفتنة له قال قبله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧]، وبعد أن ذكر الحادثة قال عقبها: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤]، فكانت النتيجة بعد استغفاره أن الله قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص:٢٥]، واسم الإشارة في قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ يحتمل عوده إلى ذلك الذنب، كما فسّره قتادة[٢]، وعمّم العبارة البيضاوي فقال: «أي: ما استغفر منه»[٣].

ومدار خلافهم مبني على تفسيرهم لأصل فتنة داود، وعليه تنوعت تفاسيرهم لهذه العبارة، وسبق بيان ذلك بتوسع.

فبدأ وختم بذكر فضيلة داود في الاستغفار والإنابة إلى ربه؛ للتأكيد على حسن علاقة داود بربه في حال سرائه وضرائه، وهذا حاله عند وقوع فتنة له.

فما أعظمه من ثناء على داود من ربه بأنه رجاع إلى الحق، ومنيب تائب إلى ربه، وكل ذلك من عناية الله بداود عليه السلام، والتأكيد على منزلته ومكانته عند مولاه؛ ولئلا يظن به أحد الأغرار سوءًا بعد ما حكي من ظنه الفتنة -أيًا كانت تلك الفتنة- فإنها لم تنقص قدره ومنزلته، بل فيها رفعة وسمو له؛ لأنه يعرف طريق ربه، فعندما ظن أنه وقوع في الفتنة تاب وأناب ورجع لربه.

بل جاء التصريح والتأكيد بعلو منزلته؛ ليتنفي أي احتمال ولو ضعيف بتدني منزلة داود عليه السلام، فقال تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص:٢٥]، فكما أنه استغفر ربه فهنا أثبت ربنا بأنه قبل توبته وغفر له، وأثبت له المنزلة العالية عنده.

قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: «واسم الإشارة في قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ يشير إلى ما دلت عليه خصومة الخصمين من تمثيل ما فعله داود بصورة قضية الخصمين، وهذا من لطائف القرآن؛ إذ طوى القصة التي تمثّل له فيها الخصمان، ثم أشار إلى المطوي باسم الإشارة، وأتبع الله الخبر عن الغفران له بما هو أرفع درجة، وهو أنه من المقربين عند الله، المرضي عنهم، وأنه لم يوقف به عند حد الغفران لا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٧.
ونلاحظ أن قول ابن كثير هذا ينسجم مع ما ذهب إليه في قصة دخول الخصمين على داود، فجعل القول عامًّا؛ كونه لم يربطه بفتنة المرأة أو غيره.

(٢) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٧٦، وهو اختيار ابن عطية في المحرر الوجيز ٧/ ٣٤٢.

(٣) أنوار التنزيل ٢/ ٣١٠.

غير»[1].

وهذا حال المؤمنين فضلًا عن صفوة الخلق الأنبياء، فهم يلازمون الاستغفار على كل حين للوصول إلى مراد الرب سبحانه، فداود استغفر ربه، وسجد لله وتاب له، فنال المنزلة العليا، وسينال يوم القيامة المكانة الأعلى التي وعدها إياه ربه.

وختامًا، فإن سوق قصة ابتلاء داود وتعقيبها بذكر استغفاره ورجوعه لربه دليل على فضله ومكانته العليّة عند ربه ومولاه، وما صدر عن داود من افتتان إنما «يستوجب العتاب ولا يقتضي العقاب»[2] فإن قدره محفوظ عند ربه، وفي ذلك العتاب من ألطاف الرحمن لداود ولعباد الله ما فيه من فوائد وحكم لا يتسع لها المقام.

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٤٠.
(٢) المصدر السابق ٢٣/ ١٣٦.

فوائد من قصة داود عليه السلام

إن الله رفع قدر الأنبياء عن بقية خلقه، ومن مزيد اعتنائه بهم أن ابتلاهم بما قدّره عليهم ليرفع شأنهم، قال السعدي: «اعتناء الله بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود»[3].

كما أنه من فوائد ذلك الابتلاء أن يكون للخلق العظة والعبرة من حال الأنبياء؛ وليكون لهم فيهم أسوة حسنة، ومن تلك الفوائد في قصة داود عليه السلام:

١. في قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص:٢٢] إشارةٌ إلى الخوف الجبلي الذي يعتري البشر عند رؤية مكروه، ولا يؤاخذون عليه، ولا يتعارض مع طمأنينته بالنبوة، وثقته بالله، وتوكله عليه، وقد أجاب ابن عاشور[4] عن هذا بثلاثة أجوبة أحسنها ما أشرت إليه. وأما عن سبب الفزع ففيه أقوال؛ منها ما هو بالنظر للزمان، وهو أنهم دخلوا عليه ليلًا في وقت لا يتوقع فيه دخول أحد، أو بالنظر للمكان، وأنهم تسوروا المحراب، ولم يدخلوا من الباب[5].

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٧١١.
(٤) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٣٢.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

٢. اجتمع لداود في تلك الخصومة عدة أمور نفسية لم تؤثر عليه سلبًا، فهم دخلوا عليه فجأة، وأصابه الفزع، ووعظوه قبل أن يحكم، ومع هذا اتسع صدر نبي الله لهم، واستمع وحكم بما رآه حقًا.

٣. استدل المالكية بجواز التقاضي في المسجد بأن داود حكم بينهما في المسجد، قال القرطبي: «وليس في القرآن ما يدل على القضاء في المسجد إلا هذه الآية»[1]. ويسلم لهم هذا الاستدلال متى ما ثبت وقوع القصة في المسجد بدليل صحيح.

٤. نأخذ من قوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص:٢٢] فائدتين: الأولى تتعلق بالمحكوم، والثانية بالحاكم، فإن المتخاصمين طلبوا التحاكم إلى داود، وقبل أن يعرضا خصومتهما نصحاه بتلك النصائح، والتي قد يفهم منها ضعيف النفس اتهامًا له وتخوينه، ولكن داود عليه السلام تقبل منهم تلك النصيحة، ولم يزجرهما أو يغلظ عليهما، وهو نبي الله المؤيد بالوحي، فما بالنا بحال البشر ممن ليسوا بأنبياء!

وهذا اللائق بمن وجهت له النصيحة، ولو في مجلس القضاء، طالما أنه ظهر من الناصح إرادة الحق، ولم يكن في تلك النصيحة تخوين له بالتصريح أو التلميح، قال السعدي: «عرف أنّ قصدهما -أي المتخاصمين- الحق الواضح الصرف، فلم يشمئز نبي الله داود من وعظهما له ولم يؤنبهما»[2]. كما أن تلك النصيحة لم تصرف داود عن الاستماع للمظلمة، ولم تمنعه النصيحة من الحكم بالحق الصرف، وأيضًا ليس فيها تقليل من مقدار القاضي أو الحكم فلم يكن فيها جفاء، وذلك كونها قبل إصدار الحكم، قال ابن عاشور: «وصدوره -أي النصح- قبل الحكم أقرب إلى معنى التذكير، وأبعد عن الجفاء، فإن وقع بعد الحكم كان أقرب إلى الجفاء»[3]. وفي هذا المعنى سطر الألوسي كلمات تكتب بماء الذهب، فقال: «وفي تحمل داود عليه السلام لذلك منهم دلالة على أنه يليق بالحاكم تحمل نحو ذلك من المتخاصمين لا سيما إذا كان ممن معه الحق، فحال المرء وقت التخاصم لا يخفى، والعجب من حاكم أو محكم أو

١٨/ ١٥٩.

(١) المصدر السابق ١٨/ ١٧٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٧١١.

(٣) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٣٤.

من للخصوم نوع رجوع إليه كالمفتي كيف لا يقتدي بهذا النبي الأواب عليه الصلاة والسلام في ذلك، بل يغضب كل الغضب لأدنى كلمة تصدر ولو فلتة من أحد الخصمين يتوهم منها الحط لقدره، ولو فكّر في نفسه لعلم أنه بالنسبة إلى هذا النبي الأواب لا يعدل -والله العظيم- متك ذباب[1]، اللهم وفقنا لأحسن الأخلاق، واعصمنا من الأغلاط»[2].

نسأل الله أن يلهمنا حسن الأخلاق والأقوال والأعمال، وأن يرزقنا العلم النافع، وأن يغفر لنا الزلل.

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، زكريا عليه السلام، سليمان عليه السلام، عيسى عليه السلام، موسى عليه السلام، الكتب المنزلة

(١) متك الذباب: أنف الذباب، وقيل ذكره.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٨٥.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٢٤٦.







عناصر الموضوع



مفهوم الدعاء

أولًا: المعنى اللغوي:

الدعاء: مصدر الفعل (دعا) ويقال: دعا الرجل دعوًا ودعاءً: ناداه، والاسم: الدعوة، ودعيت فلانًا صحت به واستدعيته، والدعوة المرة الواحدة، والدعاء واحد الأدعية.

والدعاء أن تميل الشيء إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك، تقول: دعوت فلانًا أدعوه دعاءً، أي: ناديته، وطلبت إقباله، يقال: دعوت الله أدعوه دعاءً: ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير، ودعا لفلان: طلب الخير له، ودعا على فلان: طلب له الشر(١).

والحاصل: أن أصل الدعاء: النداء والطلب مطلقًا، مع ملاحظة استعلاء المنادى المطلوب منه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو: سؤال العبد ربه حاجته.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: حقيقة الدعاء: مناداة الله تعالى لما يريد من جلب منفعة، أو دفع مضرة من المضار(٢).

وقال الخطابي في معنى الدعاء: «استدعاء العبد ربه عز وجل العناية، واستمداده إياه المعونة، وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود، والكرم إليه»(٣).

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

المعنى اللغوي والاصطلاحي متوافقان؛ إذ كل منهما يدلان على النداء والطلب، إلا أن المعنى الاصطلاحي خص هذا النداء بأنه نداء من العبد للرب.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٣٣، لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٢٥٧، تاج العروس، الزبيدي، ١/ ١٣٧.
(٢) انظر: مقدمة الترغيب في الدعاء والحث عليه، عبدالغني المقدسي، ص ٥٤.
(٣) شأن الدعاء، ص ٤.



الدعاء في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (د ع و) في القرآن الكريم (٢٠٧) مرات، يخص موضوع البحث منها(٢٠٥) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٠	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت:٣٣]
الفعل المضارع	١٠٦	﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٨]
فعل الأمر (دعائي)	٣٢	﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ﴾ [النحل:١٢٥]
اسم فاعل	٧	﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه:١٠٨]
اسم	٢٠	﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد:١٤]
مصدر	١٠	﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد:١٤]

ورد الدعاء في القرآن على خمسة أوجه[٢]:

الأول: القول: ومنه قوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] يعني: قولهم في الجنة.

الثاني: العبادة: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: ٧١] يعني: أنعبد من دون الله.

الثالث: النداء: ومنه قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠] يعني: فنادى ربه أني مغلوب.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٥٧-٢٦٠.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢١٣-٢١٥.

الرابع: الاستعانة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] **يعني**: وليستعن بربه.

الخامس: السؤال: ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: ٦١] **يعني**: سل ربك.

الألفاظ ذات الصلة

١ الذكر:

الذكر لغة:

الذِّكر: ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والذُّكر: ما ذكرته بقلبك[١].

الذكر اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: «الذِّكْرُ: تارة يقال ويراد به هيئة للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلّا أنّ الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكْرُ يقال اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يقال لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذّكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللّسان. وكلّ واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ. وكلّ قول يقال له ذكر»[٢].

وقال ابن علان: «أصل وضع الذكر هو ما تعبّدنا الشارع بلفظه مما يتعلق بتعظيم الحق والثناء عليه»[٣].

الصلة بين الدعاء والذكر:

قال ابن القيم: «إن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاءً لتضمنه الطلب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**أفضل الدعاء الحمد لله**)، فسمى الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض، لأن الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجةً ما»[٤].

٢ الاستغاثة:

الاستغاثة لغة:

مصدر استغاث، وهو مأخوذ من الغوث بمعنى: الإغاثة والنّصرة عند الشّدّة[٥].

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٩٤.
(٢) المفردات ص٣٢٨.
(٣) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية ١/ ٣٩٦.
(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٩.
(٥) انظر: لسان العرب ٦/ ٣٣١٢.

الاستغاثة اصطلاحًا:

طلب الغوث في الشدائد والأزمات[1].

الصلة بين الدعاء والاستغاثة:

الدعاء أعم من الاستغاثة؛ إذ الدعاء طلب لدفع الشر وجلب الخير، يعني: فيكون في الشدة وفي الرخاء، أما الاستغاثة فهي طلب لدفع الضر لا لجلب الخير، فلا تكون إلا في الشدة، فكل مستغيث داعٍ وليس العكس.

٣ الاستعاذة:

الاستعاذة لغة:

مصدر استعاذ، وهي من مادة (ع وذ) التي تدلّ على الالتجاء إلى الشيء[2].

الاستعاذة اصطلاحًا:

هي: اللّجوء والاعتصام، وطلب كف الشرّ[3].

الصلة بين الدعاء والاستعاذة:

الدعاء طلب دفع ضرر أو جلب نفع، أما الاستعاذة فهي التحصن بالله واللجوء إليه.

٤ الاستعانة:

الاستعانة لغة:

الاستعانة مصدر استعان، وهي: طلب العون، يقال: استعنته واستعنت به فأعانني[4].

الاستعانة اصطلاحًا:

لا يخرج عن المعنى اللغوي، فالاستعانة: طلب العون.

الصلة بين الدعاء والاستعانة

الاستعانة طلب للعون، سواءً بالدعاء أو بغيره، والدعاء قد يكون طلبًا لدفع شر، أو جلب خير.

---

(١) انظر: الكليات، الكفوي ص١٥٩.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٦٧، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣١٦٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٤.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٩٨.

الحث على الدعاء وبيان منزلته

تعددت وتنوعت أساليب الدعاء في القرآن حثًّا عليه، وبيانًا لمنزلته، وهذا ما نستعرضه في النقاط الآتية:

أولًا: صور الدعاء وتراكيبه:

الناظر في الدعاء القرآني يجده قد جاء على أساليب شتى، تجمع بين الخبر والانشاء؛ مما نستعرضه فيما يأتي:

١ . الدعاء بفعل الأمر.

كثر الدعاء بأسلوب الأمر (الطلب) حتى إنه جاء أكثر من مائتين وثلاثين مرة، ولم ترد في الدعاء من صيغ الأمر المعروفة سوى ثلاث صيغ:

صيغة (افعل): وهو أكثر الصيغ ورودًا، كقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝٨٤ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٤-٨٦].

وفي دعاء المؤمنين ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وقولهم كذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقد ورد في قوله تعالى تعليمًا لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأمته: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

صيغة (فعّل): كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[آل عمران: ١٩٣].

صيغة (تفعّل): نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

٢ . الدعاء بالمصدر النائب عن فعل الأمر.

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥].

٣ . الدعاء بأسلوب النهي.

النهي هو «طلب الكف عن الفعل استعلاءً، وله صيغة واحدة وهي لا تفعل، وهو كالأمر في أنه قد يخرج عن معناه الأصلي إلى معانٍ بلاغية منها (الدعاء) وذلك إذا كان على وجه التذلل والخضوع لله عز وجل»[(١)].

وقد جاء الدعاء بأسلوب النهي نحو خمس عشرة مرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

---

(١) مختصر السعد التفتازاني ضمن شروح التلخيص ٢/ ٣٢٤.

وقوله أيضًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

وقوله كذلك: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٥].

وقد يبنى الدعاء على الأمر وحده؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وقد يبنى على النهي وحده، نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد يجمع بين الأمر والنهي في مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وليس لذكرهما معًا قاعدة معينة في الترتيب، فقد يذكر الأمر أولًا، ثم يليه النهي، وذلك كالآية الأولى أو العكس، فيبدأ الدعاء بالنهي، ثم يتبعه الدعاء بالأمر.

وقد يكون الدعاء بهاتين الصيغتين متلوًّا بما يقويه ويؤكده؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ فجملة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ جاءت تذييلًا مؤكدًا لمضمون الجملة قبله، ومثله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

وقوله كذلك: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]. فجملتا ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ و﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جاءتا تأكيدًا لما قبلها.

٤ . الدعاء بأسلوب الاستفهام.

جاء الدعاء بأسلوب الاستفهام في موضعين، والاستفهام في حقيقته يستعمل (لطلب حصول صورة الشيء في الذهن) وقيل: هو «طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل»[(١)].

وقد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معانٍ بلاغية، تفهم من السياق، من بينها الدعاء[(٢)]؛ ومنه قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

---

(١) مختصر السعد للقزويني، ومواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص، ابن يعقوب المغربي ٢/ ٢٤٦.

(٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، المجمع العلمي العراقي ١/ ١٨١.

أي: لا تهلكنا «فهذا استفهام على سبيل الإدلاء بالحجة في صيغة استعطاف وتذلل»[1]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] أي: أخرجنا.

٥. الدعاء بأسلوب الخبر.

جاء الدعاء بالأسلوب الخبري في تسع آيات؛ ولهذا الأسلوب مزية ذكرها الزركشي رحمه الله حين أشار أن في «لفظ الخبر الحاصل تحقيقًا لثبوته؛ وأنه مما ينبغي أن يكون واقعًا ولابد، وهذا هو المشهور»[2].

وأشار بعض البلاغيين إلى أن الخبر قد يقع موقع الإنشاء «إما للتفاؤل، أو لإظهار الحرص في وقوعه -والدعاء بصيغة الماضي من البليغ يحتمل الوجهين- أو للاحتراز عن صورة الأمر»[3].

ونجد أنّ الدعاء بأسلوب الخبر قد التزم الجملة الاسمية للتعبير عن حاجات الداعين ومطالبهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فقوله عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ يعدّ دعاءً، وإن لم يكن ذلك ظاهرًا «أي: وإن لم يكن بأسلوبي الدعاء المشهورين: الأمر والنهي»، وإنما جاء بالأسلوب الخبري، والذي دلّ أنه دعاء قوله تعالى بعده: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وكذلك ما جاء في دعاء سيدنا أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فهو عليه السلام لم يدع الله صراحة، بل عرض حاجته في أدب، وأطلقها على حياءٍ من الله، فعرّض وكنّى عن طلبه -رفع البلاء والضرّ عنه- بالخبر دون الإنشاء، جاءت الآية بعد قوله هذا، فدلّت على أن ما صدر منه هو دعاءٌ وتضرع.

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

ثانيًا: تسمية الدعاء عبادة:

الدعاء هو حقيقة العبادة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٨٩، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٢.
(٢) البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٣٤٩.
(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، لخطيب القزويني ٣/ ٩٣.

﴿كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

والعبادة طلب الثواب بالأعمال الصالحة، كالنطق بالشهادتين، والعمل بمقتضاهما، والصلاة والصيام والزكاة والحج والذبح لله والنذر له، وبعض هذه العبادات تتضمن الدعاء بلسان المقال مع لسان الحال كالصلاة، فمن فعل هذه العبادات وغيرها من أنواع العبادات الفعلية، فقد دعا ربه، وطلبه بلسان الحال أن يغفر له.

والخلاصة أنه يتعبد لله طلبًا لثوابه وخوفًا من عقابه، وهذا النوع لا يصح لغير الله تعالى، ومن صرف شيئًا منه لغير الله فقد كفر كفرًا أكبر مخرجًا من الملة، وعليه يقع قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣][1].

جاء الدعاء بمعنى العبادة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

«أي: اعبدوني بدليل ما بعده (عبادتي) وكذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [غافر: ١٤]، أي: (اعبدوا)»[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]، أي: عبادتكم[3].

قال تعالى: ﴿لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: ١٤]، أي: نعبد[4].

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال: (الدّعاء هو العبادة) وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠][5].

قوله: (الدّعاء هو العبادة): أتى بضمير

(١) انظر: فتح المجيد، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ص١٨٠.

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم مجمع اللغة العربية ١/ ٤١٣.

(٣) معجم ألفاظ القرآن ١/ ٤١٤.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٢٤.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، باب تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، ٢/ ٧٦، رقم ١٤٧٩، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، ٥/ ٦١، رقم ٢٩٦٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، ٢/ ١٢٥٨، رقم ٣٨٢٨.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٤١، رقم ٣٤٠٧.

الفصل والخبر المعرّف باللام ليدل على الحصر في أن العبادة ليست غير الدعاء مبالغةً.

ومعناه أن الدعاء معظم العبادة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (الحج عرفة)[1]، أي: معظم أركان الحج الوقوف بعرفة.

أو المعنى: أن الدعاء هو العبادة، سواءً استجيب أو لم يستجب؛ لأنه إظهار العبد العجز والاحتياج من نفسه والاعتراف بأن الله تعالى قادر على إجابته.

ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قيل: استدل بالآية على أن الدعاء عبادة؛ لأنه مأمور به، والمأمور به عبادة.

واستشهد بالآية لدلالتها على أن المقصود يترتب عليه ترتب الجزاء على الشرط، والمسبب على السبب، ويكون أتم العبادات، ويقرب من هذا قوله: (مخ العبادة)، أي: خالصها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ أي: عن دعائي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين ذليلين.

قال الطيبي: «معنى حديث النعمان أن تحمل العبادة على المعنى اللغوي؛ إذ الدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار والاستكانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ حيث عبر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار، ووضع عبادتي موضع دعائي، وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصغار والهوان»[2].

قال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

أي: ادعوا الله وحده، مخلصين له العبادة التي أمركم بها، ولا تلتفتوا إلى كراهة الكفار، ودعوهم يموتوا بغيظهم، ويهلكوا بحسرتهم[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف: ١٩٧].

أي: تعبدونهم أو تدعونهم من دونه عز وجل للاستعانة بهم، لا يستطيعون نصركم في أمر من الأمور[4].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[مريم: ٤٨].

أي: أعتزل ما تعبدون من دون الله، وأعبد ربي، عسى أن لا أشقى بدعائه وعبادته، كما

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، ٢/ ٢٢٩، رقم ٨٨٩، وابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، ٢/ ١٠٠٣، رقم ٣٠١٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٠٦، رقم ٣١٧٢.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن ٦/ ١٧٠٨.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٩٠.

(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ١٤٦.

تشقون أنتم بعبادة الأصنام[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥].

«أي: لا أحد أضل منه، ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع فكيف يطمع في الإجابة فضلًا عن جلب نفع، أو دفع ضر؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين، وأضل الضالين والاستفهام للتقريع والتوبيخ»[2].

والمتأمل في حقيقة الدعاء يجد فيه تذكيرًا بأصول العقيدة، وتجديدًا للوعي بها؛ قال ابن عقيل: «قد ندب الله تعالى إلى الدعاء، وفي ذلك معان:

أحدها: الوجود، فإن ما ليس بموجود لا يدعى.

الثاني: الغنى، فإن الفقير لا يدعى.

الثالث: السمع، فإن الأصم لا يدعى.

الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يدعى.

الخامس: الرحمة، فإن القاسي لا يدعى.

السادس: القدرة، فإن العاجز لا يدعى»[3].

ثالثًا: الوعد باستجابة دعاء الداعين:

من شروط قبول الدعاء الثقة بالله تعالى، واليقين بالإجابة[4]: فهو سبحانه على كل شيء قدير؛ إذ يقول للشيء كن فيكون، قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

ومما يزيد ثقة المسلم بربه تعالى أن يعلم أن جميع خزائن الخيرات والبركات عند الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١].

والله عز وجل رغب عباده في الدعاء، ووعدهم لبالغ رأفته ورحمته بهم وكرمه السابغ معهم بالإجابة.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال عز وجل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ومع الثقة في الإجابة يكون الإلحاح على الله عز وجل في الدعاء، فلا استعجال في تحقق المراد، ولا استبطاء لوقوعه؛ مما يبلور توكلًا صادقًا على الله، ويقينًا راسخًا

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٣٥.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٠.
(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ص٤٥٨.
(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٤٠٧.

بقدرته ورحمته بعباده.

إنّ من علامة التذلّل والافتقار إلى الله عز وجل في الدعاء: الإلحاح فيه والتكرار؛ فعن أبي الدرداء وابن عباس رضي الله عنهما أنّهما كانا يقولان: اسم الله الأكبر: ربّ، وعن عطاء قال: ما قال عبد: يا ربّ ثلاث مرات إلا نظر الله إليه، فذكر ذلك للحسن فقال: أما تقرؤون القرآن؟!

ثم تلا قول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران ١٩١-١٩٥][١].

ونجد هذا الإلحاح والتكرار في دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

(١) المصدر السابق ١/ ٩٢.

آداب الدعاء

للدعاء آداب سوف نعرضها في النقاط الآتية:

أولًا: الدعاء بأسماء الله الحسنى:

من أعظم الثناء على الله عز وجل الدعاء بالأسماء الحسنى، والتوسل بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف ١٨٠-١٨١].

ومن دواعي الإجابة تحري الأدعية التي اشتملت على اسم الله الأعظم؛ فعن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. وفاتحة آل عمران: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢])[1].

ويستحضر الداعون حين يرفعون أكفهم بالدعاء عبوديتهم الخاضعة لله وحده، وتتجدد في وعيهم أبعاد وحدانية خالقهم المعطي سبحانه الذي يتوجهون إليه، وهم ينشدون تحقيق ما يرغبونه من جلب نفع، أو كشف ضر، أو طلب حاجة.

وقد أفاضت آيات من القرآن في بيان ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١١-

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، ٢/ ٨٠، رقم ١٤٩٦، والترمذي في أبواب الدعوات، ٥/ ٣٩٤، رقم ٣٤٧٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، ٢/ ١٢٦٧، رقم ٣٨٥٥.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٢٩، رقم ٩٨٠.

13].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 73-74].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 41-43].

وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: 22-23].

وقال عز وجل: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 13-14].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: 5 - 6].

وكل من استغاث بغير الله، أو دعا غير الله دعاء عبادة أو دعاء مسألة فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك مرتد، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: 72].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: 213].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: 65-66].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم

﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

على من يتوجّه إلى ربه عز وجل بعد شعوره بضعفه، وحاجته الماسة إلى ملك الملوك، ومن بيديه خزائن السموات والأرض أن يحمد ربه ويثني عليه، ويمجّده بما هو أهله، ويجعل ذلك وسيلته إلى رضا ربّه وقبول دعائه، يظهر ذلك في أدعية القرآن الكريم؛ فسورة الفاتحة التي هي أم الكتاب، والجامعة لمقاصده بدأت بحمد الله، وأثنت عليه ومجّدته سبحانه وتعالى، ثم ذكرت الاعتراف بعبوديّته، والاستعانة به وحده، وشرعت بعد ذلك في أعظم دعاء: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

«ولمّا كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلّ المطالب، ونيله أشرف المواهب، علّم الله عباده كيفيّة سؤاله، وأمرهم أن يقدّموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديّتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسّل إليهم بأسمائه وصفاته، وتوسّل إليه بعبوديّته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يردّ معهما الدعاء»[(١)].

ومن أدعية القرآن المبدوءة بتمجيد الله تعالى:

- دعاء يونس عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].
- دعاء يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].
- ودعاء الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

ثانيًا: الإخلاص في الدعاء:

الإخلاص: هو تصفية الدعاء من كل ما يشوبه، وصرف ذلك كله لله وحده، لا شرك فيه، وإنما يرجو العبد ثواب الله وينشد تحقيق آماله من الله وحده مخلصًا له سبحانه في عبوديته له.

وقد أمر الله تعالى بالإخلاص في كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال عز وجل: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٣.

نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

ويرتبط التوحيد بالإخلاص في الدعاء، قال عز وجل: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۝ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٤-١٥].

وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

والعمل الصالح هو ما كان موافقًا لشرع الله تعالى، ويراد به وجه الله سبحانه، فلابد أن يكون الدعاء والعمل خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

ولهذا قال الفضيل بن عياض في تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢].

قال: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: «إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»[2]، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

فإسلام الوجه: إخلاص القصد والدعاء والعمل لله وحده، والإحسان فيه: متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته[3]، فيجب على المسلم أن يكون متبعًا للنبي صلى الله عليه وسلم في كل أعماله؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٠٩.

(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٨٩.

(٣) انظر: المصدر السابق ٢/ ٩٠.

﴿تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقد يتوسل العبد إلى الله تعالى بأنواع التوسل المشروعة؛ قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقربة، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي: تقربوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه[(١)].

وأنواع التوسل المشروع ثلاثة:

١. التوسل في الدعاء باسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفاته، كأن يقول الداعي في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم، اللطيف الخبير أن تعافيني، أو يقول: أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني وتغفر لي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ومن دعاء سليمان عليه السلام ما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

٢. التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به الداعي نفسه، ويدل على مشروعية ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران ٥٣].

٣. التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الحي الحاضر، وهو أن يطلب المسلم المفرّط والمقّصر في دين الله من رجل صالح تقي أن يدعو له ربه فيفرج عنه كربه.

ثالثًا: الدعاء رغبًا ورهبًا:

مدح الله تعالى عبده زكريا عليه السلام وأهله بتذلّلهم عند دعائهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ذكر الحافظ ابن كثير بسنده عن عبدالله ابن حكيم قال: خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال: أمّا بعد، فإنّي أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٣.

بالمسألة، فإنّ الله أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠][1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ذكر الإمام القرطبي: «قيل: الرغب: رفع بطون الأكف إلى السماء، والرهب: رفع ظهورها»[2].

ومتى كان الدعاء رغبًا ورهبًا فلا يقع من العبد شيء من الاستعجال أو ترك الدعاء: فالعبد لا يستعجل في عدم إجابة الدعاء؛ لأن الله قد يؤخر الإجابة لأسباب: إما لعدم القيام بالشروط، أو الوقوع في الموانع، أو لأسباب أخرى تكون في صالح العبد وهو لا يدري، فعلى العبد إذا لم يستجب دعاؤه أن يراجع نفسه، ويتوب إلى الله تعالى من جميع المعاصي، ويبشر بالخير العاجل والآجل، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

الخشوع واستحضار القلب عند الدعاء:

يشترط في الدعاء الضراعة وحضور القلب، وإظهار الخشوع لله عز وجل، ويرتبط الخشوع وحضور القلب بالإقبال على الدعاء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

والمراد بالخشوع والخضوع وحضور القلب أن يقصد بدعائه الخضوع والتذلّل لعظمة ربّه، كما هو وصف العبد اللازم له، ولا يكون الدعاء بلسانه والغفلة بجنانه، فيكون مانعًا له من مراده.

إنّ الخشوع والخضوع أرجى لقبول الدعاء؛ لأنّ فيه تعظيم الله تعالى، واستحضار الضعف مع التأدّب عند مناجاة الربّ.

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥- ٥٦].

وهذا أمر بالدعاء وتعبّد به، ثم قرن جلّ وعزّ بالأمر صفات تحسن معه، وهي: الخشوع والاستكانة والتضرّع، أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقّب وتخوّف وتأمّل لله عز وجل حتّى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته، وإن انفرد أحدهما هلك

(١) المصدر السابق ٣/ ١٨٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٣٦.

الإنسان، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

فرجّى وخوّف، فيدعوه الإنسان خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠][1].

وقد ذمّ الله الذين لا يتضرعون إليه، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون:٧٦].

وقال الله عز وجل: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

وقال عز وجل: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

مع هذا كلّه يجب أن يكون الداعي حاضر القلب، روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل أيها النّاس فاسألوه، وأنتم موقنون بالإجابة، فإنّ الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل)[2].

وقد أمر الله تعالى بحضور القلب، والخشوع في الذكر والدعاء، فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يتضرّع عند الدعاء حتى يكاد يسقط رداؤه، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لمّا كان يوم بدرٍ نظر رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابه ثلاث مائةٍ وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبيّ اللّه صلى الله عليه وسلم القبلة، ثمّ مدّ يديه، فجعل يهتف بربّه: (اللّهمّ أنجز لي ما وعدتني، اللّهمّ آت ما وعدتني، اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) فما زال يهتف بربّه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكرٍ فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثمّ التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ اللّه كفاك مناشدتك ربّك، فإنّه سينجز لك ما وعدك، فأنزل اللّه عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. فأمدّه اللّه بالملائكة[3].

(١) انظر: المصدر السابق ٧/ ٢٢٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٣٦.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلّف عنه أثره، إمّا لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله؛ لما فيه من العدوان، وإمّا لضعف القلب، وعدم إقباله على الله، وجمعيته عليه وقت الدعاء، وإمّا لحصول المانع من الإجابة، من أكل الحرام، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها»(١).

فلابد للمسلم في دعائه من أن يحضر قلبه مع الله عز وجل، ونعني به أن يفرّغ الدّاعي قلبه عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونًا بهما، ولا يكون الفكر جائلًا في غيرهما، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه، ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء، فقد حصل حضور القلب، وهذا أعظم شروط قبول الدعاء(٢).

رابعًا: تحري أوقات ومواطن الإجابة:

من الأسباب الداعية الى استحضار القلب تحري الأحوال المختصة بالإجابة؛ فإجابة الدعاء علم قد اختص الله تعالى به، لا شأن للعبد فيه، فمن تأمل نصوص الكتاب الكريم يلاحظ أنّ الأوقات ليست كلّها سواء، فمنها ما تفتح فيها أبواب السماء، ولا يحجب فيها الدعاء، ومنها ما تستنزل فيها الرحمة أكثر من غيرها، وفيما يلي ذكر لبعض هذه الأوقات والأحوال، والأماكن التي ترجى فيها الإجابة:

- **جوف الليل ووقت السّحر.**

وقد مدح الله المستغفرين بالأسحار، فقال عز وجل: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: هم المؤمنون، وبلغنا أن نبي الله يعقوب حين سألوه أن يستغفر لهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٧-٩٨].

قال بعض أهل العلم: إنه أخّر الاستغفار إلى السحر، وهي الساعة التي تفتح فيها أبواب السماء، قال ابن زيد: السحر هو السدس الأخير من الليل(٣).

- **يوم الجمعة.**

وقت اجتماع الهمم، وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ

الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ٣/ ١٣٨٣-١٧٦٣.

(١) انظر: الجواب الكافي، ص٨-٩.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ١٦١، جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٤٠٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٥٥.

ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩-١٠].

رمضان.

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥-١٨٦].

فقد ذكر سبحانه إجابة الدعاء عقب ذكره فريضة الصيام، وقال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم)[١].

ليلة القدر.

وهي أكثر الليالي أهمية في استجابة الدعاء، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾

[القدر: ١-٥].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: (قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)[٢]، فعلى المؤمن أن يتحرى هذه الليلة، ويحييها بالصلاة والدعاء.

حال السجود.

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾

[العلق: ١٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء)[٣].

الحرم المكي.

ويظهر ذلك فيما ورد عن بعض الصحابة

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب في العفو والعافية، ٥/ ٤٧٠، رقم ٣٥٩٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته، ١/ ٥٥٧، رقم ١٧٥٢.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن».
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص ٣٨٣، رقم ٢٥٩٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٤١٦، رقم ٣٥١٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، ٢/ ١٢٦٥، رقم ٣٨٥٠.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، ١/ ٦٤٦، رقم ٢٠٩١.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/ ٣٥٠- ٤٨٢.

رضوان الله عليهم؛ فعن حبيب بن صهبان قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف بالبيت وهو يقول بين الباب والركن أو بين المقام والباب: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١][1].

- **المساجد.**

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وأما قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩].

فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معناه: وجّهوا وجوهكم حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة، وقال آخرون: بل عنى بذلك: واجعلوا سجودكم لله خالصًا، دون ما سواه من الآلهة والأنداد، قال أبو جعفر: وأولى هذين التأويلين بتأويل الآية أن القوم أمروا أن يتوجهوا بصلاتهم إلى ربهم لا إلى ما سواه من الأوثان والأصنام، وأن يجعلوا دعاءهم لله خالصًا، لا مكاءًا ولا تصدية[2].

وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

وفي هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعية طيبة مرتبطة بالمسجد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهمّ افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهمّ إني أسألك من فضلك)**[3].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال: **(بسم الله والسّلام على رسول الله، اللّهمّ اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج قال: بسم الله، والسّلام على رسول الله، اللّهمّ اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك)**[4].

خامسًا: الدعاء وقت الشدة والضرورة:

لابدّ للداعي أن يتوجه إلى الله تعالى توجّه المضطر الذي لا يرجو غيره، وأن

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب دخول مكة، باب القول في الطواف، ٥/ ١٣٧، رقم ٩٢٩١.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٨٠-٣٨١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما يقول إذا دخل المسجد، ١/ ٤٩٤، رقم ٧١٣.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٤/ ١٥، رقم ٢٦٤١٧، وابن ماجه في سننه، كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، ١/ ٢٥٣، رقم ٧٧١ . وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ١/ ٢٣٧، رقم ٦٣٢.

يرجع في كلّ حوائجه إلى ربه، ولا ينزلها بغيره من الأسباب التي لا تملك ضرًا ولا نفعًا، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

فإذا لجأ الداعي إلى ربه بقلب سليم، وكان دعاؤه حقيقيًا صادقًا جادًا، تحقق الانقطاع الصادق بالاضطرار الحقيقي إلى الله تعالى الذي هو شرط في قبول الدعاء، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وهكذا قال ها هنا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه[١].

المضطر المكروب هو ذو الضرورة المجهود الذي أحوجه مرض أو شدة، أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى التضرع إلى الله تعالى واللجإ إليه تعالى من الاضطرار، وقال السدي: «الذي لا حول له ولا قوّة، وقيل: المذنب إذا استغفر، وهو إفتعال من الضرورة، واللام فيه للجنس، لا للاستغراق، فلا يلزم منه إجابة كل مضطر، ويكشف السّوء الضر، ويدفع عن الإنسان ما يسوءه»[٢].

وقد ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه؛ فأما قوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما دفع إليه من فقر إلى غنى، ومرض إلى صحة، وضيق إلى سعة إلا القادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا ينازع[٣].

والسبب في ذلك أنّ الضرورة إليه بالالتجاء تنشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عمّا سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٢٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٦٥، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥١، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٦٥.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٦٥.

[يونس: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

أجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه[١].

فمن اعتقد أن لله شريكًا لم يحصل له الاضطرار؛ لأنه يقول: إن كان هذا المعبود لا ينصرني فذاك الآخر ينصرني، وإن لم يحصل في قلبه الاضطرار لم تحصل الإجابة ولا النصرة[٢].

والحق أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم، في أمور دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

«يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الناس أنتم أولو الحاجة والفقر إلى ربكم فإياه فاعبدوا، وفي رضاه فسارعوا، يغنكم من فقركم، وتنجح لديه حوائجكم ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن عبادتكم إياه وعن خدمتكم، وعن غير ذلك من الأشياء؛ منكم ومن غيركم، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ يعني: المحمود على نعمه؛ فإن كل نعمة بكم وبغيركم فمنه، فله الحمد والشكر بكل حال»[٣].

قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه، ولا اتكال إلا عليه، وهذا يوجب عبادته؛ لكونه مفتقرًا إليه، وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره[٤].

وهذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئًا من ذلك كله، وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق، فإنه يحرمها في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أوبقته خطاياه في الآخرة[٥].

والعبد يسأل ربه كل شيء يحتاجه في أمر دينه ودنياه؛ لأن الخزائن كلها بيده سبحانه وتعالى، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

أي: وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه، فضرب الخزائن مثلًا لاقتداره أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة، التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد، وما ننزّله من بقاع القدرة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٢٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٨٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٥٤.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٣٠.
(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٣٧.

إلّا بقدرٍ معلومٍ حده الحكمة وتعلقت به المشيئة، فإن تخصيص بعضها بالإيجاد في بعض الأوقات مشتملًا على بعض الصفات والحالات لابد له من مخصص حكيم[(١)].

سادسًا: خفض الصوت في الدعاء:

من آداب الدعاء خفض الصوت، وجعله بين المخافتة والجهر؛ لقوله عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانوا يجهرون بالدعاء، فلما نزلت هذه الآية أمروا أن لا يجهروا ولا يخافتوا، وتأويل الكلام -كما ذكر الطبري-: قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى، ولا تجهر يا محمد بقراءتك في صلاتك ودعائك فيها ربك ومسألتك إياه، وذكرك فيها، فيؤذيك بجهرك بذلك المشركون، ولا تخافت بها، فلا يسمعها أصحابك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[(٢)].

و«المراد بالصلاة: الدعاء، وهذا قول عائشة رضي الله عنها، وأبي هريرة، ومجاهد، وروي هذا مرفوعًا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية: إنما ذلك في الدعاء والمسألة، لا ترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك، فتعيّر بها، فالجهر بالدعاء منهي عنه، والمبالغة في الإسرار غير جائزة، والمستحب من ذلك التوسّط وهو أن يسمع نفسه»، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لم يخافت من أسمع أذنيه».

وروي عن الإمام مالك أنه قال: «إنما أنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ في الدعاء»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، المراد منه: أن يقع ذلك الذكر بحيث يكون متوسطًا بين الجهر والمخافتة، كما قال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وتفسير قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، المعنى: أن يذكر ربه على وجه يسمع نفسه، فإن المراد حصول الذكر اللساني، والذكر اللساني إذا كان بحيث يسمع نفسه فإنه يتأثر الخيال من ذلك الذكر، وتأثر الخيال يوجب قوة في الذكر القلبي الروحاني، ولا يزال يتقوى

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٠٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٨١- ٥٨٨.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٧٢.

كل واحد من هذه الأركان الثلاثة، وتنعكس أنوار هذه الأذكار من بعضها إلى بعض، وتصير هذه الانعكاسات سببًا لمزيد القوة والجلاء والانكشاف والترقي من حضيض ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار مدبر النور والظلام[(١)].

كما أنّ الدعاء مع هذه الهيئة يكون كما قال الله تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ لأنّ ذلك يكون أبعد من الرياء؛ ذلك أنّ الشريعة مقرّرة أنّ السر فيما يعترض من أعمال البر أعظم أجرًا من الجهر، قال الحسن بن أبي الحسن: لقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سرًا فيكون جهرًا أبدًا[(٢)].

ويبيّن العلامة ابن القيم فوائد لإخفاء الدعاء، فيقول:

أولها: أنّه أعظم إيمانًا؛ لأنّ صاحبه يعلم أنّ الله يسمع دعاءه الخفي.

ثانيها: أنّه أعظم في الأدب والتعظيم؛ ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الصوت، وإنّما تخفض عندهم الأصوات، ويخفت عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذًا ربنا يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بين يديه إلا خفض الصوت.

ثالثها: أنه -يعني الإخفاء- أبلغ في التضرّع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإنّ الخاشع الذليل الخاضع إنّما يسأل مسألة ذليل قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعه القلب على الله في الدعاء، فإنّ رفع الصوت يفرّقه ويشتّته، فكلّما خفض صوته كان أبلغ في حمده، وتجريد همته، وقصده للمدعو سبحانه وتعالى.

سادسها: أنه دالٌّ على قرب صاحبه من الله، وأنّه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنّه يكلّ لسانه وتضعف بعض قواه[(٣)].

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قومًا يرفعون أصواتهم بالدعاء أنكر عليهم قائلًا: **(أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا)**[(٤)].

(١) المصدر السابق ١٥/ ٤٤٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٢٣-٢٢٤.
(٣) التفسير القيم، ابن القيم ص٨٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٥/ ١٣٣، رقم ٤٢٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر

سابعًا: عدم الاعتداء في الدعاء:

ومن آداب الدعاء عدم الاعتداء فيه؛ فالاعتداء فيه من أسباب موانع إجابته، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقد فسّر الاعتداء -في معنى الآية- بتكلف السجع في عبارات الدعاء، أو التفصيل فيه بتكلف[1].

وكذلك فسّر برفع الصوت به؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما لعكرمة رحمه الله: «فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك»[2]. يعني: لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب.

والتعجل من صور الاعتداء في الدعاء، والإنسان خلقه الله تعالى وأوجد فيه غرائز وفطر فيكون أحيانًا في غاية السرور والفرح من نفسه أو من أحد أقاربه وأصدقائه، وقد يتغيّر الحال تمامًا فيصير القريب عدوًا، والعدو صديقًا، بل قد يدعو الإنسان أحيانًا على نفسه وولده، ثم يندم بعد قليل، فلو استجيبت الدعوة لدام حزن هذا الإنسان إلى الأبد، قال عز وجل: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١].

قال أبو جعفر: «يقول -تعالى ذكره-: ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر، وذلك فيما عليهم مضرة في نفس أو مال ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾، يقول: كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، يقول: لهلكوا، وعجّل لهم الموت، وهو الأجل»[3].

والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، ٤/ ٢٠٧٦، رقم ٢٧٠٤.

(١) الأذكار، النووي ص٤٢١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ما يكره من السجع في الدعاء، ٨/ ٧٤، رقم٦٣٣٧.

(٣) جامع البيان ١٥/ ٣٣.

أنواع الدعاء

ينقسم الدعاء في القرآن إلى دعاء ممدوح ودعاء مذموم، وسوف نعرضها في النقاط الآتية:

أولًا: الدعاء الممدوح:

إن أعظم الأدعية الممدوحة هي تلك التي أثرت عن الأنبياء عليه السلام.

وقدسجّلت آيات القرآن الكريم كثرة من أدعية الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، والنظر فيها يعلّم المسلم كثيرًا من آداب الدعاء، ويهبه كثيرًا من أوجه الخير؛ إذ يعرف كيف يدعو، وبم يدعو، ويتجدد وعيه بسير الأنبياء والمرسلين ممن يؤمن المسلم بهم، وهم لديه في مقام القدوة والاحتذاء.

وقد اهتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم من عباد الله الصالحين بالدعاء، فاستجاب الله دعاءهم، وهذا كثير في القرآن ومن أمثلته:

- آدم عليه السلام.

ذكر القرآن الكريم ما كان من وسوسة الشيطان لآدم عليه السلام: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

وما ترتب على ذلك من ندمه عليه السلام وزوجه؛ آنئذٍ اتجها إلى الله في ذل وانكسار واعتراف بالذنب؛ مما يسجّله قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وذلك عندما «قال آدم: أي ربّ أرأيت إن تبت واستغفرت؟! قال: إذًا أدخلك الجنة، فقالا قولهما السابق، وهي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه»[1].

وكانت الاستجابة للدعاء والاستغفار؛ فغفر الله لهما، كما قال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

ثم أكرمه الله بالاصطفاء، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وخصّه بالاجتباء، فقال عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

- نوح عليه السلام.

فقد سجّل القرآن ما كان من حرص نوح عليه السلام على دعوة قومه ليلًا ونهارًا، لكن ذلك كله لم يغيّر من إعراضهم وصدهم شيئًا، بل استمروا في كفرهم حينها انقطعت الحجة، واستحقوا العذاب، فدعا عليهم عليه السلام بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٠٦.

﴿مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٨].

وسبب الدعاء عليهم هو إضلالهم لعباد الله سبحانه وتعالى، وأنه لن يخرج من أصلابهم إلا الكفار، ولا شك أن هذا من علم الغيب، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع عليه نوحًا بما أوحى إليه، قال الطبري: «قال قتادة: أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]. فعند ذلك دعا عليهم نبي الله نوح»[1].

وقال القاضي أبو بكر ابن العربي: «لما استنفذ الله سبحانه وتعالى من في الأصلاب والأرحام من المؤمنين، أوحى الله إليه»[2].

وقال السعدي: «وإنما قال نوح ذلك لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم علم بذلك نتيجة أعمالهم؛ فلهذا استجاب الله دعوته، فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحًا ومن معه من المؤمنين»[3].

وقد استجاب الله عز وجل دعاء نوح عليه السلام على قومه فأغرقهم بالطوفان، وأنجاه ومن آمنوا معه؛ قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ٩-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥-٧٦].

وقال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

إبراهيم عليه السلام.

وكان خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام معروفًا بالدعاء والمناجاة؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

إنه كان يكثر من الدعاء[4].

قال الله تعالى عن دعائه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝٨٣ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝٨٤ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٥].

فاستجاب الله له؛ قال تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

(١) جامع البيان ٢٩/١٠١.
(٢) أحكام القرآن ٣/١٠٥٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٢٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/٢٤٩.

وقال في قوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وكانت الاستجابة لدعائه عليه السلام الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ مذكورةً في قوله سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٨-٨٠].

وقد أشرك ولده إسماعيل في الدعاء كما أشركه في البناء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

وقوله تعالى كذلك: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقوله أيضًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٥].

ويدل دعاؤه لأبيه رغم كفره وإعراضه على شفقته وعطفه، قال تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وذلك لأنه قد وعده بالاستغفار له، كما جاء في قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

* **هود عليه السلام.**

وقد تضرع هود عليه السلام لربه حين كذّبه قومه، وخالفوه وتنقصوه قائلًا: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٩].

* **لوط عليه السلام.**

أما لوط عليه السلام فأخذ يدعو قومه، ولكنهم لم يجيبوا داعي الله، وهمّوا بإخراجه قال تعالى على لسانهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

«فلما طال تماديهم في غيّهم ولم ينزجروا دعا عليهم لوطٌ، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]»[1].

* **يعقوب عليه السلام.**

وقد اشتد البلاء بيعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وقال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وقد ناجى يعقوب عليه السلام ربه شاكيًا إليه بثه وحزنه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٦/ ٥٦.

﴿أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

[يوسف: ٨٣-٨٧].

ثم استجاب الله دعاءه، ورد عليه يوسف وأخاه، قال الله: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[يوسف: ٩٠-٩٦].

❁ يوسف عليه السلام.

ودعا يوسف عليه السلام ربه حين استشعر وطأة البلاء: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٢-٣٤].

ويطلعنا دعاء المرسلين على ما كان من جهدهم المبذول في تبليغ الرسالة لأقوامهم، والاجتهاد في هدايتهم؛ فكان في تدبر الآيات التي تعلقت بدعائهم عليهم السلام ما يذكّر بسيرتهم، ويخوّف من مغبة الإعراض عن الصراط المستقيم.

❁ موسى عليه السلام.

وقد دعا موسى عليه السلام ربه طالبًا عونه للقيام بمهمة التبليغ على أكمل وجه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥-٣٢].

وقد استجاب الله له ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦].

وبعد أن وجد من الإعراض والعناد ما وجد دعا على فرعون وقومه، قال الله تعالى

عن موسى وهارون: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

هذا دعاء عليهم بهلاك الأموال، أو جعلها غير منتفع بها؛ لأنهم جعلوا تلك الأموال في سبيل الإضلال، فيضلّون ويضلّون، وكذلك دعا عليهم بقساوة القلوب جزاء جحدها للحق، وإعراضها عن الدعوة[١].

وقد استجاب الله لهما ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

❁ يونس عليه السلام.

وهناك دعوة يونس عليه السلام التي ورد ذكرها في القرآن مقرونًا بذكر الاستجابة لها.

قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

إذ ذهب مغاضبًا لقومه لما تبرم بطول دعوتهم، وشدة شكيمتهم، وتمادي إصرارهم مهاجرًا عنهم، قبل أن يؤمر، وقيل: وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال، فظن أنه كذبهم وغضب من ذلك، وهو من بناء المغالبة للمبالغة؛ «أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها»[٢].

عن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)[٣].

❁ سليمان عليه السلام.

وسليمان عليه السلام آتاه الله الملك، وسخّر له الريح، وعلّمه منطق الطير، وجعل جنوده من الثقلين، فدعا الله بأن لا يكون هذا الملك لأحد من بعده، فقال تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

هب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي أن يسلبنيه، وقد يتجه ذلك أن يكون بمعنى: لا ينبغي لأحد سواي من أهل زماني، فيكون حجةً وعلمًا لي على نبوتي، وأني رسولك

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٣٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٤١.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٥٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٤٠٩، رقم ٣٥٠٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٣٧، رقم ٣٣٨٣.

إليهم مبعوث[1].

- أيوب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده؛ وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثير، ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك[2].

وصف ربه بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها، واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لطفًا في السؤال[3].

وقد استجاب الله عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

- زكريا عليه السلام.

ودعا زكريا عليه السلام ربّه طالبًا الذّرّيّة، قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨-٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

ومع علمه أنه شيخٌ كبير، وأنّ زوجه عاقرٌ لا تلد، إلاّ أنه أخذ يناجي ربه ويدعوه خفيةً.

قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٢-٦].

فاستجاب الله له ورزقه بيحيى سيدًا وحصورًا ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

- عيسى عليه السلام.

وقد دعا عيسى عليه السلام ربّه أن ينزل المائدة على قومه كما طلبوا منه؛ لتكون دليلًا على نبوته، فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/٢٠٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٥٩.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٥٨.

﴿وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

• محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه يفزعون إلى الدعاء؛ وفي هذا تعليم للأمة، وتربية في حسن التوجه إلى الله، وصدق التوكل عليه، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وفي بدر حيث التقى الجمعان، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّه، واستنصره متضرعًا إليه حتى سقط رداؤه، فأنجز له الله تعالى ما وعده، وأمدّه بألف من الملائكة مردفين، ولاحت بشائر الانتصار[1].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) فما زال يهتف بربه، مادًا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩-١٠]. فأمده الله بالملائكة[2].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

وبهذا كان المؤمنون من الصحب الكريم تمثيلًا لمرحلة من نصرة دين الله في تاريخ البشرية تذكّر بما كان من جنود طالوت الذين ثبتهم الله وقاتلوا جالوت؛ ولما اشتدّ

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ٢٧٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣، رقم ١٧٦٣.

الفزع بأصحاب طالوت لكثرة العدد والعدة في صفّ جالوت وجنوده، طلبوا من الله النصر في ضراعة؛ فدعوا الله متضرعين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

وفي كل المراحل التي نهض المؤمنون فيها بجهادهم لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله كان التعويل على الدعاء يستمد به العون من ناحية، ويتوقى به اليأس من انقطاع الاسباب أو الاغترار بها من ناحية أخرى.

ويتأسى المسلمون بما تضمنته آي القرآن من أدعية الصالحين من عباد الله المؤمنين؛ إذ يلازم الدعاء إخلاص عبوديتهم لله وتمسكهم بدينه، وجهادهم في سبيله، ويتأسس دعاؤهم على عبوديتهم الخاشعة لله التي تملأ قلوبهم يقينًا بالاستعانة به وحده؛ فلا مدعو غيره، ولا مسئول سواه، ومع استحضار هذه المعاني في القلوب يكون (الصّراط المستقيم) هدفًا وغاية. ومن رحمة الله بعباده أن كان الوقوف بين يدي الله في كل صلاة وسيلة لتجديد الوعي بهذه الأبعاد؛ إذ يضرع المسلمون بهذا الدعاء في كل صلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥-٦].

ويدعو المسلم ربه كل يوم في فاتحة الكتاب -التي لا صلاة إلا بها- بهذا الدعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

إن الهدف المبتغى الذي يضرع المسلم بهذا الدعاء العظيم لأجله هو الهداية للصراط المستقيم؛ وهو صراط وسط بين سبيل من حل عليه الغضب، ومن زل في الضلالة.

﴿اهْدِنَا﴾ دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب، والمعنى: دلنا على الصراط المستقيم، وأرشدنا إليه، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك، قال بعض العلماء: فجعل الله جل وعز عظم الدعاء وجملته موضوعًا في هذه السورة...، وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من الذي يدعو به الداعي؛ لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذي تكلم به، وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: (ليس شيءٌ أكرم على

الله من الدعاء)[1][2].

والصراط الذي يسأل المؤمنون ربهم أن يهديهم إليه صراط من ظفر بالنعمة غير ضال ولا مغضوب عليه؛ والمفسرون يوجهون الدلالة إلى اليهود أهل الغلو في الدين، والنصارى أهل الغلو في الرهبانية، وكلا الطائفتين زلت في اعتقاد معوج متخبط.

«وقد اختلف في «المغضوب عليهم» و«الضالين» من هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى»[3].

وبتأمل أحوال الأمم السالفة يكون استخلاص العبرة على نحو يتجلى في دعاء المؤمنين وتضرعهم إلى خالقهم؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال أبو جعفر: «ويعني بذلك جل ثناؤه: قولوا: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ يعني بـ﴿إِصْرًا﴾ العهد، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ [آل عمران: ٨١].

وإنما عنى بقوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾، ولا تحمل علينا عهدًا فنعجز عن القيام به ولا نستطيعه ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ يعني: على اليهود والنصارى الذين كلفوا أعمالًا، وأخذت عهودهم ومواثيقهم على القيام بها، فلم يقوموا بها، فعوجلوا بالعقوبة، فعلّم الله عز وجل أمة محمد صلى الله عليه وسلم الرغبة إليه بمسألته أن لا يحملهم من عهوده ومواثيقه على أعمال إن ضيعوها أو أخطأوا فيها أو نسوها، مثل الذي حمل من قبلهم، فيحل بهم بخطئهم فيه وتضييعهم إياه مثل الذي أحل بمن قبلهم»[4].

ويرتبط الإيمان بالتوجه الى الله بالدعاء صدورًا عن العبودية الخاشعة؛ كما نجد في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة، رقم ٨٧٤٨.
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ٢٢٣٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٤٧.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٤٩.

(٤) جامع البيان ٦/ ١٣٥.

[آل عمران: ١٦].

ويستشعر المؤمنون أن هذه الهدايه نعمة جليلة، وهبة عظيمة يسألون الله أن يحفظها لهم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ويظهر إدراك المؤمنين لعظم نعمة الإيمان في كثير من أدعية القرآن؛ ولاسيما حين تشتد المواجهة بين المؤمنين والكافرين؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

وقد تضرع الذين آمنوا مع شعيب عليه السلام إلى الله عز وجل قائلين: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

واستمد السحرة المؤمنون بموسى الصبر من ربهم، مستمسكين بدينهم حتى انقضاء أجلهم؛ ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وتضرع الذين آمنوا معه ألا يكونوا فتنة للقوم الظالمين؛ على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

وأيضًا استمد أصحاب الكهف من ربهم الرحمة والرشد؛ حين خافوا الافتتان في دينهم، فهربوا إلى الكهف، ودعوا الله ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

والحواريون وهم أنصار عيسى عليه السلام وتلاميذه دعوا الله قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

قال أبو جعفر: «وهذا خبر من الله عز وجل عن الحواريين أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾، أي: صدّقنا ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾، يعني: بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك، ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ يعني بذلك: صرنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به، وأعوانه على الحق الذي أرسلته به إلى عبادك، وقوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، يقول: فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقروا لك بالتوحيد، وصدّقوا رسلك، واتبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأحلنا محلهم، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصد عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك»[١].

والحال كذلك مع رهبان النصارى وهم

(١) المصدر السابق ٦/ ٤٥٢.

الذين فاضت أعينهم بالدمع عند سماعهم القرآن لمعرفتهم بأنه الحق من ربهم ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

«هذه صفة قوم كانوا على شريعة عيسى من أهل الإيمان، فلما بعث الله -تعالى ذكره- نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم آمنوا به»[1].

ولهذا فقد كان من الدعاء المحمود الدعاء للمسلمين بالثبات على الدين؛ ويستفاد ذلك من دعاء إبراهيم عليه السلام لذريته بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

قال ابن كثير في تفسير قوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ «أي: ليكون ذلك عونًا لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع، فاجعل لهم ثمارًا يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿وَقَالُوٓا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[القصص: ٥٧].

وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته، أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابةً لدعاء الخليل عليه السلام»[2].

ومن الله وحده يطلب المؤمنون خير الدنيا وخير الآخرة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال أبو جعفر: «يعني بذلك جل ثناؤه: فإذا قضيتم مناسككم أيها المؤمنون فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا، وارغبوا إليه فيما لديه من خير الدنيا والآخرة بابتهال وتمسكن، واجعلوا أعمالكم لوجهه خالصًا، ولطلب مرضاته، وقولوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، ولا تكونوا كمن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، فكانت أعمالهم للدنيا وزينتها، فلا يسألون ربهم إلا متاعها، ولا حظ لهم في ثواب الله، ولا نصيب لهم في جناته، وكريم ما أعد لأوليائه»[3].

جاء في تفسير الرازي الإنسان خلق محتاجًا ضعيفًا، لا طاقة له بآلام الدنيا ولا بمشاق الآخرة، فالأولى له أن يستعيذ بربه من كل شرور الدنيا والآخرة[4].

وقد اختلف أهل التأويل في معنى ﴿حَسَنَةً﴾ التي ذكر الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: يعني بذلك: ومن الناس من

(١) المصدر السابق ١٠/ ٥٠١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٤٢.
(٣) جامع البيان ٤/ ٢٠١.
(٤) مفاتيح الغيب ٥/ ٣٣٦.

يقول: ربنا أعطنا عافية في الدنيا وعافية في الآخرة، وقال آخرون: بل عنى الله عز وجل بالـ﴿حَسَنَةً﴾ في هذا الموضع في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة: الجنة، وقال آخرون: ﴿حَسَنَةً﴾ في الدنيا: المال، وفي الآخرة: الجنة، وقيل: في الدنيا حسنة امرأة صالحة، وفي الآخرة حسنة الجنة والحور العين، وقيل: ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ رزقًا حلالًا، وعملًا صالحًا، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ المغفرة والثواب.

قال أبو جعفر: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن قوم من أهل الإيمان به وبرسوله، ممن حج بيته، يسألون ربهم الحسنة في الدنيا، والحسنة في الآخرة، وأن يقيهم عذاب النار وقد تجمع الحسنة من الله عز وجل العافية في الجسم والمعاش والرزق والعلم والعبادة، وغير ذلك، وأما في الآخرة فلا شك أنها الجنة؛ لأن من لم ينلها يومئذٍ فقد حرم جميع الحسنات، وفارق جميع معاني العافية»[1].

ومن خير الدنيا ما ينعم الله به على عباده من عطايا ونعم، وما يهبهم من ذرية مما يتجلى في هذا الدعاء الذي ورد في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقد دعت امرأة عمران -أم مريم البتول- ربها قائلةً أن يقي ابنتها وذريتها من الشيطان الرجيم، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

أما في الآخرة فيشفق عباد الرحمن من النار، سائلين الله عز وجل أن يقيهم إياها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

ويسألونه الجنة ونعيمها، كما ورد في دعاء امرأة فرعون التي دعت ربها وتضرعت إليه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

ويستقي المؤمنون مما ورد في أدعية الأنبياء والمرسلين كثيرًا من آداب الدعاء وشروطه؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم غالبًا ما يصدّر دعاءه بالفعل (قل) لأنه تعليمٌ من الله عز وجل لرسوله كيفية الدعاء، والأمر للرسول أمرٌ لأمته أيضًا، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) انظر: جامع البيان ٤/ ٢٠٣-٢٠٥.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يدعو: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧].

وهمزات الشياطين: خطراتها التي تخطرها بقلب الإنسان[١].

وأمره كذلك بقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٨].

فقد أمر رسوله «بأن يعوذ به تعالى من حضورهم بعدما أمر بالعوذ من همزاتهم؛ للمبالغة في التحذير من ملابستهم، وإعادة الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به، وتخصيص حال الصلاة، وقراءة القرآن، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحال حلول الأجل كما روي عن عكرمة رحمه الله؛ لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها»[٢].

وقد أمر الله عز وجل رسوله بأن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].

أي: أن يطلب الزيادة في العلم «وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم»[٣].

ومن الخير أن يدعو الداعي في دعائه لنفسه ولغيره؛ فهذا إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

قال القرطبي: «استغفر إبراهيم لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله»[٤].

كان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك، وتبين إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له، وتبرأ منه[٥]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٤].

ونوح عليه السلام يقول: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ [نوح: ٢٨].

دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين، وقيل: أراد بوالديه أباه وجده[٦].

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمنًا هو بر المؤمن بالمؤمن؛ وحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه، وتخصيص الذي يدخل بيته مؤمنًا؛ لأن هذه كانت علامة النجاة، وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه في السفينة، ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات هو بر المؤمن بالمؤمنين كافةً في كل زمان ومكان، وشعوره بآصرة القربى

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٤٣.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٥٠.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٨٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٤٦.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٥١.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٣١٤.

على مدار الزمن، واختلاف السكن، وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها على تباعد الزمان والمكان»[1].

ولا يجوز الدعاء بالمغفرة والرحمة لغير المسلم، فقد نهى الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم عن الاستغفار للمشركين، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣].

وكان سبب نزول هذه الآية وعد النبي صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب بالاستغفار، لما في حديث سعيد بن المسيب، عن أبيه رضي الله عنه أنه أخبره، **أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب: (يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله)، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)، فأنزل الله تعالى فيه:** ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾الآية[2].

ويعود النهي عن الاستغفار للمشركين لوعيد الله عز وجل إياهم بعدم المغفرة؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٨].

وكأن الاستغفار لهم طلب بأن يخلف الله وعيده[3].

ويلحق بالنهي عن الاستغفار للمشركين النهي عن الاستغفار للمنافقين؛ لقوله عز وجل: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[المنافقون: ٦].

وإبراهيم عليه السلام فيه أسوة حسنة لهذه الأمة إلا في شأن الاستغفار لأبيه المشرك، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ٢/ ٩٥، رقم ١٣٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، ١/ ٥٤، رقم ٢٤.

(٣) انظر: دعاء محمد صلى الله عليه وسلم، محمد أحمد وموسى الخطيب ص٧٢.

﴿أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

أي: لكم في إبراهيم عليه السلام وقومه أسوة حسنة، تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه[١].

ثانيًا: الدعاء المذموم:

إن من أوضح صور الأدعية المذمومة، ما جاء عن الكافرين والضالين.

وقد سجّلت آي القرآن بعضًا من أدعية الكافرين ممن أعرضوا عن الصراط المستقيم، والتأمل في دعائهم كاشف عن اضطراب إدراكهم، ومبلغ تكذيبهم، وقد اتخذوا من سبيل الغي سبيلًا في الدنيا، وعن حرج موقفهم وبؤس مصيرهم، وقد هووا في جهنم في الآخرة.

فمن دعاء الكافرين ما كان تعبيرًا صريحًا عن استبعاد ما جاءت به الدعوة من بدهات، واستهزاء بإمكان وقوع ما أكدت حدوثه من وعد ووعيد.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

«القط: القسط من الشيء؛ لأنه قطعة منه، من قطه إذا قطعه، ويقال لصحيفة الجائزة: قط؛ لأنها قطعة من القرطاس، وقد فسر بهما قوله تعالى: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: نصيبنا من العذاب الذي وعدته، قيل: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله المؤمنين الجنة، فقالوا على سبيل الهزء: عجّل لنا نصيبنا منها، أو عجّل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها»[٢].

«وذلك لأن القوم كانوا في نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته، واعلم أن الكفار لما بالغوا في السفاهة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قالوا: إنه ساحر كذاب، وقالوا له على سبيل الاستهزاء: عجّل لنا قطنا أمره الله بالصبر على سفاهتهم، فقال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]»[٣].

«يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش: يا ربنا عجّل لنا كتبنا قبل يوم القيامة، قوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

أي: نصيبنا وحظنا من العذاب قبل يوم القيامة، قال: قد قال ذلك أبو جهل، وقال آخرون: بل إنما سألوا ربهم تعجيل أنصبائهم ومنازلهم من الجنة حتى يروها فيعلموا حقيقة ما يعدهم محمد صلى الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٤٩.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٧.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٧٣.

عليه وسلم، فيؤمنوا حينئذٍ به ويصدّقوه، وقال آخرون: سألوا أن يعجّل لهم كتبهم التي قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥].

في الدنيا لينظروا بأيمانهم يعطونها أم بشمائلهم؟ ولينظروا من أهل الجنة هم أم من أهل النار قبل يوم القيامة استهزاءً منهم بالقرآن وبوعد الله.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن القوم سألوا ربهم تعجيل صكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاءً بوعيد الله، وإنما قلنا: إن ذلك كذلك لأن القط هو ما وصفت من الكتب بالجوائز والحظوظ، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوه تعجيل ذلك لهم، ثم أتبع ذلك قوله لنبيه: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧].

فكان معلومًا بذلك أن مسألتهم ما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم لو لم تكن على وجه الاستهزاء منهم لم يكن بالذي يتبع الأمر بالصبر عليه، ولكن لما كان ذلك استهزاءً، وكان فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أذى، أمره الله بالصبر عليه حتى يأتيه قضاؤه فيهم، ولما لم يكن في قوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦].

بيان أي القطوط إرادتهم، لم يكن لما توجيه ذلك إلى أنه معنيٌّ به القطوط ببعض معاني الخير أو الشر؛ فلذلك قلنا: إن مسألتهم كانت بما ذكرت من حظوظهم من الخير والشر»[١].

ومن دعاء الكافرين الكاشف عن موقفهم المعرض عن الدعوة ما ورد في قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وفي هذا الدعاء ما فيه من استهزاء وتعنت؛ إذ لو كان فيه تحرٌّ للحق لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له مثلًا، ولكنهم كفروا وأنكروا واستهزأوا! وقوله: ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين[٢].

قال أبو جعفر: «يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمد أيضًا ما حل بمن قال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

إذ مكرت بهم، فأتيتهم بعذاب أليم وكان ذلك العذاب قتلهم بالسيف يوم بدر، وهذه الآية ذكر أنها نزلت في النضر بن الحارث، كان يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٦٣-١٦٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦١٢.

هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أوائتنا بعذاب أليم!»[1].

«يقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وهم يعلمون ما حل بمن خلا قبلهم من الأمم التي عصت ربها، وكذّبت رسلها من عقوبات الله، وعظيم بلائه»[2].

وحين يأتي الموت يدرك الكافرون فساد ما كانوا عليه من اعتقاد وسلوك، قال تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وحين يتحقق العذاب في الآخرة وقد كانوا يستبعدونه، وحين يدركون مصيرهم الوبيل في الآخرة يتمنون لو يعودون إلى الدنيا عساهم يعملون صالحًا، ولكن هيهات!

يكشف ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

أي: «أبصرنا ما كنا نكذب به، وسمعنا منك ومن ملائكته ومن أصوات النيران وغير ذلك ما كنا نستبعده فصرنا في غاية العلم بتمام قدرتك، وصدق وعودك»[3].

فما أبصروه وما سمعوه جعلهم يطلبون الرجوع للدنيا رغبةً في العمل الصالح، ولكن لا أمل في رجوعهم، بل يلقون في النار، حينها يتعالى صراخهم ألمًا مما هم فيه، فيدعون ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧].

و﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقولهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر: ١١].

وما كان دعاؤهم إلا خلاصًا من عذابهم، ونلمح في دعائهم بأسلوب الاستفهام (هل) المراد به: التمني والاستعطاف رغبة قوية منهم في إبراز غير الممكن في صورة الممكن، وجعلوا هذا الاعتراف ضربًا من التوبة توهمًا منهم أن التوبة تنفع يومئذٍ؛ فلذلك فرّعوا عليه ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾... قال في الكشاف: «وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط»[4]، يريد أنّ في اقتناعهم بخروج مّا دلالة على أنهم يستبعدون حصول الخروج[5].

ويدعو الكافرون بمضاعفة العذاب للمضلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ

(١) انظر: جامع البيان ١٣/ ٥٠٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٥٠.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٦/ ٥٥.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٥١.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٩٩.

﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨].

وقولهم في موضع آخر: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦١].

وقولهم كذلك: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وحين نتأمل الآية في سورة (ص) نجد الفعل (زده) قد وقع موقعه في إظهار شدة الحقد على هؤلاء المضلين؛ وذلك بطلب زيادة العذاب المضاعف لهم، والتعبير بالجار والمجرور ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ قوّى المعنى، حيث جعل العذاب يحيط بهم في النار من كل جانب، كإحاطة الظرف بالمظروفين، وهذه الآية تختلف عما في الأعراف؛ لأن السياق فيها للطاغين، أما في الأعراف فهو لمطلق الكافرين[(١)]، ذلك أن الطغاة أشد بطشًا من الكفار.

ثانيًا: دعاء المرء على نفسه بالشر:

أخبر سبحانه وتعالى لو أنه يعجّل للناس إجابة دعائهم في الشر كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة لهلكوا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

عن مجاهد، رحمه الله قال: «قول الرجل لولده إذا غضب عليه أو ماله: اللهم لا تبارك فيه والعنه»[(٢)].

قال ابن عاشور رحمه الله: «بيّنت هذه الآية أن الرفق جعله الله مستمرًا على عباده غير منقطع عنهم؛ لأنه أقام عليه نظام العالم إذ أراد ثبات بنائه، وأنه لم يقدر توازي الشر في هذا العالم بالخير لطفًا منه ورفقًا، فالله لطيف بعباده، وفي ذلك منة عظيمة عليهم، وأن الذين يستحقون الشر لو عجّل لهم ما استحقوه لبطل النظام الذي وضع عليه العالم»[(٣)].

وفي النهي عن الدعاء على النفس روى مسلم بسنده عن جابر بن عبد اللّه، قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: **(لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من اللّه تبارك وتعالى ساعة يسأل فيها عطاءً، فيستجيب لكم)**[(٤)].

ويستفاد من الآية: لطف الله سبحانه وتعالى وإحسانه بعباده.

---

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٦/ ٣٩٨.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ١٣١.

(٣) التحرير والتنوير ١١/ ١٠٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابرٍ الطّويل وقصّة أبي اليسر، ٤/ ٢٣٠٤، رقم ٣٠٠٩.

آثار الدعاء

للدعاء في القرآن آثار، ومن أهمها:

أولًا: إعطاء الداعي ما طلب:

الدعاء باب مفتوح للعبد إلى ربّه سبحانه، يلتمس من خلاله كل ما يحتاجه في دنياه من صحة الأبدان، وسعة الأرزاق، والخلاص من البلاء، والنصر على الأعداء، وهذا الذي كان يقوم به الأنبياء عليهم السلام، والله تعالى يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم، من المطاعم والمشارب، كما يسألونه الهداية والمغفرة، والعفو والعافية في الدنيا والآخرة[(١)].

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: «والله تعالى يستجيب الدعوات، ويقضي الحاجات»[(٢)].

والدعاء أكرم شيء على الله، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء)[(٣)].

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٣٨ - ٤٠.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ص٤٥٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٣٦٠، رقم ٨٧٤٨، والبخاري في الأدب المفرد، ص ٢٤٩، رقم ٧١٢.
وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص ٢٦٥، رقم ٥٥٢.

قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

والدعاء عبادة له آثاره البالغة، وفوائده العظيمة؛ لذلك أمرنا الحقّ جلّ في علاه بالدّعاء، ورغّبنا فيه النبي صلى الله عليه وسلم، فكم من محنة رفعها الله عز وجل بالدعاء، وكم من مصيبة أو كارثة كشفها الله عز وجل بالدعاء، وقد أورد القرآن الكريم جملةً من الأدعية التي استجابها الله تعالى بمنّه وفضله وكرمه.

يهدي النظر في آيات الدعاء في القرآن الكريم إلى كرم الله ورحمته بعباده ورأفته بهم؛ إذ يهبهم ما يطلبون.

وسنعرض بعضًا من الأمثلة الدالة على إعطاء الداعي ما طلب:

- إبراهيم عليه السلام.

طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يبعث في أمته «ذريته» المسلمة رسولًا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقد طلب أن يكون الرسول منهم «لأنه يكون أشفق على قومه، ويكونون هم أعز به، وأشرف وأقرب للإجابة؛ لأنهم يعرفون منشأه وصنفه وأمانته»[(٤)]، فيعلّمهم هذا

(٤) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦٢٥.

الرسول القرآن وما يكمل به نفوسهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة، ويطهّرهم عن دنس الشرك، وفنون المعاصي[(١)].

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد جاء طلب الولد والذرية على لسان إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

فأجاب الله له دعوته، وبشره بغلام حليم، وهو إسماعيل. قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

ثم أنعم الله على إبراهيم، فوهب له ابنه إسحاق حين دعاه، ووهب له من إسحاق يعقوب زيادة على ذلك، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

❁ نوح عليه السلام.

دعا نوح ربه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وأخبر الله عن دعائه فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

واستجاب الله دعاء نوح عليه السلام فقال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

❁ زكريا عليه السلام.

وزكريا عليه السلام الذي تاقت نفسه إلى الولد ليرثه ويرث من آل يعقوب، فدعا ربه قائلًا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

و﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

فاستجاب له دعاءه ووهب له على الكبر ابنه يحيى، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

❁ سليمان عليه السلام.

طلب سليمان عليه السلام من ربه أن يعطيه الملك في قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

ولم يكن سؤاله عليه السلام «طلبًا لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك، فأجيب نوح فأهلك من عليها، وأعطى سليمان المملكة»[(٢)].

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٦٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٠٤.

أما قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ «أي: أن يسأله فكأنه سأل منع السؤال بعده؛ حتى لا يتعلق به أمل أحد، ولم يسأل منع الإجابة»[1].

وقد استجاب الله دعاءه، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [ص: ٣٦ - ٣٨].

فسخَّر الله الشياطين له، يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والحلي، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاد وأوثقه[2].

ثانيًا: الأجر والثواب:

من عظم رحمة الله بخلقه وكرمه السابغ معهم أن جعل للدعاء خيرًا ونفعًا وثوابًا وأجرًا مما يظهر في الدنيا، ويمتد في الآخرة، ويرتبط الدعاء بالمحسنين ارتباطًا وثيقًا؛ قال تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

والدعاء صلة بين المسلم والمسلم حتى بعد الممات، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

(١) المصدر السابق.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧١٢.

ولقد ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم الأمور التي لا تنقطع عن الميت بعد موته، ومنها الدعاء، فقال: (أو ولد صالح يدعو له)[3].

والدّعاء سبب أكيد لغفران المعاصي والذنوب، ولرفع الدّرجات، ولجلب الخير ودفع الشّرّ، ومن ترك الدّعاء فقد سدّ على نفسه أبوابًا كثيرةً من الخير، هذا وقد ذكر شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله عشرة أسباب لغفران الذنوب، حيث قال رحمه الله: «والسبب الرابع الدافع للعقاب دعاء المؤمنين للمؤمن، مثل صلاتهم على جنازته»[4].

إن الدعاء من العبادات الجليلة التي أمر الله بها عباده المؤمنين، ووعدهم عليه جزيل الثواب، وتوعّد من أعرض عنه بالإثم العظيم، وهو سمة للعبودية، ويستدعي به العبد من الله العناية، ويستمد منه المعونة، ويستجلب الرحمة، ويستدفع النقمة، ويظهر به الافتقار والذلة البشرية، متبرئًا من الحول والقوة، وإذا تأملت كتاب الله سبحانه وتعالى وجدت فاتحته تضمنت الدعاء، وخاتمته تضمنت الدعاء، ففاتحة الكتاب بدئت بدعاء الثناء: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ٣/ ١٢٥٥، رقم ١٦٣١.
(٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٢/ ٤٠٣.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. وتلاه دعاء المسألة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. وختم الكتاب بسورتي المعوذتين: دعاء مسألة متضمنًا دعاء ثناء[١].

ثالثًا: رفع العذاب والبلاء:

الدعاء أحد أسباب رفع البلاء ودفع الشقاء، كما في قوله عز وجل عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

وقال عن زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

أي: ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردّني قط فيما سألتك[٢].

وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقًا، أن يتمم إحسانه لاحقًا[٣].

ومن أمثلة أدعية رفع الضر قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].

(١) انظر: تصحيح الدعاء، بكر أبو زيد ص١٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٩.

فجمع أيوب عليه السلام في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين.

والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره. ومتى وجد المبتلي هذا كشفت عنه بلواه. وقد جرّب أنه من قالها سبع مرات ولاسيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره[٤].

وإذا ركب المشركون السفن وعلتهم الأمواج من حولهم كالسحب والجبال، أصابهم الخوف والذعر من الغرق ففزعوا إلى الله، وأخلصوا دعاءهم له، فلما نجاهم إلى البر، فمنهم متوسط لم يقم بشكر الله على وجه الكمال، ومنهم كافر بنعمة الله جاحد لها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

موضوعات ذات صلة:

الاستغفار، التسبيح، الحمد، الذكر، السؤال

(٤) التفسير القيم، ابن القيم ص ٣٨١.





عناصر الموضوع



مفهوم الدعوة

يعتبر موضوع الدعوة والنظر لحال المدعوّين، من الأمور المهمة التي ورد الحديث عنها في القرآن الكريم، وسوف أتحدث عن هذا الموضوع، فيما يأتي:

أولًا: المعنى اللغوي:

الدعوة: من دعا يدعو دعوةً ودعاءً[1]، والدّعاء كالنّداء، إلاّ أنّ النّداء قد يقال بـ (يا)، أو (أيا)، ونحو ذلك من غير أن يضمّ إليه الاسم، والدّعاء لا يكاد أن يقال إلّا إذا كان معه الاسم، نحو: يا فلان، وقد يستعمل كلّ واحد منهما موضع الآخر، ودعوته: إذا سألته، وإذا استغثته[2]، يقال: دعوة فلان في بني فلان، ولبني فلان الدعوة على قومهم إذا كان يبدأ بهم، والدعوة: الوليمة[3]، فهي نداء إلى شيء.

وعليه فإن كلمة (دعوة) تفيد من حيث اللغة المحاولات القولية والفعلية لإمالة الناس إلى تحقيق هدف أو عمل، ويمكننا أن نطلق لفظ «الدعوة» على ما يراد إبلاغه ونشره من هدى أو ضلال[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تعرّف الدعوة بأنها نداء إلى شيء معين، وقد يكون هذا النداء عامًّا أو خاصًّا، مباشرًا أو غير مباشر، ولم يرد تعريف الدعوة كثيرًا في كتب اللغة؛ لأعتمد عليه في التعريف الاصطلاحي.

وجاء أن (الدّعوة) بالفتح في الطعام اسم من (دعوت) الناس، إذا طلبتهم ليأكلوا عندك، يقال: نحن في (دعوة) فلان و(مدعاته) و(دعائه) بمعنى واحد، وهذا كلام أكثر العرب[5]، وأصرح الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وأصل الدّعوة بفتح الدال، والمراد بها هنا: دعوة الإسلام[6]، وهي في القرآن الكريم

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٧٧.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١٥.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ٣٤٨.
(٤) انظر: الدعوة والداعية، محمد البارودي ص٢٠.
(٥) انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٩٥.
(٦) انظر: أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان ١/ ٧.

الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

والدعوة إلى فعل الخير يندرج تحتها نوعان: أحدهما: الترغيب في فعل ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف، والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر[1].

فهي الدعوة إلى الإيمان بالله وبما جاءت به رسله وذلك بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا[2].

والأصل في بيان ذلك ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذًا رضي الله عنه على اليمن؛ قال: **(إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله.. الحديث)**[3].

فالدعوة في اللغة هي: مطلق الدعاء والنداء إلى شيء، وبالمعنى الاصطلاحي يتبيّن أن هذا النداء للدعوة هو: دعوة إلى الإيمان بالله تعالى، واتباع كتابه، والسير على منهج رسوله صلى الله عليه وسلم، والدّاعون إليه من أشرف الناس عند الله.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٠٧.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ١٥٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ٢/ ١١٩، رقم ١٧٥٤.

الدعوة في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (د ع و) في القرآن الكريم (٢٠٧) مرات، يخص موضوع البحث منها(٢٠٥) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت:٣٣]
الفعل المضارع	١٠٦	﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٨]
فعل الأمر (دعائي)	٣٢	﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ﴾ [النحل:١٢٥]
اسم فاعل	٧	﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه:١٠٨]
اسم	٢٠	﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد:١٤]
مصدر	١٠	﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد:١٤]

وجاءت الدعوة في القرآن الكريم بمعناها في اللغة وهي مصدر دعاء، أي: نادى وطلب، ودعا إلى الأمر: حثَّ عليه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٥٧-٢٦٠.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٧٤٧.



الألفاظ ذات الصلة بالدعوة

١ الهداية:

الهداية لغةً:

أصل الهداية في اللغة: التقدم للإرشاد، فالهادي هو الذي يتقدم لإرشاد من خلفه[١].

والهدى: الرشاد والدلالة، ضد الضلالة[٢].

الهداية اصطلاحًا:

الهداية: هي الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال: هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب[٣].

الصلة بين الهداية والدعوة:

الدعوة هي طريق للهداية، فالهداية غاية، والدعوة وسيلة.

٢ الموعظة:

الموعظة لغةً:

الوعظ: التخويف، والاسم: العظة، وهو التذكير بالخير وما يرق له قلبه[٤].

الموعظة اصطلاحًا:

الموعظة: وهي ما يوعظ به من قول أو فعل[٥].

الصلة بين الموعظة والدعوة:

الموعظة إحدى وسائل الدعوة، وأكثرها استعمالًا، تجعل المدعو سريع الاستجابة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٤٢.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ١٠٢.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص٣١٩.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٢٦.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٤٣.

اسناد الدعوة الى الله تعالى

تقدم معنا أن الدعوة لها ألفاظ ودلالات ومعان عدّة، وأهم هذه المعاني هي: أن الدعوة دعوة إلى عبودية الله وحده، واتباع رسوله وما أرسله به.

ومن عظيم رحمة الله تعالى أنه يدعو عباده بنفسه، وهذا إن دلّ فإنما يدل على عظيم كرمه، وجزيل إحسانه، وبيان ذلك كما يأتي:

أولا: دعوة الله تعالى لعباده إلى المغفرة:

جاء في آيات الدعوة الواردة في القرآن الكريم أن الله تعالى يدعو عباده بنفسه، ويمكن أن نجعل تلك الدعوة في قسمين:

الآيات الصريحة في دعوة الله تعالى لعباده إلى مغفرته:

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١].

يعني تعالى ذكره: هؤلاء الذين حرّمت عليكم -أيها المؤمنون- مناكحتهم من رجال أهل الشرك ونسائهم، يدعونكم إلى النار يعني: يدعونكم إلى العمل بما يدخلكم النار، وذلك هو العمل الذي هم به عاملون من الكفر بالله ورسوله؛ فلا تقبلوا منهم ما يقولون، ولا تستنصحوهم، ولا تنكحوهم ولا تنكحوا إليهم، فإنهم لا يألونكم خبالًا ولكن اقبلوا من الله ما أمركم به فاعملوا به، وانتهوا عما نهاكم عنه[(١)]؛ فذلك ما يوجب لكم المغفرة، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة، التي من آثارها دفع العقوبات وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح[(٢)]، ويدعوكم إلى مخالطة المؤمنين لأن ذلك أوصل لكم إلى الجنة[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٠].

أي: يدعوكم إلى التوحيد ليغفر لكم من ذنوبكم[(٤)]، والدعوة أصلاً دعوة إلى الإيمان، المؤدي إلى المغفرة، ولكن السياق يجعل الدعوة مباشرةً للمغفرة، لتتجلى نعمة

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٣٧١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٤.
(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٩٦.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٩٩.

الله ومنته، وعندئذٍ يبدو عجيبًا أن يدعى قوم إلى المغفرة فيكون هذا تلقيهم للدعوة! ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فهو سبحانه مع الدعوة للمغفرة لا يعجلكم بالإيمان فور الدعوة، ولا يأخذكم بالعذاب فور التكذيب، إنما يمنّ عليكم منّة أخرى فيؤخركم إلى أجل مسمى[1]، فليس العجب ممن تكلف لسيده المشاقّ وتحمل ما لا يطاق، وألّا يهرب من خدمة أو يجنح إلى راحة؛ إنما العجب من سيد عزيز كريم يدعو عبده ليغفر له وقد أخطأ، ويعامله بالإحسان وقد جفا[2].

ففي الآيات دلالة صريحة أن الله الكريم يدعو عباده بنفسه، وأهم قضية دعا إليها سبحانه وتعالى:

- دعوة عباده إلى جنته التي أعدها لمن غفرت له ذنوبه.
- دعوة عباده إلى مغفرته التي لا يملكها إلا هو.

ومن الآيات التي تتضمن دعوة الله تعالى لعباده إلى مغفرته: قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣].

أي: سارعوا إلى ما يوجب المغفرة وهي الطاعة، والآية عامة[3]، فكل ما من شأنه الحصول على مغفرة الله تجب المسارعة إليه.

وقال تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران: ١٥٣].

فأنتم مدبرون وهو ثابت في مكانه في نحر العدو في نفر يسير وثوقًا بوعد الله ومراقبة له[4]؛ لأن الأمر الحقيقي من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وجهاده هو التعلق بمغفرة الله، وذلك بالجهاد الذي يغفر الله به الذنوب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد: ٨-٩].

أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به[5].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٠.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٢٤٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٠٣.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٤٣١.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾ [الملك: ١٢].

فهذه الآيات تتضمن الدعوة من الله تعالى لعباده أن يحذروا من غوايات الشيطان التي تبعدهم عن نيل مغفرة الله، وأن يسارعوا إلى مرضات الله تعالى ومغفرته، مع التخلق بأخلاق المستحقين لتلك المغفرة.

ثانيًا: دعوة الله تعالى لعباده إلى الجنة:

جاء في القرآن الكريم دعوة الله تعالى لعبادة إلى جنته مباشرةً، ويمكن أن نجعل هذا كالذي قبله وذلك في قسمين:

١ . الآيات الصريحة في دعوة الله تعالى لعباده إلى جنته.

وهذا كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٢١﴾ [البقرة: ٢٢١].

فهو يدعوكم إلى العمل بما يدخلكم الجنة، ويوجب لكم النجاة إن عملتم به من النار[1]، وهو يدعو عباده لتحصيل الجنة[2]، وطريق المؤمنين والمؤمنات هو طريق الله، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه، وما أبعد دعوة المشركين إذن من دعوة الله، والله يحذر من هذه الدعوة المردية ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فمن لم يتذكر، واستجاب لتلك الدعوة فهو الملوم[3].

فمن عمل بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد استجاب لدعوة الله له إلى الجنة، وهذا يتجلى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى)، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)[4].

---

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٣٧١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢٣٤.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٤٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [يونس: ٢٥].

يقول تعالى ذكره لعباده: أيها الناس، لا تطلبوا الدنيا وزينتها، فإن مصيرها إلى فناءٍ وزوالٍ، كما مصير النبات الذي ضربه الله لها مثلا إلى هلاكٍ وبوارٍ، ولكن اطلبوا الآخرة الباقية، ولها فاعملوا، وما عند الله فالتمسوا بطاعته، فإن الله يدعوكم إلى داره، وهي جناته التي أعدّها لأوليائه، تسلموا من الهموم والأحزان فيها، وتأمنوا من فناء ما فيها من النّعيم والكرامة التي أعدّها لمن دخلها، وهو يهدي من يشاء من خلقه فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام الذي جعله جل ثناؤه سببًا للوصول إلى رضاه، وطريقًا لمن ركبه وسلك فيه إلى جنانه وكرامته[١].

فعمّ تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام، والحث على ذلك، والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاءه، فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل، وسمى الله الجنة دار السلام؛ لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه، وحسنه من كل وجه[٢]، فيا لبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس في لحظة، وقد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هي حصيد كأن لم تغن بالأمس، ودار السلام التي يدعو إليها الله، ويهدي من يشاء إلى الصراط المؤدي لها، حينما تنفتح بصيرته، ويتطلع إلى دار السلام[٣].

ولذا حذر الله تعالى من الدعوة المضادة المباينة لهذه الدعوة فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: ٦].

٢. الآيات التي تتضمن دعوة الله عباده إلى جنته[٤].

وهذه الدعوة الضمنية تحمل في طياتها معنى التبشير والوعد، فذكر الله تعالى الجنة مشوقًا عباده إليها، وحاثًا لهم على العمل من أجل الدخول فيها، فورد كثير من الآيات التي تذكر الجنة بسياق مختلف، حيث جاءت مفردة منكرة بلفظ (جنّة) كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦﴾ [الفرقان: ١٥-١٦].

الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله، ٩/ ٩٣، رقم ٧٢٨٠.

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٧٥.

(٤) انظر: صفة الجنة في القرآن الكريم، عبدالحليم السلفي ص٣١.

أي: كانت تلك الجنة للمتقين جزاءً على أعمالهم، ومصيرًا يصيرون إليه، ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: ما يشاءونه من النعيم، وضروب الملاذ[1].

وجاءت مفردةً معرّفةً مجرورةً كلفظ «بالجنّة» كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

يقول: وسرّوا بأن لكم في الآخرة الجنة التي كنتم توعدونها في الدنيا على إيمانكم بالله، واستقامتكم على طاعته[2].

وجاءت مرفوعةً مثنّاةً كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

وهذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

ولم يطغ ولا آثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما ذكر البخاري عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)[3][4].

وجاءت مجموعةً معرفةً في موضع واحد فقط وهو قوله تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى: ٢٢].

أي: في الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسنًا وبهاءً، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقًا إلى لذّاتها ووِدادًا، ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ فيها، أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٧٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٧٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب حور مقصورات، ٦/ ١٥٤، رقم ٤٨٧٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٦٢.

أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته؟[1].

وجاءت مجموعة منكرة في مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥].

وهي ألوان من النعيم يستوقف النظر منها- إلى جانب الأزواج المطهرة- تلك الثمار المتشابهة، التي يخيل إليهم أنهم رزقوها من قبل- أما ثمار الدنيا التي تشبهها بالاسم أو الشكل، وأما ثمار الجنة التي رزقوها من قبل- فربما كان في هذا التشابه الظاهري والتنوع الداخلي مزية المفاجأة في كل مرة[2].

وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢] وغيرها كثير.

وكل هذه الآيات تتضمن الدعوة إلى الفوز بجنة الله تعالى مهما اختلفت صيغها، وتنوع سياقها، فهي تدعو إلى تحقيق أعمال وأخلاق تجعل أصحابها فائزين بجنة الله تعالى التي أعدها لعباده الصالحين.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٥٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩.

مقاصد الدعوة

للدعوة الإسلامية مقاصد مهمة ذكرت في ثنايا آيات الدعوة التي وردت في القرآن الكريم، ومن تلك المقاصد ما يأتي:

أولًا: تحقيق التوحيد:

فمن المقاصد العظيمة التي تبدو في ثنايا الآيات التي تتحدث عن الدعوة تحقيق توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

والتوحيد هو أصل دعوة الرسل وإليه دعوا أقوامهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥][1].

وسأذكر بعض الآيات الواردة في الدعوة إلى تحقيق التوحيد حسب ترتيب السور.

فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٦-١١٧].

ويدعون بمعنى: يعبدون؛ لأن من عبد شيئًا فإنه يدعوه عند احتياجه إليه[2].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: ٣٧].

يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت، وقبض أرواحهم إلى النار يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟! ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه، ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: ذهبوا عنا، فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾[3].

وقد وردت آيات كثيرة تدعو لتحقيق هذا المقصد العظيم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ

(١) انظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ١/ ٦١.
(٢) مفاتح الغيب، الرازي ١١/ ٢٢١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٦٩.

﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَآبِ ۝٣٦﴾ [الرعد: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠﴾ [النحل: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: ٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠﴾ [الجن: ٢٠]وغيرها.

وفي ثنايا هذه الآيات ألحظ الدعوة إلى تحقيق التوحيد فيما يأتي:

- أن الدعوة إلى التوحيد أصل أصيل دعا إليه الله تعالى بنفسه، ولأجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب.
- النهي الصريح عن دعاء غير الله تعالى، أو الدعوة إلى عبودية غيره.
- تصريح الداعي إلى الله أن دعوته إلى عبودية الله دون سواه واتباع رسله.
- الدعوة الصريحة للتحاكم إلى الله تعالى وما جاء عنه.

ويلاحظ أن قاعدة التوحيد الأولى هي إفراد الله بالعبادة، وقد جاءت الدعوة إلى ذلك عن جميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وأنهم قاموا بدعوة أقوامهم إلى ذلك وتحذيرهم من الشرك بالله[1].

ثانيًا: الهداية والإصلاح:

ومن مقاصد الدعوة في القرآن الكريم: الهداية والإصلاح، وهما أمران متلازمان.

ومن الآيات التي تذكر معنا في هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦].

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة[2]، بمعنى هدي للإجابة؛ ليصلح حاله.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

يقول تعالى: ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأولئك هم

(١) انظر: معالم الدعوة في قصص القرآن، الديلمي ١/ ٦٤.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٣٧.

المفلحون[1]، وهذا غاية في بيان هداية القائمين بالدعوة ودعوة غيرهم للاهتداء بها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

هذه الآية الكريمة عاب الله فيها الكفار بسخافة العقول، وأنهم إذا نزلت بهم شدة من العظائم الشداد أخلصوا في ذلك الوقت الدعاء إلى الله، وتركوا دعاء غير الله؛ لعلمهم بأنه لا ينفع ولا يضر، فإذا نجاهم الله من تلك الكربة، وأمنوا، رجعوا إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله، وهذه سخافة عقول؛ لأنهم في وقت الشدائد يخلصون إلى الله[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنعام: ٧١-٧٢].

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: للإسلام والتوحيد، وأنقذنا من عبادة الأصنام، فنصير كالمستمر على الضلال، واستمالته عن الطريق الواضح مردة الجن، في الأرض القفر المهلكة، تائهًا ضالًّا عن الجادة، لا يدري كيف يصنع، ولهذا المستهوي رفقة يدعونه إلى الطريق المستقيم[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وهؤلاء يدعون من دون الله شركاء، مع علمهم وتسليمهم بأن الله هو الخالق الرازق ولكن إذا سبّ المسلمون آلهتهم؛ اندفعوا عما يعتقدونه من ألوهية الله، دفاعًا عما زين لهم من عبادتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وتقاليدهم؛ فليدعهم المؤمنون لما هم فيه[4].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ١٩٨].

إذ ليس لهم سمع، وإن صورت لهم الآذان، كما أنه لا بصر لهم، وإن صورت لهم الأعين وهذا من تمام التعليل؛ لعدم مبالاته بهم، فلا تكرار[5].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٨٧.
(٢) العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٢٣٤.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٩٦.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٦٩.
(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٤١.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

ففي هذه الآيات وغيرها نلحظ أن آيات الدعوة اشتملت اشتمالًا واضحًا جليًّا في الدعوة إلى الهداية والإصلاح الذي هو ناتج عن الهداية وألحظ ذلك فيما يأتي:

- أن آيات الدعوة اشتملت على الدعوة الصريحة إلى الهداية.
- أهل الهداية الحقة هم الموحدون والداعون إلى توحيد الله تعالى.
- الدعوة إلى الهداية دعوة إلى امتثال أوامر الله تعالى، وترك زواجره ونواهيه، وهي ما يكون به الإصلاح.
- وجوب صحبة أهل الهداية؛ لأن المعرضون عن الدعوة إلى الهداية هم أظلم الناس.

ثالثًا: إقامة الحجة:

ومن المقاصد التي تلحظ في آيات الدعوة إقامة الحجة على المعرضين عن الهداية؛ فأرسل الله ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وذلك كما جاءت به الآيات والتي منها ما يأتي: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ

﴿كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝١٩٥﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥].

فأخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهةً هم عباد لله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم؛ لأنكم أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون وفي هذا تقريع لهم بالغ، وتوبيخ لهم عظيم[1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٦٦﴾ [يونس: ٦٦].

فأخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئًا لا ضرًّا ولا نفعًا، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرّصهم وكذبهم وإفكهم[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ [الإسراء: ٦٧].

فالله تعالى بنفسه يقيم عليهم الحجة.

وقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧﴾ [طه: ٤٧].

ففي هذه الدعوة إقامة الحجة على فرعون.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج: ٧٣].

وهذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع[3]، فـ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ واحدًا في صغره وقلته؛ لأنها لا تقدر عليه[4]، وإن يسلب الآلهة والأوثان الذباب شيئًا؛ لا تقدر الآلهة أن تستنقذ ذلك منه[5].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١﴾ [القصص: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

---

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣١٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٤٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٦.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤٠٠.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٨٥.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فاطر: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٤-٥]. وغيرها كثير.

وبالنظر في ما مر معنا من الآيات ألحظ ما يأتي:

- أن آيات الدعوة اشتملت على إقامة الحجة البالغة في الدعوة إلى عبودية الله تعالى.
- دعت الآيات الكريمة إلى البراءة من ما يعبد من دون الله، وبينت عجزهم وضعفهم.
- الدعاة إلى توحيد الله من الأنبياء وغيرهم أقاموا الحجة على أقوامهم في عبادتهم غير الله.
- إنفراد الله تعالى بالخلق والتدبير دعوة للمشركين لأن يعبدوه وحده، إذ قد قامت الحجة عليهم؛ لأنهم علموا ذلك وأقروا به.

قواعد الدعوة

بالبحث فيما معنا من آيات الدعوة، ومعرفة كلام المفسرين حولها، نلاحظ أن هناك قواعد مهمة للدعوة، ذكرت في ثنايا الآيات، والتي منها ما يأتي:

أولًا: الإخلاص:

ذكر ابن القيم كلامًا مهمًّا في منزلة الإخلاص، كما ذكر تعاريف منها: أن الإخلاص: أن لا تطلب على عملك شاهدًا غير الله، ولا مجازيًا سواه[1].

وإخلاص الدعوة لله تعالى أمر واجب؛ ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ثلاثة لا يغل عليهن قلب المؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة الأمر، والاعتصام بالجماعة)**[2].

ومن الآيات الواردة في الأمر بالإخلاص لمن سلك سبيل الدعوة، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٢٩].

أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له، والدعاء يشمل دعاء المسألة،

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٩٢.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢١/ ٦٠، رقم ١٣٣٥٠، عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٤٥، رقم ٦٧٦٦.

ودعاء العبادة، أي: لا تراءوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه[1].

وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝١٤﴾ [غافر: ١٤].

أي: إذا كان الأمر كما ذكر من ذلك؛ فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التي أمركم بها ولو كره الكافرون ذلك، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، ودعوهم يموتوا بغيظهم ويهلكوا بحسرتهم[2].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦٥﴾ [غافر: ٦٥].

يقول: هو الحي الذي لا يموت، الدائم الحياة، وكل شيء سواه فمنقطع الحياة غير دائمها، فلا معبود بحق تجوز عبادته، وتصلح الألوهية له إلا الله الذي هذه الصفات صفاته، فادعوه أيها الناس مخلصين له الدين، مخلصين له الطاعة، مفردين له الألوهية، لا تشركوا في عبادته شيئًا سواه، من وثن وصنم، ولا تجعلوا له ندًّا ولا عدلًا[3].

فتبين مما سبق أن الداعي لابد أن يكون مخلصًا مهمًّا كان موقعه، ومهما كانت منزلته في الدعوة إلى سبيل الله رب العالمين.

ثانيًا: العلم:

والعلم مفتاح كل شيء، ولا بد أن يكون الداعية عالمًا بشرع الله ليدعوا إلى الله على بصيرة[4].

ومن الآيات الواردة معنا في أهمية العلم في مجال الدعوة قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨].

أي: على علم ودليل واضح وبرهان قاطع لا يترك في الحق لبسًا[5].

ويقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين: الإنس والجن، آمرًا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي: طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي[6].

وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦٦﴾ [غافر: ٦٦].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٥٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤١٠.
(٤) انظر: منهج ابن القيم في الدعوة، أحمد الخلف ١/ ٢٤٦.
(٥) العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٦٢.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦٢.

يقول: لما جاءني الآيات الواضحات من عند ربي، وذلك آيات كتاب الله الذي أنزله[1]، من الحجج والآيات أو من الآيات فإنها مقوية لأدلة العقل منبهةً عليها[2]، فلست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة[3].

ولهذا يجب على الداعية أن يتعلم العلوم الشرعية؛ لأنه بذلك يدرك جميع صفات الكمال المطلوبة للداعية[4].

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه حسن السعي فيها[5].

ثالثًا: الرفق:

الرفق من الأمور المهمة التي ينبغي أن يتحلى بها جميع الدعاة؛ حتى تقبل دعوتهم.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه)[6].

وقال أيضًا: (من يحرم الرفق، يحرم الخير)[7].

ومن الآيات الواردة في بيان ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقًّا وغرضه صحيحًا ولما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بيّن أن الرشد والهداية ليس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ذلك إليه تعالى، وإنما شرع الدعوة وأمر بها قطعًا للمعذرة، وتتميمًا للحجة، وإزاحةً للشبهة، وليس على الداعية غير ذلك، ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوين بالرجوع إلى الحق فإن أبوا قوتلوا، أمر الداعي بأن يعدل في العقوبة[8].

وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣١-٣٢].

قوله: ﴿ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ أمر بإجابته في

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤١١.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٢.
(٤) انظر: منهج ابن القيم في الدعوة، أحمد الخلف ١/ ٢٤٦.
(٥) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤٨٦.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، ٤/ ٢٠٠٣، رقم ٢٥٩٣.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، ٤/ ٢٠٠٣، رقم ٢٥٩٣.
(٨) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٤٢.

كل ما أمر به، فيدخل فيه الأمر بالإيمان إلا أنه أعاد ذكر الإيمان على التعيين، لأجل أنه أهم الأقسام وأشرفها، وقد جرت عادة القرآن بأنه يذكر اللفظ العام، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه[1]، فاعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن، واعتبروا محمدًا صلى الله عليه وسلم داعيًا لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن، واستماع الثقلين له: فنادوا قومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾[2]، فكان هؤلاء الدعاة من الجن متلطفين في خطاب قومهم، رفيقون بمن يدعونهم إلى الحق المبين.

رابعًا: مراعاة حال المدعوين:

يختلف حال المدعوّين من شخص لآخر ومن قبيلة لأخرى؛ لذا جاء في آيات الدعوة ما يبيّن كيفية التعامل معهم، ويوضح الطريق الذي ينبغي أن يسير عليه الداعية في دعوته مع الناس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١].

ففي هذه الآية ومثيلاتها تظهر الشدة على هؤلاء المعاندين المكذبين.

وقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم من كانوا يناظرونه في هذه القضية إلى هذا الاجتماع الحاشد، ليبتهل الجميع إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين؛ فخافوا العاقبة وأبوا المباهلة وتبين الحق واضحًا[3]، فدل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فقد كان المؤمنون يسبون الأصنام بأنها أجرام لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر، فأنزل الله نهيهم عن ذلك لئلا يتذرع به المشركون فينتقمون منهم فيسبون ربهم[5]، فمثل هؤلاء لا يصلح ذم آلهتهم وسبّهم؛ لأنهم سيزدادون سفهًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٣-٣٤].

وهذا في حال من له عقل وخلق.

(١) مفاتح الغيب، الرازي ٢٨/ ٢٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٢٣٧٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ٤٠٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٣٣.
(٥) العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٨٦.

أي: ادفع يا محمد بحلمك جهل من جهل عليك، وبعفوك عمن أساء إليك إساءة المسيء، وبصبرك عليهم مكروه ما تجد منهم، ويلقاك من قبلهم[1]؛ لأن مقابلة إساءته بالإحسان تخجله وتقضي على عداوته حتى يضطر إلى أن يرجع صديقًا[2].

وقد ظهرت هذه المراعاة لأحوال المدعوّين جليةً واضحةً في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته، حيث بيّن دعوته، بل أمر معاذًا أن يراعي ذلك حين بعثه إلى اليمن.

خامسًا: الصبر:

يعتبر الصبر من القواعد الأساسية للدعاة، خاصةً وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصفوا بذلك في كثير من مواطن القرآن، بل أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال تعالى له: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ۝٣٥﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فيقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، مثبته على المضيّ لما قلّده من عبء الرسالة، وثقل أحمال النبوّة صلى الله عليه وسلم، وأمره بالائتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على ما أصابك في الله من أذى مكذّبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار، ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدّة[3].

ويعد الصبر من أهم مقومات نجاح الداعية، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤].

أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله، وترك زواجره، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا، سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسيةً يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عملًا صالحًا، ولا اعتقادًا صحيحًا[4]، وذلك للإيحاء للقلة المسلمة يومذاك في مكة أن تصبر كما صبر المختارون من بني إسرائيل، وتوقن كما أيقنوا، ليكون منهم

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٧١.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٤٣٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٤٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣١.

أئمة للمسلمين كما كان أولئك أئمة لبني إسرائيل؛ ولتقرير طريق الإمامة والقيادة، وهو الصبر واليقين[(١)].

وقد بيّن الله تعالى أن من علم أساس دعوته هان عليه ما يبذل من أجلها، فازداد صبرًا وثباتًا عليها كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣﴾ [المؤمنون: ٧٣].

والداعية لا يمكنه الوصول إلى مبتغاه إلا أن يمر بجسر الابتلاء، وهذا يحتاج إلى وسيلة تذلل تلك العقبات ألا وهي: الصبر[(٢)].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨١٤.
(٢) انظر: منهج ابن القيم في الدعوة، أحمد الخلف ١/ ٢٦٤.

المدعو اليه

أشار القرآن الكريم إلى مجموعة من الأمور التي يدعى إليها المدعوون، ومن تلك الأمور:

أولًا: الإيمان:

وحقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم، فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر؛ لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواءً شاهده، أو لم يشاهده، وسواءً فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه[(٣)].

ومن الآيات التي تحدثت عن الدعوة إلى الإيمان بالله وما يتبع ذلك هذه الآيات التي بين أيدينا:

فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝١٠٣﴾ [البقرة: ١٠٣].

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٠.



أي: بما دعوا إليه من القرآن الحكيم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره، سبب لحصول العلم[2].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، بمن قبل محمد من الأنبياء والرسل، وصدّقوا بما جاؤوهم به من عند الله ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، يقول: صدّقوا بالله وبمحمد رسوله، أنه لله رسولٌ، مرسل إليكم وإلى سائر الأمم قبلكم ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾، يقول: وصدّقوا بما جاءكم به محمد من الكتاب الذي نزله الله عليه، وذلك القرآن ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾، يقول: وآمنوا بالكتاب الذي أنزل الله من قبل الكتاب الذي نزله على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو التوراة والإنجيل[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٨-٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد: ٨].

وغيرها من الآيات كثير.

فهذه الآيات وغيرها ترشدنا إلى ما يأتي:

- أن أساس الدعوة هو وجوب الإيمان بالله تعالى وما جاء عنه.
- أن دعوة الرسول دعوة إلى الإيمان

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٣٦٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٣١٢.

الصحيح.

- أن آيات الدعوة والوعظ وغيرها اهتمت كثيرًا بتوجيه المؤمنين إلى ما يجب أن يستمسكوا به ويتخلقوا به؛ ليكونوا كاملي الإيمان.

ثانيًا: التقوى:

والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما، وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسمًا لتوقي جميع المعاصي، والبر اسمًا لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر[1].

وقد تقدم عن بعض ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠٣].

يضاف إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

ومن أفضل ما قال المفسرون: في هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات زواجر عظيمة ينبغي لنا أن نعتبرها؛ لأن خالقنا جل وعلا بيّن لنا في أول سورة الأعراف من هذا المحكم المنزل الذي هو آخر كتاب نزل من السماء على آخر نبي بعثه الله في أرضه صلى الله عليه وسلم قال: إنه أنزل عليه هذا الكتاب ليخوف به الخلق من عقوبات خالق السماوات والأرض وسخطه، فإنه الجبار الأعظم الذي إذا سخط عاقب العقوبة المهلكة المستأصلة، فبهذا يجب علينا أن نتأمل في معاني القرآن، ونعرف أوامر ربنا التي أمرنا بها فيه، ونواهيه التي نهانا عنها، ونخاف من هذا الإنذار، والتهديد الذي أنزل هذا القرآن على الرسول ليفعله بمن لم يعمل بهذا القرآن العظيم.

فالإنسان يجب عليه أن يتدبر هذا القرآن العظيم، وينظر أوامره، وينظر نواهيه، ويعمل بما فيه من الحلال والحرام، فالحلال ما أحله الله في هذا القرآن وبينته السنة الكريمة، والدين ما شرعه الله؛ لأنه لا حكم إلا لله، فكل الأحكام هي لله، والتشريع لله، والتحليل والتحريم لله، وقد أنزل علينا هذا الكتاب ليخوفنا إذا لم نعمل بما فيه من العبر والآيات، فنحل حلاله، ونحرم حرامه، ونعتقد عقائده، ونعمل بمحكمه، ونؤمن بمتشابهه، ونعتبر بما فيه من الأمثال، وتلين قلوبنا لما فيه من المواعظ وضروب الأمثال. فهذا الإنذار لا ينبغي للمسلم أن يهمله ويعرض عنه صفحًا[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٥.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ١٨.

وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ [الزمر: ١٠].

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم[(١)]، فاتقوه بطاعته واجتناب معصيته[(٢)]، أي: قل مناديًا لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، آمرًا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكرًا لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما منّ الله عليهم به من الإيمان، فإنه موجب للتقوى[(٣)].

فالاهتمام بالدعوة إلى التقوى أمر جلي، دعت إليه الآيات وبيّنتها غاية البيان؛ ليعلم أن الأمر بالتقوى مقصد مهم عظيم من مقاصد الدعوة في القرآن الكريم.

ثالثًا: العبادة:

وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة[(٤)].

ويظهر ذلك في الآيات الواردة في موضوع الدعوة ومنها: قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥].

فلما بين جل وعلا أنه العظيم الأعظم، خالق السماوات والأرض وخالق الشمس والقمر والنجوم، ومسخر الجميع، وبين عظمته وجلاله، أمر خلقه الضعاف المساكين أن يسألوه ويدعوه ليأتيهم بما يطلبون، ويكشف عنهم من الضر ما يسألون كشفه، والمراد بذلك: كأنه يقول: أنا العظيم الأعظم الجبار، الذي خلق السماوات والأرض والكواكب العظام، وأنا خالق كل شيء، وأنتم عبادي الفقراء الضعاف فادعوني؛ لأن الدعاء يستشعر به الداعي ذله وفقره وضعفه وحاجته، ويستشعر به عظمة من يدعو، وأنه عالم بكل شيء، لا يخفى عليه دعاؤه ولو كان في أخفى الخفاء، وأنه عظيم قادر على كل شيء، قادر على أن يذهب عنه بالضر ويأتيه بالخير، وهو من أعظم العبادات إذا كان مخلصًا فيه لله؛ ولذا أمر الله خلقه به في هذه الآية[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

ذكر الطبري أقوال العلماء في بيان ذلك،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٧٩.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٢٠.
(٤) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٥/ ١٥٤.
(٥) العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٣٩٨.

ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: استجيبوا لله وللرسول بالطاعة، إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق؛ وذلك أن ذلك إذا كان معناه، كان داخلًا فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدو والجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب، أما في الدنيا، فبقاء الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة، وأما في الآخرة، فحياة الأبد في الجنان والخلود فيها[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٨-٤٩].

وإذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة، وأدعو ربي وحده، راجيًا -بسبب دعائي لله- ألا يجعلني شقيًّا، فالذي يرجوه إبراهيم هو مجرد تجنيبه الشقاوة، وذلك من الأدب والتحرج الذي يستشعره، فهو لا يرى لنفسه فضلًا، ولا يتطلع إلى أكثر من تجنيبه الشقاوة!

وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم وهجر أهله ودياره، فلم يتركه الله وحيدًا[2].

رابعًا: الأخلاق:

يلاحظ أن الآيات التي تحدثت عن الأخلاق، تضمنت الدعوة لفعلها والتحلي بها، ومن الآيات الواردة معنا في ذلك ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب: ٥].

فهذا العدل الإلهي، أن لا ينال حقّ الابن إلا من يكون ابنًا، أما المتبنّى واللصيق فلا يكون له إلا حق المولى والأخ في الدين؛ فحرّم الله على المسلمين أن ينسبوا الدعيّ لمن تبناه، وحظر عليهم أن يقتطعوا له شيئًا من حقوق الابن لا قليلًا ولا كثيرًا. وشدّد الأمر حتى قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

فهو يعفو عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر: هذا ابني، أو ينادى شخص آخر بمثل ذلك، لا عن قصد التبنّي[3]، وإنه لقسط وعدل أن يدعى الولد

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٦٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣١٢.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٨٤.

لأبيه، عدل للوالد الذي نشأ هذا الولد من بضعة منه حية. وعدل للولد الذي يحمل اسم أبيه، ويرثه ويورثه، ويتعاون معه ويكون امتدادًا له بوراثاته الكامنة، وتمثيله لخصائصه وخصائص آبائه وأجداده، وعدل للحق في ذاته الذي يضع كل شيء في مكانه، ويقيم كل علاقة على أصلها الفطري، ولا يضيع مزية على والد ولا ولد كما أنه لا يحمل غير الوالد الحقيقي تبعة البنوة، ولا يعطيه مزاياها. ولا يحمل غير الولد الحقيقي تبعة البنوة ولا يحابيه بخيراتها، وهذا هو النظام الذي يجعل التبعات في الأسرة متوازنة، ويقيم الأسرة على أساس ثابت دقيق مستمد من الواقع، وهو في الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع على قاعدة حقيقية قوية بما فيها من الحق، ومن مطابقة الواقع الفطري العميق[1].

أساليب الدعوة

للدعوة أساليب تتّخذ للوصول إلى الهدف المطلوب من أقرب طريق وأخصره، وبالنظر في الآيات الواردة في الحديث عن الدعوة يمكن القول أن أساليب الدعوة كما يأتي:

أولًا: أساليب عقلية:

من أعظم الحجج التي تقام برهانًا للشيء ونفيه الحجج العقلية التي تلزم الخصم بالتسليم[2]، وهذا الأسلوب يستخدم مع المعارضين الجاحدين[3]، لتفنيد شبههم ومحاولة إقناعهم،ومن الآيات التي تتحدث عن هذا المقام ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٧].

أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إناثًا، أي: أوثانًا وأصنامًا مسميات بأسماء الإناث كـ«العزى» و «مناة» ونحوهما، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى، فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدها لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه، أنها لا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٢٥.

(٢) انظر: معالم الدعوة، الديلمي ١/ ٢٩٩.
(٣) انظر منهج ابن القيم، أحمد الخلف ١/ ٣٣٦.

تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن عابديها بل ولا عن نفسها نفعًا ولا ضرًّا ولا تنصر أنفسها ممن يريدها بسوء، وليس لها أسماع ولا أبصار ولا أفئدة، فكيف يعبد من هذا وصفه ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد والجلال، والعز والجمال، والرحمة والبر والإحسان، والانفراد بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟

هل هذا إلا من أقبح القبيح الدال على نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟

ومع ذلك فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة، وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذي هو عدوهم الذي يريد إهلاكهم ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله[1]، فمن أصدق من الله قِيْلاً، ومن أحسن من الله حديثًا، في بيان حقيقة ما يدعوه المشركون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥].

وإنما أطلق على الأصنام اسم العباد وعبر عنها بضمائر العقلاء؛ لأن الكفار يصفونها بصفات من هو خير من مطلق العقلاء، أنها معبودات، وأنها تشفع وتقرب إلى الله زلفى، فبهذا الاعتبار أجرى عليها ضمائر العقلاء، وعبر عنها بالعباد ووجه مماثلتهم هنا: أن الكفار العابدين، والأصنام المعبودات كلهم مخلوقات لله لا تقدر أن تجلب لنفسها نفعًا ولا أن تدفع عنها ضرًّا، فهم من قبيل تسخير الله لهم، وخلقه للجميع، وقدرته على الجميع، بهذا الاعتبار هم سواء[2].

ومن الآيات في هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٣.

(٢) العذب النمير، الشنقيطي ٤/ ٤٢٦.

[١٣-١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨].

وغيرها من الآيات، ومن خلال هذه الآيات ألحظ من الدلائل العقلية ما يأتي:

- أن من لم تكن دعوته ودعاؤه إلى الله تعالى فلا بد أن تكون شركًا لغير الله.
- كل ما يدعى من دون الله -مهما كانت منزلته- إنما هو عبد لله تعالى.
- الدعوة الحق هي الدعوة إلى الله والدعوة التي جاءت منه وأمرنا بها عن طريق رسله.
- من يدعى من دون الله تعالى لم يخلق نفسه أصلًا، فضلًا أن يكون مشاركًا لله في خلق السموات والأرض، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فضلًا عن أن يَهَبَهَا لغيره.

وبهذه الدلائل العقلية اتخذت الدعوة إلى الله أسلوبًا عقليًّا مقنعًا؛ لتبطل كل دعوة إلى غير الله، والأساليب العقلية التي وردت عن الأنبياء في دعوتهم سأشير إليها في نماذج الدعاة من الأنبياء.

ثانيًا: أساليب عاطفية:

ويظهر أن هذا الأسلوب قد يجمع بين أسلوبي الحكمة والموعظة، فأسلوب الحكمة لأصحاب العقول النيرة والفطر المستقيمة، وأسلوب الموعظة أسلوب يسهل فيه الوضوح البساطة وعدم التعقيد[١].

والآيات في ذلك كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

فالله تعالى يقول لهم بخطاب الرأفة والرحمة، اقبلوا من الله ما أمركم به فاعملوا به، وانتهوا عما نهاكم عنه، فإنه يدعوكم إلى الجنة، يعني: بذلك يدعوكم إلى العمل بما يدخلكم الجنة، ويوجب لكم النجاة إن عملتم به من النار، وإلى ما يمحو خطاياكم أو ذنوبكم، فيعفو عنها ويسترها عليكم[٢]، فيا بئس من ترك دعوة الله واتبع ما يغضبه ويأباه.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير، وتأمر

(١) انظر: منهج ابن القيم في الدعوة، أحمد الخلف ١/ ٣٠١-٣٠٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٤/ ٣٧١.

بالمعروف وتنهى عن المنكر، لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته، فهناك دعوة إلى الخير، ولكن هناك كذلك أمر بالمعروف، وهناك نهي عن المنكر، وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإن الأمر والنهي لا يقوم بهما إلا ذو سلطان، هذا هو تصور الإسلام للمسألة، إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى، سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله، سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر، وتحقيق هذا المنهج يقتضي دعوة إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج[1].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج: ٧٣].

أي: ومن هذه صفته كيف يعبد؟ ومن حق المعبود أن يكون خالقًا لعابده لا محالة وهم يخلقون، أي: بل هم مخلوقون مصنوعون[2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾ [الأحقاف: ٣١-٣٢].

والأساليب العاطفية التي وردت عن الأنبياء في دعوتهم سأشير إليها في نماذج الدعاة من الأنبياء، وهذا الأسلوب يجمع بين العاطفة والعقل.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٤٤.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٣٧.

ثالثًا: أساليب حسية:

من الأساليب التي سلكتها الآيات في بيان طريق الدعوة ووجوب الاعتصام بها الأساليب الحسية، فما من نبي يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى إلا أجرى الله له من المعجزات الحسية ما يؤكد صدق دعوته، والأساليب الحسية التي وردت عن الأنبياء في دعوتهم سأشير إليها في نماذج الدعاة من الأنبياء.

ومن الأساليب الحسية الواردة في آيات الدعوة ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣].

يقول تعالى منكرا على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم، وهما: التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد[(١)].

فهذان أمران حسيان كتاب الله الذي كان بأيديهم، ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن الذي جاء به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فالنهي عن مباشرة شيء يشاهده الذين يدعون من دون الله ويسمعونه.

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة، وهي أصل أصيل في سد الذرائع وقطع التطرق إلى الشبه[(٢)]، فإحساس المشركين بسبّ آلهتهم يجعلهم يسبون الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤١].

ففي هذه الآية الكريمة عاب الله على الكفار سخافة عقولهم، وأنهم إذا نزلت بهم شدة من العظائم الشداد -كمشاهدة العذاب أمام أعينهم وإحساسهم به، أو لو رأوا الساعة عيانًا وأحسوا بها- أخلصوا في ذلك الوقت الدعاء إلى الله، وتركوا دعاء غير الله؛ لعلمهم بأنه لا ينفع ولا يضر وهذا ذم من الله للكفار، ذمهم به في آيات كثيرة من كتابه[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٧٢.

(٣) العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٢٣٣.

﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧].

والسياق يعرض هذا المشهد، مشهد الفلك في البحر، نموذجًا للحظات الشدة والحرج؛ لأن الشعور بيد الله في الخضم أقوى وأشد حساسية، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة في الخضم، تتقاذفها الأمواج والتيارات والناس متشبثون بهذه النقطة على كف الرحمن، إنه مشهد يحس به من كابده، ويحس بالقلوب الخافقة الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة في الفلك صغيرًا كان أو كبيرًا[1]، فهو أسلوب حسي قويم في الدعوة إلى توحيد الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨].

وكل هالك فهلاكه محسوس بين الخلائق حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يبقى إلا الله وحده؛ لذا وجب أن لا يدعى إلا هو.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

أي: ائتوني بكتاب من قبل هذا الكتاب يعني القرآن فإنه ناطق بالتوحيد، أو أثارة من علم أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين عل فيها ما يدل على استحقاقهم للعبادة أو الأمر به[2]، فلا بد من إقامة الدليل الحسي من كتاب قديم أو علم يدل دلالةً واضحةً على جواز دعواهم لغير الله تعالى، ولما لم يكن لهم دليل على ذلك؛ ظهر بطلان ما يدعونه وقامت الحجة عليهم، مما يوجب عليهم الرجوع من الدعوى الباطلة، إلى لزوم دعوة الحق والاعتصام بها.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٠.

(٢) انظر: الكشاف الزمخشري ٤/ ٢٩٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١١١.

موقف المدعوين من الدعوة

تعتبر الدعوة أمرًا موجّهًا إلى جميع الثقلين استنادًا لأصل الإيجاد؛ ذلك أن الله تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقد كانت الرسل ترسل إلى أممها، فمنهم من يستجيب لهم، ومنهم من يعرض عنهم، ومنهم من يصدهم عن دعوتهم وتبليغ رسالتهم، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: المستجيبون للدعوة:

الضعفاء هم أكثر أتباع الرسل، وذلك كما قال تعالى -وهو يحدثنا عن ما جرى بين نوح وقومه أنهم قالوا له: -كما حكاه الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ۝﴾ [هود: ٢٥-٢٧].

فهذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح سواءً اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالبًا أن من يتبع الحق هم ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته[1].

وجاء في حديث ابن عباس أن هرقل لما سأل أبا سفيان قال له: «فأشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال أبو سفيان بل: ضعفاؤهم، فقال هرقل: كذلك هم أتباع الرسل»[2].

ومن الآيات الواردة في بيان المستجيبين للدعوة:

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وتأويل الآية: ربنا سمعنا داعيًا يدعو إلى الإيمان والتصديق بك، والإقرار بوحدانيتك، واتباع رسولك، وطاعته فيما أمرنا به ونهانا عنه مما جاء به من عندك ﴿فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا﴾، يقول: فصدقنا بذلك يا ربنا؛ فاستر علينا خطايانا، ولا تفضحنا بها في القيامة على رءوس الأشهاد، بعقوبتك إيانا عليها، ولكن كفّرها عنا، وسيئات أعمالنا،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ١/ ٨، رقم ٧.

وامحها بفضلك ورحمتك إيانا ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[1]، فهي قلوب مفتوحة ما إن تتلقى حتى تستجيب، وحتى تستيقظ فيها الحساسية الشديدة، فتبحث أول ما تبحث عن تقصيرها وذنوبها ومعصيتها، فتتجه إلى ربها تطلب مغفرة الذنوب وتكفير السيئات، والوفاة مع الأبرار[2].

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٦].

أي: لا يجيبك إلى ما تطلب وتدعو من الهدى، إلا الذين يسمعون، أي: جعل الله لهم سماع حق وتفهّم يسمعون به عن الله، أما الذين أعمى الله أبصارهم، وختم على آذانهم فلا يجيبونك أبدًا، فلا تحزن عليهم[3]، فالذين يستجيبون لدعوة الأنبياء هم الذين استخدموا عقولهم وسمعهم وأبصارهم الاستخدام الحقيقي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١].

قيل: إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام، أي: ألهموا ذلك، فامتثلوا ما ألهموا، ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٨٢.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٤٧.
(٣) العذب النمير، الشنقيطي ١/ ١٩٤.

واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك[4].

فهي دعوة للاستجابة لرسولهم، وفيه دلالة على أن هناك استجابة في الأمم قبلهم وبعدهم.

ثانيًا: المعرضون عن الدعوة:

والأصل في المعرض أنه لم يقبل الدعوة أصلًا، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

فالذي يترك الدعوة الحق فهو معرض عنها لا محالة.

ومن لم يجب داعي الله تعالى، وأجاب داعي غيره إما آلهة ما أنزل بها من سلطان، أو الشيطان الرجيم وغيره، فذلك كما أخبرنا الله تعالى عن حاله بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

أي: دعوتكم إلى طاعتي ومعصية الله،

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٠١.

فاستجبتم لدعائي[1]، يعني: ما كان مني إلا مجرد هذه الدعوة[2]، فعادة المعرض أن يعرض عن أمر لاستحسان غيره في نفسه، أو للحصول على شيء معين مع علمه بصفاء ما أعرض عنه، أو غير ذلك من الأمور الصارفة عن الحق إلى الباطل.

ومن كان في طاعة الهوى في دينه، يتبعه في كل ما يأتي ويذر، لا يتبصر دليلًا، ولا يصغى إلى برهان؛ فهو عابد هواه، وجاعله إلهه[3].

ثالثًا: الصادون عن الدعوة:

وأكثر الصادين عن الدعوة هم الكبراء والمنافقون، ففي حال الكبراء يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٥].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ويقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [هود: ١٩].

ويقول تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [الزخرف: ٥٧].

وقد كان أكابر القوم -الذين كانوا يخافون انتشار الدعوة بين الناس- يحرصون كل الحرص على إيجاد الهوّة بين الأنبياء وسائر الناس، وهذا الأسلوب من أخطر الأساليب في الصد عن دين الله، التي مارسها أعداء الدعوة منذ القدم[4].

ومن الآيات الواردة في شأن الدعوة والتي تبين حال هؤلاء قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وهذه نتيجة صدهم التي يصبون إليها، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١].

وهذا المقام الذي تبوؤه فصدوا عن دعوة الله، وقادوا غيرهم لدعوى باطلة، ومن أوضح ما يميزهم ويوضح حالهم بكل جلاء قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢].

وما الذي أوصلهم إلى هذا الأمر إلا اتباع أهوائهم ودعوة غير الله تعالى والإعراض عن دعوته؛ لذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالتباين التام معهم فقال له: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٦١.
(٢) مفاتح الغيب، الرازي ١٩/ ٨٦.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٨٢.
(٤) معالم الدعوة، الديلمي ٢/ ٧٢٦.

﴿لَآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [الأنعام: ٥٦].

بل ربما وصل الأمر بالصد عن الدعوة ولو في جزء منها، كما قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾ [محمد: ٣٨].

فعادة البخيل إن تمكن منه البخل؛ دعا غيره إلى أن يكون بخيلًا مثله، وربما شجّعه على ذلك وذكر له ما يخيل إليه أن البخل خير من الإنفاق، كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٣٧﴾

[النساء: ٣٦-٣٧].

فدعوة الله تعالى لهم للإنفاق قد أعرضوا عنها وأمروا غيرهم وصدوهم عن دعوة الله تعالى.

ومن شأن الكفار أن يبذلوا كل سبيل للصد عن سبيل الله تعالى، سواءً كان صدًّا عن اتباع حملة الحق ودعاته، أو صد الدعاة عن استمرارهم في الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ دينه إلى الناس[1].

(١) المصدر السابق ٢/ ٧٧١.

نماذج من الدعاة

أولًا: الأنبياء والرسل:

تعتبر قصص القرآن الكريم من القضايا التي تكررت كثيرًا خاصةً فيما جرى بين الأنبياء وبين أقوامهم.

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع: فالنوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام[1].

وحتى لا يطول الحديث عن هذه النماذج فسأذكر ذلك في أمرين:

١ . دعوة الرسل عمومًا.

دعوة الرسل أجمع هي: الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وحده دون سواه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥].

وأمر الله تعالى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩].

وكانت القاعدة العامة في كل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

---

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص٣١٧.

فعلم من هذا أن دعوة الرسل جميعًا هي: الدعوة إلى توحيد الله تعالى وحده لا شريك له، وكان هذا جواب من النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة حين قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، فقال: (دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له بصرى)[(١)].

ودعوة الرسل في القرآن الكريم لم تذكر فيها من التفصيلات سوى اليسير، وجلّ ما ذكر عنهم هو الاهتمام بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، والكفر بكل الطواغيت التي تعبد من دون الله[(٢)].

وهذا هو الأصل؛ لأن الداعي لا ينتقل إلى الفروع إلا بعد التأكيد على معاني العقيدة، كما فعل الأنبياء في دعوتهم[(٣)].

٢. نماذج من دعوة الرسل.

وسأذكر من الرسل: نوحًا وإبراهيم وموسى ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام وذلك فيما يأتي:

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٧٩، رقم ١٧١٥٠، عن عرباض بن سارية.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٣٠٥، رقم ٢٠٩١.
(٢) معالم الدعوة، الديلمي ١/ ٦٣.
(٣) انظر: أساليب الدعوة، عبدالكريم زيدان ص٤٢٣.

● دعوة نوح عليه السلام.

وأهم الآيات التي تتحدث عن دعوته عليه الصلاة والسلام ما يأتي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: ١٤].

مع طول مدة الدعوة إلا أنهم لم ينجع فيهم البلاغ والإنذار[(٤)]، بسبب كفر قومه.

قال الزمخشري: «فإن قلت: هلا قيل تسعمائة وخمسين سنة؟

قلت: ما أورده الله أحكم، لأنه لو قيل كما قلت، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك، وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد، إلا أنّ ذلك أخصر وأعذب لفظًا وأملأ بالفائدة، وفيه نكتة أخرى: وهي أنّ القصة مسوقة لذكر ما ابتلي به نوح عليه السلام من أمّته وما كابده من طول المصابرة، تسليةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيتًا له، فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه، أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدّة صبره»[(٥)].

وكان الوقت الذي قضاه نوح عليه السلام وقتًا طويلًا، ومع ذلك كان فيه كامل النشاط

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٤٢.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٤٥.

جادًّا في العمل؛ لأن من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، وهذا مما يوجب على الدعاة بعده الاقتداء به في ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

بمعنى إن كان الأمر قد بلغ منكم مبلغ الضيق، فلم تعودوا تتحملون بقائي فيكم، ودعوتي لكم، وتذكيري لكم بآيات الله، فأنتم وما تريدون، وأنا ماض في طريقي لا أعتمد إلا على الله، فماذا كان وراء نوح من القوة والعدة؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعًا؟ كان معه الإيمان، القوة التي تتصاغر أمامها القوى، وتتضاءل أمامها الكثرة، ويعجز أمامها التدبير[1].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٠-٤٣].

حرص نوح عليه السلام على دعوة قومه عامة، وأهل بيته خاصة.

وتصف الآيات السابقة ما دار بين نوح عليه السلام وابنه، فقد كان ذلك النداء من نوح لابنه خوفًا عليه من الغرق[2]، وشفقة الأبوة حملته على ذلك النداء[3]؛ لكن الابن كان كافرًا، عَمِل عملًا غير صالح، فخالف أباه في دينه ومذهبه، فهلك مع من هلك، وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب، لما كانوا موافقين في الدين والمذهب[4].

وكانت عاطفة الأبوة ظاهرةً في محاولة إنقاذ نوح لابنه من الغرق في شدة تلاطم الأمواج، وكان أسلوب العاطفة ظاهرًا في مناداة نوح لربه حتى بعد انقضاء الأمر، وتوقف الماء، إضافةً إلى ذلك أنه قد استخدم مع قومه الأسلوب الحسي، فقبل الغرق حثهم على التفكر في مطر السماء والحصول على المال والبنين، والسموات

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٨١١.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٢١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٣٥١.
(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٠٣.

الطباق، ونور القمر وسراج الشمس وغيره، وفي حادثة الغرق أراهم صناعة السفينة وأمرهم بالركوب فيها وحذرهم من الغرق.

وقال تعالى في سورة نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝﴾ [نوح: ٥-٩].

بينت هذه الآيات شيئًا من معالم دعوة نوح عليه السلام، فهو يدعو قومه دائمًا بلا فتور ولا توان[(١)]، ويدعوهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة، فلم ينجع ذلك فيهم[(٢)].

ونبيّ الله نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بذل كل ما يمكنه في سبيل الدعوة إلى الله[(٣)]، وهذه السورة كلها تقص قصة نوح عليه السلام مع قومه، وتصف تجربةً من تجارب الدعوة في الأرض، وتمثل دورةً من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية، وشوطًا من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر، والهدى والضلال، والحق والباطل ثم هي بعد هذا وذلك، تعرض صورةً من صور الجهد المضني، والعناء المرهق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم من جانب الرسل صلوات الله عليهم لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة، وهي حصيلة مريرة.

ولكن الرسالة هي الرسالة، وهذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي انتهت إليه أمانة دعوة الله في الأرض كلها في آخر الزمان، واضطلع بأكبر عبء كلّفه رسول، يرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل، لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض، ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق، وفساد القيادة الضالة، وغلبتها على القيادة الراشدة.

ثم إرادة الله في إرسال الرسل تترى بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدي جدّها نوح عليه السلام، وتعرض على الجماعة المسلمة في مكة، وعلى الأمة المسلمة بعامة، وهي الوارثة لدعوة الله في الأرض، وللمنهج الإلهي المنبثق من هذه الدعوة، القائمة عليه في وسط الجاهلية المشتركة يومذاك، وفي وسط كل جاهلية تالية، ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبي البشرية الثاني، كما ترى فيها عناية الله بالقلة المؤمنة، وإنجاءها من الهلاك الشامل

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٣٢٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٥٦.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٠٦.

في ذلك الحين[1].

فهل يتعظ بذلك الدعاة الذين سرعان ما يستولي اليأس على نفوسهم، ويسيئون الظن بأقوامهم، فيتسرعون في إصدار الأحكام الظالمة عليهم، وينهزمون أمام أية صدمة يتعرضون لها[2]، وبالفعل فإن دعوة نوح دائمًا ما تكون منطلقًا للدعاة إلى الله في الأخذ بمتطلبات الدعوة؛ خاصة في عدم الاستعجال.

* دعوة إبراهيم عليه السلام.

وأهم الآيات التي تتحدث عن دعوته عليه الصلاة والسلام ما يأتي:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

فدعوته عليه السلام أساسها التوحيد، وبنيانها الإخلاص لله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

فهذا إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم، وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك تعريض بمعاندي أهل الكتاب والمشركين، أي لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء إلا من سفه نفسه، أي: حملها على السفه وهو الجهل[3].

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خالف إبراهيم فيما سن لمن بعده، فهو لله مخالف، وإعلام منه لخلقه أن من خالف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهو لإبراهيم مخالف، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر أنه اصطفاه لخلته، وجعله للناس إمامًا، وأخبر أن دينه كان الحنيفية المسلمة، ففي ذلك أوضح البيان من الله تعالى ذكره عن أن من خالفه فهو لله عدو لمخالفته الإمام الذي نصبه الله لعباده[4]، ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين[5]، فأصل الدعوة وأساسها دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ملة التوحيد والتي أكّدها وختمها محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد بين القرآن الكريم أن من الأساليب الدعوية التي استعملها إبراهيم عليه السلام: أسلوب الجدل والمناظرة.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٧٠٧.
(٢) منهج الأنبياء في الدعوة، محمد سرور ص٥٦.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٠٠.
(٤) جامع البيان، الطبري ٣/ ٩١.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢٥.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

أي: إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته، وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما ادعيت تحيي وتميت، فأت بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام؛ بهت: أي: أخرس، فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة[١]، وكانت هذه المناظرة دعوة من إبراهيم عليه السلام إلى توحيد الله تعالى والكفر بكل ما يدعى من دون الله، وبيان بطلانه والمجادلة في ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٧٤-٨١][٢].

يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مثنيًا عليه ومعظمًا حاله لدعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك[٣].

وقد شرح فرق المشركين - الذين تجب دعوتهم- في هذه السورة على أحسن الوجوه؛ وذلك لأن طائفة من المشركين يجعلون الأصنام شركاء لله تعالى، وإليهم الإشارة بقوله حكاية عن إبراهيم[٤].

ولقد كانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله إبراهيم ليدحض بها حجتهم التي جاءوا بها يجادلونه، ولقد كشف لهم عن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٢٥.

(٢) ووردت مثل هذه الآيات في سورة الصافات برقم ٨٣- ١١١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٦٢.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٧٨.

وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسيء إليه، وواضح أنهم ما كانوا يجحدون وجود الله، ولا أنه هو صاحب القوة والسلطان في الكون، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة، فلما واجههم إبراهيم، بأن من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة، لما واجههم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها، سقطت حجتهم، وعلت حجته، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدةً وحجةً ومنزلةً[1]، كان أسلوبه قويًّا واضحًا استطاع من خلاله أن يوقعهم في معرفة بطلان دعوتهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠].

تبين هذه الآيات أن من الأساليب الدعوية التي استعملها إبراهيم عليه السلام: المواجهة المباشرة، والتغيير باليد.

وهذا أسلوب دعوي عملي وهو: إزالة المنكر فعلًا[2].

فيخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل، أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه[3]، فجمع لهم بين الدليل العقلي، والدليل السمعي، أما الدليل العقلي فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم أن الله وحده، الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٤٢.

(٢) انظر: أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان ص٤٨٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٠٥.

والأرض، المدبر لهن، بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطورًا مدبرًا متصرفًا فيه، ودخل في ذلك، جميع ما عبد من دون الله، أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقًا متصرفًا فيه، لا يملك نفعًا، ولا ضرًّا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟ وأما الدليل السمعي فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم: شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلهذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصًا أولي العزم منهم خصوصًا خليل الرحمن[1].

وحقًّا لقد كانت الأولى رجعةً إلى النفوس، وكانت الثانية نكسةً على الرؤوس كما يقول التعبير القرآني المصور العجيب، كانت الأولى حركةً في النفس للنظر والتدبر، أما الثانية فكانت انقلابًا على الرأس فلا عقل ولا تفكير، وإلا فإن قولهم هذا الأخير هو الحجة عليهم. وأية حجة لإبراهيم أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون؟! ومن ثم يجبهم بعنف وضيق على غير عادته وهو الصبور الحليم؛ لأن السخف هنا يجاوز صبر الحليم[2]، فها هو خليل الرحمن برشده وحسن دعوته يستخدم أسلوبًا عمليًا مؤيدًا بالعقل والسمع في بيان سلامة دعوته، وإبطال دعوة قومه.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

[مريم: ٤١-٥٠].

فقال لأبيه متلطفًا في دعوته إلى التوحيد ونهيه عن عبادة الأصنام: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا؟[3].

بهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٨٧.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٩٩.

إلى أبيه، يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه وهو يتحبب إليه فيخاطبه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ هذه هي اللمسة الأولى التي يبدأ بها إبراهيم دعوته لأبيه، ثم يتبعها بأنه لا يقول هذا من نفسه، إنما هو العلم الذي جاءه من الله فهداه، ولو أنه أصغر من أبيه سنًّا وأقل تجربةً، ولكن المدد العلوي جعله يفقه ويعرف الحق فهو ينصح أباه الذي لم يتلق هذا العلم، ليتبعه في الطريق الذي هدي إليه[1].

ولهذا كثيرًا ما يبدئ ويعيد في قصص الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم، ورفع قدرهم، وأعلى أمرهم، بسبب ما قاموا به، من عبادة الله ومحبته، والإنابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية، فذكر الله في هذه السورة جملةً من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكرهم، لأن في ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والاقتداء بهم[2].

لذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكر في الكتاب الذي هو القرآن العظيم المنزل إليه من الله (إبراهيم) عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ويتلو على الناس في القرآن نبأه مع قومه، ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، وكرر هذا المعنى المذكور في هذه الآيات في آيات أخر من كتابه جل وعلا[3]، فاستخدم عليه السلام الأسلوب العاطفي الرائع الذي يدل على عظيم حلم وكثير كرم، لكن أباه الكافر رفض دعوته.

❁ دعوة موسى عليه الصلاة والسلام.

وأهم الآيات التي تتحدث عن دعوته عليه الصلاة والسلام ما يأتي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥].

أي: أمرناه قائلين له أخرج قومك من الظلمات إلى النور، أي: ادعهم إلى الخير؛ ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان[4].

وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣١١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٤.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤٢٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٠.

﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٩-٢٤].

يقول تعالى ذكره: إنني أنا المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، لا إله إلا أنا فلا تعبد غيري، فإنه لا معبود تجوز أو تصلح له العبادة سواي[(١)].

ولما أوحى الله إلى موسى، ونبّاه، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون، ملك مصر، فقال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: تمرّد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية -قبحه الله- أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله، أنه لا يعذب أحدًا، إلا بعد قيام الحجة بالرسل، فحينئذ علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملًا عظيمًا، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب، التي هي من تمام الدعوة، فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ أي: وسّعه وأفسحه؛ لأتحمل الأذى القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم[(٢)].

والذهاب المأمور به ذهاب خاص، قد فهمه موسى من مقدمات الإخبار باختياره، وإظهار المعجزات له، أو صرّح له به وطوي ذكره هنا على طريقة الإيجاز، على أنّ التّعليل الواقع بعده ينبيء به[(٣)]؛ ولما آنسه بالعصا واليد، وأراه ما يدل على أنه رسول، أمره بالذهاب إلى فرعون، وأن يدعوه[(٤)].

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة: أن الدعوة إلى الله يجب أن تكون بالرّفق واللّين، لا بالقسوة والشدة والعنف[(٥)].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٨٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٠٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢١٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٩٢.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٥.

﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٤-١٢٠].

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامه إياه بالحجة وإظهاره الآيات البيّنات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، مظهرًا بأنه لا يقول على الله إلا الحق، أي: جدير بذلك وحري به، فحق عليّ أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عز جلاله وعظيم شأنه ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها دليلًا على صدقي فيما جئتكم به ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم فإنهم من سلالة نبي كريم[1].

وفي سورة الشعراء: جرت في دعوة موسى المجادلة والتحاور، واستخدم موسى الأدلة العقلية كأسلوب في دعوته لفرعون وقومه: فقال فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[الشعراء: ٢٧].

يقول: إن رسولكم هذا الذي يزعم أنه أرسل إليكم لمغلوب على عقله، لأنه يقول قولًا لا نعرفه ولا نفهمه، وإنما قال ذلك؛ لأنه كان عنده وعند قومه أنه لا رب غيره يعبد، وأن الذي يدعوه إليه موسى باطل ليست له حقيقة، فقال موسى عند ذلك محتجًا عليهم، ومعرفهم ربهم بصفته وأدلته، إذ كان عند قوم فرعون أن الذي يعرفونه ربًا لهم في ذلك الوقت هو فرعون فلما أخبرهم عليه السلام بالأمر الذي علموا أنه الحق الواضح، إذ كان فرعون ومن قبله من ملوك مصر لم يجاوز ملكهم عريش مصر، وتبين لفرعون ومن حوله من قومه أن الذي يدعوهم موسى إلى عبادته، هو الملك الذي يملك الملوك، قال فرعون حينئذ استكبارًا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٨.

عن الحق، وتماديًا في الغي لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي﴾ [الشعراء: ٢٩].

يقول: لئن أقررت بمعبود سواي ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩][1].

يريد أن يتهكّم على مسألة الرسالة في ذاتها؛ فيبعد القلوب عن تصديقها بهذا التهكم، لا أنه يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها، ويتهم موسى عليه السلام بالجنون؛ ليذهب أثر مقالته التي تطعن وضع فرعون السياسي والديني في الصميم. وترد الناس إلى الله ربهم ورب آبائهم الأولين، ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يفت في عضد موسى، فيمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤].

وفي قوله هاهنا: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ تنبيهٌ على عظم جرمهم، أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره[3]، فدعاهم إلى التوبة من ذلك.

وقال تعالى عن قصة عبادتهم للعجل:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٥٥].

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٤٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٢، وذكر كلامًا مهمًا عند تفسير هذه المحاورة بين موسى وفرعون.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٦٤.

فيخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل، في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلًا، جسدًا لا روح فيه، وقد احتال بإدخال الريح فيه، حتى صار يسمع له خوار -كصوت البقر- وإنما أضاف الصوت إليه؛ لأنه كان محله عند دخول الريح جوفه، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول إخبارًا عن نفسه الكريمة ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾[1].

وذكر جل وعلا: أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه بعد مجيئه للميقات في حال كونه في ذلك الرجوع غضبان أسفًا على قومه من أجل عبادتهم العجل[2].

ومع شدة غضبه إلا أنه دعاهم وأكّد ما دعاهم إليه من قبل فقال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى﴾ للتذكير بالبون الشاسع بين حال الخلف وحال المخلوف عنه، وتصوير لفظاعة ما خلفوه به، أي: بعدما سمعتم مني التحذير من الإشراك وزجركم عن تقليد المشركين[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: ٢٠-٢١].

أمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبشرهم بالنصرة، والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتمادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد، مدة أربعين سنةً عقوبةً لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى[4]، فهم لما رفضوا دعوة موسى عليه السلام وتركوا أمر ربهم عاقبهم سبحانه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٨٤.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٧٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١١٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٧.

(٧١) [البقرة: ٦٧-٧١].

أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى، حين قتلتم قتيلًا وادّارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلفتم في قاتله، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد -لولا تبيين الله لكم- لحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبيين القاتل: اذبحوا بقرة، وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره، وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فقال نبي الله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاءه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباد الله، فلما قال لهم موسى ذلك؛ علموا أن ذلك صدق فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾[1]، وهذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم الله به ولو تركوا التعنت والأسئلة المتكلفة لأجزأهم ذبح بقرة من عرض البقر، ولكنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم[2]، فكانت هذه دعوة منه عليه السلام لتنتهي قصة القتيل، فلم يستجيبوا لهذه الدعوة، واتخذوا مسلك العناد والتعنت فكانت النتيجة أن شدّد عليهم في شأن هذه البقرة، لما لم يستجيبوا لدعوة نبيهم من أول مرة.

❁ دعوة محمد صلى الله عليه وسلم.

وتعتبر دعوته صلى الله عليه وسلم خاتمة الدعوات وأفضلها وأكملها وأشرفها، فكان شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ولقد حظيت دعوته بأنواع الأذى ولاقت صنوف العذاب، حتى مكّن الله تعالى لها في الأرض، ويعتبر النظر في القرآن الكريم كله نظرٌ إلى الدعوة التي جاء بها، وسار عليها، وجاهد من أجلها، والنظر في سنته يبيّن مجمل دعوته، ويخصص عامّها، ويقيد مطلقها، ويوضحها غاية الوضوح.

وكذلك النظر في سيرته التي توضح المنهج الدعوي الذي سار عليه ويجب على الأمة أن تمضي عليه[3].

فظهر من دعوة هؤلاء الأنبياء أنهم دعوا أقوامهم إلى التوحيد، وبذلوا كل ما يستطيعون في سبيل هذه الدعوة، فكانت طريقًا ناح من أجله نوح، وألقي في النار إبراهيم، وعالج موسى بني إسرائيل أشد المعالجة، وعالج أنواع الأذى محمد، ولقد

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ١١٤.
(٣) انظر: منهج النبي في الدعوة، محمد أمحزون ص٣٥٦.

كانوا صابرين في سبيل دعوة ربهم، مضحّين بكل شيء من أجلها، سالكين كل سبيل ينقذ قومهم من عذاب الله تعالى.

ثانيًا: المصلحون و أتباع الرسل:

لما دعا الأنبياء إلى الله تعالى آمن بهم بعض الناس، ومن هؤلاء المؤمنين من سار على درب رسله، وعلم أنه لا بد أن يدعو إلى المنهج الذي جاءت به الرسل.

ومن تلك النماذج:

ما ذكره الله عز وجل من قصة صاحب الجنتين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف: ٣٧-٤٢].

فقال له صاحبه أي: الذي عيره بالفقر، تعييرًا له على كفره، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يراجعه كلام التعيير على الكفر، محاورته كلام التعيير على الفقر، في ضمن النكير عليه، ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: يجعل التراب نباتًا، ثم جعله غذاءً يتولد منه النطفة، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: عدلك وكملك إنسانًا ذكرًا بالغًا مبلغ الرجال؟[1].

فذكره صاحبه المؤمن حاله الأولى التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلًا كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة، والمعقولة، وبذلك يسر لك الأسباب، وهيأ لك ما هيأ من نعم الدنيا، فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك.

فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلًا، وتجحد نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك؟

ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولده، هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرض للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال: أنت -وإن فخرت علي بكثرة مالك وولدك، ورأيتني أقل منك مالًا وولدًا- فإن ما عند الله خير وأبقى، وما يرجى من خيره وإحسانه، أفضل من جميع الدنيا، التي

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٤.

يتنافس فيها المتنافسون[(١)].

وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنفر، ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب، هكذا يستشعر الداعية المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله، وأن نقمة الله جبارة، وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين[(٢)].

فدعاه إلى الله والاعتراف بنعمته عليه؛ ولم يمنعه فقره ولا قلته عن دعوة متكبر على عباد الله أن يرجع إلى الله ويستسلم لأمره، ويعرف حقه في ما أكرمه به.

ومن نماذج الدعاة الناصحين الذين ذكرهم القرآن: صاحب ياسين.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٠-٢٧].

جاء من أقصى مدينة القوم الذين أرسلت إليهم الرسل رجل يسعى إليهم؛ وذلك أن أهل المدينة عزموا، واجتمعت آراؤهم على قتل الرسل الثلاثة فيما ذكر، فبلغ ذلك هذا الرجل، وكان منزله أقصى المدينة، وكان مؤمنًا، فكان هذا حرصًا على نصح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما ردّ به قومه عليهم فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فأمرهم باتباعهم ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة، ثم ذكر تأييدًا لما شهد به ودعا إليه[(٣)].

فجاء من أقصى المدينة يسعى؛ ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين، وإن الذي يدعو مثل هذه الدعوة وهو لا يطلب أجرًا ولا يبتغي مغنمًا؛ إنه لصادق، وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفًا من الله؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم، وهو لا يجني من ذلك كسبًا، ولا يطلب منهم أجرًا؟!

وهداهم واضح في طبيعة دعوتهم، فهم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٣.

يدعون إلى إله واحد، ويدعون إلى نهج واضح، ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض، فهم مهتدون إلى نهج سليم، وإلى طريق مستقيم، وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة، وأشهدهم عليها، وهو يوحي إليهم أن يقولوها كما قالها، أو أنه لا يبالي بهم ماذا يقولون.

ويوحي سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه، وإن كان لا يذكر شيئًا من هذا صراحة، إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها، وعلى القوم وما هم فيه ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة الحق، متبعًا صوت الفطرة، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل، نراه في العالم الآخر، ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد[1].

فهذا مؤمن واحد آمن وصدق برسالة رسله، ثم دعا إلى اتبّاعهم وتحمّل البلاء في ذلك، ومات من أجل دعوته الصحيحة التي ترشد إلى عبودية الله تعالى وحده دون سواه.

ومن النماذج القرآنية للدعاة المصلحين: مؤمن آل فرعون.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ [غافر: ٣٨-٤٦].

فإنه كان مؤمنًا كما وصفه الله، ولا يشك المؤمن وذكّرهم ما هم فيه من الملك؛ ليشكروا الله ولا يتمادوا في كفرهم، ثم كرر ذلك الرجل المؤمن تذكيرهم، وحذّرهم أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم، وكرر ذلك الرجل المؤمن دعاءهم إلى الله وصرح بإيمانه، ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم، وأنه إنما تصدى للتذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى، كما يقوله الرجل المحب لقومه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٦٤.

من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه.

ثم فسر الدعوتين فقال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ وليس له دعوة توجب له الألوهية في الدنيا ولا في الآخرة، ومرجعنا ومصيرنا إلى الله بالموت أولًا، وبالبعث آخرًا، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر، ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، أي: المستكثرين من معاصي الله، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ إذا نزل بكم العذاب وتعلمون أني قد بالغت في نصحكم وتذكيركم[1].

وشتان بين دعوة ودعوة، إن دعوته لهم واضحة مستقيمة، إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار، يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته، وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره، يدعوهم إليه؛ ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفر، الذي تفضل بالغفران: ﴿الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾، فإلى أي شيء يدعونه؟

يدعونه للكفر بالله، عن طريق إشراك ما لا علم له به من مدعيات وأوهام وألغاز.

ويقرر من غير شك ولا ريبة أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شيء، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة، وأن المرد لله وحده، وأن المسرفين المتجاوزين للحد في الادعاء سيكونون أهل النار[2].

فهذا الرجل من قوم فرعون آمن بموسى عليه السلام، ولما علم أن الخير في دعوة موسى دلّ قومه عليها، وحذرهم من مخالفتها، وبين لهم بطلان دعوتهم أمام دعوة الله فكان من أفضل الداعين.

ومن النماذج أيضًا: دعاة الجن.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢)﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى الخلق إنسهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة، فالإنس يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن فصرفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليه ﴿نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ أي: وصى بعضهم بعضًا بذلك،

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٦٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٨٣.



﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وقد وعوه وأثر ذلك فيهم ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ نصحًا منهم لهم، وإقامةً لحجة الله عليهم، وقيضهم الله معونةً لرسوله صلى الله عليه وسلم في نشر دعوته في الجن(١).

فيقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هؤلاء النفر من الجنّ قالوا لقومهم: أجيبوا رسول الله محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله، وصدّقوه فيما جاءكم به وقومه من أمر الله ونهيه، وغير ذلك مما دعاكم إلى التصديق به؛ يغفر لكم ذنوبكم فيسترها لكم، ولا يفضحكم بها في الآخرة بعقوبته إياكم عليها، وينقذكم من عذاب موجع إذا أنتم تبتم من ذنوبكم، وأنبتم من كفركم إلى الإيمان بالله وبداعيه، ومن لا يجب أيها القوم رسول الله محمدًا صلى الله عليه وسلم، فليس بمعجز ربه بهربه، إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه، وليس لمن لم يجب داعي الله من دون ربه نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه ربه على كفره به وتكذيبه داعيه(٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ١-٣].

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن: ١٥-١٧].

وهذه السورة سميت بهذا الاسم لاشتمالها على تفاصيل أقوالهم في تحسين الإيمان، وتقبيح الكفر، وكانت أقوالهم أشد تأثيرًا في قلوب العامة، لتعظيمهم إياهم(٣).

فعلموا الصواب وتنبهوا لجميع أخطائهم خاصةً أنهم تنبهوا على الخطأ فيما اعتقده كفرة الجنّ من تشبيه الله بخلقه واتخاذه صاحبةً وولدًا، فاستعظموه ونزهوه عنه(٤).

والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يثير العطف على شخص الرسول في قلب المستمع لهذه السورة، عطفًا مصحوبًا بالحب، وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شيء في أمر هذه الدعوة إلا البلاغ، والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ(٥).

وجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى المتضمنة لترك الشر، وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٤١.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٣٢٨.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٢٣.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٧٢٠.

والفوائد واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمربى والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة(١).

وتهدف السورة إلى إثبات كرامة النبي صلى الله عليه وسلم بأن دعوته بلغت إلى جنس الجن، وإفهامهم فهم معان من القرآن الذي استمعوه، وفهم ما يدعو إليه من التوحيد والهدى، وعلمهم بعظمة الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد(٢).

وفي هذه السورة إظهار لحقيقة الدعوة، فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه إنما يدعو إلى ربّه ويقوم بما يجب له عليه، وهو لا يملك شيئًا من كفرهم أو إيمانهم وبأنه لن يجيره منهم أحد، إلّا أن يبلّغهم ما أرسله به إليهم، ثم ذكر أن من يعصيه الله سبحانه ويعصي رسوله صلى الله عليه وسلم، يخلّده في نار جهنم، فإذا رأوا ما يوعدون منها، يعلمون أنهم أضعف ناصرًا، وأقل عددًا.

ثم أمره أن يخبرهم، بأنه لا يدري متى يكون ما يوعدون به من ذلك، لأنه من علم الغيب الذي اختص به الله سبحانه(٣).

فكان الغرض من هذا هو بيان الأمر الذي جعل الجنّ يقبلون الدعوة ويعلمون صدقها، وبطلان ما كانوا عليه؛ وأن يكونوا نصحة لأقوامهم، داعين لهم إلى صراط الله المستقيم.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٩٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢١٧.
(٣) الموسوعة القرآنية، جعفر شرف الدين ١٠/ ١٦٩.

ثمرات الدعوة

تعتبر الدعوة عملًا مهمًّا من الأعمال التي أكدت عليها الشريعة، ولا بد لكل عمل من جهد يبذل فيه، ولكل جهد ثمرات، وللدعوة ثمرات يانعة، تظهر معنا من خلال الآيات ومن أهمها ما يأتي:

١. الإيمان بالله تعالى والوصول إلى مرضاته وعفوه ومغفرته.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد: ٨-٩].

٢. استجابة الله تعالى للمخلصين في دعوته ومحبته لهم.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

٣. حصول الخيرية للأمة ونجاتها من الهلاك.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

٤. التمييز بين الحق والباطل.

وذلك كما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا

كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

٥. علو مكانة الدعاة وبيان عظيم فضلهم وسلامة دعوتهم.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

٦. القيام بالدعوة إلى الله من أسباب الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

وللدعوة ثمار كثيرة، تناولها العلماء في كتبهم، وذكروها في توجيهاتهم، وأرشدوا إليها في محاضراتهم وخطبهم، يمكن لمن أرادها أن يرجع إليها في مظانها.

موضوعات ذات صلة.

التوحيد، الجدال، الحكمة، الحوار، النصيحة